الآن في الأسواق

بُلوغ الأماني ونيل التّهاني

بشرح معتمد الكاساني

المعتمد في المعتقد

للشيخ الفقيه العلامة الحنفي علاء الدين

أبي بكر بن مسعود الكاساني

رحمه الله (ت ٥٨٧هـ)

شرح الشيخ الشريف

جَميل بن مُحَمَّد عَلي حَليم

رئيس جمعية المشايخ الصوفية

دكتور محاضر في العَقائِد والفِرَق والسِّيَر

غَفَرَ اللهُ لَهُ وَلِوَالِدَيهِ وَلِمَشَايِخِهِ

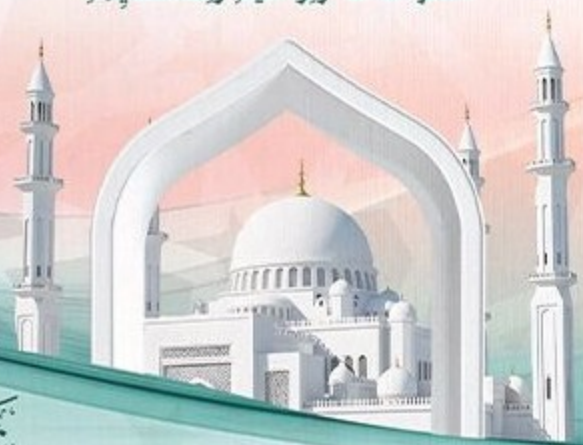

شركة دار المشاريع

+961 1 304311 - 304524
dar.nashr@gmail.com
DMCPublisher
www.dmcpublisher.com

بُلوغ الأماني ونيل التّهاني

بشرح معتمد الكاساني

المعتمد في المعتقد

للشيخ الفقيه العلامة الحنفي علاء الدين

أبي بكر بن مسعود الكاساني

رحمه الله (ت ٥٨٧هـ)

بشرح وتحقيق وتعليق

الشيخ الدكتور

جَميل بن مُحَمَّد عَلي حَليم

رئيس جمعية المشايخ الصوفية

دكتور محَاضر في العَقائِد والفِرَق والسِّيَر

غَفَرَ اللهُ لَهُ وَلِوَالدَيهِ وَلِمَشَايِخِهِ

شركة دار المشاريع

الطبعة الأولى
١٤٤٨ هـ - ٢٠٢٦ ر

شركة دار المشاريع

بيروت لبنان

العنوان: المزرعة، بربور، شارع ابن خلدون، بناية الإخلاص
تلفون وفاكس: ٠٠(٩٦١ ١) ٣٠٤ ٣١١
صندوق بريد: ١٤ ٥٢٨٣ بيروت لبنان

شركة دار المشاريع للطباعة والنشر والتوزيع ش.م.م

www.sheikhjameel.com
info@sheikhjameel.com
sheikhjameelhalim@gmail.com
+961 3 006 078 +961 3 673 946

التوطئة
الميزان في بيان عقيدة أهل الإيمان

الحمدُ للَّه ربِّ العالمين، وصلى اللَّه وسلَّم وشرَّف وكرَّم على سيِّدنا محمَّد، الحبيبِ المحبوبِ، العظيمِ الجاهِ، العالي القَدرِ طه الأمينِ، وإمامِ المرسلينَ وقائدِ الغُرِّ المحَجَّلِينَ، وعلى ذُرِّيَّته وأهلِ بَيتِه المَيامِين المكرَّمين، وعلى زوجاتِه أمَّهات المؤمنِين البارّاتِ التَّقِيَّات النَّقِيَّات الطاهراتِ الصَّفِيَّات، وصحابَتِه الطيِّبين الطَّاهرين، ومَن تَبِعَهُم بإحسانٍ إلى يَومِ الدِّين.

أما بعدُ، فهذه عقيدةُ كلّ الأمّة الإسلاميةِ سلَفًا وخلفًا، وهي المرجع الذي تُعْرض عليه عقائدُ الناس، فمن خالفها أو كذبها لا يكونُ من المسلمينَ، وهي ميزان الحقّ الذي يَكْشِفُ زيْفَ الباطلِ وزيغَهُ، فكان لا بُدَّ من هذا البيان المهمّ لخصوصِ الغَرضِ وعمومِ النَّفْعِ؛ وعليه:

اعلم أرشدَنا اللَّهُ وإياكَ أنهُ يجبُ على كلِّ مكلفٍ أن يعلمَ أنَّ اللَّهَ عزَّ وجلَّ واحدٌ في ملكِهِ، خلقَ العالمَ بأسرِهِ العلويَّ والسفليَّ والعرشَ والكرسيَّ، والسمٰواتِ والأرضَ وما فيهمَا وما بينهُمَا. جميعُ الخلائِقِ مقهورونَ بقدرتِهِ، لا تتحرَّكُ ذرةٌ إلا بإذنِهِ، ليس معهُ مُدَبّرٌ في الخلقِ ولا شريكٌ في الملكِ، حي قيومٌ لا تأخذُهُ سِنَةٌ ولا نومٌ، عالمُ الغيبِ والشهادةِ لا يخفى عليه شيء في الأرضِ ولا في السماءِ، يعلمُ ما في البرّ والبحرِ، وما تسقطُ من ورقةٍ إلا يعلمُهَا، ولا حبةٍ في ظلماتِ الأرضِ ولا رطبٍ ولا يابسٍ إلا في كتابٍ مبينٍ.

أحاطَ بكلِ شيء علمًا وأحصَى كلّ شيءٍ عددًا، فعالٌ لما يريدُ، قادرٌ على ما يشاءُ، له الملكُ وله الغِنى، وله العِزُّ والبقاءُ، وله الحكمُ والقضاءُ، وله الأسماءُ الحسنى، لا دافعَ لما قضَى، ولا مانعَ لما أعطَى، يَفْعَلُ في ملكِهِ ما يريدُ، ويَحْكُمُ في خَلْقِهِ بما يشاءُ، لا يَرجُو ثوابًا ولا يخافُ عقابًا، ليس عليهِ

حقٌ يلزَمُهُ ولا عليهِ حُكْمٌ، وكلُّ نِعْمةٍ منْهُ فَضْلٌ وكل نِقْمةٍ منه عَدْلٌ، لا يُسألُ عمّا يَفْعَلُ وهم يُسْألونَ. مَوجودٌ قبلَ الخَلْقِ، ليسَ لهُ قبلٌ ولا بعدٌ، ولا فوقٌ ولا تحتٌ، ولا يمينٌ ولا شمالٌ، ولا أمامٌ ولا خلفٌ، ولا كلٌّ ولا بعضٌ، ولا يقالُ متَى كانَ ولا أينَ كانَ ولا كيفَ، كانَ ولا مكانَ، كوَّنَ الأكوانَ، ودبَّرَ الزمانَ، لا يتقَيَّدُ بالزمانِ، ولا يتخصَّصُ بالمكانِ، ولا يشغَلُهُ شأْنٌ عن شأْنٍ، ولا يلحقُهُ وهمٌ ولا يكتنِفُهُ عقلٌ، ولا يتخصَّصُ بالذّهنِ، ولا يتمثَّلُ في النفسِ، ولا يُتَصَورُ في الوهمِ، ولا يتكيفُ في العقلِ، لا تَلْحَقُهُ الأوهامُ والأفكارُ، ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾.

تنزَّه ربّي عن الجلوسِ والقعودِ والاستقرارِ والمحاذاةِ، الرّحمٰنُ على العرشِ استوى استواءً منزهًا عن المماسةِ والاعوجاجِ، خلقَ العرشَ إظهارًا لقدرتِهِ ولم يتَّخِذه مكانًا لذاتِهِ، ومن اعتقدَ أنَّ اللَّهَ جالسٌ على العرشِ فهو كافرٌ، الرّحمٰنُ على العرشِ استوى كما أخبرَ لا كما يخطرُ للبشرِ، فهو قاهرٌ للعرشِ مُتَصرِّفٌ فيه كيف يشاءُ، تنزَّهَ وتقدَّسَ ربّي عن الحركةِ والسكونِ، وعن الاتصالِ والانفصالِ والقُربِ والبُعدِ بالحِسّ والمسافةِ، وعن التَّحوُّلِ والزّوالِ والانتقالِ، جلَّ ربّي لا تُحيطُ به الأَوهامُ ولا الظُّنونُ ولا الأفهامُ، لا فِكرةَ في الرَّبِّ، خلق الخلق بقُدرته، وأحكمَهم بعِلْمه، وخَصَّهم بمشيئته، ودَبَّرَهم بحِكمَته، لم يكن له في خَلْقِهم مُعِين، ولا في تَدبيرهم مُشِير ولا ظَهِير.

لا يلزمه (لِمَ)، ولا يُجاوِرُه (أين)، ولا يُلاصِقُه (حَيث)، ولا يَحُلُّه (ما)، ولا يَعُدُّه (كَم)، ولا يَحصُره (متَى)، ولا يُحِيطُ به (كَيف)، ولا يَنالُه (أيٌّ)، ولا يُظِلُّه (فَوق) ولا يُقِلُّه (تَحت)، ولا يُقابِلُه (حَدّ)، ولا يُزاحِمُه (عِند)، ولا يأخُذه (خَلْف)، ولا يَحُدُّه (أمام)، لم يتقدَمْهُ (قَبْل)، ولم يَفُتْه (بَعد)، ولم يَجْمَعْه (كُلّ)، ولم يُوجِدْه (كان)، ولم يَفْقِدْه (لَيس).

لا إله إلا هو، تقدَّسَ عن كلِّ صفاتِ المخلوقينَ وسِمَاتِ المحدَثينَ، لا يَمَسُّ ولا يُمَسُّ ولا يُحَسُّ ولا يُجَسُّ، لا يُعرَفُ بالحواسِّ ولا يُقاسُ بالناس،

نُوَحِّدُه ولا نُبَعِّضُه، ليس جسمًا ولا يتَّصِفُ بصفاتِ الأجسام، فالمجسِّم كافر بالإجماع وإن قال: «اللَّه جسمٌ لا كالأجسام» وإن صام وصلى صورةً، فاللَّه ليس شبحًا، وليس شخصًا، وليس جوهرًا، وليس عَرَضًا، لا تَحُلُّ فيه الأعراضُ، ليس مؤلَّفًا ولا مُرَكَّبًا، ليس بذي أبعاضٍ ولا أجزاءٍ، ليس ضوءًا وليس ظلامًا، ليس ماءً وليس غَيمًا وليس هواءً وليس نارًا، وليس روحًا ولا له روحٌ، لا اجتماعَ له ولا افتراقَ.

لا تجري عليه الآفاتُ ولا تأخذُه السِّنَاتُ، منزّهٌ عن الطُّولِ والعَرْضِ والعُمْقِ والسَّمْكِ والتركيبِ والتأليفِ والألوانِ، لا يَحُلُّ فيه شيء، ولا يَنْحَلُّ منه شيء، ولا يَحُلُّ هو في شيء، لأنه ليس كمثله شيء، فمَن زعَم أنّ اللَّه في شيء أو مِن شيء أو على شيء فقد أشْرَكَ، إذ لو كان في شيء لكان محصورًا، ولو كان مِن شيء لكان مُحدَثًا أي مخلوقًا، ولو كان على شيء لكان محمولًا، وهو معكم بعِلمِه أينما كنتم لا تخفى عليه خافية، وهو أعلم بكم منكم، وليس كالهواء مخالطًا لكم.

وكلَّم اللَّه موسى تكليمًا، وكلامُه كلامٌ واحدٌ لا يتبعض ولا يتعدد ليس حرفًا ولا صوتًا ولا لغةً، ليس مُبتَدَأً ولا مُختَتَمًا، ولا يتخلله انقطاع، أزليٌّ أبديٌّ ليس ككلام المخلوقين، فهو ليس بفم ولا لسان ولا شفاه ولا مخارج حروف ولا انسلال هواء ولا اصطكاك أجرام. كلامُه صفةٌ من صفاتِه، وصفاتُه أزليةٌ أبديةٌ كذاتِه، وصفاته لا تتغيَّر لأنَّ التغيُّرَ أكبرُ علاماتِ الحدوثِ، وحدوثُ الصفةِ يستلزمُ حدوثَ الذاتِ، واللَّه منزَّهٌ عن كل ذلك، مهما تصورت ببالك فالله لا يشبه ذلك، فصونوا عقائدَكم من التَّمَسُّكِ بظاهِرِ ما تشابَه من الكتابِ والسنَّةِ فإنَّ ذلك من أصولِ الكفر،﴿ فَلَا تَضْرِبُواْ لِلَّهِ ٱلْأَمْثَالَ ﴾ ﴿ وَلِلَّهِ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ ﴾ ﴿ هَلْ تَعْلَمُ لَهُۥ سَمِيًّا ﴾، ومن زعم أن إلهنا محدودٌ فقد جَهِلَ الخالقَ المعبودَ، فاللَّه تعالى ليس بقدر العرش ولا أوسع منه ولا أصغر، ولا تصِحُّ العبادة إلا بعد معرفة المعبود، وتعالى ربّنا عن الحدود والغايات والأركان والأعضاء والأدوات، ولا تحويه الجهات الست كسائر المبتدعات،

ومن وصف اللَّه بمعنى من معاني البشر فقد خرج من الإسلام وكفَر.

﴿ هَلۡ مِنۡ خَٰلِقٍ غَيۡرُ ٱللَّهِ ﴾، ﴿ وَٱللَّهُ خَلَقَكُمۡ وَمَا تَعۡمَلُونَ ٩٦ ﴾، ﴿ قُلِ ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَيۡءٖ ﴾، ﴿ وَخَلَقَ كُلَّ شَيۡءٖ فَقَدَّرَهُۥ تَقۡدِيرٗا ﴾ ما شاء اللَّه كان وما لم يشأْ لم يكن، وكلّ ما دخل في الوجود من أجسامٍ وأجرامٍ وأعمالٍ وحركاتٍ وسكناتٍ ونوايا وخواطر وحياة وموت وصحة ومَرَضٍ ولذّة وألم وفَرَح وحزن وانزعاج وانبساط وحرارة وبُرودة ولُيونة وخشونة وحلاوة ومرارة وإيمانٍ وكفر وطاعة ومعصية وفوز وخسران وتوفيق وخذلان وتحركات وسكنات الإنس والجن والملائكة والبهائم وقطرات المياه والبحار والأنهار والآبار وأوراق الشجر وحبات الرمال والحصى في السهول والجبال والقفار فهو بخلق اللَّه، بتقديره وعلمه الأزلي، فالإنس والجن والملائكة والبهائم لا يخلقون شيئًا من أعمالهم، وهم وأعمالهم خَلْق للَّه، ﴿ وَٱللَّهُ خَلَقَكُمۡ وَمَا تَعۡمَلُونَ ٩٦ ﴾، ومن كذَّبَ بالقدر فقد كفر.

ونشهد أن سَيِّدَنا ونبيَّنا وعظيمنا وقائدَنا وقُرَّة أعينِنا وغوثنا ووسيلتنا ومعلمنا وهادينا ومرشدنا وشفيعنا محمَّدًا عبدُه ورسولُه، وصفيُّه وحبيبُه وخليلُه، مَن أرسَلَه اللَّهُ رحمةً للعالمين، جاءنا بدين الإسلام ككُلِّ الأنبياء والمرسلين، هاديًا ومُبَشِّرًا ونذيرًا وداعيًا إلى اللَّه بإذنه قمرًا وهَّاجًا وسِراجًا مُنيرًا، فبلَّغ الرسالة وأدى الأمانة ونصح الأمة وجاهد في اللَّه حقّ جهاده حتى أتاه اليقين، فعَلَّمَ وأرشدَ ونصحَ وهدى إلى طريق الحقِّ والجنَّة، ﷺ وعلى كلِّ رسولٍ أرسَلَه، ورضي اللَّه عن ساداتنا وأئمتنا وقدوتنا وملاذنا أبي بكر وعمر وعثمان وعلي وسائر العشرة المبشرين بالجنة الأتقياء البررة وعن أمهات المؤمنين زوجات النبي الطاهرات النقيات المبرَّآت، وعن أهل البيت الأصفياء الأجلاء وعن سائر الأولياء وعباد اللَّه الصالحين.

وللَّه الحمدُ والفَضلُ والمِنَّةُ أنْ هدانا لهذا الحقّ الّذي عليه الأشاعرة والماتريدية وكلُّ الأمّة الإسلامية، والحمدُ للَّه ربّ العالمين.

نُبذة تعريفِيّة بالشيخ الدكتور جميل حليم الحسينيّ

بقلم الناشر

هو السيّد الشريف رئيس جمعية المشايخ الصوفية الشيخ الدكتور عماد الدين أبو الفضل جميل بن محمد علي حليم الحسيني العُريضي الأشعري الشافعي الرفاعيّ القادريّ النقشبنديّ.

تلقّى العلوم والطرق عن علَّامة العصر، وقدوة المحقّقين، الحافظ الشيخ عبد الله بن محمد الهرري الشيبي العبدري، ولازمه وصحبه، وانتفع به زمنًا طويلًا، ملازمةَ تلميذٍ لمعلّمه، ومحبٍّ لشيخه، حريصًا على الأخذ عنه والتأدّب بآدابه والاقتداء به وفقَ الآداب النبويّة الكريمة. وكان يعيد دروسه وإملاءاته في كثير من مجالسه العامّة والخاصّة بطلبٍ منه رضي الله عنه، فتلقَّى عنه علمًا وافرًا بفضل الله ومَنّه، ونشر ما تلقّاه منه في مجالس التعليم والإرشاد. كما قرأ وسمع وحضر في علوم شتّى على عدد كبير من العلماء والفقهاء والمحدّثين من مشاهير البلاد، في الحجاز واليمن والعراق ولبنان وسوريا ومصر وتركيا وأندنوسيا والمغرب والحبشة وغيرها، جامعًا بين التلقّي عن الشيوخ، وكثرة السماع، والمثابرة على التحصيل. وأجازه جمع من العلماء والمحدّثين والمشايخ في مختلف الأقطار إجازاتٍ خاصّة وعامّة مطلقة، بكل ما تصحّ لهم روايته، وفي الطرق والإرشاد والتسليك وإقامة الختم والحضرة وتلقين الأوراد، فاجتمع له من ذلك سندٌ متّصل، وإذنٌ معتبر، وتلقٍّ موثوق.

وقد حاز الشيخ جميل شهادتي دكتوراه؛ الأولى من الجامعة العالميّة في لبنان، بعنوان: «السقوط الكبير المدوي للمجسِّم ابن تيمية الحرّاني»، بتقدير ممتاز مع مرتبة الشرف الأولى، وهي شهادة تدلّ على ما بذله في البحث والتحرير

والنظر في مسائل الاعتقاد. والثانية من جامعة مولاي إسماعيل بالمغرب، بعنوان: «التأويل في علم الكلام وضوابطه عند أهل السنّة والجماعة»، بتقدير مشرّف جدًّا، وقد تناول فيها جانبًا مهمًّا من أصول أهل السنّة وقواعدهم في فهم النصوص المتشابهة. فجمع بذلك بين التلقّي بالطريقة الأصيلة عن أهل العلم، والتحصيل الجامعي المنهجي، والبحث المتّصل في قضايا العلم والعقيدة.

وأولى الشيخ جميل عنايته للعلم والتعليم بين الخاصّة والعامّة، وللأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ولتأليف الكتب وتحقيق مصنّفات أهل السنّة والجماعة، خدمةً للتراث الإسلامي ونشرًا لما اشتمل عليه من علم نافع وتحقيق رصين. وأنشأ مكتبته «المكتبة الأشعريّة العبدرية» في بيروت – لبنان، وجعلها مرتَعًا لجمع الكتب ومراجعة المصادر وخدمة الباحثين وطلّاب العلم، وقد ضمّت ءالاف الكتب المطبوعة والمخطوطات النادرة في شتّى العلوم والفنون. وبلغت مصنّفاته وتحقيقاته للكتب نحو ثلاثمائة كتاب إلى الآن، في موضوعات متنوّعة شملت علوم العقيدة أصولًا وفروعًا والفقه أصولًا وفروعًا والحديث روايةً ودرايةً والتصوّف والسِّيَر وغيرها، واعتُمد كثيرٌ منها للتدريس في المعاهد والكليّات في عدد من البلاد العربيّة والإسلاميّة. وقد طُبع منها مئات الآلاف من النسخ، وكان الإقبال الكثيف على بعض تلك المؤلّفات – بفضل الله تعالى – سببًا في إعادة طبعها أكثر من عشر طبعات في بضع سنين، كما تُرجِم بعضُها إلى لغات عدّة، وطُبع بعضُها بما يزيد على سبعين ألف نسخة. وقد اعتمدت جامعات عالميّة مشهورة تلك المؤلّفات كمراجعَ أصيلة في مكتباتها، لِما فيها من جمعٍ للمادّة العلميّة، وحُسن للترتيب، وخدمة للمصادر، ولله الفضل والمنّة.

وقرأ الشيخ جميل وسمع على العلماء والمشايخ، وحصّل منهم بطريق التلقّي ما يزيد على ثمانمائة رسالة وكتاب في مختلف الفنون والعلوم، فتنوّعت مقروءاته ومسموعاته بين علوم الشريعة واللُّغة والتاريخ والسُّلوك

وغيرها، ولله الحمد والفضل والمنّة. ولا يزال، بعون الله وتوفيقه وتسديده، قائمًا على الخطابة في الجوامع، والتدريس، وإلقاء المحاضرات في المساجد والمصلّيات والجامعات والمعاهد والمراكز الدينيّة، مبلّغًا للعلم، ناصحًا للناس، مجيبًا عمّا يعرض لهم من مسائل. كما أنّه يشارك في مناسبات الناس العامّة من الجنائز والتعازي والأعراس، متنقّلًا بذلك بين المحافظات والبلاد، مؤدّيًا وظيفة المُعلّم المُرشِد الداعي إلى الخير.

ولم يزل منذ سنين إلى يومنا هذا يشارك على مدار العام في المؤتمرات واللقاءات العلميّة والاحتفالات في بلدان كثيرة بدعوة من أهلها، فيلتقي بالعلماء والباحثين وأهل الدعوة، ويسهم في المجالس والندوات التي تتصل بخدمة العلم والدين. وله مقابلات ولقاءات عديدة في وسائل الإعلام المرئيّة والمسموعة والمقروءة، تناول فيها مسائل العلم والإيمان والأخلاق والتربية وما يحتاج إليه الناس في شؤون دينهم ومصالح دُنياهم. وهو، مع ذلك كلّه، دكتور محاضر في الجامعة العالميّة في لبنان. كما أنّه يعقد مجالس للإقراء والإسماع في الأحاديث المسلسلة وكتب الحديث الشريف، وكتب عقيدة أهل السنّة والجماعة والفقه والتصوّف والسيرة والآداب الشرعيّة وغيرها من الفنون النافعة. وهو أوّل من تولّى إقراء صحيحَي البخاري ومسلم في لبنان من تلاميذ الحافظ الهرري رحمه الله، ولا يزال يقرئ عشرات الكتب في شتّى المناسبات الدينيّة، وقد حضر مجالسه الجمّ الغفير من المشايخ والدعاة والأساتذة والدكاترة ومعلّمي المعاهد والمدارس وخطباء المساجد وأئمّتها وطلاب الكليّات والمعاهد الشرعيّة. وكان معظم تلك المجالس يبثّ مباشرة عبر مواقع التواصل الشهيرة، فانتفع بها الحاضر والغائب، وقد حضر بعضَها ما يزيد على ثلاثة ملايين مشاهد.

وقد خصّه بعض العلماء، والأشراف مِن نسلِ ءال بيت النّبيّ ﷺ من الأسر الشريفة المشهورة، وأصحاب الطرق من بلاد عدّة، بآثار من ءاثار رسول الله محمد ﷺ، تعظيمًا لشأنه وثقةً بحفظه وعنايته، فحفظها في «الخزينة

الحليمية» بما يليق بها من صيانة ورعاية. وفي كل عام يتبرّك الآلاف من المسلمين من مختلف البلاد ببعض تلك الآثار الزكيّة المباركة العطرة، في مجالس ينتشر فيها الذكر والصلاة على النبي ﷺ، وتظهر فيها محبّة المسلمين له وتعظيمهم لقدره الشريف. وقد حصل بذلك خير جسيم ونفع عظيم، ولا سيّما في دخول بعض الناس في الإسلام، وازدياد آخرين تعلّقًا بالدين وتمسّكًا بالسنة. كما ظهرت حالات شفائيّة سريعة وظاهرة بيّنة ببركة ءاثار رسول الله ﷺ، وجمع بعض هذه الأخبار في كتاب طبع مرّات، هو: «أسرار الآثار النبويّة: أدلّة شرعيّة وحالات شفائيّة»، ليكون توثيقًا لجملة من تلك الوقائع، وبيانًا لما يتعلّق بها من دلائل وأخبار.

ولله الحمد والفضل والثناء والمنّة، والشكر الجزيل على ما أسدى من الفضل العميم، وما يسّر من العلم والتعليم والنفع العام، وصلّى الله وسلّم على سيّدنا محمد، وعلى سائر النبيّين والمرسلين، وءال كلٍّ وصحب كلٍّ، وسائر عباد الله الصالحين[1].

بيروت، الثلاثاء ٢٢ المحرَّم ١٤٤٨هـ

٧-٧-٢٠٢٦ر

(١) للتواصل مع المؤلف راجع ما يلي: ٩٦١٣٠٠٦٠٧٨+/ ٩٦١٣٦٧٣٩٤٦+
Gmail: sh.jamil.halim@gmail.com
FaceBook: Sheikh.Jameel
Tiktok: sheikhjameelhalim
Instgram: sheikh_jameel
Youtube: SheikhJameelHalim
X: JameelHalim

ترجمة الماتن

هو الشيخ علاء الدين أبو بكر بن مسعود بن أحمد الكاساني الحنفي، والكاساني نسبة إلى كيسان بلدة وراء الشاش كما ذكره السمعاني، وقد يقال في نسبته الكاشاني بالمعجمة بدل المهملة، وقال بعضهم قاسان بلد كبير بتركستان خلف سيحون[١] وأهلها يقولون كاسان كانت من محاسن الدنيا[٢].

من أشهر مشايخه: علاء الدين محمد بن أحمد السمرقندي صاحب التحفة وقرأ عليه معظم تصانيفه.

من تلاميذه:

١) ابنه محمود.

٢) أحمد بن محمد بن محمود الغزنوي صاحب المقدمة الغزنوية وكان معيد درس الكاساني[٣].

٣) أبو السرايا خليفة بن سليمان القرشي الخوارزمي الأصل.

٤) نجا بن سعد بن نجا.

٥) أبو عبد اللَّه محمد بن سعيد بن سلامة ابن الركابي الحلبي.

مصنفاته:

١) بدائع الصنائع في ترتيب الشرائع، وهو شرح لكتاب شيخه تحفة الفقهاء.

٢) المعتمد في المعتقد، ويسمى السلطان المبين في أصول الدين.

---

(١) تقع اليوم في وادي فرغانة، وتتبع إداريًّا لولاية نمنغان في شرق أوزبكستان. تَبعدُ حَوالي ٢٠ كم شَمالَ مدينةِ نمنغان، على ضِفافِ نَهر «كاسانساي».

(٢) الحموي. معجم البلدان. (٤/ ٢٩٥).

(٣) المُعِيدُ هو مَنْ يَقُومُ بِمُراجعةِ الدَّرْسِ وتَبسيطِهِ لِلطلابِ بَعْدَ إلقاءِ الشيخِ لَه.

ثناء العلماء عليه:

قال فيه ابن قطلوبغا في تاج التراجم (ص/ ٨٤): كان للكاساني وجاهة وخدمة وشجاعة.

زوجته:

فاطمة الفقيهة بنت شيخه السمرقندي، وقيل إن سبب تزويجها أنها كانت من حسان النساء وكانت حفظت التحفة لأبيها وطلبها جماعة من ملوك بلاد الروم ولما صنف صاحب الترجمة البدائع وعرضه على شيخه ازداد به فرحا وزوجه ابنته، وكانت تحفظ كتاب والدها التحفة، وكانت تنقل المذهب نقلا جيدا وكان زوجها الكاساني ربما يهم في الفتيا فترده إلى الصواب وتعرفه وجه الخطأ فيرجع إلى قولها، وكانت تفتي وكان زوجها يحترمها ويكرمها، وكانت الفتوى أولا يخرج عليها خطها وخط أبيها السمرقندي فلما تزوجت بالكاساني كانت الفتوى تخرج بخط الثلاثة.

وفاته:

توفي يوم الأحد بعد الظهر في عاشر رجب سنة ٥٨٧ ودفن بظاهر حلب بمقبرة الحاشور، وقال ابن العديم: سمعت ضياء الدين محمد بن حبش الحنفي يقول حضرت الكاساني عند موته فشرع في قراءة سورة إبراهيم حتى بلغ قوله تعالى ﴿**يثبت اللَّه الذين ءامنوا بالقول الثابت في الحياة الدنيا وفي الآخرة**﴾ فخرجت روحه، ودفن عند زوجته ويعرف عند الزوار في حلب بقبر المرأة وزوجها.

أهمية الكتاب

إن كتاب «**بلوغ الأماني ونيل التهاني**» من الكتب المهمة في علم التوحيد، تظهر أهميته أولا من خلال متنه المسمى «**المعتمد في المعتقد**» فقد حاول الكاساني رحمه اللَّه جهده أن يذكر في هذه الوريقات معتمد اعتقاد أهل السنة والجماعة على طريقة الإمام أبي منصور الماتريدي، وبين أن هذا هو الاعتقاد الذي سمعه من مشايخه وأنه اعتقاد مشايخ بخارى وسمرقند، وتتلخص أهمية هذا الشرح بما يلي:

١) كون المتن مما كتب في القرن السادس الهجري فيُظهر ذلك أن عقيدة أهل السنة هي عقيدة العلماء قديما وحديثا، وأنها على ما هي عليه منابذة للتطرف الاعتقادي سلفا وخلفا.

٢) كون المتن جاريا على طريقة الإمام الجهبذ أبي حنيفة والأستاذ الإمام أبي منصور الماتريدي رحمهما الله تعالى.

٣) تضمن الشرح لأدلة المسائل النقلية والعقلية.

٤) ذكر أقوال السادة الأشعرية والماتريدية وبيان أدلة الفريقين.

٥) ذكر أقوال الفرق الخارجة عن أهل السنة مع دحضها بالأدلة النقلية والعقلية.

٦) احتواء الشرح لمادة علمية نفيسة من علم التوحيد وشيء من السيرة النبوية وتاريخ الخلفاء.

٧) اعتماد الشرح على ثلة من أمّات الكتب كشرح الطحاوية للإمام نجم الدين منكوبرس وشرحها لشيخنا الإمام الهرري المسمى بإظهار العقيدة السنية، وكشروح العقائد النسفية وغيرها.

٨) تضمن الشرح لكثير من الفوائد والتنبيهات المهمة التي يحتاج إليها

مدرسو علم التوحيد في هذا الزمن.

٩) تضمن الشرح لبيان كشف زيف أهل البدع المعاصرين الذين يعادون أهل السنة والجماعة.

١٠) تضمن الشرح لبيان تناقض أهل البدع في اعتقاداتهم.

١١) الاستفاضة في شرح المتن وبيان أصل مسائله ومراجعها مما يحتاج إليه مدرسو علم التوحيد.

١٢) احتواء الشرح لكثير من نصوص أهل السنة في بيان حال القدرية وغيرهم من أهل البدع.

١٣) وغير ذلك كثير.

مقدمة الشارح

بسم اللَّه الرحمٰن الرحيم خالق الأعراض والأجرام، والحمد لله ذي الفضل والإنعام، الموجود أزلا لا أول لوجوده؛ إذ لو كان محدثا لافتقر إلى محدث إلى غير أول وذلك لا يتصور في الأوهام، فهو الباقي إلى غير نهاية إذ قد ثبت له القدم فاستحال عليه الانعدام، المنزه عن كل ما قام بالحوادث فدل على حدَثها فلا تجوز عليه المماسة والمباينة والمجاورة والمكان والزمان ولا الساعات والأيام، ليس كمثله شيء وهو السميع العلّام، المنفرد بخلق الخلائق وأعمالهم فلا شريك له عند أهل الإسلام، وصلى اللَّه على سيدنا محمد الذي بعثه بشيرا ونذيرا إلى الأحمر والأسود مبينا للأحكام، وموضحا للحلال والحرام، داعيا إلى اللَّه بإذنه بأوضح الدلائل والأعلام، وعلى ءاله وصحبه السادة الكرام.

أما بعدُ فإن أهم العلم العلمُ باللَّه عز وجل وصفاته والعلمُ بنبيه ﷺ وصفاته إذ على ذلك مدار الإسلام، وهو الفيصل بين الكفر والإيمان، فمن عرف اللَّه تعالى وعبده وءامن برسوله وصدّقه كان في عصبة الناجين، ومن عبد غير اللَّه تعالى أو كذب رسوله غدا في زمرة الهالكين، أعاذنا اللَّه تعالى من الكفر والطغيان، وإن هذا العلم قد علا شأنه واستطار، وبَسط رداءه في الآفاق واستطال، فقد نُشرت ذوائبه وفوائده من عصر الأئمة العظام، كأحمد والشافعي ومالك ونعمان، وقد بسطه وهذبه أئمة أعلام، كأبي الحسن الأشعري وأبي منصور الماتريدي فجزاهم اللَّه عنا خير الجزاء، فكانت هذه الأمة خير أمة أخرجت للناس ونبيُّها أفضل الأنبياء، ومما تواصى به الأشياخ شيخٌ عن شيخ أن أفضل الأعمال هو الإيمان باللَّه ورسوله وأن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر من أهم الوظائف وأجلها، فلذا قام مَشْيُوخاء أهل السنة والجماعة بحمل هذا الأمر على أكتافهم والتزموه ما حيُوا ومنهم الشيخ علاء الدين

أبو بكر بن مسعود الكاساني الحنفي رحمه اللَّه تعالى، فوضع في علم أصول الدين رسالة مختصرة زاخرة بالفوائد، فرأينا في شرحها نفعا لنا ولطلاب العلم والمشايخ في المعاهد والمدارس، وسميناه «**بلوغ الأماني ونيل التهاني بشرح معتمد الكاساني**» وقد اعتمدنا فيه على كتب كثيرة من أبرزها شروح العقيدة الطحاوية كالنور اللامع لمنكوبرس وإظهار العقيدة السنية لشيخنا الهرري رحمهما اللَّه تعالى، والنبراس على شرح العقائد النسفية، وشروح الفقه الأكبر وغيرها، أسأل اللَّه تعالى أن يجزل لي الثواب فإنه متفضل وهاب.

(ص) بسم اللّٰه الرحمن الرحيم وبه نستعين، الحمد للَّه الملك المحمود، المالك المعبود.

(ش) بدأ الماتن رحمه اللَّه بالبسملة والحمدلة اقتداء بالكتاب العزيز وعملا بالأحاديث الواردة في ذلك، والكلام في البسملة والحمدلة شهير فنترك الخوض فيه اختصارا.

والملك هو من الأسماء التسعة والتسعين ومعناه أن اللَّه تعالى موصوف بالملك التام وملكُه أزلي أبدي وأما الملك الذي يعطيه للعبد في الدنيا فهو حادث يزول، قال تعالى ﴿ فَتَعَـٰلَى ٱللَّهُ ٱلْمَلِكُ ٱلْحَقُّ ﴾[1] وقال تعالى ﴿ هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ ﴾[2] وفي الحديث الصحيح الذي رواه أبو داود أن النبي ﷺ كان إذا سلّم من الوتر قال «**سبحان الملك القدوس**» والملك ليس من الأسماء الخاصة بالله تعالى بخلاف مالك الملك.

والمحمود ذكره الماتن على سبيل الوصف لا على أنه اسم من أسمائه تعالى لأن الوصف أوسع بابا من التسمية، ولهذا لا يقال يا محمود ارزقنا، ويجوز أن يقال في الدعاء «يا محمودا على نعمائه ارزقنا».

والمالك قريب من الملك.

والمعبود أي المعبود بحق إذ لا يستحق أحد أن يعبد غير اللَّه تعالى، وقال الفيومي في المصباح المنير (١/ ١٩): «الإله المعبود وهو اللَّه سبحانه وتعالى ثم استعاره المشركون لما عبدوه من دون اللَّه تعالى» أي لاعتقادهم أنها تستحق العبادة وهي نهاية التذلل والخضوع كما بينه الحافظ السبكي في الفتاوى (١/ ١٠) والزبيدي في التاج (٢/ ٤١٠) والراغب الأصفهاني في المفردات (ص/ ٣١٩) والفراء كما في الصحاح (٢/ ٥٠٣)، وهذا هو

---

(١) سورة المؤمنون / ١١٦.

(٢) سورة الحشر / ٢٣.

المراد بقوله تعالى ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ أي نخصك بالعبادة، وقد تطلق العبادة ويراد بها معنى ءاخرُ وهو فعلُ ما يتقرب به إلى اللَّه كما جاء في الحديث الصحيح أن رسول اللَّه ﷺ قال «**انتظار الفرج عبادة**» أي حسنةٌ يتقرب بها إلى اللَّه رواه الترمذي وكحديث «**الدعاء هو العبادة**» ومنه قولك الصيام عبادة والإحسان إلى الناس عبادة وسيأتي مزيد كلام في ذلك ءاخرَ الكتاب إن شاء اللَّه، وأما تمسك الوهابية وأمثالِهم بهذا الحديث ليوهموا الناسَ أن التوسل بالأنبياء والأولياء بعد موتهم أو في غير حضرتهم شرك وعبادةٌ لغير اللَّه فهو تمسك محجوج ممجوج فإن تمسكهم بظاهره وادعاءَهم ذلك يفضي بهم إلى تكفير كل من دعا غيرَه، وقد ألف وهابي حبشي أرُوْسِي كتابا سماه «الدعاء» يَنحو فيه هذا النحو أي أن مجرد «ادع» معناه اعبد، فعليه ما رواه إبراهيم الحربي في غريب الحديث (٢/ ٦٧٤) وابنُ السني في عمل اليوم والليلة (١/ ١٤٢) عن عبد الرحمن بن سعد أنه قال لعبد اللَّه بن عمر «ادع أحب الناس إليك» يكون شركا أكبر، وهذا ظاهر الفساد، وروى ابن السني عن أبي بكر الهذلي قال دخلت على محمد بن سيرين وقد خدِرت رجله[1] فنقعها في الماء وهو يقول: [الطويل]

إذا خـدرتْ رجلي تـذكـرتُ قولها فـنـاديـتُ لُـبْـنى باسمِها ودعـوتُ

دعـوتُ التي لـو أنّ نفسي تطيعني لألـقـيـتُ نفسِي نـحـوَهـا فقضيتُ

فقال له يا أبا بكر تنشد مثل هذا الشعر؟ فقال «يا لكع وهل هو إلا كلام حسنُه كحسن الكلام وقبيحه كقبيحه».

هذا وقد روى مسلم من حديث ابن عباس أنه قال كنت ألعب مع الصبيان فجاء رسول اللَّه ﷺ فتواريتُ خلفَ بابٍ قال فجاء فحطَأني حَطْأةً –

(١) خدِر العضو خدَرا من باب تعب أي استرخى فلا يطيق حركة. المصباح المنير (١/ ١٦٥)

أي دفعني بكفه- وقال: «**اذهب وادع لي معاويةَ**» قال فجئت فقلت هو يأكل قال ثُم قال لي: «**اذهب فادع لي معاوية**» قال فجئت فقلت هو يأكل فقال: «**لا أشبع اللَّه بطنه**».

(ص) المنزَّهِ عن الجهات والحدود.

(ش) ذكر المصنف في هذه العبارة تنزيه اللَّه تعالى عن أمرين، وهما الجهات والحدود، أما الجهة فهي المكان بحسب الإضافة أي أنك إن سئلت عن مكان زيد مثلا بالنسبة لعمرو قلتَ هو في يمينه وإن سئلت عنه بالنسبة لبكر قلت هو في شماله إذا كان متوسطا بينهما، فاختلفت الجهة باختلاف الإضافة. ومن التدليس قول ابن تيمية في كتابه المسمى منهاج السنة النبوية (٢/ ٥٥٨) ما نصه: «فمن قال البارئ في جهة وأراد بالجهة أمرا موجودا فكل ما سواه مخلوق له ومن قال إنه في جهة بهذا التفسير فهو مخطئ، وإن أراد بالجهة أمرا عدميا وهو ما فوق العالم وقال إن اللَّه فوق العالم فقد أصاب وليس فوق العالم موجود غيره فلا يكون سبحانه في شيء من الموجودات». وقوله في الرسالة التدمرية (ص/ ٤٦) ما نصه: «فيقال لمن نفى الجهة أتريد بالجهة أنها شيء مخلوق؟ فالله ليس داخلا في المخلوقات، أم تريد بالجهة ما وراء العالم؟ فلا ريب أن اللَّه فوق العالم مباين للمخلوقات» اهـ ففي هذا الكلام مخالفات عديدة، منها قوله بإثبات جهة عدمية، ومنها قوله بأن اللَّه مباين للمخلوقات منفصل عنها[1]، أما الأولى ففسادها ظاهر حيث يقتضي ذلك القول بنفي وجوده تعالى فإنه يُثبت وجوده في حيز عدمي غير موجود فإذا لم يكن الحيز موجودا لم يكن المحوز موجودا، وقال الشيخ شرف الدين التلمساني في شرح لمع الأدلة ما نصه: «قوله تعالى ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾ نفى عن نفسه مشابهة العالم إياه ففي التحيز بجهةٍ من الجهات مشابهةُ الأجسام

(١) تنبيه: كلمة «مباين» يستعملها أهل السنة والجماعة فيقولون «اللَّه مباين للخلق» بمعنى غير مشابه خلافا لابن تيمية وأمثاله الذين يريدون منها الانفصال.

والجواهر، وفي التمكن في مكان مماثلةٌ للجواهر المتمكنة في الأمكنة، ففي وصفه بالجهات قولٌ بالانحصار فيها، وفي القول بالتمكن في المكان إثبات الحاجة إلى المكان، وفي كل ذلك إيجابُ حدوثه وإزالة قدمه وذلك محال في حق القديم، ومن تلك النصوص قوله تعالى ﴿ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ ﴾ والكفو المساوي والمماثل فنفى عن نفسه المماثلة والمساواة، ومنها قوله تعالى ﴿سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴾ وقوله ﴿سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ فوجب تنزيهه عن صفات الخلق، ومنها قوله تعالى ﴿وَٱللَّهُ ٱلْغَنِىُّ وَأَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ﴾ فوجب إثبات تعاليه عن كل ما يفتقر إليه الخلق من الاتصاف بالمكان والجهة، ومنها قوله ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَغَنِىٌّ عَنِ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ فأثبت لنفسه الاستغناء عن جميع العالمين والجهاتُ والأمكنة من أجزاء العالم فوجب إثبات تعاليه واستغنائه عن العالمين وعن كل وصف من صفات المحدثين» اهـ وكذا قال بحرفه نجم الدين منكوبرس في شرح الطحاوية (ص/ ٦٧٧).

وقال أبو الثناء اللامشي في التمهيد لقواعد التوحيد (ص/ ٦٢) ما نصه: «ثم إن الصانع جل وعلا وعز لا يوصف بالمكان لما مر أنه لا مشابهة بينه تعالى وبين شيء من أجزاء العالم، فلو كان متمكنا بمكان لوقعت المشابهة بينه وبين المكان من حيث المقدار؛ لأن مكان كل متمكن قدرُ ما يتمكن فيه، والمشابهة منتفية بين اللَّه تعالى وبين شيء من أجزاء العالم لما ذكرنا من الدليل السمعي والعقلي، ولأن في القول بالمكان قولا بقدم المكان أو بحدوث البارئ تعالى، وكل ذلك محال لأنه لو كان لم يزل في المكان لكان المكان قديما أزليا، ولو كان ولا مكان ثم خلق المكان وتمكن فيه لتغير عن حاله ولحدثت فيه صفة التمكّن بعد أن لم تكن وقبولُ الحوادث من أمارات الحدث وهو على القديم محال، وتبين بما ذكرنا أنه ليس بذي جهة من العالم أيضا لأن فيه قولا بقدم الجهة أو يكون البارئ تعالى جل وعلا محلا للحوادث وكل ذلك ضلال، هذا كله مذهب عامة أهل الحق» اهـ.

وأما الثانية أي قوله بأنه تعالى مباين للعالم منفصل عنه فقد بيّن فساده

أئمة من المذاهب الأربعة منهم الإمام الجليل أبو سعيد المتولي أحد أصحاب الوجوه في مذهب الشافعي، ثم النووي وابن حجر الهيتمي وغيرهما، ومن المالكية سيدي أبو عبد اللَّه محمد بن جلال والعالم محمد بن أحمد ميّارة وغيرهما، ومن الحنفية أبو المعين النسفي والعالم الشهير محمود بن محمد القونوي شارح العقيدة الطحاوية وغيرهما بل ذلك يفهم من قول الطحاوي: «تعالى عن الحدود والغايات» لأن الشيء الذي لا كمية له لا يصح في حقه الاتصال والانفصال، ومن الحنابلة الحافظ أبو الفرج عبد الرحمن بن الجوزي فقد قال في كتابه دفع شبه التشبيه (ص/ ٤٠) بعد ذكر كلام المشبهة في ذلك: «وهذا كلام جهل من قائله وتشبيه محض فما عرف هذا الشيخ ما يجب للخالق تعالى وما يستحيل عليه، فإن وجوده تعالى ليس كوجود الجواهر والأجسام التي لا بد لها من حيّز، والتحتُ والفوق إنما يكون فيما يُقابل ويحاذى، ومن ضرورة المحاذي أن يكون أكبر من المحاذى أو أصغر أو مثله، وأن هذا ومثلَه إنما يكون في الأجسام، وكلّ ما يحاذي الأجسام يجوز أن يمسها، **وما جاز عليه مماسة الأجسام ومباينتها فهو حادث**، إذ قد ثبت أن الدليل على حدوث الجواهر قبولها المماسةَ والمباينة، فإن أجازوا هذا عليه قالوا بجواز حدوثه، وإن منعوا هذا عليه لم يبق لنا طريق لإثبات حدَث الجواهر». انتهى كلام ابن الجوزي.

وقال الإمام المحدث الفقيه الشافعي أبو منصور البغدادي في تفسير الأسماء والصفات (ص/ ١٥١): «وأجمع أصحابنا على إحالة القول بأنه في مكان أو في كل مكان، ولم يجيزوا عليه مماسةً ولا ملاقاةً بوجه من الوجوه، ولكن اختلفت عباراتهم في ذلك فقال أبو الحسن الأشعري: إن اللَّه عز وجل لا يجوز أن يقال إنه في مكان، **ولا يقال إنه مباين للعالم**، ولا إنه في جوف العالم؛ لأن قولنا إنه في العالم يقتضي أن يكون محدودًا متناهيًا، وقولنا إنه مباينٌ له وخارج عنه يقتضي أن يكون بينه وبين العالَم مسافة والمسافةُ مكان، وقد أطلقنا القول بأنه غير مماس لمكان» اهـ

وقال النووي في روضة الطالبين (١٠/ ٦٤) ما نصه: «وتحصل الردة بالقول الذي هو كفر، سواء صدر عن اعتقاد أو عناد أو استهزاء، هذا قول جُمْلي، وأما التفصيل فقال المتولي: من اعتقد قدم العالم أو حدوث الصانع أو نفى ما هو ثابت للقديم بالإجماع ككونه عالما قادرًا أو أثبت ما هو منفيٌّ عنه بالإجماع كالألوان أو **أثبت له الاتصال والانفصال كان كافرًا**» اهـ

وقال ابن حجر الهيتمي في كتابه «الإعلام بقواطع الإسلام» (ص/ ٨٢) في شرح كلام للغزالي ما نصه: «ومِن ثم قال الغزالي معناه أن مصحح الاتصال والانفصال الجسميةُ والتحيز وهو **محالٌ على البارئ فانفك عن الضدين**، كما أن الجماد لا هو عالم ولا جاهل لأن مصحح العلم هو الحياة فإذا انتفت الحياة انتفى الضدان» اهـ

وقال العلامة محمد بن أحمد ميارة المالكي في كتابه الدر الثمين (ص/ ٢٤) ناقلا جواب الشيخ أبي عبد اللَّه محمد بن جلال بعد سرده سؤالا وُجّه إليه في ذلك ما نصه: «فأجاب: بأنّا نقول ذلك ونجزم به ونعتقد أنه لا داخل العالم ولا خارج العالم، والعجزُ عن الإدراك إدراكٌ؛ لقيام الدلائل الواضحة على ذلك عقلًا ونقلًا، أما النقل فالكتاب والسنة والإجماع، أما الكتاب فقوله تعالى ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ فلو كان في العالم أو خارجًا عنه لكان مُماثلًا، وبيانُ الملازمة واضح، أما في الأول فلأنه إن كان فيه صار من جنسه فيجب له ما وجب له، وأما الثاني فلأنه إن كان خارجًا لزم إما اتصاله وإما انفصاله، وانفصاله إما بمسافة متناهية أو غير متناهية وذلك كلُّه يؤدي لافتقاره إلى مخصص، وأما السنة فقوله ﷺ: «**كان اللَّه ولا شيء معه**»، وأما الإجماع فأجمع أهل الحق قاطبة على أن اللَّه تعالى لا جهة له فلا فوق له ولا تحت ولا يمين ولا شمال ولا أمام ولا خلف، وأما العقل فقد اتضح لك اتضاحًا كليًا مما مر في بيان الملازمة في قوله تعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ﴾ والاعتراضُ بأنه رفع للنقيضين ساقط؛ لأن التناقض إنما يعتبر حيث يتصف المحل بأحد النقيضين ويتوارَدان عليه،

وأما حيث لا يصح تواردُهما على المحل ولا يمكن الاتصاف بأحدهما فلا تناقض، كما يقال مثلًا: الحائط لا أعمى ولا بصير، فلا تناقض لصدق النقيضين فيه لعدم قبوله لهما على البدلية، وكما يقال في البارئ أيضًا لا فوق ولا تحت وقس على ذلك» اهـ

وقال لسان المتكلمين الشيخ أبو المَعين ميمون بن محمد النسفي الحنفي في تبصرة الأدلة (١/ ١٧٦) في رد قول المشبهة إنه تعالى لَما كان موجودًا إما أن يكون داخل العالم وإما أن يكون خارج العالم، وليسَ بداخل العالم فكان خارجًا منه، وهذا يوجب كونه بجهة منه: «والجواب عن هذا الكلامِ على نحو ما أجبنا عن الشبهة المتقدمة أنّ الموصوف بالدخول والخروج هو الجسمُ المتبعّض المتجزئ، **فأما ما لا تبعض له ولا تجزؤ فلا يوصف بكونه داخلًا ولا خارجًا**» اهـ

وأما الحد فهو كما بينه منكوبرس وصف المحدود وهو المحصور، وممن خالف في ذلك ابن تيمية أيضا فيقول في كتابه المسمى بيان تلبيس الجهمية (٢/ ٦٢٨) ما نصه: «وذلك لا ينافي ما تقدم من إثبات أنه في نفسه له حد يعلمه هو لا يعلمه غيره» وقال فيه أيضا (٢/ ٦٠٧) ما نصه: «فهذا كله وما أشبهه شواهد ودلائل على الحد ومن لم يعترف به فقد كفر بتنزيل اللَّه تعالى وجحد ءايات اللَّه تعالى». وهذا منه جسارة عظيمة وفحش من الكلام وكفر صريح، كيف ونفي الحد هو مذهب السلف والخلف من أهل السنة والجماعة فقد روى الحافظ أبو نعيم في الحلية (١/ ٧٣) عن سيدنا علي رضي اللَّه عنه أنه قال «سبحانه وتعالى عن تكييف الصفاتِ من زعم أن إلهنا محدود فقد جهل الخالق المعبود» والمحدود ما له حد صغيرا كان أو كبيرا وهو محتاج لمن حده وخصه بذلك الحد واللهُ تعالى غني ونحن الفقراء.

وروى الزبيدي في الإتحاف (٤/ ٣٨٠) عن زين العابدين علي بن الحسين رضي اللَّه عنهما في الصحيفة السجادية أنه قال: «أنت اللَّه الذي لا يحويك

مكان ... أنت اللَّه الذي لا تحد فتكونَ محدودا ... سبحانك لا تُحسُّ ولا تُجسُّ ولا تُمسُّ» اهـ

وقال الإمام أبو حنيفة (ت ١٥٠) في الفقه الأكبر (ص/ ٢٦): «ومعنى الشيء الثابت بلا جسم ولا جوهر ولا عرض ولا حد له ولا ضد له ولا ند له ولا مثل له».

وقال الطبري (ت ٣١٠) في التفسير (٢٣/ ١٦٨): «يقول تعالى ذكره ﴿هُوَ ٱلْأَوَّلُ﴾ قبل كل شيء بغير حد».

وقال الطحاوي (ت ٣٢١) في عقيدته: «تعالى عن الحدود والغايات والأركان والأعضاء والأدوات لا تحويه الجهات الست كسائر المبتدَعات».

وقال أبو المظفر الأسفرايني (ت ٤٧١) في التبصير في بيان اعتقاد أهل السنة والجماعة (ص/ ١٦١) ما نصه: «وأن تعلم أن كل ما دل على حدوث شيء من الحد والنهاية والمكان والجهة والسكون والحركة فهو مستحيل عليه سبحانه وتعالى». وسيأتي مزيد كلام في ذلك إن شاء اللَّه تعالى.

(ص) المقدَّسِ عن الوالد والمولود.

(ش) المقدس بمعنى المنزه، ومن أسمائه تعالى القدوس وهو من الأسماء الخاصة بالله تعالى فلا يجوز أن يسمى به غيره تعالى، ومعناه المنزه عن القبائح، ومن السفه والكفر ما سمع من عبد الهادي الباني حين استهزأ باسم اللَّه تعالى القدوس فقال «قدوس فؤوس»، وعبارة المتن مأخوذة من قوله تعالى ﴿لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ﴾ فقوله ﴿لَمْ يَلِدْ﴾ لأنه لا يجانس حتى تكون له من جنسه صاحبة فيتوالدا وقد دل على هذا المعنى بقوله ﴿أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُۥ وَلَدٌ وَلَمْ تَكُن لَّهُۥ صَٰحِبَةٌ﴾ وقولُه تعالى ﴿وَلَمْ يُولَدْ﴾ لأن كل مولود محدث وجسم وهو قديم لا أول لوجوده إذ لو لم يكن قديما لكان حادثا لعدم الواسطة بينهما ولو كان حادثا لافتقر إلى محدث وكذا الثاني والثالث فيؤدي

إلى التسلسل وهو باطل وليس بجسم لأنه اسم للمتركب وسيأتي مزيد كلام في ذلك إن شاء اللَّه تعالى، وفي الآية المذكورة نفي للمادية فليس لله مادة وجد منها ونفي للانحلال فلا ينحل منه شيء ولا يحل هو في شيء سبحانه وتعالى، وقال تعالى ﴿وَمَا يَنْبَغِي لِلرَّحْمَٰنِ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا﴾ وقال أيضا ﴿مَا اتَّخَذَ اللَّهُ مِن وَلَدٍ﴾.

(ص) جلّ عن الشريك والوزير.

(ش) قوله «جل» بمعنى تقدس وتنزه المتقدِّمَين، فتنزه ربي عن الشريك فهو الواحد الأحد الفرد الصمد لا شريك له في الألوهية بحيث يتنازعان في الألوهية ولا شريك له يعينه في الألوهية، وخالفت في ذلك النصارى القائلون بالتثليث فزعموا أن الإله واحد وهو الآب والابن والروح القدس وهم جوهر واحد متساوون في القدرة والمجد، فيقولون إله واحد في ثلاثة أقانيم فيزعمون أنَّ وحدانية اللَّه وحدانية حقيقية، وكذلك تثليثه، فهو واحد حقيقي، وهو في الوقت نفسه ثلاثة حقيقية، حيث يتميز كل واحد من هؤلاء الثلاثة بأعمال ومميّزات ليست من مميزات الآخر، مع اتحادهم في جوهرهم أي أن لهم ذاتًا واحدة، وهم متساوون في قدرتهم ومجدهم ووجودهم لم يسبق أحد منهم الآخر، ومع ذلك هم يقولون بأن بين الأقانيم الثلاثة تمييزا في الوظائف والعمل فبعض الأعمال تنسب في الكتاب المحرّف إلى الآب والابن والروح القدس مثل خلق العالم وحفظه، وبعض الأعمال تنسب على الخصوص إلى الآب مثل الاختيار والدعوة، وإن بعض الأعمال تنسب خصوصًا إلى الابن مثل الفداء، وبعض الأعمال تنسب خصوصًا إلى الروح القدس مثل التجديد والتقديس، فيتضح للعاقل من ذلك أن ادعاءهم الوحدانية ادعاء فارغ فلا يخرجهم ذلك من أن يكونوا مشركين، فقولهم بالتثليث جمعٌ بين النقيضين لأن الوحدانية تنفي الشرك، والشرك ينفي الوحدانية، فلا يمكن أن تجتمع الوحدانية والشرك، بل هما نقيضان لا يجتمعان كالسواد وعدمه، والنصارى

يعتقدون اجتماعهما مخالفين بذلك الحس والعقل والنقل، ويحاول النصارى أن يقربوا هذه العقيدة للناس بضرب الأمثلة لها، فمرة يشبهونها بالإنسان المكون من دم وروح وجسد، ومرة بالشمس المكونة من جرم وأنها تنير الأرض وتدفئها، ومنهم من شبهها بالشجرة بأن لها أصلًا وهي الجذور والساق والورق، وهذه التشبيهات ليس واحد منها يمكن أن يكون مطابقًا لدعوى النصارى في التثليث؛ لأن جميع هذه الأشياء إما أن تكون ذاتًا لها أجزاء وأبعاض مثل الإنسان والشجرة، أو صفات وءاثارا مثل الشمس، بخلاف دعواهم في التثليث فإنهم عندهم ثلاثة حقيقيون ذوو أعمال مختلفة متباينة، وهم في نفس الوقت واحد حقيقي، وهذا بخلاف الإنسان المتألف من دم وروح وجسد، فإن الدم ليس الروح، والروح ليس الجسد، والجسد ليس هو الروح والدم، وذلك بخلاف دعوى التثليث الذي يزعمون فيه أن كل واحد من الثلاثة هو الآخرَين، لهذا صرح كثير منهم بعدم معقولية التثليث وأنها قضية لا يفهمها العقل ولا يقبلها، فمن ذلك: قول القس «توفيق جيد» في كتابه «سر الأزل»: «إن الثالوث سر يصعب فهمه وإدراكه، وإن من يحاول إدراك سر الثالوث تمام الإدراك كمن يحاول وضع مياه المحيط كلها في كفه» اهـ ويقول «باسليوس إسحاق» في كتابه «الحق»: «أجل إن هذا التعليم عن التثليث فوق إدراكنا ولكن عدم إدراكه لا يبطله»، فهذا ما صرحوا به وتوصلوا إليه في النهاية: أن التثليث أمر مرفوض عقلًا وغير مقبول، ولكنهم مع ذلك يصدِّقون به، ويحاول بعضهم أن يشبه ذلك بقول المسلمين في صفات اللَّه عز وجل: «إن العقول لا تدركها»، وهذا تلبيس وتدليس منهم، لأن إثبات صفات اللَّه عز وجل أمر يقبله العقل بل يوجبه العقل ولا يرفضه، وذلك يختلف تمامًا عن التثليث الذي يزعمه النصارى وهو: أن الثلاثة الحقيقية هي الواحد الحقيقي، والواحد الحقيقي هو الثلاثة، فهذا لا يقبله العقل بل يحكم بردِّه قطعًا. وقد وجد في التوراة المحرفة الدلالة على التوحيد ومحاربة الشرك والوثنية، ومن الأدلة على هذا ما ورد في سفر التثنية (٤/ ٣٥): «إنك

قد أريت لتعلم أن الرب هو الإله ليس آخر سواه»، وكذلك ما ورد في سفر التثنية (٦/ ٤): « اسمع يا إسرائيل الرب إلهنا رب واحد»، وفي إنجيل متّى المحرف (٤/ ٧): «قال له يسوع اذهب يا شيطان، لأنه مكتوب للرب إلهك تسجد وإياه وحدَه تعبد»، ومثله ورد في إنجيل لوقا (٤/ ٨)، وفي إنجيل مرقس (١٢/ ٢٨) المحرفَينِ أن أحد اليهود سأل المسيح «أيةُ وصية هي أول الكل؟ فأجابه يسوع: إن أول كل الوصايا هي اسمع يا إسرائيل الرب إلهنا رب واحد ... فقال له الكاتب: جيدا يا معلم بالحق قلت لأنه اللَّه واحد وليس ءاخر سواه» اهـ لقد أنطق اللَّه هؤلاء الكتّاب ببعض الحق والصدق، وهو أنه لا إله إلا اللَّه وحده وعيسى المسيح رسوله، فأين هذا الكلام الواضح من دعوى التثليث التي افتراها ضلال النصارى وغَلَوا في دينهم وقالوا بها على اللَّه غير الحق؟ قال اللَّه عز وجل ﴿يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ لَا تَغۡلُواْ فِي دِينِكُمۡ وَلَا تَقُولُواْ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلۡحَقَّۚ إِنَّمَا ٱلۡمَسِيحُ عِيسَى ٱبۡنُ مَرۡيَمَ رَسُولُ ٱللَّهِ وَكَلِمَتُهُۥٓ أَلۡقَىٰهَآ إِلَىٰ مَرۡيَمَ وَرُوحٞ مِّنۡهُۖ فَـَٔامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦۖ وَلَا تَقُولُواْ ثَلَٰثَةٌۚ ٱنتَهُواْ خَيۡرٗا لَّكُمۡۚ إِنَّمَا ٱللَّهُ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞۖ سُبۡحَانَهُۥٓ أَن يَكُونَ لَهُۥ وَلَدٞۘ لَّهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۗ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلٗا ١٧١﴾[1].

والوزير هو الموازر الذي يحمل عن الآخر الثقل والأعباء، فاللَّه تعالى منزه عن أن يحتاج إلى وزير يعينه، بل هو الغني الذي يفتقر إليه كل ما عداه، فمن الضلال قول ابن تيمية في مجموع الفتاوى (٥/ ٥٠٧) ما نصه: « ومما يدل على ذلك أنه ذكره بصيغة الجمع فقال: ﴿وَنَحۡنُ أَقۡرَبُ إِلَيۡهِ مِنكُمۡ﴾[2] ﴿وَنَحۡنُ أَقۡرَبُ إِلَيۡهِ مِنۡ حَبۡلِ ٱلۡوَرِيدِ﴾[3] وهذا كقوله سبحانه ﴿نَتۡلُواْ

(١) سورة النساء / ١٧١.

(٢) سورة الواقعة / ٨٥.

(٣) سورة ق / ١٦.

عَلَيْكَ مِن نَّبَإِ مُوسَىٰ وَفِرْعَوْنَ بِٱلْحَقِّ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾[١] وقال ﴿ نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ ٱلْقَصَصِ بِمَآ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ ﴾[٢] وقال **(إن علينا جمعه وقرءانه فإذا قرأناه فاتبع قرءانه ثم إن علينا بيانه﴾**[٣] فإن مثل هذا اللفظ إذا ذكره اللَّه تعالى في كتابه دل على أن المراد أنه سبحانه يفعل ذلك بجنوده وأعوانه من الملائكة، فإن صيغة نحن يقولها المتبوع المطاع العظيم الذي له جنود يتبعون أمره وليس لأحد جند يطيعونه كطاعة الملائكة ربهم وهو خالقهم وربهم فهو سبحانه العالم بما توسوس به نفسه وملائكته تعلم؛ فكان لفظ نحن هنا هو المناسب» اهـ وفي هذا الكلام ضلالات منها ما ذكرناه ومنها أنه جعل الملائكة شركاء لله تعالى في فعله، مع أنه لا يخفى على أدنى طالب علم أن ضمير الجمع عند النحاة يستخدم للمعظم نفسه، وأما وصف الملائكة بأنهم جنود اللَّه فلا بأس به كما قال تعالى ﴿وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ﴾[٤] أي لا يعلم عدد الملائكة الذي هم جنود اللَّه إلا اللَّه، ومعنى كونهم جنوده أنهم عباده لا يعصون أمره ويفعلون ما يؤمرون.

(ص) وتعالى عن الشبيه والنظير ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴾.

(ش) قوله «تعالى» بمعنى ما تقدمه من عبارات التنزيه، والتنويعُ بها تفنن في التعبير، قال ابن غنيم النفراوي في الفواكه الدواني على رسالة ابن أبي زيد القيرواني (١/ ٤٠) ممزوجا بالمتن ما نصه: «(و)من واجب أمور الديانات على كل مكلف اعتقاد أنه تعالى (لا شبيه له ولا نظير له) في ذاته ولا في صفاته ولا في أفعاله، والنظير بمعنى الشبيه فهما لفظان مترادفان،

(١) سورة القصص / ٣.

(٢) سورة يوسف / ٣.

(٣) سورة القيامة / ١٧.

(٤) سورة المدثر / ٣١.

وإنما وجب تنزّهه عن الشبيه؛ لأنه تعالى لو أشبهه شيء من المخلوقات لكان مشبها له وجائزا عليه الفناء الجائز على المخلوقات، ولزم كونه خالقا ومخلوقا وقديما وحادثا وكل ذلك محال، قال تعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾[1] فأول هذه الآية تنزيه ففيه رد على المجسمة، وءاخرها إثبات ففيه رد على المعطلة النافين لزيادة جميع الصفات، وقدم فيها النفي على الإثبات وإن كان الأولى العكس في أماكن كثيرة؛ لأنه لو قدم الإثبات فيها لأوهم التشبيه بالمخلوق الذي سمعُه بأذن وبصره بحدقة، فقدم التنزيه ليعرف السامع ابتداءً أنه ليس مشابها لشيء من الحوادث، وهذه الآية دليل قاطع على مخالفته تعالى لسائر الحوادث وهي أقمع ءاية للشيطان عند تعرضه للإنسان في مقام البحث عن ذات البارئ وصفاته» اهـ وسيأتي مزيد كلام في ذلك إن شاء اللَّه تعالى.

(ص) والصلاةُ على سيّد الأنبياء، وتاج الأتقياء.

(ش) معنى صلاتنا على النبي طلبُنا من اللَّه أن يزيده شرفا وتعظيما فإنه يترقى في الكمالات على الدوام لأن الحسنات التي نعملها هو سببها فيتجدد له الثواب ولا ينقطع ثوابه بموته ﷺ.

وقوله «سيد الأنبياء» مأخوذ من قوله ﷺ فيما رواه البخاري «**أنا سيد الناس يوم القيامة**» وفي ذلك دليل على جواز إطلاق السيد على غير اللَّه تعالى كما دلت عليه الآية في حق يحيى ﴿وَسَيِّدًا وَحَصُورًا﴾[2] والحصور هو الذي لا يأتي النساء لعدم ميله إليهن لا لعلة فيه بل لو أراد لاستطاع فلا يوجد في الأنبياء عنّين، وروى البخاري أن رسول اللَّه ﷺ قال في الحسن بن علي «**إن ابني هذا سيد**» وروى الترمذي أن النبي ﷺ قال «**الحسن والحسين**

(١) سورة الشورى / ١١.

(٢) سورة ءال عمران / ٣٩.

سيدا شباب أهل الجنة» وروى الشيخان أن النبي ﷺ قال «**قوموا لسيدكم**» يعني سعد بن معاذ، وأما حديث «**السيد اللَّه**» أي أنه تعالى له السيادة المطلقة والخلق كلهم عبيده مقهورون بقدرته، وما يروى أن النبي قال «لا تسيدوني في الصلاة» فحديث موضوع قال السخاوي في المقاصد الحسنة (ص/ ٧٢٠): «لا أصل له» وقال الشهاب الكبير في حاشيته على أسنى المطالب (١/ ١٦٦): «باطل لا أصل له كما قاله بعض متأخري الحفاظ».

والأنبياء جمع نبي وهو ذكر حر سليم عن منفر طبعا أوحي إليه بشرع من قبله، والرسول ذكر حر سليم عن منفر طبعا أوحي إليه بشرع جديد إن قلنا إن شرع من قبلنا ليس شرعا لنا أو أوحي إليه بنسخ بعض شرع من قبله إن قلنا إن شرع من قبلنا شرع لنا، وخرج بالذكر غيره، وبالحر العبد، وبالسليم عن منفر طبعا من قام به ما تنفر منه الطباع السليمة كالجذام والبرص والتسمية بما اشتق من خبيث وغير ذلك.

والتاج ما اعتاد ملوك العجم أن يضعوه على رؤوسهم، والمراد أن النبي ﷺ أعظم الأتقياء كما أن التاج أعظم الحلي، والأتقياء جمع تقي وهو من يؤدي حقوق الحق وحقوق الخلق.

تنبيه: أفرد المصنف رحمه اللَّه هنا الصلاةَ عن السلام كما في أربع نسخ خطية، والأولى الجمع بينهما ولعل المصنف اكتفى هنا بالصلاة لما سيأتي من السلام أثناء المتن أو يكون قد سلّم بلسانه.

(ص) وعلى ءاله وأصحابه الأزكياء الأصفياء.

(ش) الآل هم الأتباع الصالحون، والأصحاب جمع صاحب بمعنى الصحابي وهو من اجتمع بالنبيّ صلّى اللَّه عليه وسلّم بطريق العادة مؤمنا به في حياته ولو من الجن ومات على الإيمان وإن تخلل بينهما ردة كعبد اللَّه ابن أبي سرح وإن لم تطل صحبته ولم يغز معه ولم يرو عنه كبعض الأعراب.

والأزكياء جمع زكي وهو الطيب الطاهر الشريف، والأصفياء جمع صفي وهو الصفوة من الشيء، وسيأتي مزيد كلام في الصحابة رضي اللَّه عنهم.

(ص) وبعد، فإنّه لا سعي أرضى عند اللّٰه تعالى من هداية العباد إلى سبيل الرشاد، والإبانةِ لهم عن المرضي من الاعتقاد، وهو اعتقادُ السنة والجماعة؛ إذ به يُنال خير الدارين، وسعادةُ المحلين، فمن تمسك به فقد اتبع الهدى، ومن حاد عنه فقد ضلّ وغوى.

(ش) بعدما بسمل المصنف رحمه اللَّه وحمدل وصلى على النبي شرع في ذكر توطئة يبين فيها سبب تأليف هذه الرسالة وهو أن من خير الأعمال المرضية عند اللَّه تعالى تعليمَ العامة أمر عقيدتهم التي بها نجاتهم في الآخرة، وفي حديث البخاري أن رسول اللَّه ﷺ قال لعلي: «**فواللَّه لأن يُهدى بك رجل واحد خير لك من حمر النعم**»، فإن من ختم له على عقيدة أهل السنة والجماعة فهو السعيد في الدنيا والآخرة، ومن ختم له على ما يخالفها فقد ضل في الدنيا وغوى في الآخرة، وربما أدى به ذلك إلى الخروج من الإسلام فيخلد في النار مهانا، وفي الحديث عن أبي هريرة رضي اللَّه عنه أنه قال سئل رسول اللَّه ﷺ أيُّ الأعمال أفضل؟ فقال: «**إيمان باللَّه**» رواه مسلم، وقال القاضي زكريا الأنصاري في الغرر البهية (١/ ٧) عند شرح قول ابن الوردي بأن الفقه أهم العلوم ما نصه: «المراد أنه الأهم بعد معرفة اللَّه تعالى ورسوله والإيمان بما جاء به» فإن الإنسان الذي لم يتعلم أمور الحلال والحرام مع سلامة عقيدته مآله الجنة وإن عذب قبل ذلك، وأما الإنسان الذي ختم له بالكفر فلا تنفعه الأعمال الحسنة التي يعملها في الدنيا فإن رأس مال المسلم عقيدته.

(ص) فجمعتُ اعتقاد السنة والجماعة صافيًا عن كدر البدعة وشَوْب الضلالة.

(ش) وصف المصنف رحمه اللَّه في هذه الجملة رسالته بأنها جمعت

اعتقاد أهل السنة والجماعة بحيث تكون صافية كالماء الزلال الذي لا يعكره شيء فجعلها خالية عن كدر عقائد أهل البدعة والضلال، وليعلم أن أهل السنة هم جمهور الأمة المحمدية وهم الصحابة ومن تبعهم في أصول الاعتقاد، وهي الأمور الستة المذكورة في حديث جبريل الذي قال فيه الرسول ﷺ: «**الإيمان أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر والقدر خيره وشره**» وأفضل هؤلاء أهلُ القرون الثلاثة المرادون بقول رسول اللَّه ﷺ: «**خير القرون قرني ثم الذين يلونهم ثم الذين يلونهم**» والقرن مائة سنة كما رجح ذلك الحافظ أبو القاسم ابن عساكر في تبيين كذب المفتري (ص/ ١٤٤)، وهم المرادون أيضًا بالجماعة الواردة فيما رواه أبو داود من حديث معاوية: «**وإن هذه الملة ستفترق على ثلاث وسبعين، ثنتان وسبعون في النار وواحدة في الجنة وهي الجماعة**»، وهم المرادون أيضًا بحديث الترمذي وغيره: «**أوصيكم بأصحابي ثم الذين يلونهم ثم الذين يلونهم**» وفيه قوله: «**عليكم بالجماعة وإياكم والفرقة فإن الشيطان مع الواحد وهو من الاثنين أبعد، فمن أراد بحبوحة الجنة فليلزم الجماعة**» صححه الحاكم وقال الترمذي: حسن صحيح، والجماعة هم السواد الأعظم ليس معناه صلاة الجماعة، كما يوضح ذلك حديث زيد بن ثابت أن الرسول ﷺ قال: «**ثلاث لا يَغِلُّ عليهم قلبُ المؤمن**[1]: **إخلاص العمل، والنصيحة لولي الأمر، ولزوم الجماعة، فإن دعوتهم تكون مِن ورائهم**[2]» قال الحافظ ابن حجر: حديث حسن. وفي القرن الثالث انتشرت بدعة المعتزلة وغيرهم فقيّض اللَّه تعالى إمامين جليلين

(١) أي أن من تمسك بهن طهر اللَّه قلبه من الحقد والخيانة اهـ. مرقاة المفاتيح (١/ ٣٠٧).

(٢) المعنى أن دعوة المسلمين قد أحاطت بهم فتحرسهم عن كيد الشيطان وعن الضلالة، وفيه تنبيه على أن من خرج من جماعتهم لم ينل بركتهم وبركة دعوتهم؛ لأنه خارج عما أحاطت بهم من ورائهم، وفيه إيماء إلى تفضيل الخلطة على العزلة اهـ. مرقاة المفاتيح (١/ ٣٠٨)

أبا الحسن الأشعري وأبا منصور الماتريدي رضي اللَّه عنهما فقاما بإيضاح عقيدة أهل السنة التي كان عليها الصحابة ومن تبعهم بإيراد أدلة نقلية وعقلية مع رد شبه المعتزلة وهم فرق عديدة بلغ عددهم عشرين فرقة، فقاما بالرد على شبه كل هذه الفرق أتم القيام وإبطالها فنسب إليهما أهل السنة، فصار يقال لأهل السنة أشعريون وماتريديون كما قال الإمام محمد مرتضى الزبيدي في الإتحاف.

فإن قيل إن بين الأشاعرة والماتريدية اختلافًا في مسائل في العقيدة فكيف يكون كل منهما الفرقة التي قال فيها الرسول: «**فمن أراد بحبوحة الجنة فليلزم الجماعة**»؟ فالجواب: أنه ليس بينهما اختلاف في أصول العقيدة إنما الخلاف بينهما في بعض فصول العقيدة وفروعها، وهذا لا يقدح في كونهما الفرقة الناجية، فإن هذا الخلاف كالخلاف الذي حصل بين الصحابة في رؤية النبي ربَّه ليلة المعراج، فقد نفتها عائشة وابن مسعود وأثبتها عبد اللَّه بن عباس وأبو ذر الغفاري وأنس بن مالك، مع أن الصحابة متفقون في أصول العقيدة، فيجب الاعتناء بمعرفة عقيدة الفرقة الناجية الذين هم السواد الأعظم، فهم فرقة واحدة في العقيدة ولهذا يصح لنا أن نقول الأشعري ماتريدي والماتريدي أشعري، وفي هذا يقول شيخنا الهرري رحمه اللَّه: [مشطور الرجز]

جمهورُ هذي الامةِ الأشاعِره ... حُجَجُهُمْ قَويَّةٌ وسافِرَه

أئمةٌ أكابِرٌ أخيارُ ... لم يُحصهمْ بعدَدٍ دَيّارُ

قولُوا لمن يذُمُّ الاشعريَّه ... نِحْلَتُكمْ باطِلةٌ رديَّه

والماتُريْديةُ معْهم في الأصولْ ... وإنما الخِلافُ في بعضِ الفُصولْ

كالخُلفِ من عائشةٍ للحَبرِ ... لرؤيةِ النبيّ ربَّ الفَجرِ

ليلةَ مِعراجِ النبيّ الطاهرِ ... الصادقِ المصدوقِ بالأوامرِ

فهؤلاء الفِرقةُ الناجيَةُ ... عُمدتهم ألسُّنَّةُ الماضِيَةُ

قد جمعوا الإثباتَ والتنزيها ونفَوا التعطيلَ والتشبيها
فالأشعريُّ ماتريديٌّ وقلْ الماتريديْ أشعريٌّ لا تُبَلْ

(ص) وعملتُه مختصرًا ليسهل حفظُه ويعمّ نفعُه.

(ش) ذكر المصنف رحمه اللَّه هنا سبب اختصار رسالته، وذلك ليسهل حفظها على الطلبة وتنتشر بين الناس فيعم نفعها فإن الناس قد كلّت هممهم قديما وحديثا عن دراسة المطولات، ومن جملة ما يذكر في ذلك ما حكاه أبو القاسم بن عقيل الوراق عن الإمام أبي جعفر محمد بن جرير الطبري (ت ٣١٠) فإنه قال لأصحابه: أتنشطون لتفسير القرءان؟ قالوا: كم يكون قدره؟ فقال: ثلاثون ألف ورقة، فقالوا: هذا مما تفنى الأعمار قبل تمامه، فاختصره في نحو ثلاثة ءالاف ورقة. ثم قال: هل تنشطون لتاريخ العالم من ءادم إلى وقتنا هذا؟ قالوا: كم يكون قدره؟ فذكر نحو ما ذكره في التفسير، فأجابوه بمثل ذلك، فقال: **إنا لله ماتت الهمم**، فاختصره في نحوٍ مما اختصر التفسير[1].

(ص) رجاءَ أن يكون ذكرًا لي في الدنيا وذُخرا في العقبى.

(ش) ذكر المصنف رحمه اللَّه في هذه الجملة رجاءه من هذا التأليف وهو أن يُذكر في الدنيا بالذكر الحسن والدعاء وأن يثاب على ذلك في الآخرة كما قال سيدنا علي رضي اللَّه عنه لكُميل بن زياد[2]: «العلم يكسب العالم الطاعةَ في حياته وجميلَ الأحدوثة بعد موته، وصنيعةُ المال تزول بزواله، مات خُزان الأموال وهم أحياء، والعلماء باقون ما بقي الدهر؛ أعيانهم مفقودة وأمثالهم في القلوب موجودة».

(١) التاج السبكي. طبقات الشافعية الكبرى (٣/ ١٢٣).
(٢) الخطيب البغدادي. الفقيه والمتفقه (١/ ١٨٢).

(ص) وسمّيته «المعتمد في المعتقد».

(ش) ذكر المصنف رحمه اللَّه في هذه الجملة اسم كتابه وهو «**المعتمد في المعتقد**»، وفي بعض النسخ الخطية «**المعتمد من المعتقد**»، وفي هذه التسمية تشجيع للسامع على الاهتمام والاعتناء به بدراسته وتدريسه وحفظه وفهمه، وقد جرى المصنف رحمه اللَّه في عقيدته على طريقة الماتريدي رحمه اللَّه تعالى كما سنبينه لك في مواضعه إن شاء اللَّه تعالى.

(ص) فأقول وباللَّه التوفيق.

(ش) ذكر المصنف رحمه اللَّه في هذه العبارة فعل القول «أقول» ومتن الرسالة كله مفعول به مقول القول، وقوله «وبالله التوفيق» جملة اعتراضية لا محل لها من الإعراب، وفي تقديم الجار والمجرور إفادة الحصر ومفهومه أنه لا توفيق بغير اللَّه تعالى وفي ذلك رد على القدرية القائلين بأن العبد يخلق فعله، وسيأتي الكلام عن معنى التوفيق والخذلان إن شاء اللَّه تعالى.

(ص) اعلموا - رحمكم اللَّه - أن ما سوى اللّٰه فهو مخلوق اللّه، النورُ والظلمة والسموات وما فيها من الشمس والقمر والنجوم والأرضون وما عليها من الجبال والبحار والأشجار وأنواع النبات وأصناف الحيوانات الضارّ منها والنافع، لم يكن شيء من ذلك فكان بتكوين اللَّه.

(ش) بدأ المصنف رحمه اللَّه رسالته ببيان حدوث العالم علويه وسفليه، وأن كل ما حدث إنما حدث بخلق اللَّه وتكوينه، والعالم هو كل ما سوى اللَّه تعالى، وقوله «مخلوق اللَّه» أي مخلوق خلقه اللَّه تعالى، وضرب لذلك أمثلة منها ما هو جسم لطيف ومنها ما هو جسم كثيف ومنها ما هو من العالم العلوي ومنها ما هو من العالم السفلي ومنها ما هو نافع ومنها ما هو ضار.

فأول الأمثلة النور والظلمة قال تعالى ﴿وَجَعَلَ ٱلظُّلُمَٰتِ وَٱلنُّورَ﴾ وأول ما خلق اللَّه تعالى الماء ثم خلق العرش ثم القلم ثم اللوح، فالنور والظلمة خلقا

بعد هذه المخلوقات الأربعة وهما من الأجسام اللطيفة والجسم اللطيف هو ما لا يقبض باليد بخلاف الكثيف، ووهمُنا قاصر عن تصور وقتٍ لا ظلام فيه ولا نور مع تصديق عقولنا بذلك، ويعلم من ذلك أنْ ليس من شرط الموجود إمكانُ تصوره فليست العبرة بالوهم إنما محور اعتقاد المسلم على العقل السليم لأن العقل لا يرد ذلك بل يقبله ويسلم به، فما قبله العقل وجاء الشرع به قبلناه وإن قصر وهمنا عن تصوره، وفي ذلك رد على المجوس القائلين بأزلية النور كما سيأتي.

ثم ذكر المصنف أمثلة من العالم العلوي وهي السموات والشمس والقمر والنجوم وأمثلة من العالم السفلي وهي الأرضون والجبال والبحار والأشجار والنبات والحيوانات، فكل ذلك وجد بتكوين اللَّه تعالى له قال تعالى ﴿وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ﴾[1]، قال الزركشي في تشنيف المسامع (٤/ ٦٣١) ما نصه: «وهذا العالم بجملته علويّه وسفليه جواهره وأعراضه محدَث أي بمادته وصورته كان عدمًا فصار موجودًا، وعليه إجماع أهل الملل ولم يخالف إلا الفلاسفة ومنهم الفارابي وابن سينا قالوا إنه قديم بمادته وصورته، وقيل قديم المادة محدث الصورة، وحكى الإمام في المطالب قولًا رابعًا بالوقف وعدم القطع وعزاه لجالينوس فإنه قال في مرض موته: اكتب عني أني ما عرفت أن العالم محدث أو قديم، وأني ما عرفت أن النفس هو المزاج أو شيء غيره، قال: ولهذا طعن به عليه، وقيل: إنه خرج من الدنيا كما دخل حيث لم يعرف حقيقة الأشياء، **وكل هذه الأقوال باطلة، وقد ضللهم المسلمون في ذلك وكفروهم، وقالوا: من زعم أنه قديم فقد أخرجه عن كونه مخلوقًا للَّه**» اهـ ثم قال: «ومن قال بقدم العالم فقد أخرج العالم العلوي والسفلي والملائكة عن كونه مخلوقًا لله تعالى، وقد برهن الأئمة على حدوثه البراهينَ القاطعة ومنها أنه يتغير عليه الصفات ويخرج من حال إلى حال، وهو ءاية الحدوث، واقتفوا

(١) سورة الفرقان / ٢.

في ذلك طريقة الخليل صلوات اللَّه عليه، فإن اللَّه سمّاها حجّة وأثنى عليها فاستدل بأفول الكواكب وشروقها وزوالها بعد اعتدالها على حدوثها، واستدل بحدوث الآفل على وجود المحدِث، والحكم على السموات والأرض بحكم النيّرات الثلاثة وهو الحدوث طرْدًا للدليل في كل ما هو مدلوله لتساويها في علة الحدوث وهي الجسمانية، فإذا وجب القضاء بحدوث جسم من حيث إنه جسم وجب القضاء بحدوث كل جسم وهذا هو المقصود من طرد الدليل».

وممن وافق الفلاسفة أحمد بن تيمية الحراني فإنه قال في شرح حديث عمران بن حصين: «جنس العالم قديم مع اللَّه وأفراده حادثة» وعبر في كتابه نقد مراتب الإجماع بالنوع وقال في المنهاج (١/ ٣٨٩): «وحينئذ فيمتنع كون شيء من العالم أزليا وإن جاز أن يكون نوع الحوادث دائما لم يزل» وقد أثبت هذه المسألة عنه الحافظان تقي الدين السبكي في الدرة المضية وأبو سعيد العلائي كما نقله عنه ابن طولون في الذخائر (ص/ ٦٩) وغيرهما، وقال الحافظ الزبيدي في الإتحاف: «قال البَكِّي فإذن العالم كله حادث وعلى هذا إجماع المسلمين بل وكل الملل ومن خالف في ذلك **فهو كافر لمخالفته الإجماع القطعي**». وقال القاضي عياض في الشفا (٢/ ٦٠٦) ما نصه: «وكذلك نقطع على كفر من قال بقدم العالم» ومما يرد قولهم – أعني الفلاسفة وأضرابهم – من المنقول قوله تعالى ﴿**هو الأول والآخر**﴾[1] وقوله عليه الصلاة والسلام فيما رواه البخاري وغيره «**كان اللَّه ولم يكن شيء غيره**».

وبرهان العلماء من أهل السنة على حدوث العالم منحصر في الكلام على حدوث الأجرام والصفات القائمة بها وهو مبني على إثبات أصول سبعة جمعها بعضهم فقال: [الرجز]

زيـدٌ، مَ قـامَ، مـا انتقلْ، مـا كمُنا مـا انـفـكَّ، لا عـدمَ قـديـمٍ، لا حنا

(١) سورة الحديد / ٣.

فالأصل الأول إثبات زائد تتصف به الأجرام، والثاني إبطال قيام ذلك الزائد في نفسه، والثالث إبطال انتقال العرض من جِرم إلى ءاخر، والرابع إبطال كمونه، والخامس إثبات ملازمة الأجرام للأعراض، والسادس إثبات استحالة انعدام القديم، والسابع إثبات استحالة دخول حوادث لا أول لها في الوجود، ولنا أن نقول بعبارة موجزة: العالم مؤلف من أجرام وأعراض والأعراض حادثة بالمشاهدة وهي ملازمة للأجرام فالأجرام حادثة فالعالم حادث.

وفي قول المصنف «الضار منها والنافع» إشارة إلى أن اللَّه تعالى خلق المتضادات وذلك من كمال قدرة اللَّه تعالى وإشارة إلى أنه خلق ما فيه مصلحة للعباد وما لا مصلحة لهم فيه وفي ذلك رد لمقالة المعتزلة بوجوب الأصلح عليه تعالى، وسيأتي بسط ذلك إن شاء اللَّه تعالى.

وقوله «لم يكن شيء من ذلك فكان بتكوين اللَّه» جار على طريقة السادة الماتريدية من أن كل ما وجد من المخلوقات فقد خلقه اللَّه بتكوينه، والتكوين صفة فعل أزلية أبدية قائمة بذاته تعالى بها يبرز كل شيء من الأحجام والأعراض من العدم إلى الوجود، فوظيفة التكوين إيجاد الممكن وإعدامه، وسيأتي مزيد كلام في ذلك إن شاء اللَّه تعالى.

(ص) ولم يكن لشيء من ذلك قبل كونه بتكوين اللّه أصلٌ ومادّةٌ، بل كوّن ذلك كله بلا أصل ولا مادّة.

(ش) هذا بيان أن تكوين اللَّه تعالى للمخلوقات لا عن أصل ومادة، بل هو إبراز من العدم إلى الوجود، ونقول إن الماء أصل لغيره وهو خُلق من غير أصل فبداية العالم من غير مادة ولا يحيل العقل وجود أصل العالم من العدم من غير مادة، وبعض الأشياء خلقت من الماء بلا واسطة كالعرش وبعضها خلق من الماء بوسائط كالجن، وخالف الفلاسفة فذهبوا إلى القول بأن الشيء لا يخلق من لا شيء وأنه لا بد للخلق من مادة أولى تسمى الهيولى لا صورة لها؛ وعلى هذا الفلاسفة المنتسبون للإسلام كالفارابي وابن سينا وابن رشد الحفيد

الزاعمين أنه لا نصوصَ دينية صريحة في أن اللَّه خلق العالم من العدم؛ ولذا دعا ابن رشد الحفيد إلى التوسع في تأويل النصوص الدينية على هَدي العقل بزعمه، وقد كان على القول بقدم العالم كثير من فلاسفة النصارى دون بعضهم كالفيلسوف يوحنا فيلوبونوس المعروف عند العرب باسم: «يحيى النحوي» حيث ردّ على بروقلس في قوله بقدم العالم مؤكدًا خَلقَ اللَّه العالم من العدم، ونقل عن أفلاطون القول بحدوث العالم وفسروه بالحدوث الذاتي لا الزمني؛ إذ الحدوث عندهم يطلق على معنيين أحدهما المسبوقية بالعدم وهو الحدوث الزماني والثاني المسبوقية بالغير أي الاحتياج إليه في الوجود وهو الحدوث الذاتي فالعالم عندهم بهذا المعنى حادث لافتقاره إلى اللَّه في وجوده لا على أنه عندهم وجد بعد عدم، وتوقف منهم جالينوس في هذه المسألة في ءاخر عمره كما في كتاب «ما يعتقده جالينوس رأيا»، ونقل عنه أنه قال في مرض وفاته لبعض تلامذته: «اكتب عني أني ما علمت أن العالم قديم أو حادث» إلا أن المقرر عندهم والثابت حكمهم فيه هو قولهم بقدم العالم كما ذكره الغزالي في التهافت.

والقول باحتياج الحادث إلى مادة سابقة عليه باطل لأنه يستلزم أحد أمور ثلاثة وهي: كون موجود في الخارج بلا تعين وتشخصٍ في ذاته أو كون أشياء كثيرة متفرقةٍ في أقطار العالم شخصًا واحدا أو كون الهيولى حادثة، والأولان ممتنعان في الواقع والثالث ممتنع عندهم، وبيان اللزوم هو أن هيولى هذا الحيوانِ مثلا لا تخلو إما أن تكون متشخصة أو لا فإن كان الثاني فهو اللازم الأول، وإن كانت متشخصة فلو مات ذلك الحيوان وتفتت أجزاؤه وطيرتها الرياح إلى المشارق والمغارب وأكلت منها السباع والطيور فهل بقيت شخصية تلك الهيولى أو لا؟ فإن كان الأول فهو اللازم الثاني، وإن كان الاحتمال الثاني فهو اللازم الثالث لأن الهيولى على هذا قد انعدمت بزوال تشخصها فتكون حادثة لأن ما ثبت قدمه امتنع عدمه وأجزاؤها المتفرقة على هذا قد عرضت لها تشخصات متعددة فتكون هي أيضا حوادث محتاجة.

قال الزركشي في تشنيف المسامع (٤/ ٦٥١) ما نصه: «قوله (ثم أحدث هذا العالم) أي باختياره خلافا للفلاسفة في قولهم فاعل بالذات وقد سبق فساده والله سبحانه وتعالى فاعل بالاختيار فله تقديم الفعل وله تأخيره بحسب اختياره والدليل عليه قوله تعالى: ﴿وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ وَيَخْتَارُ﴾[١] ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾[٢] ﴿فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ﴾[٣] وقد برهن على ذلك بقوله تعالى: ﴿وَفِي ٱلْأَرْضِ قِطَعٌ مُّتَجَٰوِرَٰتٌ﴾[٤] الآية وتقديره أنه لو كان فاعلا بالطبع كما زعموا لما اختلفت أفعاله مع اتحاد أسبابها كالنار في إحراقها والماء في إغراقه وتبريده والشمس في تسخينها، ولكن أفعاله مختلفة مع اتحاد أسبابها لأن الجنس الواحد في الشجر كالرمان مثلا يسقى بماء واحد ثم يختلف في طعمه فمنه حلو ومنه حامض، فاختلاف طعومه مع اتحاد ما يغذيه وينميه دليل على أن الصانع فاعل بالاختيار لا بالطبع» اهـ

وقال أهل السنة المعدومُ ليس بشيء قال تعالى ﴿هَلْ أَتَىٰ عَلَى ٱلْإِنسَٰنِ حِينٌ مِّنَ ٱلدَّهْرِ لَمْ يَكُن شَيْـًٔا مَّذْكُورًا﴾[٥] وقال تعالى ﴿وَقَدْ خَلَقْتُكَ مِن قَبْلُ وَلَمْ تَكُ شَيْـًٔا﴾[٦] وقال تعالى ﴿أَوَلَا يَذْكُرُ ٱلْإِنسَٰنُ أَنَّا خَلَقْنَٰهُ مِن قَبْلُ وَلَمْ يَكُ شَيْـًٔا﴾[٧]، وخالف في ذلك المعتزلة حتى قال بعضهم الجوهر قبل وجوده جوهر والعرض عرض والسواد سواد والبياض بياض ويقولون إن هذه الصفات كلَّها متحققة قبل الوجود وإذا وجد لم يزدد في صفاته شيء بل هو الجوهر والعرض والسواد

---

(١) سورة القصص / ٦٨.

(٢) سورة البقرة / ٢٠.

(٣) سورة البروج / ١٦.

(٤) سورة الرعد / ٤.

(٥) سورة الإنسان / ١.

(٦) سورة مريم / ٩.

(٧) سورة مريم / ٦٧.

في حال الوجود على حقائقها المتحققة في حال العدم وهذا منهم تصريح بقدم العالم كما بينه أبو المظفر الأسفرايني في التبصير (ص/ ٦٣)، وذهب الجاحظ ومعتزلة البصرة إلى أن الشيء هو المعلوم، وذهب جمهور المعتزلة إلى أنه ما يصح أن يعلم ويخبر عنه، ويلزم على القولين أن يكون المستحيل شيئا وهو خلاف إجماعهم، وقال صاحب المواقف: إن هذه المسألة -يعني أن المعدوم ليس بشيء- من أمهات المسائل الكلامية كما نقله عنه في النبراس (ص/ ٣٤٦)، وبين الزركشي في التشنيف (٤/ ٧٤٣) أن مما بناه المعتزلة على هذه المسألة قولهم بأن الماهيات غير مخلوقة وتأثير الخالق إنما هو في جعل الذوات موجودة فإن المعتزلة لما قالوا إن ماهية المعدوم ثابتة في العدم ولا تأثير للصانع فيه إذا أوجده إلا في إعطاء صفة الوجود لتلك الماهيات، قالوا: إن الماهيات غير مجعولة بل المجعول جعلها موجودة اهـ فيظهر من كل ذلك فساد وشنع ما قاله بعض المعاصرين في برنامج «نور الدين» على قناة الناس التلفزيونية من أن أهل السنة احتاجوا في إثبات حدوث العالم وفي الرد على الفلاسفة إلى القول بأن المعدوم شيء وزعم أن هذا القول حل لنا إشكال الفيلسوف، وقال في المجلس نفسه «يخرج شعاع من القدرة فيصيب الشيء فيحوله من حال إلى حال بدل أن تكون صخرة يكسرها وبدل أن يكون عدما يوجده، وهذا لا يعارض شيئا من الشريعة ألبتة» وفي هذا قول بالتشبيه وقدمِ المعدومات ومفاسد أخرى فلا حول ولا قوة إلا باللَّه.

(ص) وكذلك الجنّة والنار والعرش والكرسيّ واللوح والقلم والملائكة والجنّ والشياطين؛ لم يكن شيء من ذلك فكان بتكوين اللَّه تعالى.

(ش) ذكر المصنف رحمه اللَّه هنا تسعة أمثلة زائدة على ما مر وهي:

الجنة وهي دار أعدها اللَّه للمؤمنين يدخلونها يوم القيامة وهي فوق السماء السابعة من غير اتصال بها بل منفصلة عنها بمسافة بعيدة ولها

أرضها المستقلة، روى البخاري «**إذا سألتم اللَّهَ فسلوه الفردوس فإنه أوسط الجنة وأعلى الجنة وفوقه عرش الرحمن**» وفي رواية ذكرها السيوطي وغيره «**وسقفها عرش الرحمن**» وهو أوسع منها، ومن يدخلها من البشر يكون على صورة سيدنا ءادم عليه الصلاة والسلام من حيث الحجم ستون ذراعا طولا في سبعة أذرع عرضا جميلو الصورة؛ فإن المؤمن أقل ما يعطى في الجنة من الجمال مثل جمال يوسف الصديقِ عليه الصلاة والسلام ويجعل اللَّه تعالى في كل واحد علامة تميزه عن غيره، وهم جرد جمع أجرد وهو من لا شعر على جسده ومرد جمع أمرد وهو من لا لحية له فليس لهم إلا شعر الرأس والأجفان والحاجبين، وكلهم كأنهم في عمر ثلاثة وثلاثين عاما كما جاء في مسند أحمد.

النار وهي دار أعدها اللَّه للتعذيب يوم القيامة مكانها تحت الأرض السابعة كما جاءت بذلك الأحاديث الصحيحة من غير أن تكونَ متصلة بها بل هي منفصلة عنها فليس سقف النار هو الأرض السابعة بل لها أرضها وسقفها الخاصان بها، ويزيد اللَّه في حجم الكافر في النار ليزداد عذابا بزيادة الحجم؛ إذ لو بقي على حجمه لذاب من اللحظة الأولى حتى يكونُ ضرسه كجبل أحد وسماكة جلده أربعين ذراعا وما بين منكبيه مسيرة ثلاثة أيام، وهو خالد في النار أبدا لا يخرج منها ولا يخفف عنه العذاب، وسيأتي الكلام عن وجود الجنة والنار الآن وبقائهما إن شاء اللَّه تعالى.

العرش وهو ثاني المخلوقات وهو جرم علوي لم يخلق اللَّه تعالى أكبر منه بعضه سقف الجنة وبعضه فوق ماء، وهو قبلة الملائكة الذين عنده، وأول ما خلق خلق طافيا على وجه الماء والماء تحت جزء من العرش ثم جعل بينهما فراغ واسع، وهو من عجائب العالم العلوي خلقه اللَّه تعالى إظهارا لقدرته ولم يتخذه مكانا لذاته كما روى أبو منصور البغدادي في الفرق بين الفرق (ص/ ٣٢١) عن سيدنا علي رضي اللَّه عنه، وفوقه كتاب مكتوب فيه «**إن رحمتي سبقت غضبي**» رواه البخاري وابن حبان أي أن مظاهر الرحمة

أكثر من مظاهر الغضب فالملائكة من مظاهر الرحمة وهي أكثر بكثير من الشياطين والجنة من مظاهر الرحمة وهي أكبر بكثير من النار، وللعرش الآن أربعة من الحملة جاء وصفهم في الحديث «**أذن لي أن أحدث عن ملك من ملائكة اللَّه من حملة العرش إن ما بين شحمة أذنه إلى عاتقه مسيرة سبعمائة عام**» وأما يوم القيامة فيحمله ثمانية كما قال تعالى ﴿**ويحمل عرشَ ربك فوقهم يومئذ ثمانية**﴾[1]، وقال الشيخ عبد اللَّه بن أسعد اليافعي اليمني (ت ٧٦٨) بعد أن ذكر عقيدة الصوفية في تنزيه اللَّه عن الجهة والمكان ما نصه: «فأنا أذكر الآن عقيدتي معهم على جهة الاختصار فأقول وباللَّه التوفيق: الذي نعتقده أنه سبحانه وتعالى استوى على الوجه الذي قاله وبالمعنى الذي أراده استواء منزهًا عن الحلول والاستقرار والحركة والانتقال، لا يحمله العرش بل العرش وحملته محمولون بلطف قدرته، لا يقال أين كان ولا كيف كان ولا متى، كان ولا مكان ولا زمان وهو الآن على ما عليه كان، تعالى عن الجهات والأقطار والحدود والمقدار» اهـ

الكرسي وهو جرم كثيف علوي تحت العرش بمثابة ما يضع القاعد عليه رجلاه وهو أصغر من العرش روي عن أبي ذر أنه قال سمعت رسول اللَّه يقول «**ما الكرسي في العرش إلا كحلقة من حديد ألقيت في فلاة من الأرض**»، وقال تعالى ﴿وَسِعَ كُرْسِيُّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ﴾[2] وروي في الحديث المرفوع «**ما السموات السبع في الكرسي إلا كدراهم سبعة ألقيت في ترس**» وقال الغماري في بدع التفاسير (ص/ ٢٣) ما نصه: «ومن بدع التفاسير قول المعتزلة الكرسي هو العلم، والمعنى وسع علمه السموات والأرض، لجؤوا إلى هذا التفسير لإنكارهم الكرسي والعرش ونحوهما مما ثبت بالنص».

اللوح وهو رابع المخلوقات وروي في وصفه أنه درة بيضاء حافتاه ياقوتة

---

(١) سورة الحاقة / ١٧.

(٢) سورة البقرة / ٢٥٥.

حمراء ومساحته مسيرة خمسمائة عام، واختلف في مكانه فقال بعضهم كالحافظ ابن حجر في الفتح (١٣/ ٥٢٦) هو فوق العرش وقال بعضهم هو تحته إذ لم يرد نص صريح في محله، وقال تعالى ﴿وَكُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ فِي إِمَامٍ مُّبِينٍ﴾[١] وهو اللوح المحفوظ وهو أمُّ الكتاب المراد بقوله تعالى ﴿وَعِندَهُۥٓ أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ﴾[٢].

القلم وهو ثالث المخلوقات وروي أنه يشبه النور، وأما حديث «**أول ما خلق اللَّه تعالى القلم**» فهي أولية نسبية[٣] وفي الحديث «**فقال له اكتب! فقال: وما أكتب؟ فجرى القلمُ بما كان وما يكون**» فالقلم كتب بقدرة اللَّه، وليس المراد أن القلم يعلم ما كتبه بل اللَّه هو الذي يعلم ذلك، وما كُتِب في اللوح المحفوظ هو كل ما يحصل في الدنيا من كبيرة وصغيرة إلى يوم القيامة وليس إلى ما لا نهاية له لأن اللوح متناهٍ فلا يسع أن يُكتب فيه ما لا نهاية له وصُرح بذلك في بعض الروايات حيث جاء فيها «**فكتب ما كان وما يكون إلى يوم القيامة**»، وبعد خمسين ألف سنة خلق اللَّه السموات والأرض وما بينهما في ستة أيام لأن بدء خلق الأرض كان يوم الأحد وتم تكوينها يوم الاثنين وبدءُ خلق السماوات السبع كان يوم الثلاثاء وتم تكوينها يوم الأربعاء فالسموات والأرض كوّنتا في أربعة أيام ثم كوّن اللَّه تعالى مرافق هذه الأرض التي نحن نعيش عليها من جبالها وأنهارها وغير ذلك مما أودعه فيها في اليومين التاليين وهما الخميس والجمعة كل يوم منها قدر ألف سنة بتقدير سنينا هذه، وفي ءاخر اليوم السادس أي يوم الجمعة خلق اللَّه سيدَنا ءادم فمكث في الجنة مائة وثلاثين عاما ثم أهبط إلى الأرض فعاش فيها ما أتم به ألفَ عام ثم توفي عليه صلاة اللَّه وسلامه.

---

(١) سورة يس / ١٢.

(٢) سورة الرعد / ٣٩.

(٣) أي بالنسبة لما بعده لا بالنسبة لما قبله.

الملائكة جمع ملك على غير قياس وهم ﴿عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ ﴿٢٦﴾ لَا يَسْبِقُونَهُۥ بِٱلْقَوْلِ وَهُم بِأَمْرِهِۦ يَعْمَلُونَ﴾[1] أجسامهم نورانية لطيفة مبرؤون من الكدورات النفسانية والظلمات الحيوانية لا يأكلون ولا يشربون ولا ينامون وليسوا ذكورا ولا إناثا كما قال سعيد بن المسيب وهو مجمع عليه، وثبت أنهم يتشكلون بغير صورهم الأصلية ففي البخاري ومسلم مجيء جبريل إلى النبي ﷺ بصورة رجل شديد بياض الثياب شديد سواد الشعر وأما صورة الملك الأصلية فهي صورة ذات جناحين فأكثر فقد جاء في الصحيح من حديث عبد اللَّه بن مسعود أن النبي ﷺ رأى جبريل في صورته التي هي ذات ستمائة جناح لكن لا يتصورون بشكل أنثى كما تزعم النصارى حتى إنهم يصنعون تماثيل نسائية ذات جناحين، ولهم وظائف مختلفة منهم وسائط بين اللَّه تعالى وبين أنبيائه المبعوثين إلى الخليقة أي يبلغون أوامر اللَّه تعالى إلى أنبيائه ومنهم من وكل بالجبال ومنهم من وكل بالريح ومنهم من وكل بالمطر ومنهم من وكل بالزرع ومنهم من وكل بقبض الأرواح ومنهم من وكل بالعذاب ومنهم من وكل بوقايتنا من أذى الشياطين إلى غير ذلك، وأفضل الملائكة خواصهم وهم جبرائيل ومن مهامه إنزال الوحي على الأنبياء وتصريف الرياح ووزن الأعمال يوم القيامة، وميكائيل ومن مهامه أمر المطر والنبات ووزن الأعمال مع جبريل يوم القيامة، وإسرافيل وهو الموكل بالنفخ في الصور، وعزرائيل وهو الموكل بقبض أرواح العالمين وله أعوان يساعدونه وقال بعضهم الأرض بالنسبة له كالكف، ونقل القاضي عياض في الشفا الإجماع على أن اسم ملك الموت عزرائيلُ، ورضوان خازن الجنة، ومالك خازن النار، وحملة العرش، وأفضلهم جبريل رئيس الملائكة. وكل سماء لها رئيس من الملائكة فالسماء الأولى لها رئيس يسمى إسماعيل وتحت يده اثنا عشر ألفا من الملائكة ولا يموت الواحد منهم إلا بعد النفخ في الصور،

(١) سورة الأنبياء / ٢٧.

والملائكة أكثر من الجن وهم أكثر من البشر، وقال تعالى في وصف خزان النار ﴿عَلَيْهَا مَلَٰٓئِكَةٌ غِلَاظٌ﴾ في الأقوال ﴿شِدَادٌ﴾ في الأفعال ﴿لَّا يَعْصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾[1] وهذه الآية تعم بحكمها جميع الملائكة وإن كانت واردة في صفة خزنة النار بدليل قوله تعالى في صفة الملائكة ﴿يَخَافُونَ رَبَّهُم مِّن فَوْقِهِمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾[2] فإن هذه الآية ليست خاصة في طائفة منهم دون أخرى فلا يصح ما ذكر في بعض الكتب أن هاروت وماروت عصيا ربهما عندما نزلا إلى الأرض وأنهما شربا الخمر وزنيا بامرأة يقال لها الزُّهَرة وأنهما قتلا الولد الذي حبلت به منهما وقد حكى النسفي وابن الجوزي أنه لا أصل لهذه القصة وكذلك لا يصح أن إبليس من طائفة من الملائكة يقال لها الجن إذ قد جاء في وصفه أنه خلق من نار كما في قوله تعالى حكاية عن إبليس ﴿خَلَقْتَنِى مِن نَّارٍ﴾[3] والملائكة خلقوا من نور كما جاء في الحديث الذي رواه مسلم: «**خُلقت الملائكةُ من نورٍ، وخُلق الجانُّ من مارجٍ من نارٍ، وخلق ءادمُ مما وصف لكم**» والأصل في العطف التغاير.

الجن والمراد بهم هنا المؤمنون من ولد إبليس، وفيهم أولياء صلحاء يحافظون على حقوق اللَّه وحقوق العباد، ولكن لا أنبياء فيهم وفي أيام موسى مثلا كان ثَم جن مؤمن بموسى وفي أيام عيسى كذلك وفي شريعتنا كذلك، وروي أن أربعة أشخاص خرجوا من اليمن قاصدين مكة فأدركهم الليل في البرية فنزلوا في بعض الليل في أرض فناموا إلا جعد بن قيس المرادي فسمع هاتفا لا يرى شخصه يقول: [الطويل]

ألا أيها الركبُ المعرّسُ بلّغوا إذا ما وصلتم للحطيمِ وزمزما

(١) سورة التحريم / ٦.

(٢) سورة النحل / ٥٠.

(٣) سورة ص / ٧٦.

محمدا المبعوثَ منّا تحيةً تشيّعه من حيثُ سارَ ويمما
وقولوا له إنا لدينك شيعة بذلك أوصانا المسيح ابن مريما

فهذا الهاتف جني مؤمن أدرك عيسى قبل رفعه إلى السماء وءامن به وسمع منه وصيته بالإيمان بمحمد إذا ظهر واتباعه، فلما وصلوا إلى مكة سأل جعدُ ابن قيس أهل مكة عن محمد فاجتمع به فآمن به وأسلم وذلك كان في أول بعثة محمد ﷺ قبل أن ينتشر خبره في الجزيرة العربية.

الشياطين جمع شيطان وهو من بقي على متابعة جده الأكبر إبليس، ثم هم أنواع منهم نصارى ومنهم يهود ومنهم مجوس ومنهم بوذيون إلى غير ذلك كالإنس لهم أديان مختلفة، ولا يعلمون الغيب قال تعالى ﴿فَلَمَّا خَرَّ تَبَيَّنَتِ ٱلْجِنُّ أَن لَّوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ٱلْغَيْبَ مَا لَبِثُوا۟ فِى ٱلْعَذَابِ ٱلْمُهِينِ﴾[1] والمراد بالجن هنا الكفار منهم فإن اللَّه تعالى قهرهم لسليمان إذا خالفوا أمره ينزل اللَّه تعالى عليهم عذابا في الدنيا يهلكهم به فظلوا سنة كاملة يشتغلون بالأعمال التي هو كلفهم بها ولم يشعروا بموته ثم تسلقت الأرضة على عصاه فأكلتها فخر سليمان فعلمت الجن بموته، وعلمت الجن أنهم لا يعلمون الغيب وأنهم لو كانوا يعلمون الغيب ما لبثوا في العذاب المهين أي الأعمال الشاقة التي كلفهم بها سليمان سنة كاملة، وعلم البشر أيضا أن الجن لا تعلم الغيب.

(ص) وكذا صفات هذه الأشياء من الحركة والسكون والاجتماع والافتراق والألوان والطعوم والروائح، والعلم والجهل، والقدرة والعجز، والسمع والصَمَم، والبصر والعمى، والنطق والبَكَم، والصحّة والمرض، والحياة والموت، كلّها مخلوقة اللَّه تعالى.

(ش) بعدما ذكر المصنف رحمه اللَّه خلق اللَّه للذوات نبه على أنه

(١) سورة سبأ / ١٤.

خالق للأعراض أيضا وضرب لذلك أمثلة عديدة فبدأ بالأكوان الأربعة التي لا يخلو كل جرم عن الاتصاف باثنين منها وهي الحركة والسكون والاجتماع والافتراق، فإن كان الجرم في اللحظة الثانية في الحيز الذي كان فيه في اللحظة الأولى فهو ساكن وإلا فهو متحرك، وإن كان الجرم محاذيا لجرم ءاخر بحيث لا يوجد فراغ بينهما فهما مجتمعان وإلا فمفترقان، وأما الألوان فقيل أصولها السواد والبياض وقيل أصولها خمسة البياض والسواد والحمرة والخضرة والصفرة وما عدا ذلك بالتركيب، والطعوم تسعة وهي المرارة والحرافة[١] والملوحة والعفوصة والحموضة والقبض[٢] والحلاوة والدسومة والتفاهة، والروائح متعددة ليس لها أسماء خاصة وإنما تميز بالإضافة نحو رائحة العود ورائحة الوردِ أو بالنعوت نحو رائحة طيبة ورائحة منتنة.

ومثل المصنف رحمه اللَّه بسبعة أعراض مع ذكر مقابلها وهي العلم والقدرة والسمع والبصر والنطق والصحة والحياة وهي أعراض تدل على الكمال، ومقابلها على الترتيب الجهل والعجز والصمم والعمى والبكم والمرض والموت وهي أعراض تدل على النقصان، ويفهم من ذلك أن العجز صفة وجودية تقابل القدرة تقابُل الضدَّين فليس العجز هو عدم القدرة فقط، وكذا يقال في الموت فإنه صفة وجودية تقابل الحياة ويدل لذلك ظاهر قوله تعالى ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْمَوْتَ وَٱلْحَيَوٰةَ﴾[٣].

(١) كطعم الزنجبيل.

(٢) كطعم البُسر.

(٣) سورة الملك / ٢.

(ص) وكذا أفعالُ العباد وهي أكسابهم وإن كانت أفعالهم حقيقةً على طريق الاختيار لا الجبرِ حتى يتعلقَ بها الأمرُ والنهي والمدح والذمّ والوعد والوعيد؛ فهي مخلوقة اللّه تعالى كما قال عزّ وجلّ: ﴿ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَيۡءٖ﴾.

(ش) نبّه المصنف رحمه اللَّه هنا على أن أفعال العباد مخلوقة لله تعالى مكتسبة للعباد، فتنسب الأفعال للعباد حقيقة على وجه الكسب لأنها تصدر منهم باختيارهم لا بالجبر ولهذا توجه إليهم الأمر والنهي ويمدحون على الطاعة ويوعدون بالثواب عليها ويذمون على المعصية ويوعدون بالعقاب عليها قال تعالى ﴿ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَيۡءٖ﴾[1] والشيء يشمل الجسم وعمل الجسم، قال التفتازاني في شرح العقائد «والشيء عندنا الموجود» فالله خلق كل ما دخل في الوجود من الأعيان من الذرة إلى العرش والأعمالِ سواء كانت اختيارية أم اضطرارية، فأعمال الإنسان الاختيارية موجودة فهي داخلة في الآية.

وخالف في هذه المسألة القدرية وبعض الروافض وحزبُ التحرير أتباع تقي الدين النبهاني فخالفوا القرءان والسنة والإجماع والعقل، قال تعالى ﴿قُلۡ﴾ أي يا محمد ﴿إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحۡيَايَ﴾ أي حياتي ﴿وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ١٦٢ لَا شَرِيكَ لَهُۥ﴾[2] أي أعلِم قومك بأنك لا تشرك باللَّه لا في صلاتك ولا في نسكك والنسك هو ما يذبح تقربا إلى اللَّه من الذبيحة فهذا الذبح للَّه أي ملك للَّه وخلق له، وأعلِمْهم أن حياتك ومماتك ملك لله لا تشرك به في ذلك شيئا، فاللَّه جعل الصلاة والنسك وهما من أفعال العبد الاختيارية والمحيا والممات وهما ليسا من أفعال العبد الاختيارية خلقا له تعالى لا يشاركه أحد في ذلك، والأفعال الاختيارية أكثر بكثير من غير الاختيارية فلو كان كل فعل اختياري من العبد بخلق العبد لكان ما يخلقه العبد من أعماله أكثر

---

(١) سورة الزمر / ٦٢.

(٢) سورة الأنعام / ١٦٢.

مما يخلقه اللَّه من أعمال العباد، وخالفوا قوله تعالى ﴿وَنُقَلِّبُ أَفْـِٔدَتَهُمْ وَأَبْصَـٰرَهُمْ﴾[١] فقد أخبر اللَّه في هذه الآية بأن عمل العبد القلبي وعمله الذي يعمله بجوارحه من فعل اللَّه تعالى، ومما يدل على أن اللَّه خلق أعمال العبد الخيرَ منها والشر قولُه تعالى ﴿وَإِن تُصِبْهُمْ حَسَنَةٌ يَقُولُوا۟ هَـٰذِهِۦ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ۖ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَقُولُوا۟ هَـٰذِهِۦ مِنْ عِندِكَ ۚ قُلْ كُلٌّ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ﴾[٢] وقوله تعالى ﴿وَلَا يَنفَعُكُمْ نُصْحِىٓ إِنْ أَرَدتُّ أَنْ أَنصَحَ لَكُمْ إِن كَانَ ٱللَّهُ يُرِيدُ أَن يُغْوِيَكُمْ﴾[٣] وقال تعالى ﴿خَتَمَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَعَلَىٰ سَمْعِهِمْ ۖ وَعَلَىٰٓ أَبْصَـٰرِهِمْ غِشَـٰوَةٌ﴾[٤] وقال ﴿بَل طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ﴾[٥] وقال ﴿وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَن تُؤْمِنَ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾[٦] وأنكر اللَّه تعالى في القرءان الكريم صدورَ الخلق من غيره بقوله ﴿وَٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَا يَخْلُقُونَ شَيْـًٔا وَهُمْ يُخْلَقُونَ ﴿٢٠﴾﴾[٧] وبقوله ﴿هَـٰذَا خَلْقُ ٱللَّهِ فَأَرُونِى مَاذَا خَلَقَ ٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦ ۚ بَلِ ٱلظَّـٰلِمُونَ فِى ضَلَـٰلٍ مُّبِينٍ ﴿١١﴾﴾[٨] وهذا تصريح بأن العبد لا يصير مسلما إلا بأن يجعله اللَّه مسلما فالإسلام لا يحصل إلا بخلق اللَّه، وقال تعالى ﴿قُلْ هَلْ أُنَبِّئُكُم بِشَرٍّ مِّن ذَٰلِكَ مَثُوبَةً عِندَ ٱللَّهِ ۚ مَن لَّعَنَهُ ٱللَّهُ وَغَضِبَ عَلَيْهِ وَجَعَلَ مِنْهُمُ ٱلْقِرَدَةَ وَٱلْخَنَازِيرَ وَعَبَدَ ٱلطَّـٰغُوتَ﴾[٩] وهذا تصريح بأنه تعالى جعلهم عبدة الطاغوت وقال تعالى

---

(١) سورة الأنعام / ١١٠.

(٢) سورة النساء / ٧٨.

(٣) سورة هود / ٣٤.

(٤) سورة البقرة / ٧.

(٥) سورة النساء / ١٥٥.

(٦) سورة يونس / ١٠٠.

(٧) سورة النحل / ٢٠.

(٨) سورة البقرة / ١٢٨.

(٩) سورة المائدة / ٦٠.

﴿وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُۥ عَن ذِكْرِنَا﴾[١] فلا يمكن حمل هذه الآية إلا على خلق الغفلة في القلب ثم إن الآية ﴿إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَٰهُ بِقَدَرٍ﴾[٢] تكفي للرد عليهم، وزعموا أن القدَرَ هنا هو العلم نقول لهم القدر في الآية اتَّبع الخلقَ قال اللَّه ﴿خَلَقْنَٰهُ بِقَدَرٍ﴾ فهذا نص على أن كل شيء خرج من العدم ودخل في الوجود هو بتخليقه تعالى وإيجاده فدلت هذه الآيات على أن كل ما يدخل في الوجود من جسم وحركة وسكون ولون وتفكير وألم ولذة وفهم وعجز وضعف كل ذلك بإيجاد اللَّه تعالى لا غير وإنما العباد يفعلون كسبا ولا يخلقون فليس للعبد إلا الكسب وهو أمر دون الخلق، قال الإمام الطحاوي: «أفعال العباد خلق اللَّه تعالى وكسب من العباد».

وأما مخالفتهم للحديث فقد روى مسلم في صحيحه والبيهقي وغيرهما أن رسول اللَّه ﷺ قال: «**كلُّ شيء بقدر حتى العجز والكيس**» والعجز البلادة والكيس الذكاء وقال ﷺ فيما رواه الحاكم والبيهقي من حديث حذيفة: «**إن اللَّه صانع كل صانع وصنعته**» أي كل عامل وعمله وقال ﷺ: «**القدرية مجوس هذه الأمة إن مرضوا فلا تعودوهم وإن ماتوا فلا تشهدوهم**» رواه أبو داود في سننه والبيهقي في كتاب القدر، وقال ﷺ: «**ستة لعنتهم ولعنهم كل نبي مجاب الزائد في كتاب اللَّه والمكذب بقدر اللَّه**» الحديثَ أخرجه الترمذي والطبراني وغيرهما، وجاء في المكذب بالقدر حديث ابن جرير الطبري في تهذيب الآثار وهو قوله ﷺ: «**صنفان من أمتي لا نصيب لهما في الإسلام القدرية والمرجئة**» وسموا قدرية لأنهم أثبتوا القدر لأنفسهم فنسبوا خلق الأعمال لهم ونفوا القدر عن اللَّه تعالى فهم جرّدوا أنفسهم من الإسلام وانسلخوا منه كما تنسلخ الحية من جلدها، وروى الترمذي بإسناده عن الحسن بن علي أنه قال علمني رسول اللَّه ﷺ كلمات أقولهن في الوتر:

---

(١) سورة الكهف / ٢٨.

(٢) سورة القمر / ٤٩.

«**اللهم اهدني فيمن هديت، وعافني فيمن عافيت، وتولني فيمن توليت، وبارك لي فيما أعطيت، وقني شر ما قضيت، إنك تقضي ولا يقضى عليك**» الحديثَ فدل قوله «**اللهم اهدني فيمن هديت**» على أن الهداية من اللَّه وقوله «**وقني شر ما قضيت**» على أنه تعالى قضى بالشر كما أنه قضى بالخير، وقولُه عليه الصلاة والسلام: «**وكتب في الذكر كل شيء**» يدل على أن العبد لو أتى بخلاف ذلك المكتوب لصار حكم اللَّه باطلا وخبره كذبا وذلك محال والمؤدي إلى المحال محال فثبت أن كل ما كتب في اللوح المحفوظ واقع وأن العبد لا قدرة له على خلافه.

وأما مخالفتهم لصريح العقل فهو أنه لو كان فعل العبد بخلقه لكان عالما به على وجه الإحاطة ضرورة أنه مختار والاختيار فرع العلم لكنه لا يحيط علما بفعله لما يجد كلُّ عاقل عدم علمه حال قطعه لمسافة معينة بالأجزاء والأحياز والحركات التي بين المبدأ والمنتهى، ولو جاز أن يكون فعل العبد واقعا مخلوقا بقدرته لجاز أن تكون الجواهر وسائر الأعراض بقدرته وذلك باطل، وقال أهل الحق: «امتنع خلق العبد لفعله لعموم قدرة اللَّه تعالى وإرادته وعلمه» وبيان ذلك أن يقال إن قدرة اللَّه عامة وعلمه عام وإرادته عامة فإن نسبتها إلى الممكنات نسبة واحدة فإن وجود الممكن العقلي إنما احتاج إلى القادر من حيث إمكانه وحدوثه فلو تخصصت صفاته هذه أي الإرادة والقدرة والعلم ببعض الممكنات للزم اتصافه تعالى بنقيضها من الجهل والعجز والاضطرار وذلك نقص والنقص عليه محالٌ، ولاقتضى تخصصها مخصِّصا وتعلق المخصص بذات الواجب الوجود وصفاته وذلك محال، فإذن ثبت عموم صفاته فلو أراد اللَّه تعالى إيجاد حادث وأراد العبد خلافه ونفذ مراد العبد دون مراد اللَّه للزم المحال المفروض في إثبات إلهين وتعددُ الإله محال بالبرهان فما أدى إلى المحال محال.

وهذا المذكور عليه إجماع المسلمين كما نقله الطحاوي وغيره، وقال الأستاذ أبو منصور عبد القاهر بن طاهر البغدادي في كتابه تفسير الأسماء

والصفات: «أصحابنا أجمعوا على تكفير المعتزلة» وقال في الفرق بين الفرق (ص/ ٣٢٨): «فَمن زعم أن العباد خالقون لأكسابهم فَهُوَ قدري مُشْرك بربه؛ لدعواه أن العباد يخلقون مثل خلق اللَّه من الأعراض الَّتِي هي الحركات والسكون في العُلُوم والإرادات والأقوال والأصوات، وقد قال اللَّه عز وجل في ذمّ أصحاب هذا القول ﴿أَمْ جَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ خَلَقُوا كَخَلْقِهِ فَتَشَابَهَ الْخَلْقُ عَلَيْهِمْ قُلِ اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ﴾[1]» ثم قال: «ومن قال إن العبد مكتسِب لعمله والله سبحانه خالق لكسبه فهو سنيّ عدْلي منزّه عن الجبر والقدر».

ومن نصوص الصحابة على تكفير القدرية ما رواه البيهقي في كتاب القدر بالإسناد الصحيح عن سيدنا عمر رضي اللَّه عنه أن رجلا من أهل الذمة قال أمامه في الجابية وهي أرض في الشام «إن اللَّه لا يُضِلُّ أحدا» فغضِبَ عمر وقال: «كذبتَ يا عَدو اللَّه، ولولا أنك من أهل الذِّمة لَضربتُ عنقك، هو أضلكَ وهو يدخلك النار» اهـ

وروى أيضا عن سيدنا عليّ رضي اللَّه عنه أنه قال: «إن أحدكم لن يخلص الإيمانُ إلى قلبه حتى يستيقن يقينا غير شك أن ما أصابه لم يكن ليخطئه وما أخطأه لم يكن ليصيبه ويقِر بالقدر كله» اهـ

وروى أحمد وأبو داود وابن حبان عن ابن الدّيلمي عن أُبيّ بن كعب وعبد اللَّه بن مسعود وحذيفةَ بن اليمان وزيد بن ثابت رضي اللَّه عنهم قولهم: «لو أنفقت مثل أحد ذهبا في سبيل اللَّه ما قَبِلَه اللَّه منك حتى تؤمن بالقدر وتعلم أن ما أصابك لم يكن ليخطئك وما أخطأك لم يكن ليصيبكَ، ولو متّ على غير هذا دخلت النار» اهـ

وروى ابن أبي حاتم في تفسيره (١٠/ ٣٣٢١) عن عطاء بن أبي رباح قال أتيتُ ابن عباس رضي اللَّه عنهما وهو ينزع من زمزم وقد ابتلت أسافِل

(١) سورة الرعد / ١٦.

ثيابه فقلت له: قد تُكُلِّمَ في القدر، فقال: أوَفعلوها، قُلتُ: نعم، قال: فوالله ما نزلت هذه الآية إلا فيهم ﴿ذُوقُوا۟ مَسَّ سَقَرَ ﴿٤٨﴾ إِنَّا كُلَّ شَىْءٍ خَلَقْنَٰهُ بِقَدَرٍ﴾[1] أولئك شِرار هذه الأمة فلا تعودوا مرضاهم ولا تُصلُّوا على موتاهُم إن رأيتُ أحدًا منهم فقأتُ عينيه بإصبعيَّ هاتين اهـ وروى اللالكائي عنه بإسناده إلى ابن جريج قال أخبرني عطاء قال سمعت ابن عباس يقول «كلام القدرية كُفر» اهـ

وقد أُخبِرَ ابنُ عمر رضي اللَّه عنهما أيضا بحدوث القول في القدر في العراق على مقتضى كلام المعتزلة فقال للمخبِرِ وهو يحيى بنُ يَعمُر من أجلاء التابعين: «أخبِرهُم أني بريءٌ منهم وأنهم برءاء مني والذي يحلِف به عبد اللَّه لو أن أحدهم أنفق مثلَ أحد ذهبا ما قُبِلَ ذلك منه حتى يؤمن بالقدر خيره وشره» رواه مسلم.

وروى البيهقي في كتاب القدر عن لبيدٍ قال: سألتُ واثلة بنَ الأسقع رضي اللَّه عنه عن الصلاة خلفَ القدري فقال: لا تصلِّ خلف القدري أما أنا لو صليتُ خلفه لأعدتُ صلاتي اهـ

وروى عن الحسين بن علي بن أبي طالب رضي اللَّه عنهما أنه قال: واللَّه ما قالت القدرية بقول اللَّه ولا بقول الملائكة ولا بقول النبيين ولا بقول أهل الجنة ولا بقول أهل النار ولا بقول صاحبهم إبليس اهـ وسيأتي بيان ذلك.

وأما التابعون فمنهم ابن الديلمي كما رواه أحمد وأبو داود والبيهقي.

ومنهم يحيى بن يعمر وحميد بن عبد الرحمن الحميري، رواه مسلم والترمذي وغيرهما وهما سمعا حديث ابن عمر رضي اللَّه عنهما المذكور ءانفا.

ومنهم أبو سهيل عمُّ الإمام مالك وعمرُ بن عبد العزيز رضي اللَّه عنهما فقد روى البيهقي في القدر عن أبي سهيل أنه قال: كنت أمشي مع عمر بن

(١) سورة القمر / ٤٩.

عبد العزيز فاستشارني في القدرية فقلت: أرى أن تستتيبهم فإن تابوا وإلا عرضتَهم على السيف، فقال عمر بن عبد العزيز: وذلك رأيي، قال مالك: وذلك رأيي اهـ

ولعمر بن عبد العزيز رضي اللَّه عنه رسالة مشهورة في الرد على القدرية، رواها أبو نعيم وغيره.

ومنهم التابعي الجليل محمد بن سيرين فقد روى البيهقي عنه أنه قال: «إن لم يكن أهل القدر من الذين يخوضون في ءايات اللَّه فلا أدري من هم» أي هم الخائضون فيها.

ومنهم الحسن البصري فقد روى ابن عساكر في تاريخه عن عاصم قال سمعت الحسن البصري يقول: من كذب بالقدر فقد كذب بالحق، إن اللَّه تبارك وتعالى قدَّر خلقا وقدَّر أجلا وقدَّر بلاء وقدَّر مصيبة وقدَّر معافاة، فمَن كذب بالقدر فقد كذب بالقرءان اهـ

وأفتى الزهري عبدَ الملك بن مروان بدماء القدرية كما ذكره الإمام عبد القاهر التميمي في أصول الدين.

ولعنهم سالم بن عبد اللَّه بن عمر رضي اللَّه عنهم كما روى البيهقي عن عكرمة بن عمار أنه قال: سمعت سالم بن عبد اللَّه يلعن القدرية اهـ

وصرح بكفر القدرية من أتباع التابعين جماعة كبيرة منهم الإمام مالك ابن أنس صاحب المذهب المشهور فقد روى البيهقي عن إسحاق بن محمد الفرَوي أنه قال سئل مالك عن تزويج القدري فقال: ﴿وَلَعَبْدٌ مُّؤْمِنٌ خَيْرٌ مِّن مُّشْرِكٍ﴾[1] اهـ

ومنهم الإمام أبو حنيفة[2] كما صرح في بعض رسائله وقد قال: الكلام

(١) سورة البقرة / ٢٢١.

(٢) هذا على طريقة من عده من أتباع التابعين، وإلا فقد اعتمد بعضهم أنه من التابعين.

بيننا وبين القدرية في حرفين يقال لهم: هل علم اللَّه ما يكون من العباد قبل أن يفعلوا؟ فإن قالوا «لا» كفروا لأنهم جهّلوا ربهم، وإن قالوا: «علم» يقال لهم: هل شاء خلاف ما علمه؟ فإن قالوا «نعم» كفروا لأنهم قالوا شاء أن يكون جاهلا، وإن قالوا «لا» رجعوا إلى قولنا اهـ ولذلك قال الإمام الشافعي رضي اللَّه عنه: القدري إذا سلّم العلم خُصِمَ اهـ

وقد كَفَّرَ الشافعي حفصا المنفرد من رؤوس المعتزلة وقال له: «لقد كَفرتَ باللَّه العظيم» اهـ رواه البيهقي في مناقب الشافعي.

وأما تكفير أحمد بن حنبل لهم فمعروف مشهور عنه رواه جماعة منهم البيهقي وابن الجوزي وغيرهما.

وروى البيهقي في الأسماء والصفات تكفير أبي حنيفة وأبي يوسف لهم بل قال أبو يوسف فيهم: إنهم زنادقة اهـ

ومنهم سفيان الثوري كما روى البيهقي عن أحمد بن يونس أنه قال: سمعت رجلا يقول لسفيان الثوري: إن لنا إماما قدريا قال: لا تقدموه، قال: ليس لنا إمامٌ غيره، قال: لا تقدّموه اهـ

ومنهم سفيان بن عيينة روى البيهقي عن أيوب بن حسان أنه قال سُئلَ ابن عيينة عن القدرية فقال: «يا ابن أخي قالت القدرية ما لم يقل اللَّه عزَّ وجل ولا الملائكة ولا النبيون ولا أهل الجنة ولا أهل النار ولا ما قال أخوهم إبليس» اهـ وسيأتي بيانه وهو المروي عن الحسين كما تقدم.

ومنهم محمد الباقر بن علي زينِ العابدين كما روى البيهقي عن الحارث ابن شُريح البزار قال قلت لمحمد بن علي: يا أبا جعفر إن لنا إماما يقول في هذا القدر فقال: «يا ابن الفارسي انظر كل صلاة صليتها خلفه فأعدها، إخوان اليهود والنصارى، قاتلهم اللَّه أنّى يؤفكون» اهـ

ومنهم الإمام المجتهد أبو عمرو عبد الرحمن الأوزاعي فإنه كَفَّرَ غيلان

القدري وقال لهشام بن عبد الملك: «يا أمير المؤمنين دمه في عنقي» اهـ رواه ابن عساكر في تاريخ دمشق بروايات عدة.

ومنهم الحافظ يحيى بن سعيد القطَّان فقد روى أبو نعيم في تاريخ أصبهان عن سعيد بن عيسى الكزبري يقول سمعتُ يحيى بن سعيد القطَّان يقول: «شيئان ما يخالج قلبي فيهما شكٌّ تكفير القدرية وتحريم النبيذ» اهـ

ومنهم إبراهيم بن طهمان كما روى البيهقي عن الحسن بن عيسى أنه قال سمعت إبراهيم بن طهمان يقول: «الجهمية والقدرية كفّار» اهـ

وأما قول الحسين وسفيان «واللَّه ما قالت القدرية بقول اللَّه ولا بقول الملائكة ولا بقول النبيين ولا بقول أهل الجنة ولا بقول أهل النار ولا صاحبهم إبليس» فهاك بيانه:

أما مخالفتهم لقول اللَّه فاللَّه تعالى يقول ﴿وَٱللَّهُ يَدۡعُوٓاْ إِلَىٰ دَارِ ٱلسَّلَٰمِ وَيَهۡدِي مَن يَشَآءُ﴾[1] فقد خص الهداية وعم الدعوة فدل على أن الهدى بفضله والضلالة بقدره، كل ذلك مستند إلى سابق علمه، قال الماتريدي في تفسيره (٦/ ٣٢): «ذكر الاستثناء في الهداية ولم يذكره في الدعاء ليعلم أن لا كلُّ من يدعوه إلى دار السلام يهديه وإنما يهدي به من يعلم منه أنه يختار الهدى وذلك على القدرية».

فالمعتزلة خالفوا اللَّه تعالى في قولهم هذا لأنهم قالوا والعياذ باللَّه: العبد خلق الحسنات وعملها فصار فرضًا على اللَّه أن يدخله الجنة، وليس إدخاله للعباد الجنة فضلًا منه، معناه على زعمهم أن اللَّه مدين للعباد لأنهم خلقوا هذه الحسنات فهو ملزم بأن يدخلهم الجنة، والصواب أن اللَّه تعالى فضلًا منه يدخل المؤمنين الجنة لأنه هو الذي خلقهم وهو الذي ألهمهم أعمال الخير وهو الذي خلق فيهم هذه الجوارح وهو الذي خلق فيهم العقل الذي

(١) سورة يونس / ٢٥.

ميّزوا به الحق والباطل والحسن والقبيح وهو الذي خلق هذه الجنة، فإدخال الصالحين الجنة ليس فرضًا على اللَّه فليس العباد ممتنين على اللَّه بل هو الممتنُّ عليهم، كذلك اللَّه تبارك وتعالى لَما قال ﴿وَيَهۡدِي مَن يَشَآءُ﴾ أفهمنا أنه لا يهتدي أحد إلا بمشيئته الأزلية، والمعتزلة ينفون عن اللَّه الصفات.

وأما مخالفتهم للملائكة فقد قالت الملائكة ﴿سُبۡحَٰنَكَ لَا عِلۡمَ لَنَآ إِلَّا مَا عَلَّمۡتَنَآۖ﴾[١] معناه العلم الذي فينا أنت يا اللَّه تخلقه، وكذلك سائر أعمالنا الباطنية والظاهرية لا تكون إلا بمشيئة اللَّه وخلقه، أما المعتزلة قالوا علومنا وإدراكاتُنا نحن نخلقها.

وأما مخالفتهم للنَّبيّين فقد قال شعيبٌ في مقام التبرئ من المشركين وأعمالهم ﴿وَمَا يَكُونُ لَنَآ أَن نَّعُودَ فِيهَآ﴾[٢] أي في ملَّتكم، معناه نحن أنقذنا اللَّه من أن ندخل فيها ونعتقدها كما أنتم تعتقدونها ﴿إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّنَا﴾ معناه أما لو شاء اللَّه تعالى في الأزل أن نتبعكم لتبعناكم لكن ما شاء ذلك فلا نتبعكم، وقال تعالى حكاية عن نوح عليه السلام ﴿وَلَا يَنفَعُكُمۡ نُصۡحِيٓ إِنۡ أَرَدتُّ أَنۡ أَنصَحَ لَكُمۡ إِن كَانَ ٱللَّهُ يُرِيدُ أَن يُغۡوِيَكُمۡ﴾[٣] فأثبت نوح للَّه تبارك وتعالى المشيئة لأعمال العباد خيرها وشرها أي أن الطاعات من عباده تحصل بمشيئته وأن معاصيهم تحصل بمشيئته.

وأما مخالفتهم لأهل الجنة فأهل الجنة قالوا ﴿وَمَا كُنَّا لِنَهۡتَدِيَ لَوۡلَآ أَنۡ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ﴾[٤] اعترفوا بأن هذه الأعمال الصالحة التي استحقوا بها هذا النعيم المقيم ليس إلا بمشيئة اللَّه وخلقه فيهم، ولولا أن اللَّه خلق فيهم ذلك ما دخلوا هذه الجنة ولا نالوا هذا النعيم، والمعتزلة خالفت ذلك فقالت نحن خلقنا إيماننا

---

(١) سورة البقرة / ٣٢.

(٢) سورة الأعراف / ٨٩.

(٣) سورة هود / ٣٤.

(٤) سورة الأعراف / ٤٣.

وأعمالنا الصالحة فلذلك صار فرضًا لازمًا على اللَّه أن يثيبنا.

وأما مخالفتهم لأهل النّار فقد قال أهل النار ﴿رَبَّنَا غَلَبَتْ عَلَيْنَا شِقْوَتُنَا﴾[1] وهذا الكلام أيضًا فيه اعترافٌ ضمنيٌّ بأن اللَّه تبارك وتعالى شاء وخلق فيهم الضّلال الذي استحقّوا به هذه النار، لأن معنى غلبت علينا شقوتنا أي مشيئتك لنا الشقاوة غلبت علينا.

وأما مخالفتهم لإبليس فقد قال أخوهم إبليس ﴿قَالَ فَبِمَآ أَغْوَيْتَنِي لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَٰطَكَ ٱلْمُسْتَقِيمَ﴾[2] أي يا ربّ لأنك أغويتني أي كتبتَ عليَّ الغَواية بأن أضِلَّ باختياري لأقعدن لبني ءادم صراطك المستقيم أي لأخرجنهم وأبعدنهم منه، فهذا إبليس صار أفقه من المعتزلة في هذه المسألة لأنه عرف أن اللَّه هو خالق الغواية والضلالة فيمن ضلوا من عباد اللَّه وأنهم ليسوا مستقِلّين عن مشيئة اللَّه وتخليقه أي لا يعملون شيئًا من غير أن تسبق مشيئة من اللَّه في الأزل في ذلك الذي يحصل منهم.

وقال الصفار في تلخيص الأدلة (ص/ ٢٠٣) ما نصه: «لأن الإيمان باللَّه على التحقيق لا يكون إلا بإيمان بالقدر كله من اللَّه لأن الإلهية تقتضي أن يكون جميعُ ما سواه مقدورَه لأنه عَلِم ما يكون، ومن قال لم يعلم في الأزل ما يكون إلا عند كينونته فقد وصف اللَّه بالجهل فكان كافرا، فيجب أن يقول عَلِم اللَّه في الأزل ما يكون، وإذا عَلم في الأزل ما يكون فقد أراد أن يكون ليصدق علمه لأنه لو أراد أن يكون على خلاف ما علم صار جهلا ولو أراد أن يكون ثم كان خلافُ ما أراد كان عجزا والله متعال عن الجهل والعجز ولو كان شيء بغير علمه لكان نقصانا في الألوهية ومُلكه وقدرته، فثبت أنه لا يتم الإيمان بالإلهية إلا بالإيمان بالقدر خيره وشره من اللَّه فيجب الإيمان بهذه الجملة على التحقيق ويجب أن يعتقد في التفصيل ما يوافق

(١) سورة المؤمنون / ١٠٦.

(٢) سورة الأعراف / ١٦.

هذه الجملة، فإنّ من ءامن باللَّه في الجملة واعتقد في التفصيل التشبيهَ أو التجسيم فليس بمؤمن باللَّه فلا بد من معرفة تفصيل هذه الجملة». وقال ما نصه (ص/ ٥١٦): «واعلم أن من قال أنا مؤمن مسلم حقا ولكنه اعتقد في تفصيله ما يخالف الإيمان فهو كافر، نحو ما قال أبو حنيفة رضي اللَّه عنه في كتاب العالم والمتعلم أن من قال إني أعرف اللَّه ولكن هذا الإنسان ليس بمخلوق فهو كافر؛ لأن اللَّه خلق جميع ما سواه فيكون مخلوقَه فمن قال لشيء ليس بمخلوق اللَّهِ فلم يعرف اللَّه ... ويجب إكفار القدرية أيضا في نفيهم كون الشر بتقدير اللَّه في دعواهم أن كل فاعل خالق فعل نفسه لأن اللَّه تعالى قال ﴿وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ وقال أيضا ﴿فَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يَهۡدِيَهُۥ يَشۡرَحۡ صَدۡرَهُۥ لِلۡإِسۡلَٰمِۖ وَمَن يُرِدۡ أَن يُضِلَّهُۥ يَجۡعَلۡ صَدۡرَهُۥ ضَيِّقًا حَرَجًا﴾ الآية وقال ﴿إِنَّا كُلَّ شَيۡءٍ خَلَقۡنَٰهُ بِقَدَرٖ﴾ وقال ﴿أَمۡ جَعَلُواْ لِلَّهِ شُرَكَآءَ خَلَقُواْ كَخَلۡقِهِۦ فَتَشَٰبَهَ ٱلۡخَلۡقُ عَلَيۡهِمۡۚ قُلِ ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَيۡءٖ﴾ الآية فمن نفى القدر كله عن اللَّه فقد أنكر هذه الآية فإذا قال أنا مؤمن وهو يعتقد نفي القدر عن اللَّه كان كاذبا في قوله أنا مؤمن».

وقال محمد الخادمي في شرح رسالة محمد بن بير علي البركوي (ص/ ٢٢٥) ما نصه: «(وفيها) أي في التتارخانية (سئل) أي مصنفها (عن قوم ذات باري جلت قدرته محل حوادث ميكويند) أي يقولون بأن ذات البارئ محل للحوادث (ما حكمهم؟ قال) في الجواب (كافر شدن) أي صاروا كافرين (بي شك) بلا شك؛ إذ عدم كونه تعالى محلا للحوادث ثابت بالأدلة القطعية (وفيها سئل عمن قال بأن اللَّه تعالى عالم بذاته) أي ذاته عين علمه (ولا يقول له العلم، قادر بذاته ولا يقول له القدرة) وكذا سائر صفاته (وهم المعتزلة) وكذا الفلاسفة إذ عندهما أن جميع صفاته تعالى عين ذاته (هل يحكم بكفرهم أم لا؟ قال يحكم بكفرهم لأنهم ينفون الصفات ومن نفى الصفات فهو كافر)» اهـ

(ص) وفي الجملة ما لم يكن فكان فهو مخلوق اللَّه تعالى، لم يخلق غير اللَّه شيئًا كما قال: ﴿هَلۡ مِنۡ خَٰلِقٍ غَيۡرُ ٱللَّهِ﴾.

(ش) بعدما بين المصنف رحمه اللَّه شمول قدرة اللَّه تعالى وخلقِه للموجودات أعاد تلخيص ذلك بجملة واحدة وهي «ما لم يكن فكان فهو مخلوق اللَّه تعالى» أي أن كل شيء دخل في الوجود من الأعيان من الذرة إلى العرش ومن الأعمال من كل حركة للعباد وسكون ونيات وخواطر فهو بخلق اللَّه تعالى لم يخلقه أحد سواه. وقوله «لم يخلق غير اللَّه شيئا» يفيد العموم لأن «شيئا» نكرة في سياق النفي فتفيد عموم النفي فهو تأكيد لما سبق، وقوله تعالى ﴿هَلۡ مِنۡ خَٰلِقٍ غَيۡرُ ٱللَّهِ﴾[1] أي لا خالق إلا اللَّه فالاستفهام هنا للنفي كقول البوصيري في همزيته: [الخفيف]

كيفَ ترقى رقيَّك الأنبياءُ ... يا سماءً ما طاوَلَتْها سماءُ

وتفيد الآية العموم أيضا لأن لفظ «خالق» نكرة في سياق استفهامِ النفيِ وسبقت أيضا بمِن فتفيد النص في العموم.

وما تقدم كله في الخلق بمعنى الإبراز من العدم إلى الوجود، وأما الخلق بمعنى التصوير أو الكذب أو التقدير أو التسوية فيصح أن يضاف إلى العباد قال تعالى في حق عيسى عليه السلام﴿وَإِذۡ تَخۡلُقُ مِنَ ٱلطِّينِ كَهَيۡـَٔةِ ٱلطَّيۡرِ﴾[2] أي تصور كما فسره البغوي (٢/ ٣٩) وغيره فعيسى عليه السلام كان يصور من الطين صورة خفاش ثم يخلق اللَّه فيها الروح ثم تطير حتى تغيب عن أنظار الناس ثم تقع ميتة، والخلقُ بهذا المعنى يضاف إلى اللَّه وإلى المخلوق مع اختلاف في حقيقة المعنى، وليس المعنى أن عيسى عليه السلام يبرز الطير من العدم إلى الوجود، وقال تعالى ﴿فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحۡسَنُ ٱلۡخَٰلِقِينَ﴾ أي المقدرين

(١) سورة فاطر / ٣.

(٢) سورة ءال عمران / ٤٩.

كما قاله النسفي، فالله أحسن المقدرين لأن تقديره لا يخطئ ولا يتغير وتقدير غيره يجوز عليه الخطأ والتغير، فالخلق بهذا المعنى يضاف إلى اللَّه تعالى وإلى المخلوق كما في الآية، وقال زهير بن أبي سلمى: [الكامل]

ولأنـــتَ تـفـري مـا خـلـقـتَ وبـعْـ ـضُ الـقـومِ يـخـلـقُ ثـم لا يفري

أي أنت يا هرم بن سِنان تقدر وتنفذ ما تقدره وغيرك يقدر ولا ينفذ، وذلك لأنه أصلح بين طائفتين عظيمتين من العرب بين عبس وذكوان دامت الحرب بينهما سنين طويلة بسبب سباق حصل بينهما، قال الزبيدي في التاج (٢٥/ ٢٥٢): «أي أنت إذا قدرت أمرا قطعته وأمضيته وغيرك يقدر ما لا يقطعه؛ لأنه ليس بماضي العزم وأنت مضّاء على ما عزمت عليه». وهناك معنى خامس للخلق وهو التسوية فيقال «خلقت هذا الخشب كرسيا» أي سويته أملس يصلح للجلوس.

(ص) وللَّه تعالى في خلق كل من ذلك حكمةٌ علم العبادُ ذلك أو لم يعلموا، لا يسأل عما يفعل، يفعل ما يشاء، ويحكم ما يريد.

(ش) وليعلم أن اللَّه لا يخلق شيئا عبثا، ومن اعتقد أن اللَّه يخلق شيئا عبثا بلا حكمة فقد كفر كالذي يقول إن اللَّه لما خلق فلانا أراد أن يملأ به الفراغ، قال تعالى ﴿مَا خَلَقَ ٱللَّهُ ذَٰلِكَ إِلَّا بِٱلْحَقِّ﴾[1] أي لم يخلقه تعالى عبثا وباطلا بل لحكمة هو أعلم بها وجعل في المصنوعات دلالة على قدرته، وعلى العبد أن يطيع خالقه بأداء ما أمره به واجتناب ما نهاه عنه لأنه تعالى أهل لأن يطاع، وسواء في ذلك ما عقلت الحكمة فيه لنا وما لم تعقل الحكمة فيه لنا لأن بعض ما تعبدنا اللَّه به معقول المعنى لنا كبعض البيوع المحرمة مثل حبل الحبلة[2] والطير في الهواء والسمك في الماء فإن ذلك كثيرا ما يؤدي إلى النزاع

(١) سورة يونس / ٥.

(٢) هو بيع جنين الجنين وجزم في البحر ببطلانه. انظر: اللباب في شرح الكتاب=

بين المتبايعين وككون صلاة الصبح لم يزد عليها ركعتان لأن قراءتها أطول من غيرها، وبعضها غير معقول لنا ككون الصيام واجبا في رمضان دون رجب وكون الظهر أربع ركعات لا خمس وذلك ابتلاء منه واختبار لعباده فعلى العبد أن يسلم لربه ويسرع في طاعته سواء علم الحكمة أم لم يعلم، وليس للعبد أن يعترض على ربه في أفعاله فلا يقول معترضا على ربه لماذا خلقني فقيرا! أو لماذا خلق إبليس! أو لماذا ابتلاني بالمرض وأنا لا أعصيه! فإن ذلك خروج من الإسلام فإن اللَّه تعالى يفعل ما يشاء قال تعالى ﴿لَا يُسْـَٔلُ عَمَّا يَفْعَلُ﴾[1]، وقد كان في الماضي رجل اسمه حمار بن مالك بن نصر الأزدي ويعرف بحمار الجوف وكان زعيما في وادي الجوف في اليمن ولم يكن ببلاد العرب أخصبُ منه فيه من كل الثمار وذلك قبل البعثة بآلاف السنين وكان قد عاش أربعين سنة على الإسلام في كرم وجود ثم أهلك اللَّه تعالى أبناءه العشرة الذين خرجوا للصيد فأنزل اللَّه صاعقة قتلتهم فغضب من ربه فكفر باعتراضه على اللَّه تعالى وقال «لا أعبد من فعل هذا ببنيّ» ودعا قومه إلى الكفر فمن عصاه قتله، ولم يعش بعد ذلك مدة طويلة فأرسل اللَّه تعالى نارا في أسفل الوادى أحرقت الوادي ومن فيه فاحترق هو ومن معه، ولو صبر كان جزاؤه الجنة لكنه كفر بسبب الغضب، وهذا الرجل من شدة كفره صار مثلا عند العرب فيقولون «أكفر من حمار» كما ذكره النيسابوري في مجمع الأمثال (٢/ ١٦٨) والزبيدي في التاج (١١/ ٧٩).

وقوله «يفعل ما يشاء» مأخوذ من قوله تعالى ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَفْعَلُ مَا يَشَآءُ﴾[2] قال الماتريدي في التأويلات (٧/ ٤٠١) ما نصه: «هذا على المعتزلة لأنهم يقولون شاء أشياء فلم يفعل فهو يقول ﴿يَفْعَلُ مَا يَشَآءُ﴾». وسيأتي فساد قول

= (٢/ ٢٥)

(١) سورة الأنبياء / ٢٣.

(٢) سورة الحج / ١٨.

المعتزلة بوجوب الأصلح عليه تعالى.

وقوله «يحكم ما يريد» مأخوذ من قوله تعالى ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَحۡكُمُ مَا يُرِيدُ﴾[١] قال الماتريدي في التأويلات (٣/ ٤٣٨) ما نصه: «أي إلى اللَّه الحكمُ يحكم بما شاء من التحريم والتحليل فيما شاء على ما شاء، ليس إليكم التحكم عليه، وهذا ينقض قول المعتزلة؛ لأنهم يقولون «يريد طاعة كل أحد»، ولو أراد ذلك لحكم؛ لأنه أخبر أنه يحكم ما يريد، ولا جائز أن يريد ولا يحكم؛ فدل أنه لم يرد؛ لأنه لو أراد لحكم» انتهى، وقال شيخنا الهرري رحمه اللَّه تعالى في شرح قول النسفي «وهي [أي أفعال العباد] كلها بإرادته ومشيئته وحكمه» ما نصه: «قوله وحكمه أي حاصلةٌ بحكم اللَّه وأراد بالحكم هنا الإرادة التكوينية، ويقال إن الحكم هنا الخطاب التكويني وليس الخطاب التكليفي لأن اللَّه تعالى لا يكلف العباد بمعاصيه ولا بالمباحات» اهـ

(ص) والطاعات والمعاصي بقضاء اللَّه وقدره وإرادته ومشيئته غير أنّ الطاعات كما هي بقضاء اللّٰه وقدره وإرادته ومشيئته فهي برضاه ومحبته وأمره، والمعاصي بقضاء اللَّه وقدره وإرادته ومشيئته لكنها ليست برضاه ومحبته ولا بأمره.

(ش) بعدما بين المصنف رحمه اللَّه أن كل ما دخل في الوجود من خير أو شر فهو بخلق اللَّه تعالى لم يخلقه أحد سواه، شرع في بيان الفرق بين الطاعات والمعاصي التي هي أفعال خاصة بالمكلفين، وبدأ ذلك ببيان أن كلا منهما إنما وجد بقضاء اللَّه وقدره وإرادته ومشيئته، فالقضاء هو قضاء التكوين الذي لا يقدر العباد على رده وهو الخلق قال تعالى ﴿فَقَضَىٰهُنَّ سَبۡعَ سَمَٰوَاتٖ﴾[٢] وقال أبو المعين النسفي كما حكاه عنه منكوبرس في شرح الطحاوية (ص/ ٥٦٧):

---

(١) سورة المائدة / ١.

(٢) سورة فصلت / ١٢.

والمراد من قولنا الطاعات والمعاصي كلها بقضاء اللَّه أي بخلقه وتكوينه اهـ وقال كثير من الأشاعرة القضاء هو إرادة اللَّه المتعلقة بالحادثات، قال الأجهوري من المالكية[1]: [مشطور الرجز]

إرادةُ اللَّـهِ مـعَ التـعـلُّـقِ فـي أزلٍ قـضـاؤه فـحـقِّـقِ

وقال في النبراس (ص/ ١٧٤) ممزوجا بشرح السعد ما نصه: «لا يقال لو كان الكفر بقضاء اللَّه تعالى لوجب الرضا به أي بالكفر واللازمُ أي وجوب الرضا بالكفر باطل لأن الرضاء بالكفر كفر؛ لأنا نقول الكفر مقضي لا قضاء والرضاء إنما يجب بالقضاء دون المقضي، يريد أن السؤال مغالطة من اشتباه القضاء بالمقضي، ولا شك أن القضاء تكوين والكفر مكون والتكوين غير المكون والرضاء إنما يجب بالتكوين فقط» اهـ ولا شك أيضا أننا مكلفون بالرضا بما هو محبوب لله من الأشخاص والأعمال.

والقدر عرفه شيخنا الهرري في الصراط المستقيم (ص/ ١٠٥) بقوله: «هو تدبير الأشياء على وجه مطابق لعلم اللَّه الأزلي ومشيئته الأزلية» ويقال أيضا إن القدر يطلق على تحديد اللَّه لأفعال العباد وإخراجها على حسب ما هو الأليق بها في علم اللَّه تعالى بحيث يوجد ما كان في علم اللَّه أنه

حسن حسنا ويوجد ما كان في علم اللَّه أنه قبيح قبيحا فهذا حكمة، قال منكوبرس في شرح الطحاوية (ص/ ٥٢٠) ما نصه: «إن خلق فعل الكفر ليس بسفه وإنما يكون سفيها مَن يقصد تحصيل السفه حكمة وتحصيل القبيح حسنا، فأما إيجاد ما هو حسن حسنا وما هو قبيح قبيحا يكون حكمة لا سفها كالإخبار بالشيء على ما هو به يكون صدقا» أي سواء كان المخبر عنه حسنا أم قبيحا.

وأما الإرادة والمشيئة فهما بمعنى واحد خلافا للكرامية الذين زعموا أن

(١) انظر: حاشية العطار (٢/ ٤٥٣).

المشيئة قديمة متعلقة بجميع ما شاء اللَّه من الحوادث وأن الإرادة حادثة بذات اللَّه ومتعددة بحسب تعدد الحوادث وهو من الكفر والعياذ بالله تعالى، وسيأتي مزيد كلام في مبحث الصفات.

فإن قيل إن كان كل من الطاعات والمعاصي بقضاء اللَّه وقدره وإرادته فما الفرق بينهما؟ قلنا الفرق أن الطاعات برضاه ومحبته وأمره وأما المعاصي فليست برضاه ولا محبته ولا أمره، والرضى هو الإذن وترك الاعتراض على الشيء والمحبة استحماده فليس المحبة والرضى مترادفين عند الماتريدية، وقال ابن السبكي من الأشاعرة في جمع الجوامع: «والرضى والمحبة غير المشيئة والإرادة فلا يرضى لعباده الكفر» قال تعالى ﴿وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْفَسَادَ﴾[١] وقال ﴿وَلَا يَرْضَىٰ لِعِبَادِهِ الْكُفْرَ﴾[٢] مع قوله تعالى ﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ﴾[٣] فدل على أن الكفر واقع بمشيئته تعالى مع أنه ليس برضاه ولا محبته، وقال تعالى ﴿قُلْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ﴾[٤] وقال ﴿وَيَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنكَرِ وَالْبَغْيِ﴾[٥] وأما قوله تعالى ﴿أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا فِيهَا﴾[٦] فليس معناه أمرنا منعَّميها بالفسق ففسقوا بل معناه كثّرنا مترفيها أو مكنّاهم أو أمرناهم بالطاعة فجاؤوا بالفسق بدلها. ويعلم من قولنا إن الطاعة بمشيئته تعالى وأمره وإن المعصية بمشيئته تعالى لا بأمره أن معنى المشيئة والأمر متغايران خلافا للمعتزلة الذين سووا بينهما أو قالوا بتلازمهما، وسيأتي مزيد كلام في ذلك قريبا إن شاء اللَّه تعالى.

---

(١) سورة البقرة / ٢٠٥.

(٢) سورة الزمر / ٧.

(٣) سورة الأنعام / ١١٢.

(٤) سورة الأعراف / ٢٨.

(٥) سورة النحل / ٩٠.

(٦) سورة الإسراء / ١٦.

والحاصل أن القضاء والتقدير والإرادة تتعلق بالكل وأما الرضى والمحبة والأمر فتتعلق بالحسن دون القبيح.

(ص) وما أراد اللَّه أن يكونَ يكونُ لا محالة؛ طاعةً كان أو معصيةً، وما أراد أن لا يكون لا يكون؛ معصيةً كان أو طاعةً، هو معنى قولنا: ما شاء اللّٰه كان وما لم يشأ لم يكن.

(ش) هذا شروع من المصنف رحمه اللَّه ببيان نفاذ إرادة اللَّه تعالى وأنها عامة في متعلقاتها، فذكر أن كل ما أراد اللَّه وجوده سواء أكان طاعة أم معصية لا بد أن يوجد فلا أحد يمنع نفاذ مشيئته تعالى، وما أراد أن لا يوجد سواء أكان طاعة أم معصية لن يوجد، غلبت مشيئته المشيئات كلها، وهو معنى ما جاء في حديث أبي داود أن النبي علم بعض بناته وقيل هي زينب أن تقول صباحا ومساء «**ما شاء اللَّه كان وما لم يشأ لم يكن**» وقال تعالى ﴿وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾[1].

وزعمت المعتزلة أن اللَّه تعالى يريد من أفعالنا ما هو طاعة وحسن ولا يريد ما هو معصية وقبيح، ولنا في الرد عليهم أدلة كثيرة: منها قوله تعالى ﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ﴾[2] أخبر اللَّه تعالى أنه ذرأ لجهنم كثيرا من الجن والإنس ومن ذرأه لجهنم أراد منه ما به يصير لجهنم فيستحيل أن يريد منهم الإيمان الذي به يصيرون للجنة ثم يخلقهم لجهنم، وقالت المعتزلة معنى قوله ﴿لِجَهَنَّمَ﴾ أن تصير عاقبتهم لجهنم كقوله تعالى ﴿فَٱلْتَقَطَهُۥٓ ءَالُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا﴾[3] قلنا إنما يتصور ما ذكرتم من الحمل على لام العاقبة فيمن يجهل العاقبة فأما من لا يجهل

(١) سورة التكوير / ٢٩.

(٢) سورة الأعراف / ١٧٩.

(٣) سورة القصص / ٨.

العواقب فكيف يريد عاقبة بفعل يعلم حقيقة أنها لا تكون على ما يريد! تعالى اللَّه عن ذلك.

ومنها قوله تعالى ﴿فَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يَهۡدِيَهُۥ يَشۡرَحۡ صَدۡرَهُۥ لِلۡإِسۡلَٰمِۖ وَمَن يُرِدۡ أَن يُضِلَّهُۥ يَجۡعَلۡ صَدۡرَهُۥ ضَيِّقًا حَرَجًا﴾[1] أخبر اللَّه تعالى أنه متى أراد ضلال عبدٍ لئلا يؤمن يجعلْ صدره ضيقا فيبقى على الكفر، وقال الكعبي من المعتزلة معنى الآية أن من أسلم ءاتاه اللَّه من لطائفه ما لا يقدر عليه غيرُه ثوابا لطاعته ومن كفر ضيق اللَّه عليه صدره عقابا لذلك، قلنا هذا تحريف لكتاب اللَّه تعالى ونقل للكلم عن موضوعه؛ وذلك لأن اللَّه تعالى أثبت له الإسلام إذا شرح صدره وأثبت له الكفر إذا ضيق قلبه وجعله حرِجا، ولم يقل إنه يوجب شرح القلب لأنه أسلم ولم يقل إنه يوجب ضيق القلب لأنه كفر، وقال معتزلة البصرة معنى ﴿يَهۡدِيَهُۥ﴾ يبين له ومعنى ﴿يُضِلَّهُۥ﴾ أي يسميه ضالا، قلنا هذا فاسد إذ لو كان شرح الصدر بيانا لكان قد شرح اللَّه صدر كل كافر لوقوع البيان للكل، ولو كان ضيق الصدر يقع لكل كافر لتسميته إياه ضالا لكان كل كافر مشروح الصدر لحصول البيان له وضيق الصدر لوجود تسميته كافرا وهذا محال، وقد مر ءايات كثيرة تبين فساد مذهب المعتزلة.

قال نجم الدين منكوبرس في شرح قول الطحاوي «ومشيئته تنفذ» (ص/ ٥٤٥) ما نصه: «فإنما قالوا ذلك لما مر بيانه من البراهين الساطعة والحجج القاطعة على أن مشيئته تعالى صفة ذاتية فكانت نافذة في الأشياء إذ هو الواحد القهار، قهر الأشياء على مقتضى إرادته، وهو الملك القدوس الجبار، جبر الأشياء على الدخول تحت مشيئته، فظهر ءاثارُ نفاذ مشيئته وإرادته بتخصيص مفعولاته ومصنوعاته المتجانسة على هيئات مختلفة وأوصاف متباينة في أمكنة مخصوصة وأزمنة مخصوصة، على ما مر بيانها في فصل الإرادة، وظهر ءاثار قهره في كل شيء بالتسخير والتذليل ولزوم التغير

(١) سورة الأنعام / ١٢٥.

والزوال، وظهر ءاثار كمال قدرته الذاتية بقيام السماء في الهواء بلا علاقة من فوق ولا عمد من تحت وبكونِ السحاب الثقال مسخرا بين السماء والأرض حاملا بحور الماء قارا على متن الهواء قد طبَّق وجه السماء في الطول والعرض واقفا تارة وسائرا تارة بلا علاقة من فوق ولا عمد من تحت».

وقد اعترض المعتزلة على قولنا «ما شاء اللَّه كان وما لم يشأ لم يكن» وزعموا أنه من كلام الجهال وأوّله بعضهم بما لا يقبل، والحق كما تقدم أن هذه الجملة مأخوذة من نبينا عليه الصلاة والسلام، وهي معنى ما قاله الشافعي رضي اللَّه عنه مخاطبا ربه تعالى: [المتقارب]

مـا شـئـتَ كـان وإن لـم أشـأ ومـا شـئـتُ إن لـم تـشـأ لـم يكنْ

ولو كان للعبد مشيئة تغلب مشيئة اللَّه تعالى لكان خارجا عن معنى كونه عبدا وذلك محال لأن سمات الحدث ورقَّ العبودية لا يرتفع عنه وإن جَلَّ قدرُه وعظمت رتبته لاستحالة ارتفاع التأليف والتركيب عن ذاته مع بقائها لما فيه من بطلان الحدَثية والمصنوعية وذلك محال.

(ص) وما علم اللَّه أنه يكون أراد أن يكون؛ طاعةً كان أو معصية وإن نهى عن المعصية، وما علم اللَّه أنه لا يكون أراد أن لا يكون؛ معصيةً كان أو طاعةً وإن أمر بالطاعة، فإرادته موافقة لعلمه لا لأمره ونهيه.

(ش) أنه عندنا معشر أهل السنة كل ما علم اللَّه أنه يوجد أراد أن يوجد سواء أمر به أم لم يأمر، وما علم أنه لا يوجد لم يرد وجوده سواء أمر به أو لم يأمر، وعند المعتزلة كل ما أمر اللَّه به أراد وجوده سواء وجد أو لم يوجد، وكل ما نهى عنه أراد أن لا يوجد سواء وجد أو لم يوجد، فجعلوا الإرادة موافقة للأمر والنهي وقال بعضهم الأمر هو الإرادة، والحق أن الإرادة موافقة للعلم بدليل أن اللَّه تعالى أمر إبراهيم بذبح ولده إسماعيل كما فهمه إسماعيل عليه السلام

حيث قال لأبيه ﴿يَٰٓأَبَتِ ٱفۡعَلۡ مَا تُؤۡمَرُ﴾[١] ولم يشأ اللَّهُ له ذلك فلم يقع الذبح ولو كانت المشيئة تابعة للأمر لوقع، فإن قيل كيف يأمر بما لم يشأ وقوعه؟ فالجواب أنه قد يأمر بما لم يشأ امتحانا منه للعباد كما امتحن إبراهيمَ عليه السلام بأمره بذبح ولده فظهر ما عند سيدنا إبراهيم من الاستعداد للطاعة من غير أن يحصل الذبح بل فدي إسماعيل بالكبش قال تعالى ﴿ وَفَدَيۡنَٰهُ بِذِبۡحٍ عَظِيمٍ﴾[٢] وذلك كما أنه علم سبحانه بوقوع شيء من العبد ومع ذلك نهاه عن فعله أي أنه كما لا يكون من السفه أن ينهى العبدَ عما علم وقوعه منه كذلك لا يكون من السفه أن يأمر العبد بما لم يشأ حصوله منه، قال الزركشي في التشنيف في شرح قول ابن السبكي «والأمر غير الإرادة خلافا للمعتزلة» (٢/ ٥٨١) ما نصه: «لو كان الأمر الإرادة لوجب وجود أوامر اللَّه تعالى كلها فإن إرادة الفعل تخصيصه بحال حدوثه فإذا لم يوجد لم يتخصص به». وقال الكوراني في الدرر (٢/ ١٨٩) في شرحه ما نصه: «إشارة إلى نفي ما ادعاه بعض المعتزلة من أن الأمر الذي هو الاقتضاء نفسُ إرادة الفعل، وبنوا على هذا تلك المسألة القبيحة وهي أن مراد اللَّه قد يتخلَّف لأنه أمر من ختم على قلبه بالإيمان والأمر عين الإرادة فأراد منهم الإيمان لكنه تخلف، تعالى عن ذلك علوًا كبيرًا».

(١) سورة الصافات / ١٠٢.

(٢) سورة الصافات / ١٠٧.

(ص) ومن هداه اللّه تعالى - أي خلق فيه فعل الاهتداء - يهتدي، ومن لم يهده لا يهتدي، وذلك في مشيئة اللَّه كما قال ﴿يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهۡدِي مَن يَشَآءُ﴾، واللَّه تعالى يعطي عبده ما أراد، كان فيه صلاح العبد أو لم يكن، فرعاية صلاح العبد ليست بواجبة على اللّه تعالى، بل إن كان فيه صلاحه كان منه إحسانًا وإفضالًا، وإن لم يكن كان منه عدلًا، فله الفضل والعدل، ومقدور اللّه تعالى لا نهاية له، ففي قدرته لطفٌ؛ لو فعل ذلك بالكفّار كلهم لآمنوا، فلمّا لم يفعل لم يؤمنوا.

(ش) بيّن المصنف رحمه اللَّه في هذه الجملة أن العباد لا يستحقون على اللَّه تعالى وجوب مراعاة الأصلح ولا مراعاة الصلاح في حقهم، وقال عامة المعتزلة يجب على اللَّه تعالى أن يفعل بعباده ما هو الأصلح لهم في باب الدِّين، وقال بعضهم بل الواجب عليه مراعاة الصلاح في حقهم، ومعنى قول المصنف «ومن هداه اللَّه تعالى يهتدي» قد شرحه بقوله «أي يخلق فيه فعل الاهتداء»، ومعنى «ومن لم يهده لا يهتدي» أن من أراد اللَّه تعالى إضلالَه يخلق فيه فعل الضلال.

واعلم أن الهدى يأتي بمعنى بيان الحق كقوله تعالى ﴿وَإِنَّكَ لَتَهۡدِيٓ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ﴾[1] أي لَتبيّن الطريق الحق من الباطل وكقوله تعالى ﴿وَجَعَلۡنَٰهُمۡ أَئِمَّةٗ يَهۡدُونَ بِأَمۡرِنَا﴾[2] وقوله ﴿وَمِمَّنۡ خَلَقۡنَآ أُمَّةٞ يَهۡدُونَ بِٱلۡحَقِّ وَبِهِۦ يَعۡدِلُونَ﴾[3]، ويأتي بمعنى الدعاء كقوله تعالى ﴿وَلِكُلِّ قَوۡمٍ هَادٖ﴾[4] أي داع، وهي بهذين المعنيين تضاف إلى العبد وإلى اللَّه تعالى كقوله

(١) سورة الشورى / ٥٢.

(٢) سورة الأنبياء / ٧٣.

(٣) سورة الأعراف / ١٨١.

(٤) سورة الرعد / ٧.

تعالى ﴿وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَٰهُمْ فَٱسْتَحَبُّواْ ٱلْعَمَىٰ عَلَى ٱلْهُدَىٰ﴾[١] أي دللناهم على طريق الحق، ويأتي بمعنى خلق فعل الاهتداء وهذا خاص بالله تعالى لا يضاف إلى غيره فإن الخلق صنعُه وهو أزلي والاهتداء محدث، أي أن الهداية من صفات الفعل راجعة إلى تكوين اللَّه الأزلي وأما اهتداء العبد المهتدي فهو أثر الهداية الأزلية فهو محدث، وخالف فيما ذكرنا المعتزلة بناء على قولهم بأن العباد يخلقون أفعالهم فقالوا لا يصح أن يكون اللَّه خالقا للاهتداء ولا للضلالة ولم يقسموا الهداية بالتقسيم المار وحمل جمهورهم الهداية على بيان طريق الحق سواء أضيفت إلى العبد أم إلى اللَّه تعالى، ورد عليهم أهل السنة بقوله تعالى ﴿وَإِنَّكَ لَتَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾[٢] حيث أثبت لنبيه عليه السلام الهداية وقال له في موضع ءاخر ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِى مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يَشَآءُ﴾[٣] فنفى عن نبيه الهداية، ولنا أيضا قوله تعالى ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾[٤] حيث نفى عنهم الهداية مع كونه قد بيّن لهم طريق الحق، وكذلك قوله تعالى ﴿ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾[٥] ومعلوم أن النبي مأمور ببيان طريق الهداية فتعين المصير إلى أن الهداية تطلق بمعنيين ولذا قال تعالى ﴿وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يَشَآءُ﴾.

ويعلم مما ذكرنا أن الضمير في فعل «يشاء» من قوله تعالى ﴿فَيُضِلُّ ٱللَّهُ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ﴾[٦] يعود إلى اللَّه تعالى فيكون المعنى من يشاء اللَّهُ له الضلالة يجعله ضالا ومن يشاء اللَّه له الهدى يجعله مهتديا، ولا يصح

---

(١) سورة فصلت / ١٧.

(٢) سورة الشورى / ٥٢.

(٣) سورة القصص / ٥٦.

(٤) سورة المائدة / ٦٧.

(٥) سورة البقرة / ٢٧٢.

(٦) سورة إبراهيم / ٤.

أن يعود الضمير إلى العبد كما زعمت القدرية بدليل قوله تعالى إخبارا عن سيدنا موسى عليه السلام لما اختار سبعين شخصا ليأخذهم للتضرع إلى اللَّه تعالى بعد أن عبد قسمٌ من قومه العجل فأخذتهم الرَّجْفة أي الزلزلة الشديدة ﴿رَبِّ لَوْ شِئْتَ أَهْلَكْتَهُم مِّن قَبْلُ﴾[1] بما كان منهم من عبادة العجل ﴿وَإِيَّـٰىَ أَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ ٱلسُّفَهَآءُ مِنَّآ﴾ أي أتهلكنا عقوبة بما فعل الجهال منا وهم أصحاب العجل ﴿إِنْ هِىَ إِلَّا فِتْنَتُكَ﴾ أي ابتلاؤك وهو راجع إلى قوله ﴿فَإِنَّا قَدْ فَتَنَّا قَوْمَكَ مِنۢ بَعْدِكَ﴾[2] ثم قال ﴿تُضِلُّ بِهَا﴾[3] أي بالفتنة ﴿مَن تَشَآءُ﴾ يا اللَّه ﴿وَتَهْدِى مَن تَشَآءُ﴾ يا اللَّه ﴿أَنتَ وَلِيُّنَا﴾ أي مولانا المدبر لأمورنا ﴿فَٱغْفِرْ لَنَا وَٱرْحَمْنَا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْغَـٰفِرِينَ﴾ معناه ما حصل من أمر السامري والعجل ابتلاء منك يا ربِّ وامتحانٌ وفتنة أضللتَ بها القسم الذي شئت أن يضل وهديت القسم الذي شئت أن يهتدي، فهذه الآية تردّ تفسير المعتزلة للآية السابقة وتبطله لأنّ الفعل هنا «تشاء» جاء بصيغة الخطاب فتعين إرجاع الضمير لله تعالى لا للعبد وإلا لقال «تضل بها من يشاء وتهدي من يشاء» فإن الآياتِ تتعاضد ولا تتناقض.

وأما مسألة الأصلح والصلاح فقد قال أهل السنة يجوز أن يفعل اللَّه بالعبد ما ليس بمصلحة له وإعطاءُ ما هو المصلحة ليس بواجب على اللَّه تعالى، وليس لما في مقدور اللَّه تعالى مما به الصلاح للعبد غاية ولا نهاية، فإن فعل بالعبد الأصلح أو الصلاحَ كان متفضلا منعما محسنا وإن ترك لم يترك واجبا وكان ذلك منه عدلا لا جورا، وزعم جمهور المعتزلة أن ليس في مقدور اللَّه تعالى لطف لو فعل بالكفار لآمنوا ولو كان ذلك في مقدوره ثم لم يفعل بهم ذلك ولم يعطهم كان سفيها بخيلا جائرا مانعا حقا واجبا عليه

---

(١) سورة الأعراف / ١٥٥.

(٢) سورة طه / ٨٥.

(٣) سورة الأعراف / ١٥٥.

وقد فعل بالعباد غاية ما في مقدوره مما به صلاحهم، وقال بعض المعتزلة كبشر بن المعتمر البغدادي إن اللَّه تعالى يجب عليه أن يفعل بالعبد ما هو المصلحة ولا يجوز له أن يفعل بالعبد ما هو المفسدة له ولا يجب عليه فعل الأصلح، ورد عليهم أبو المعين النسفي في التبصرة (٢/ ٣٢٢) هذه المقولات بكتاب اللَّه تعالى والوجود وإجماع أهل الأديان:

أما الكتاب فقوله تعالى ﴿وَلَوْ شِئْنَا لَآتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدَىٰهَا﴾[١] وقوله تعالى ﴿فَلَوْ شَاءَ لَهَدَاكُمْ أَجْمَعِينَ﴾[٢] وقوله تعالى ﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَآمَنَ مَن فِي الْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا﴾[٣] فلو لم يكن في مقدوره ما لو فعل بهم لآمنوا لم يكن لهذه الآيات فائدة سوى ادعاء قدرة ومشيئة ليستا له كفعل الكذوب المتحلي بما ليس فيه.

وأما الوجود فإن الكفر والمعاصي قد وجدت وهو تعالى فعل بالكافر ما لا صلاح له فيه بل فيه مضرة ومفسدة حيث أبقاه إلى وقت بلوغه وركب فيه العقلَ مع علمه أنه لا يؤمن بل يكفر ويعادي اللَّه تعالى، ولو أماته في حال صغره وعدم تمييزه أو لم يركب فيه العقل عند بلوغه حتى يبلغ مجنونا غير مخاطب لكان ذلك أصلح له، فحيث لم يمته بل أبقاه حيا وركب فيه العقل حتى دخل في حد التكليف مع علمه أنه يكفر دل على أنه لم يفعل به ما له فيه صلاح، وقد اشتهر هذا الاستدلال عن إمامنا الأشعري رحمه اللَّه تعالى، ونقول أيضا إن من عاش مدة عمره على الإسلام ثم ارتد وقبضه اللَّه مرتدا لم يفعل به ما هو الصلاح له فلو كان اللَّه قبض روحه وتوفاه قبل ارتداده بساعة حتى يختم له بالإسلام ولم يستحق التعذيب في النار كان أصلح له، فحيث لم يفعل بل أبقاه مع علمه بأنه يرتد عن الإسلام وكان ذلك مضرة له لا صلاحا

---

(١) سورة السجدة / ١٣.

(٢) سورة الأنعام / ١٤٩.

(٣) سورة يونس / ٩٩.

فقد فعل ذلك وهو تعالى حكيم دل أن ذلك كان حكمة وإن جهلت المعتزلة جهة الحكمة إذ الجهل عليهم جائز وخروج فعل اللَّه تعالى عن الحكمة ممتنع.

وأما الإجماع فقد أجمع المسلمون وأهل الأديان المختلفة على الدعاء للَّه تعالى وطلب المعونة على الطاعات والعصمة عن المعاصي وكشف ما بهم من الضر، فإن كان ءاتاهم ما سألوا من المعونة والعصمة فسؤالهم سفه وكفران للنعمة وإن كان لم يؤتهم -والإتيان عند المعتزلة واجب والمنع منه ظلم- صار معنى السؤال عندهم اللَّهم لا تظلمنا بمنع حقنا الواجب عليك، وهو ظاهر الفساد فلا يناجي العبد ربه بمثل ذلك.

وقال السعد التفتازاني في شرح العقائد (ص/ ٢٣٥) ما نصه: «وما هو الأصلح للعبد فليس ذلك بواجب على اللَّه تعالى وإلا لما خلق الكافر الفقير المعذب في الدنيا والآخرة، ولما كان له امتنان على العباد واستحقاق شكر في الهداية وإفاضة أنواع الخيرات لكونها أداء للواجب، ولما كان امتنانه على النبي عليه السلام فوق امتنانه على أبي جهل لعنه اللَّه إذ فعل بكل منهما غاية مقدوره من الأصلح له، ولما كان لسؤال العصمة والتوفيق وكشف الضراء والبسط في الخِصب والرخاء معنى؛ لأن ما لم يفعله في حق كل واحد فهو مفسدة له يجب على اللَّه تركها، ولما بقي في قدرة اللَّه تعالى بالنسبة إلى مصالح العباد شيء إذ قد أتى بالواجب، ولعمري إن مفاسد هذا الأصل أعني وجوب الأصلح بل أكثر أصول المعتزلة أظهر من أن تخفى وأكثر من أن تحصى».

(ص) والإيمان والطاعات بتوفيق اللّٰه، والكفر والمعاصي بخذلانه، والخِذلان ترك المعونة عند الحاجة.

(ش) بعدما بين المصنف رحمه اللَّه معنى الهداية والإضلال شرع في بيان التوفيق والخذلان فالتوفيق هو المعونة عند الحاجة ويقال النصرة والتيسير بتسهيل الطاعة والإيمانِ، والخذلان هو ترك المعونة عند الحاجة

ويقال عدم نصرته للطاعة والإيمان فيعصي العبد أو يكفر، وقال الأشعري وكثير من أصحابه التوفيق هو خلق قدرة الطاعة أي يهيئه لموافقة أمر اللَّه، ويقابله الخذلان، فمن خلق فيه قدرة الطاعة ففعلها يقال فيه: موفّق، ومن خلق فيه قدرة المعصية ففعلها يقال فيه: مخذول، وقال إمام الحرمين التوفيق خلق الطاعة في العبد والخذلان خلق المعصية فيه، وليس معنى التوفيق مرادفًا للإعانة؛ فإن اللَّه تعالى يعين العباد على الخير والشر، والإعانةُ هي التمكين والإقدار.

قال الشافعي رضي اللَّه عنه: [المتقارب]

خلقتَ العبادَ على ما علمتَ ففي العلمِ يجري الفتى والمسنْ
على ذا مننتَ وهذا خذلتَ وهذا أعنتَ وذا لم تعِنْ

أي أنت يا رب خلقت العباد أي أبرزتهم من العدم إلى الوجود على حسب ما سبق في علمك الأزلي فسعيُ كلِّ واحد من الخلق سواء أكان فتى أم مسنّا فإنه لا يخرج عن علمك، أنت يا رب مننت على بعض خلقك فوفقته للإيمان والهدى والصلاح أي جعلته يصرف اختياره إلى ذلك وقسمٌ منهم خذلتهم فلم توفقهم للحق بل جعلتهم يصرفون قدرتهم واختيارهم للشر، وأعنت فريقا من الناس على ما يرضيك من الأعمال ولم تعن الفريق الآخر على ذلك.

(ص) واستطاعة العبد وهي قدرته على فعله توجد مقارنةً لفعله لا تتقدّمه، واستطاعة التكليف وهي سلامة الأسباب والآلات تتقدّم الفعل.

(ش) من المسائل المتفرعة على مسألة إثبات القدر وأن اللَّه خالق لأفعال العباد مسألة الاستطاعة فأثبت أهل السنة استطاعتين للعبد؛ الاستطاعة الأولى هي الاستطاعة الباطنة التي يوجد بها الفعل يحدثها اللَّه تعالى مقرونة بالفعل وهي صفة يخلقها اللَّه تعالى في العبد عند قصد اكتساب الفعل بعد سلامة

الأسباب والآلات فإن قصد العبد فعل الخير خلق اللَّه تعالى فيه قدرة فعل الخير وإن قصد فعل الشر خلق اللَّه تعالى فيه قدرة فعل الشر، وفي ذلك رد لقول المعتزلة إذا خلق اللَّه في العبد فعل الشر مع القدرة على الشر فهو عاجز عن الخير فهو تكليف للعاجز؛ لأنا نقول إن اللَّه تعالى يخلق في العبد القدرة على حسب قصده الاختياري فإن كان قصده الشر خلق فيه قدرة الشر وإن كان قصده الخير خلق فيه قدرة الخير، وهذا القصد أيضا بخلق اللَّه تعالى، وقد ذم اللَّه الكافرين بقوله ﴿وَكَانُوا۟ لَا يَسْتَطِيعُونَ سَمْعًا﴾[١] فالمراد بالاستطاعة في الآية الاستطاعة الباطنة لا الظاهرة فإن اللَّه لا يذم الإنسان لكونه أصم غير سليم الآلات والأسباب، وقال تعالى حكاية عن الخضر ﴿إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِىَ صَبْرًا﴾[٢] فلو كان المراد بها سلامة الأسباب لما عاتب موسى عليه السلام على ترك الصبر، والاستطاعة الباطنة هي المرادة بحديث «**اللهم أعني على ذكرك وشكرك وحسن عبادتك**» وبقولنا «اللهم أعنا على الصيام والقيام».

وأما الاستطاعة الثانية وهي الاستطاعة الظاهرة فإنها تتقدم الفعل وتقارنه وتتأخر عنه وهي سلامة الأسباب والآلات وعليها مدار التكليف كقوله تعالى ﴿وَلِلَّهِ عَلَى ٱلنَّاسِ حِجُّ ٱلْبَيْتِ مَنِ ٱسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا﴾[٣] وقوله ﴿فَمَن لَّمْ يَسْتَطِعْ فَإِطْعَامُ سِتِّينَ مِسْكِينًا﴾[٤] وقوله تعالى حكاية عن المنافقين ﴿لَوِ ٱسْتَطَعْنَا لَخَرَجْنَا مَعَكُمْ﴾[٥] وصح عن النبي ﷺ أنه فسر السبيل بالزاد والراحلة[٦]، بخلاف الاستطاعة التي يوجد بها الفعل لا تتعلق أحكام الشرع بها لأنها باطنة

---

(١) سورة الكهف / ١٠٧.

(٢) سورة الكهف / ٦٧.

(٣) سورة ءال عمران / ٩٧.

(٤) سورة المجادلة / ٤.

(٥) سورة التوبة / ٤٢.

(٦) الدر المنثور (٢/ ٢٧٤).

معدومة قبل وجودها وتعليقُ الأحكام بالمعدوم يفضي إلى إهدارها والله تعالى شرع الأحكام للإلزام لا للإهدار.

وخالفت المعتزلة فيما قلناه فأثبتت قدرة واحدة حاصلة وموجودة قبل الفعل والعبد يخلق فعله بهذه القدرة، وهي مصحح التكليف، فإذا لم يكن قادرا على خلق فعله لم يجز تكليفه بزعمهم.

قلنا لو كانت الاستطاعة الباطنة المقارنة للفعل كالصلاة هي نفسَ الاستطاعة الظاهرة التي قد تكون عند التقي والعاصي التارك للصلاة لوُجِدت الصلاة والطاعة من كل قادر عليها لوجود الاستطاعة الظاهرة لدى كلٍّ، فلما وجدت الطاعة من التقي ولم توجد من العاصي مع سلامة أسبابهما وآلاتهما دل ذلك على وجود استطاعة باطنة خلقها اللَّه في التقي مقارنة لفعله دون العاصي، فلا بد من إثبات استطاعتين إحداهما قبل الفعل والأخرى مقارنة له.

وقال القونوي في القلائد ما نصه: «وأما المعقول فمن وجوه أحدها أن القدرة لو كانت سابقة على الفعل يلزم استغناء العبد عن الرب وذلك محال، والثاني أنّا أمرنا بسؤال المعونة على العبادة من اللَّه تعالى فلو كانت المعونة قبل الفعل لكان الأمر بسؤال المعونة لغوا» اهـ

وقال السعد التفتازاني في شرح العقائد (ص/ ١١٢) ما نصه: «ولما استدل القائلون بكون الاستطاعة قبل الفعل [يعني المعتزلة] بأن التكليف حاصل قبل الفعل ضرورة أن الكافرَ مكلف بالإيمان وتاركَ الصلاة مكلف بها بعد دخول الوقت فلو لم تكن الاستطاعة متحققة حينئذ لزم تكليف العاجز وهو باطل، أشار إلى الجواب بقوله: (وصحة التكليف تعتمد هذه الاستطاعة) التي هي سلامة الأسباب والآلات لا الاستطاعة بالمعنى الأول، فإن أريد بالعجز عدم الاستطاعة بالمعنى الأول فلا نسلم استحالة تكليف العاجز، وإن أريد بالمعنى الثاني فلا نسلم لزومه لجواز أن يحصل قبل الفعل سلامة الأسباب

والآلات وإن لم يحصل حقيقة القدرة التي بها الفعل» انتهى ثم ذكر جوابا ءاخر مبنيا على طريقة الحنفية من أن الاستطاعة صالحة للضدين على سبيل البدل فقال: «وقد يُجاب بأن القدرة صالحة للضدين عند أبي حنيفة رحمه اللَّه تعالى، حتى إن القدرة المصروفة إلى الكفر بعينها هي القدرة التي تصرف إلى الإيمان، ولا اختلاف بينهما إلا في التعلق وهو لا يوجب اختلافًا في نفس القدرة، فالكافر قادر على الإيمان المكلف به إلا أنه صرف قدرته إلى الكفر وضيع باختياره صرفها إلى الإيمان فاستحق الذم والعقاب» اهـ وأما الأشاعرة فيقولون إن القدرة لا تصلح للضدين بل لا تصلح للتعلق بمقدورين مطلقا سواء أكانا متضادين أم متماثلين أم مختلفين لا معا ولا على سبيل البدل.

(ص) واللَّه قديم ليس لوجوده ابتداء.

(ش) أن قوله «ليس لوجوده ابتداء» بيان للمراد بقدمه تعالى وتأكيد له، فقدمه تعالى حقيقي من غير تجدد أولية إذ قد يطلق القديم على ما لوجوده ابتداء كما يقال «بناء قديم» وقال تعالى في القمر ﴿حَتَّىٰ عَادَ كَٱلْعُرْجُونِ ٱلْقَدِيمِ﴾[1] أي صار هلالا شبيها بعذق النخل الذي مضى عليه زمن طويل فيبس وتقوّس وقال في القاموس في مادة هـ ر م (٤٠/ ٣٢٤) ما نصه: «الهرمان بناءان أزليّان بِمصرَ» أي مضى عليهما زمان طويل، وقال شارح القاموس في مادة «هـ و و» ما نصه: «هُوّ بالضم وتشديد الواو كأنه جمع هُوَّة بُليدة أزلية على تلّ بالصعيد بالجانب الغربي» فيراد بمثل ذلك تقدم وجوده على نظيره في الحدوث. وأما القديم في أسمائه تعالى فمعناه أنه أزلي لم يزل واجب الوجود لذاته قديم بأسمائه وصفاته بلا ابتداء، قال نجم الدين منكوبرس في شرح الطحاوية ما نصه: «وقد أطبق العقلاء من الأولين والآخرين على تسمية صانع العالم قديما» وممن نقل الإجماع على

(١) سورة يس / ٣٩.

جواز إطلاق القديم في حقه تعالى التفتازاني في شرح العقائد (ص/ ٧٠) وأبو الحسن الأشعري كما في مجرد المقالات (ص/ ١٩) وأبو منصور البغدادي في تفسير الأسماء والصفات، وقد ورد معناه في القرءان قال تعالى ﴿هُوَ ٱلْأَوَّلُ﴾[١] وهو وصف مشتق يدل على الكمال. وقد وردَ في تعدادِ أسماءِ اللَّه الحسنى القديمُ ولكن لم يثبت إسنادهُ، وورد في حديث ءاخر أنه ﷺ كان يقول إذا أراد دخول المسجد: «**أعوذُ باللَّه العظيم وبوجهه الكريم وسلطانهِ القديم**» والحديثُ إسنادهُ حسنٌ، وإذا ثبت جواز إطلاق القديم عَلى سلطان اللَّه تعالى جازَ إطلاقه على الذات.

وأما برهان قدمه تعالى فهو أنه لو لم يكن قديما لكان محدثا مخلوقا فيفتقر إلى محدِث وهذا المحدث يفتقر إلى محدث إن لم يكن قديما وهكذا، فيلزم الدور أو التسلسل وكل منهما محال، وأما الدور فهو توقف وجود الشيء على ما يتوقف وجوده عليه كما لو قيل زيد أوجده عمرو وعمرو أوجده زيد فهذا معناه توقف وجود زيد على وجود عمرو المتوقِفِ وجودُه على وجود زيد، وهذا أمر لا يقبله العقل لأنه يؤدي إلى القول بأن الشيء مخلوقٌ لمخلوقه وهو يقتضي أيضا أن يكون الشيء قبل نفسه باعتبار خالقيته وبعد نفسه باعتبار مخلوقيته، وأما التسلسل فهو توقف وجود شيء على شيء قبله يتوقف وجوده على شيء قبله وهكذا إلى غير ابتداء، وهذا لا يقبله العقل أيضا لأن وجودَ الحادث الحاليّ على مُقتضى هذا القولِ لا يكون إلا بعد انتهاء الحوادث التي قبله التي لا نهاية لعددها وانتهاءُ ما لا نهاية له مستحيل، مثاله أن يقول شخص لآخر لا أعطيك درهما حتى أعطيَك قبله درهما وهكذا لا إلى أول فإنه لا يحصل على الدرهم الموعودِ كما هو ظاهر، وإذا كان كل منهما محالا ثبت أن حدوثه تعالى محال وقِدمه ثابت.

(١) سورة الحديد / ٣.

والقِدم صفة سلبية[١] تنفي عن اللَّه تعالى الحدوث، وقيل غير ذلك.

(ص) باقٍ ليس لبقائه انتهاء.

(ش) هذا بيان أنه تعالى باق بذاته لأنه قديم لم يزل فهو باق لا يزال لأن القديم يستحيل عليه التغير والزوال فقالوا هو باق بلا انتهاء ليعلم أن بقاءه تعالى لا يتعلق بالزمان فليس كلما مضى زمان يحدث زمان كبقاء الآخرة بل هو الأول بلا ابتداء والآخر بلا انتهاء. ونقول أيضا ما ثبت قدمه استحال عدمه فالقديم لا يفنى لأن القديم واجب الوجود لا يقبل العقل عدمه فوجب له البقاء إذ لو جاز عليه العدم لما كان واجب الوجود بل لكان جائز الوجود وجائزُ الوجود محتاج لمن خصه بالوجود بدل العدم والمحتاجُ لا يكون إلها واللَّه مستغن عن العالمين لا يحتاج إلى غيره فإذا ثبت له القِدم ثبت له البقاء، وهذا برهان عقلي على ثبوت البقاء لله تعالى، وأما البرهان من المنقول فكقوله تعالى ﴿وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو ٱلْجَلَٰلِ وَٱلْإِكْرَامِ﴾[٢] فالوجه هنا بمعنى الذات ويدل عليه مجيءُ النعتِ بعده فذو نعت مرفوع لوجه والمتصف بذي الجلال والإكرام هو الذات لا الصفة فصار معنى الآية «ويبقى ذات ربك ذو الجلال والإكرام».

والبقاء صفة من صفات المعاني على ما اختاره الإمام أبو الحسن الأشعري، واختار متأخرو الأشاعرة أن البقاء صفة سلبية تنفي عن اللَّه الفناء، وقيل غير ذلك.

---

(١) الصفة السلبية هي التي نعني بوصف اللَّه بها نفي النقص عنه فالقِدَم تنفي الحدوث، والواحدنية تنفي التعدد، وهكذا، ولا يعنى بها ما يفهمه عوام بلادنا من كون الشيء غير حسن فتنبه.

(٢) سورة الرحمن / ٢٧.

(ص) حيّ لا بروح.

(ش) أن اللَّه تعالى متصف بالحياة وحياته تعالى ليست كحياة غيره بروح ولحم ودم، فالله الذي شهد العالمُ بجملته وأجزائه بشهادة الخِلقة ودلالة الصنعة بألسنة التسخير والتأليف والتركيب والتصوير على وجوده ووحدانيته وألوهيته وقدمه وبقائه هو حي لا يموت، وبذلك جاء القرءان العزيز قال تعالى ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ قَرَارًا وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءً وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ وَرَزَقَكُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ ۚ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ ۖ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٦٤﴾ هُوَ ٱلْحَىُّ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾[1] فبدأ بذكر الصانع بقوله ﴿ٱللَّهُ﴾ ثم ذكر الصنع بقوله ﴿ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ﴾ ثم ذكر المصنوع بقوله ﴿ٱلْأَرْضَ﴾ ثم ذكر دلالة المصنوعية بقوله ﴿قَرَارًا﴾ أي جعلها مع سعتها وعِظمها على هيئة تقرون عليها وتفترشونها وتتعيشون فيها وهي موات مسخرة مصنوعة محدثة ليست بقديمة ثم قال ﴿وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءً﴾ أي سقفا محفوظا قائما في الهواء بلا علاقة ولا عمد وهي مع سعتها وعظمها وغلظها وصلابتها موات مسخرة لم تكن بنفسها بل بصانع واحد قديم حي قادر أمسكها في الهواء عن السقوط بقدرة ذاتية أزلية وهو اللَّه، ثم خاطب العقلاء في تصوير جوهرهم وتركيب أبدانهم لينظروا في ءايات ألوهيته ووحدانيته وكمال قدرته وحكمته فدلهم على معرفة ذلك بآثار صنعه بالتصوير والتركيب إذ لا صورة إلا بمصوِّر ولا تركيب إلا بمركِّب فقال عز ذكره ﴿وَصَوَّرَكُمْ﴾ وهم يعلمون أنهم كانوا أمواتا نطفا سلَّت من صلب الذكر وترائب الأنثى ثم صارت في قرار مكين في ظلمات ثلاث قد انقطع عنها تدبير الأبوين وسائر الخلائق، ولو كانت موضوعة على طبق فاجتمع لها حكماء العالم على أن يصوروا منها شيئا لم يقدروا ومحال كونها من عمل الطبائع لأن الطبيعة موات عاجزة لا توصف بحياة ولا يتأتى من الموات فعل وتدبير، ثم دل على

---

(١) سورة غافر / ٦٤.

معرفة حكمته وعلمه بآثار الإتقان والإحكام بقوله ﴿فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ﴾ أي حسن تركيبها منتصبة قائمة غير منكبّة على وجهها، ثم ذكّرهم تعالى بنعمه عليهم فيما تقوم به أنفسهم فقال ﴿وَرَزَقَكُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ﴾ أي رزقكم من أطيب ما أخرج من الأرض لأنه أخرج منها نباتا مختلفا فجعل أطيبه وألينه رزقا للبشر وسائره رزقا للدواب، ثم قال ﴿ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ﴾ أي ذلك الذي صنع بكم هذا هو اللَّه ربكم لا أحد سواه ﴿فَتَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ فبين أنه المالك لكل ما دخل في الوجود المتصرف فيه بما يريد ما شاء كان وما لم يشأ لم يكن فلا يعجزه شيء ولا غالب لمشيئته، ثم قال ﴿هُوَ الْحَيُّ﴾ أي الحي الذي لا يموت وفيه أن الفعل المحكم لا يتأتى إلا من الحي القادر العالم السميع البصير، ثم نبه على أنه المنفرد بكل ما ذكر فقال ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ﴾.

والحياة من صفات المعاني وهي ثمانية جمعها بعضهم في قوله: [الطويل]

حياةٌ وعلمٌ قدرةٌ وإرادةٌ كلامٌ وإبصار وسمع مع البقا

(ص) عالم لا بقلب ولا فكرة.

(ش) أن اللَّه تعالى عالم بذاته وصفاته وبما يحدثه من مخلوقاته عالم لما كان وبما يكون وبما لا يكون أن لو كان كيف يكون، فعلمه تعالى يتعلق بالواجب والجائز وكذا بالمستحيل بعلم واحد لا يتعدد بتعدد المعلومات ولا يقبل الزيادة والنقصان، فلا يتصف سبحانه بعلم حادث إذ لو جاز اتصافه بالحوادث لانتفى عنه القدم لأن ما كان محلا للحوادث لا بد أن يكون محدثا مثلها إذ هو مفتقر لمن خصه بهذا الحادث الممكن لأنه ليس واجبا له كما تقدم وقد ثبت قدمه تعالى فلا يقوم به صفة حادثة، وهو تعالى عالم لا بقلب ولا فكرة ولا عقل فعلمه تعالى لا يشبه علمنا، وما أوهم تجدد العلم له تعالى

فليس على ظاهره كقوله تعالى ﴿ٱلْـَٰٔنَ خَفَّفَ ٱللَّهُ عَنكُمْ وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمْ ضَعْفًا﴾[١] فليس المراد أن اللَّه خفف عنكم الآن ما كان واجبا عليكم من مقاومة واحد من المسلمين لعشرة من الكفار بإيجاب مقاومة واحد لاثنين من الكفار لأنه الآن علم بالضعف الذي فيكم بعدَ أن لم يكن عالما، بل المراد أن التخفيف حصل الآن وقد علم اللَّه بعلمه الأزلي ما فيكم من الضعف، قال الماتريدي في تفسيره (٥/ ٢٥٥) ما نصه: «فإن قيل: ما معنى قوله: ﴿وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمْ ضَعْفًا﴾ وقد كان يعلم أن فيهم ضعفًا وقت ما أمر العشرة القيامَ لمائةٍ والعشرين لمائتين؟ قيل: أمر بذلك مع علمه أن فيهم ضعفًا وإن كان في ذلك إهلاكُ أنفسهم، وذلك منه عدل؛ إذ له الأنفس إن شاء أتلفها بالموت، وإن شاء بالقتل بقتلِ العدو، والتخفيفُ منه رحمة وفضلٌ، أمرَ الواحد القيامَ لعشرة على علمٍ منه بالضعف ابتداءً؛ امتحانا منه، وله أن يمتحن عباده بما فيه وُسعهم وبما لا وُسع لهم فيه، وفي الحكمة ذلك؛ إذ له الأنفس، له أن يتلفها كيف شاء بما شاء، وهو ما ذكر بقوله: ﴿وَلَوْ أَنَّا كَتَبْنَا عَلَيْهِمْ﴾[٢] الآية ولو لم يكن له في الحكمة ذلك لا يحتمل أن يكتب ذلك عليهم» اهـ وقال أيضا (٩/ ٢٨٢) ما نصه: «وقوله عز وجل ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّىٰ نَعْلَمَ ٱلْمُجَٰهِدِينَ مِنكُمْ وَٱلصَّٰبِرِينَ وَنَبْلُوَا۟ أَخْبَارَكُمْ﴾[٣] هذا يخرج على وجوه: أحدها: أي حتى يعلم أولياؤه المجاهدين منكم والصابرين من غير المجاهدين وغير الصابرين، فيكون المراد من إضافة العلم إلى نفسه علم أوليائه كقوله تعالى ﴿إِن تَنصُرُوا۟ ٱللَّهَ يَنصُرْكُمْ﴾[٤] وقوله عز وجل ﴿يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَهُوَ خَٰدِعُهُمْ﴾[٥] ونحوه فالمراد

---

(١) سورة الأنفال / ٦٦.

(٢) سورة النساء / ٦٦.

(٣) سورة محمد / ٣١.

(٤) سورة محمد / ٧.

(٥) سورة النساء / ١٤٢.

منه أولياؤه على أحد التأويلات» انتهى.

واللَّه تعالى يعلم الكليات والجزئيات قبل وجودها خلافا لهشام بن عمرو الفُوطي المعتزلي حيث قال بأنه تعالى لا يعلم المعدوم قبل وجوده، وخلافا للفلاسفة المنتسبين للإسلام الذين أنكروا علم اللَّه بالجزئيات، أما الأول فالدليل عليه أن كون الفعل محكما متقنا يدل على علم فاعله به ومن قال بوقوع الصنعة البديعة العجيبة ممن لا علم له عُد متجاهلا؛ إذ شرط وقوع ذلك ثبوت العلم بها قبل وجودها لا بعد وجودها ليوجدها على حسب ما علمه من الإتقان والجودة لا على ما يضاده من الوَهاءِ والرداءة، وأما الفلاسفة فزعموا أن تجويز علم اللَّه للجزئيات قول بحدوث الحوادث في ذاته فنقول إن اللَّه يعلم ذلك بعلم واحد لا يتجدد كما أنه يرى المخلوقات برؤية واحدة ولا يوجب ذلك تجدد رؤية له تعالى، وهذه من المسائل التي أجمع على تكفيرهم بها، قال السيوطي في الأشباه (ص/ ٤٨٨) ما نصه: «قال الشافعي لا يكفر أحد من أهل القبلة واستثنى من ذلك المجسم ومنكر علم الجزئيات».

وقال ملا علي في شرح الفقه الأكبر (ص/ ٢١٢): «البدعة لا تزيل الإيمان والمعرفة» ثم قال «إلا التجسيم وإنكار علم اللَّه سبحانه بالجزئيات فإنه يكفر بهما بالإجماع من غير نزاع».

وقال عبد الرؤوف المناوي في فيض القدير (١/ ٧٢) في شرح حديث «**أبى اللَّه أن يقبل عمل صاحب بدعة حتى يدع بدعته**» ما نصه: «والكلام كله في مبتدع لا يكفر ببدعته أما من كفر بها كمنكر العلم بالجزئيات وزاعم التجسيم أو الجهة أو الكون أو الاتصال بالعالم أو الانفصال عنه فلا يوصف عمله بقبول ولا رد لأنه أحقر من ذلك».

ومن البراهين النقلية على اتصاف اللَّه تعالى بالعلم قوله تعالى ﴿وَهُوَ

بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴾[١] وقوله ﴿وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴾[٢] وقوله تعالى ﴿وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنثَىٰ وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِۦ ﴾[٣] وقوله ﴿وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِّنْ عِلْمِهِۦٓ ﴾[٤] وقوله ﴿عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ ﴾[٥] وقوله ﴿لَا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ ﴾[٦] وقوله (قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمًا ﴾[٧] وقوله ﴿وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْعَلِيمُ ﴾[٨].

وأما البرهان العقلي فهو أنه لو لم يكن عالما لكان جاهلا والجهل نقص واللَّه منزه عنه، ولو كان جاهلا بشيء من الأشياء لم يوجد هذا العالم فوجود هذا العالم مشاهد ثابت للعيان، فالجهل في حق اللَّه تعالى يؤدي إلى عدم وجود العالم وذلك محال وما أدى إلى المحال محال، قال تعالى ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ﴾[٩] وقال ﴿وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ ﴾[١٠] وقال (**وخلق كل شيء وهو بكل شيء عليم**﴾[١١].

والعلم من صفات المعاني كما تقدم.

---

(١) سورة الحديد / ٣.

(٢) سورة التغابن / ١١.

(٣) سورة فاطر / ١١.

(٤) سورة البقرة / ٢٥٥.

(٥) سورة التوبة / ٧٨.

(٦) سورة سبأ / ٣.

(٧) سورة الطلاق / ١٢.

(٨) سورة الزخرف / ٨٤.

(٩) سورة الملك / ١٤.

(١٠) سورة يس / ٧٩.

(١١) سورة الأنعام / ١٠١.

(ص) قادر لا بآلة.

(ش) أن اللَّه تعالى قادر على كل شيء أي على كل ممكن عقلي وهو ما يجوز عقلا وجوده وعدمه ولا يعجزه شيء ولا يفتقر تعالى إلى جارحة أو إلى ءالة أخرى، والقدرة صفة أزلية قائمة بذاته تتعلق بجعل المقدورات ممكنة الوجود من الفاعل عند تعلقها بها، وقال أبو عذبة في الروضة البهية (ص/ ٤٣): «إن الصحيح عند الماتريدية أن القدرة متعلقة بصحة وجود المقدور والتكوين متعلق بوجود المقدور». وقال ابن السبكي في السيف المشهور (ص/ ١٨) ما نصه: «فرقت الحنفية بينها وبين القدرة بأنها تؤثر في الوجود والقدرةَ بالإمكان، وقالوا متعلَّق القدرة قد لا يوجد كبحر من زئبق وجبل من ياقوت بخلاف متعلَّق التكوين، فالقدرة تتعلق بإمكان وجود الشيء والتكوين بنفس وجوده» أي أن القدرة لا تقتضي كون المقدور موجودا والتكوين يقتضيه فيقولون اللَّه قادر على إيجاد كذا فيوجده بتكوينه. وأما الأشاعرة النافون لإثبات صفة زائدة على مفهوم القدرة هي التكوين فإنهم يقولون إن الإيجاد والإعدام بالقدرة.

وإنما فسرنا الشيء فيما تقدم بالممكن العقلي لأن الواجب ليس من متعلقات القدرة لأنه غير قابل للانعدام ولا للدخول في الوجود لأنه موجود أزلا وكذا المستحيل لأنه غير قابل للوجود ولا للانعدام لأنه ممتنع الوجود لذاته فلم يصلح أن يكون واحد منهما محلا لتعلق القدرة إذ لو تعلقت القدرة بالمستحيل لاقتضى ذلك جواز وجوده أو بالواجب لاقتضى ذلك جواز عدمه وكل منهما محال عقلا، وهذا من قبيل التخصيص بالعقل بناء على الراجح من جواز التخصيص بالعقل فالعقل يُدرِك بالضرورة أن ذلك ليس من متعلَّقات القدرة وهو ما رجحه شيخنا الهرري في إظهاره (ص/ ٧٣) حيث قال: «ولا يدخل في معنى الشيء هنا ذات اللَّه وصفاته فليس ذلك مرادا لله تعالى في قوله ﴿وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ لأنه مخصوص بالدليل العقلي فلا يقال إنه تعالى قادر على ذاته متصرف في نفسه» اهـ وأما على القول بعدم جواز التخصيص

بالعقل فبناء على أن ما نفى العقل حكمَ العام عنه لم يتناوله العام لأنه لا تصح إرادته وليس طرحا للعقل.

وخالف فيما ذكر أبو محمد علي بن أحمد ابن حزم الظاهري الأندلسي (ت ٤٥٦) فقال إن اللَّه تعالى قادر أن يتخذ ولدا ونص عبارته في المحلى في شرح المجلّى (١/ ٥٣): «مسألة: وقدرته عز وجل وقوته حق، لا يعجز عن شيء، ولا عن كل ما يسأل عنه السائل من المحال أو غيره مما لا يكون أبدا» ثم قال: «وقال تعالى: ﴿لَّوْ أَرَادَ ٱللَّهُ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا لَّٱصْطَفَىٰ مِمَّا يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ﴾[1] وقد أخبر عز وجل أنه قادر على ما لا يكون أبدا» اهـ ففي ذلك تجويز للمحال العقلي والصواب في ذلك أن يقال إن قدرة اللَّه لا تتعلق بالمحال العقلي ولا بالواجب العقلي وليس عدم تعلقها بذلك لعجز في القدرة إذ العجز القصور ولا قصور في قدرة اللَّه بل لعدم قبولهما الدخول في الوجود، فلا يقال إن اللَّه قادر على أن يتخذ ولدا ولا يقال إنه عاجز عن ذلك بل يقال هذا مستحيل عقلي والقدرة لا تتعلق بالمستحيل، قال أبو منصور البغدادي: «وكل ما استحال وصفه بالقدرة [عليه] استحال وصفه بالعجز عنه». وقال ابن الجوزي في زاد المسير (٤/ ٨) في تفسير الآية المذكورة ما نصه: «لو أراد اللَّه أن يتخذ ولدا أي على ما يزعم من ينسب ذلك إلى اللَّه». وقال الرازي في التفسير الكبير (٢٦/ ٤٢٢) ما نصه: «والمراد من هذا الكلام إقامة الدلائل القاهرة على كونه منزها عن الولد». وممن وافق ابن حزم في هذه المسألة الوهابية حيث قالوا إنه تعالى حد نفسه بالحد الذي هو عليه، وتجويزُ ذلك يؤدي إلى جواز أن يقال إن اللَّه قادر على أن يعدم نفسه وقادر على أن يجعل عيسى شريكا في الألوهية وغير ذلك من الضلالات، وقال الذهبي المجسم في كتابه سير أعلام النبلاء في وصف ابن حزم (١٨/ ١٨٦) ما نصه: «وصنف في ذلك [يعني نفي القياس] كتبا كثيرة، وناظر عليه، وبسط لسانه وقلمه، ولم

(١) سورة الزمر / ٤.

يتأدب مع الأئمة في الخطاب، بل فجج العبارة، وسب وجدع، فكان جزاؤه من جنس ما فعله، بحيث إنه أعرض عن تصانيفه جماعة من الأئمة وهجروها» وقال أبو بكر بن العربي في العواصم (ص/ ٢٤٩) ما نصه: «وكان أول بدعة لقيت في رحلتي القول بالباطن، فلما عدت وجدت القول بالظاهر قد ملأ به المغربَ سخيف كان من بادية إشبيلية يعرف بابن حزم، نشأ وتعلق بمذهب الشافعي، ثم انتسب إلى داود، ثم خلع الكل، واستقل بنفسه، وزعم أنه إمام الأئمة، يضع ويرفع ويحكم ويشرع، ينسب إلى دين اللَّه ما ليس فيه، ويقول عن العلماء ما لم يقولوا؛ تنفيرا للقلوب منهم». وممن حذر من مطالعة كتبه السكونيّ في لحن العامّة والخاصة والشعرانيّ في لطائف المنن، وقد مدحه بعض العلماء لعدم وقوفهم على مسائله التي خالف فيها أهل السنة فليتنبه لذلك.

وأما البرهان النقلي فكقوله تعالى ﴿إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلرَّزَّاقُ ذُو ٱلْقُوَّةِ ٱلْمَتِينُ﴾[١] وقال تعالى ﴿أَنَّ ٱلْقُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا﴾[٢] والقوة هي القدرة وقال ﴿وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾[٣] وقال ﴿وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾[٤] وقال ﴿قُلْ هُوَ ٱلْقَادِرُ﴾[٥] وروى البيهقي في الاعتقاد (ص/ ٨٣) عن جابر قال كانَ رسول اللَّه ﷺ يعلّمنا الاستخارة في الأمر كما يعلّمنا السورة من القرءان يقول لنا «**إذا همّ أحدُكم بالأمر فليركَع ركعتين من غير الفريضةِ ثم ليقل اللَّهم إني أستخيرك بعلمِك وأستقدرك بقدرتِك وأسألك من فضلِك العظيم**» الحديثَ ثم قال البيهقي ما نصه: «وفي هذا الحديث الصحيحِ إثباتُ صفة العلم وصفةِ القدرة».

---

(١) سورة الذاريات / ٥٨.

(٢) سورة البقرة / ١٦٥.

(٣) سورة المائدة / ١٢٠.

(٤) سورة ءال عمران / ١٨٩.

(٥) سورة الأنعام / ٦٥.

ولأهل الحق على إثبات الصفات أيضا دلالة المحدَثات وهي أن المفعول كما دل على الفاعل فمطلَقه يدل على القدرة وكونُه محكما متقنا يدل على العلم؛ فإن كل من رأى المفعول محكما متقنا استدل بكونه مفعولا على قدرة فاعله وبكونه محكما على علم فاعله به، حتى إن من رأى ديباجا منقشا أو دارا فاخرة فيها نقوش وتصاوير وهي مبنية على غاية الإحكام والإتقان فزعم الرائي أن ذلك نسجُ جاهل بصناعة النسج عاجزٍ عنها وأن تلك الدار بناء جاهل بصنعة البناء عاجزٍ عنها فإنه يحكم عليه بالجهل وينسب إما إلى الحماقة وإما إلى العناد والمكابرة.

والقدرة من صفات المعاني كما تقدم.

(ص) سميع لا بأذن.

(ش) أن اللَّه تعالى سميع بسمع قائم بذاته أي ثابت له من غير احتياج إلى ءالة كأذن وسماخ[1]، واختلف في متعلق السمع فقيل الأصوات فقط كما قال السعد التفتازاني وقال بعضهم متعلق السمع هو الأصوات وكلام اللَّه تعالى وقال فريق ثالث يتعلق السمع بكل موجود من الأصوات وغيرها فيتعلق بالذوات والصفات كالمسموع والمرئي والمشموم ورجحوه، وعلى كل فأهل السنة متفقون على أن صفات اللَّه عامة في متعلقاتها أي أن كل ما يصح أن تتعلق به فهي متعلِّقة به لا يدخلها التخصيص ولكن اختلفوا في ما يصح عقلا أن تتعلق به فانبنى على ذلك الخلافُ المذكور هنا، وهو تعالى لا يغيب عن سمعه مسموع وإن خفي علينا وبعد عنا، ولا يلزم من قدم سمعه عز وجل قدم المسموع كما لا يلزم من قدم العلم والقدرة قدم المعلومات والمقدورات فلا يطرأ على سمعه تعالى تغير عند حدوث المسموع كما أنه لا يطرأ على

(١) هو خرق الأذن المفضي إلى الرأس، وفيه أربع لغات: صِماخ وسِماخ وأصمُخ وأسمُخ. تاج العروس (٧/ ٢٩٣).

قدرته وإرادته وعلمه تغير عند وجود الممكن، وكما أن اللَّه يرانا برؤية أزلية أبدية ونحن حادثون ولا يلزم من ذلك حدوث رؤية له تعالى، وكما أن الحياة صفة قديمة أزلية لا توصف بالانقطاع فلا يوصف بالحياة تارة وبالموت أخرى كذلك لا يوصف بالسمع تارة وبالصمم أخرى ومهما تصورت ببالك فصفات اللَّه بخلاف ذلك، وأما حديث ابن ماجه «**لَـلَّه أشدُّ أذَنا**» بفتحتين فمعناه أشد استماعا لقارئ القرءان كما بينه الأوزاعي[١] أي يثيبه ثوابا عظيما، وقد حرفه بعض العمي فقال «لله أشد ءاذانا» وهذا من أفحش الكذب على اللَّه تعالى.

وبرهان ثبوت السمع له عقلا كما بينه الأشعري في اللمع أنه لو لم يكن متصفا بالسمع لكان متصفا بالصمم وهو نقص على اللَّه تعالى والنقص عليه محال لأن الناقص لا يكون إلها خالقا وإذا لم يكن خالقا لم يوجد العالم ولكن العالم موجود فثبت اتصافه تعالى بصفات الكمال.

وأما دلائل السمع النقلية فكثيرة منها قوله تعالى ﴿وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾[٢] وقوله ﴿وَهُوَ قَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّتِى تُجَـٰدِلُكَ فِى زَوْجِهَا وَتَشْتَكِىٓ إِلَى ٱللَّهِ وَٱللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَآ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌۢ بَصِيرٌ يُظَـٰهِرُونَ مِنكُم﴾[٣] وقوله ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ سَمِيعًۢا بَصِيرًا﴾[٤] وقوله ﴿إِنَّنِى مَعَكُمَآ أَسْمَعُ وَأَرَىٰ﴾[٥] وروى البيهقي في الاعتقاد (ص/ ٨٥) بإسناده إلى عائشة رضي اللَّه عنها قالت: الحمد لله الذي وسع سمعه الأصواتَ لقد جاءت المجادِلةُ تشكو إلى رسول اللَّه ﷺ وأنا في ناحية البيت ما أسمعُ ما تقولُ فأنزل اللَّه عز وجل (قَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّتِى تُجَـٰدِلُكَ

---

(١) انظر: التبيان (١/ ١١٧).

(٢) سورة الشورى / ١١.

(٣) سورة المجادلة / ١.

(٤) سورة النساء / ١٣٤.

(٥) سورة طه / ٤٦.

فِي زَوْجِهَا ﴾ قال البيهقي: «وفي هذا إثبات السمع للَّه عز وجل».

والسمع من صفات المعاني كما تقدم.

(ص) بصير لا بحدقة.

(ش) أن اللَّه تعالى متصف بالبصر ويقال الرؤية فهو تعالى يرى الواجب والموجود من الممكن برؤية أزلية بغير حدقة ولا جارحة أخرى بديلة عنها لأن الحواس من صفات المخلوقين، ولا يلزم من قدم البصر قدم المبصرات كلها، ورجحوا هنا أيضا أن البصر يتعلق بكل موجود، وقيل إن البصر لا يتعلق بنحو القدرة والعلم والرائحة، والبصر يتعلق بالموجودات دون المعدومات بخلاف العلم.

والدليل العقلي على ثبوت البصر له تعالى أنه لو لم يكن بصيرا لكان متصفا بضده وهو العمى والعمى نقص وهو مستحيل عليه تعالى.

وأما البرهان النقلي فكثير مر بعضه قريبا وفي حديث تعداد أسماء اللَّه الحسنى «**السميع البصير**» وهو حديث أخرجه الترمذي في كتاب الدعوات من سننه وحسنه وأخرجه ابن حبان في صحيحه، وروى البيهقي في الاعتقاد (ص/ ٨٥) بسنده إلى ابن عمر عن عمر بن الخطاب رضي اللَّه عنه عن النبي ﷺ في حديث الإيمانِ قال -يعني السائلَ وهو جبريل-: يا محمدُ ما الإحسانُ؟ قال «**أن تعبد اللَّه كأنك تراه فإنك إن لا تكن تراه فإنه يراك**» وفي هذا إثبات الرؤية لله عز وجل والرؤيةُ والبصر بمعنى واحد. اهـ كلام البيهقي.

والبصر من صفات المعاني كما تقدم.

(ص) متكلّم لا بلسان.

(ش) أن اللَّه تعالى متصف بالكلام فهو تعالى متكلم يتكلم بلا لسان ولا ءالة أخرى، وكلامه تعالى لا يشبه كلام المخلوقين من إنس وجن وغيرهم،

فالكلام صفة له تعالى قديمة قائمة بذاته كالعلم والقدرة والحياة، قال نجم الدين منكوبرس في شرح الطحاوية ما نصه: «وأما دليل العقل فلأن الكلام من صفات المدح والكمال في الشاهد وضده نقص وذم، والله تعالى حي قديم، ومن شرط القدم ثبوت الكمال وانتفاء الذم والنقائص فوجب وصفه بالكلام» اهـ

وأما البرهان النقلي فكثير كقوله تعالى ﴿ ۞ وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ ٱللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِن وَرَآئِ حِجَابٍ ﴾[1] وقوله ﴿قَالَ يَٰمُوسَىٰٓ إِنِّى ٱصْطَفَيْتُكَ عَلَى ٱلنَّاسِ بِرِسَٰلَٰتِى وَبِكَلَٰمِى ﴾[2] وقوله ﴿وَكَلَّمَ ٱللَّهُ مُوسَىٰ تَكْلِيمًا ﴾[3] أي أسمعه كلامه الأزلي الأبدي ففهم منه موسى ما فهم، وروى البيهقي عن خولة بنت حَكيم أنها سمعَت رسولَ اللَّه صلى اللَّه عليه وعلى ءاله وسلم يقول «**إذا نزل أحدكم منزلا فليقل أعوذ بكلمات اللَّه التامات من شر ما خلق فإنه لا يضره شيء حتى يرتحل منه**» والجمع هنا للتعظيم نظير قوله تعالى ﴿ إِنَّا نَحْنُ نُحْىِۦ ٱلْمَوْتَىٰ ﴾[4] والفعلُ في ءاية ﴿وَكَلَّمَ ٱللَّهُ مُوسَىٰ تَكْلِيمًا ﴾[5] أكد بالمصدر مع احتمال اللفظ من حيث هو للمجاز والقاعدة عند البيانيين أن الفعل إذا احتمل المجاز وعدمه فجيء بالمصدر تحتم حمله على الحقيقة، فتكليمُ اللَّه تعالى أزليٌّ وموسى وسماعهُ لكلامِ اللَّه حادثٌ، فالتغير حاصل في موسى فإنه لم يكن يسمع ثم سمع وليس التغير حاصلا في الصفة نظير ذلك ما يحصل للمؤمنين في الجنة عندما يرون ربهم فالتغير حاصل في الرائي لا في المرئي فالمؤمنون يحصل فيهم الرؤية فالتغير حاصل فيهم لا في اللَّه

---

(١) سورة الشورى / ٥١.

(٢) سورة الأعراف / ١٤٤.

(٣) سورة النساء / ١٦٤.

(٤) سورة يس / ١٢.

(٥) سورة النساء / ١٦٤.

تعالى. وسيأتي مزيد كلام في ذلك إن شاء اللَّه تعالى.

والكلام من صفات المعاني كما تقدم.

تنبيه: ما تقدم من الكلام عن الصفات فيه رد على المشبهة الذين أثبتوا الصفات مع التشبيه وخالفوا أهل السنة والجماعة من السلف والخلف من الأشاعرة والماتريدية، وموّهوا على العامة بقولهم بلا كيف ولا يعنون بذلك إلا إثبات الكيفية مع تفويضها، على خلاف طريقة معظم السلف الذين يقولون «بلا كيف» يعنون بذلك نفي الكيفية، وفِرق المشبهة متنوعة قديما وحديثا وكلامهم في التشبيه مختلف ألوانه، وليس ما نذكره من باب الإلزام ولكنه مما صرح به المشبهة، وقد حاول بعض المعاصرين الدفاع عن الوهابية والقول بأنهم لا يلتزمون القول بالتشبيه ونحو ذلك وهي مداهنة أجارنا اللَّه منها، ولهذا نذكر نصوصا للوهابية ليعلم أننا لا نفتري عليهم ولا نلزمهم ما لا يلتزمونه وإلا لأجلَلْنا كتابنا هذا عن تلطيخه بذكر أسمائهم وكلامهم، فمن كلامهم في الكيفية:

قال **ابن باز** في مجموع فتاويه (٢٦/ ١١٢): «وهذا النزول الإلهي نزول يليق بالله عز وجل لا يشابهه نزول خلقه، فهو ينزل سبحانه نزولا يليق بجلاله لا يعلم كيفيته إلا اللَّه». وقال فيه (٩/ ٧٦): «وهو سبحانه أعلم بكيفية نزوله فعلينا أن نثبت النزول على الوجه الذي يليق بالله ومع كونه استوى على العرش فهو ينزل كما يليق به عز وجل ليس كنزولنا إذا نزل فلان من السطح خلا منه السطح وإذا نزل من السيارة خلت منه السيارة فهذا قياس فاسد له لأنه سبحانه لا يقاس بخلقه ولا يشبه خلقه في شيء من صفاته». وقال (٣/ ٧٠): «فإن السلف الصالح ليس مذهبهم التفويض لأسماء اللَّه وصفاته لا تفويضا عاما ولا خاصا وإنما يفوضون علم الكيفية».

وقال **ابن عثيمين** في شرح العقيدة الواسطية (١/ ٩٩): «ولهذا أيضًا قال بعض العلماء جوابًا لطيفًا: إن معنى قولنا: «بدون تكييف»: ليس

معناه ألا نعتقد لها كيفية، بل نعتقد لها كيفية لكن المنفي علمنا بالكيفية لأن استواء اللَّه على العرش لا شك أن له كيفية، لكن لا تعلم، نزوله إلى السماء الدنيا له كيفية، لكن لا تعلم، لأن ما من موجود إلا وله كيفية، لكنها قد تكون معلومة، وقد تكون مجهولة». وقال في لقاء الباب المفتوح (٦٧/ ٢٤): التفويض نوعان تفويض المعنى وتفويض الكيفية، فأهل السنة والجماعة يفوضون الكيفية ولا يفوضون المعنى». وقال في مجموع فتاويه (٤/ ٣٣) عندما سئل هل لصفات اللَّه كيفية؟: «نعم لها كيفية لكنها مجهولة لنا لأن الشيء إنما تعلم كيفيته بمشاهدته أو مشاهدة نظيره أو خبر الصادق عنه وكل هذه الطرق غير موجودة في صفات اللَّه، وبهذا عرف أن قول السلف بلا كيف معناه بلا تكييف لم يريدوا نفي الكيفية مطلقا لأن هذا تعطيل محض».

وقال **الألباني** في موسوعة الألباني في العقيدة (٦/ ٢٢) عندما سئل عن ءايات الصفات هل هي محكمة أم متشابهة ما نصه: «هي من جهةٍ من المتشابهات، وذلك فيما يتعلق بالكيفيات، وليست من المتشابهات من حيث أن لها معنًى ظاهرًا كما قلنا ءانفًا في قول السلف: أمِرُّوها كما جاءت يعني بالمفهوم العربي والمثال عن مالك سابقًا ذكرناه أيضًا، فهي بهذا الاعتبار أي بمعنى أن هذه الآيات لها معاني معروفة في اللغة العربية فهي غير متشابهة، أما باعتبار الكيفية فهي متشابهة؛ لأنه لا يمكن أن نعرف كيفية ذات اللَّه فبالتالي لا يمكن أن نعرف كيفية صفات اللَّه عز وجل».

وقال **ابن جبرين** في شرح الطحاوية (٥/ ٢٠) ما نصه: «له كيفية ولكنها محجوبة عنا فنؤمن به ونتوقف عن تلك الكيفية».

وقال **سفر الحوالي** في شرح الطحاوية (ص/ ١٣٨) ما نصه: «فنستطيع فهم الصفات واللوازم، وأما العين والحقيقة والذات فهذه لا نستطيع أن نفهم كيفيتها أبدًا، فنؤمن أن اللَّه سميع وبصير، وأنه على العرش، وأنه ينزل، وأنه يغضب، وأنه يرحم، مع الاعتقاد بأننا لا نستطيع معرفة كيفية الغضب والرحمة

والاستواء وسائر الصفات؛ ولهذا عندما نفى علماء السلف الكيف وقالوا نؤمن بلا كيف، ومعناه إثبات شيء وبمعناه مع جهل كيفيته» ثم قال (ص/ ٦٠٥): «التفويض عند السلف في الكيفية فقط والسؤال عن ذلك بدعة والله عز وجل هو الذي يعلم ذلك، لكن نثبت المعنى، فالاستواء مثلًا معناه معلوم وهو: استقر، وعلا، وارتفع، وصعد، كما ذكر السلف، وهذا معنى معروف في لغة العرب؛ لكن الكيفية أمرها إِلَى اللَّه في جميع الصفات، ونحن نجهل كيفية صفات اللَّه -عَزَّ وَجَلَّ- مثلما نجهل ذاته».

وقال **صالح ءال الشيخ** في إتحاف السائل بما في الطحاوية من المسائل (ص/ ٢٨٨) ما نصه: «لكن الذي ينبغي أن تعلمه أن التفويض قسمان تفويض للكيفية وتفويض للمعنى، والذي ورد عن السلف فيمن قال منهم إنهم يفوضون، أو نفوض هذا، أو نَكِلُ علمه إلى قائله، أو نحو ذلك مما يفهم منه التفويض، فيراد به تفويض الكيفية؛ لأنَّ الكيفية من التأويل الذي لا يعلمه إلا اللَّه».

فهذا بعض كلام مشايخ الوهابية في إثبات الكيفية، وأما كلامهم في التشبيه والجهة فهاك بعضه أيضا:

قال **صالح فوزان** في كتاب نظرات وتعقيبات (ص/ ٤٠): «اللَّه استقر على العرش» وقال في كتابه من مشاهير المجددين في الإسلام (ص/ ٣٢): «والأشاعرة والماتريدية خالفوا الصحابة والتابعين والأئمة الأربعة في كثير من المسائل الاعتقادية وأصول الدين فلم يستحقوا أن يلقبوا بأهل السنة والجماعة». وقال في مقدمته على الكتاب المسمى بالتوحيد لابن خزيمة: «الأشاعرة والماتريدية تلاميذ الجهمية والمعتزلة وأفراخُ المعطلة» وقال في شرح المنظومة الحائية (ص/ ٩٢): «وغير ذلك من الأحاديث الصحيحة التي فيها إثبات اليدين واليد لله عز وجل على معناهما المعروف في اللغة فهما يدان حقيقيتان ولكن ليستا كيدي المخلوقين بل هما يدان تليقان

بجلال اللَّه وعظمته لا يعلم كيفيتهما إلا اللَّه جل وعلا فنحن نثبتهما على معناهما الحقيقي وننفي عنهما التمثيل والتشبيه فلا يشبهان يدي المخلوق».

وقال في شرح لمعة الاعتقاد (ص/ ٧٤): «فدل على أن قوله ﴿بِيَدَيَّ﴾[1] تثنية يد الحقيقية كما يفهم هذا من المعنى اللغوي والمعروف في الحس لكن له يدان سبحانه وتعالى تختصان به لا تشبهان يدي المخلوق فيداه تليقان به جل وعلا ولا يعلم كيفيتهما إلا اللَّه وليستا كيدي المخلوقين».

وقال **صالح بن عبد العزيز** بن محمد بن إبراهيم بن عبد اللطيف بن عبد الرحمن بن حسن بن محمد بن عبد الوهاب المعروف **بصالح ءال الشيخ** في شرح الطحاوية (ص/ ٣٨٣) مثبتا للنزول الحسي مع قوله باستقرار اللَّه على العرش: «لأنه جمع بين النقيضين في حق بعض المخلوقات، وليس كل المخلوقات؛ لأنه يمكن أن ينزل المخلوق ويبقى عاليًا، ينزل المخلوق ويبقى عاليًا؛ لكن النزول مع الاستواء على العرش هذا من خصائص اللَّه عز وجل، لكن المخلوق يمكن أن ينزل وأن يكون عاليًا بذاته مثل الملائكة ينزلون وهم في العلو، أما الاستواء على العرش مع النزول هذا خاص بجلال اللَّه عز وجل». وقال (ص/ ١٧٢): «(تعالى عن الحدود) يعني المعلومة (والغايات) يعني المعلومة». وقال (ص/ ١٠٦٢): «فخص اللَّهُ ءادم من بين المخلوقات بأن جعله مجمع الصفات وفيه من صفات اللَّه الشيء الكثير» ثم قال (ص/ ١٠٦٣): «فآدم خص من بين المخلوقات بأن جعل اللَّه فيه من الصفات ما يشترك بها في أصل الصفة لا في كمال معناها ولا في كيفيتها مع الرحمن تكريما لآدم كما ذكرنا لك». وقال (ص/ ٤٢٩): «والعرش شرف وعظم لأن اللَّه جعله مكانا لاستوائه عليه». وقال (ص/ ١٠٠٩): «وأما المشابهة في مطلق المعنى وهو أصله الذي حصل به الاشتراك فإن هذا ليس منفيا لأن هذا أثبته الرب». وقال (ص/ ٢٨١): «فلهذا لا يطلق النفي للتشبيه

(١) سورة ص / ٧٥.

لا نقول التشبيه منتف مطلقا كما يقول من لا يحسن بل يقال التمثيل منتف مطلقا».

وقال **عبد الرحمن بن ناصر البراك** في توضيح العقيدة الواسطية (ص/ ١٠٤): «وفي هذه الآيات التي ساقها المؤلف أخبر اللَّه فيها عن استوائه على العرش، ومعناه كما جاء ذلك عن السلف علا وارتفع واستقر على العرش» ثم قال: «فيجب أن يثبت ذلك لله مع نفي مماثلته لصفة المخلوق، ونفي العلم بالكيفية، لكن الاستواء معناه معلوم كما قال الأئمة». وقال في شرح الطحاوية (ص/ ١٤٣): «وقوله (والأركان والأعضاء والأدوات) لا حول ولا قوة إلا باللهِ! عفا اللَّه عن المؤلف وغفر اللَّه لنا وله! ماذا يريد بالأركان والأعضاء والأدوات؟! لقد كان في غنى عن هذا الكلام، أين الآية أو الحديث الذي فيه هذه الألفاظ». وقال في تعليقه على فتح الباري (١/ ٥٠٣): «فإن أريد بالجارحة اليد التي تماثل أيدي المخلوقين فيد اللَّه سبحانه ليست مثل يد أحد من الخلق، وإن أريد بالجارحة اليد التي يكون بها الفعل والأخذ والعطاء ومن شأنها القبض والبسط فيد اللَّه كذلك، فقد خلق ءادم بيديه ويأخذ أرضه وسماءه يوم القيامة بيديه ويقبض يديه ويبسطهما». وقال في شرح العقيدة التدمرية (ص/ ٣٩٠): «وإن أردت بالتشبيه المشابهة من وجه دون وجه أو المشاركة في الاسم فإن هذا المعنى لا يصح نفيه».

وقال **مصطفى العدوي** المصري في تفسير سورة النساء: «قوله تعالى ﴿إِنَّآ أَنزَلۡنَآ﴾[1] استدل بهذه الآية على مسألة العلو أي أن اللَّه تبارك وتعالى في السماء مستو على عرشه، أما وجه الاستدلال فالقرءان منزل من عند اللَّه والنزول يكون من أعلى إلى أسفل».

فهذه بعض النصوص التي توضح مذهب الوهابية المشبهة الذين يحاول بعض المعاصرين ممن ينتسب للأشعري الدفاع عن حياضهم والذب عن

(١) سورة النساء / ١٠٥.

كنانتهم، معاذ اللَّه تعالى من الخذلان وأن نرضى بذلك، ورحم اللَّه الشيخ علي بن محمد الميليّ حيث قال في السيوف المشرفية (ق/ ١٦) ما نصه: «فقد اتضح لك من هذا الأول بطلان قول هؤلاء السفلية كابن تيمية وأتباعه النجدية المخزية القائلين بالجسمية **وإنه لا يتوقف في كفرهم مميز من البرية**». وسيأتي الكلام مبسوطا في بيان كفر المجسمة إن شاء اللَّه تعالى.

فائدة في بيان المراد من نجد في حديث «هناك يطلع قرن الشيطان»:

روى البخاري في صحيحه عن ابن عمر أن رسول اللَّه ﷺ قال «**اللهم بارك لنا في شامنا وفي يمننا**» قالوا وفي نجدنا؟ قال «**اللهم بارك لنا في شامنا وفي يمننا**» قالوا: وفي نجدنا؟ قال: «**هناك الزلازل والفتن وبها يطلع قرن الشيطان**» وروى أيضا عن أبي مسعود عقبةَ بن عمرو رضي اللَّه عنه أنه قال: أشار رسول اللَّه ﷺ بيده نحو اليمن فقال: «**الإيمان يمانٍ ههنا، ألا إن القسوة وغلظ القلوب في الفدّادين عند أصول أذناب الإبل حيث يطلع قرنا الشيطان في ربيعة ومضر**» فقد حاول الوهابية الفرار من هذا الحديث وزعموا أن نجدا المرادة في الحديث هي غير نجد الحجاز، **قلنا** هذه الدعوى يردها أمور منها أن السائلين لم يكونوا من أهل العراق وإنما من أهل الحجاز. **ثانيا**: إن العراق كانت حينئذ أرض زراعة وتجارة ولم تكن ءانذاك أرض الفدادين رعاء الإبل. **ثالثا**: نجد الحجاز هي بلاد ربيعة ومضر لا نجد العراق. **رابعا**: ممن نص على أن نجدا المرادة في الحديث هي نجد الحجاز التي طلع منها مسيلمة ومحمد بن عبد الوهاب الشيخُ سليمان بن عبد الوهاب في كتابه الذي ألفه في الرد على أخيه (ص/ ٩٣-٩٤) وسماه «الصواعق الإلهية في الرد على الوهابية»، وكذلك الشيخ أبو الفداء إسماعيل بن محمد التميمي في كتابه المنح الإلهية في طمس الضلالة الوهابية (ص/ ٢٨)، وقال الشيخ أحمد بن زيني دحلان في كتابه «الدرر السنية في الرد على الوهابية» (ص/ ٨٩-٩٠). **خامسا**: إن مما يقسم ظهوركم في هذه القضية نصَّ شيخكم وإمامكم ابن تيمية الحراني في كتابه «بيان تلبيس الجهمية» فإنه قال بعد ذكر الروايات

(١/ ٢٣) ما نصه: «ولا ريب أنه من هؤلاء ظهرت الردة وغيرها من الكفر من جهة مسيلمة الكذاب وأتباعه وطليحة الأسدي وأتباعه وسجاح وأتباعها حتى قاتلهم أبو بكر الصديق ومن معه من المؤمنين حتى قتل من قتل وعاد إلى الإسلام من عاد مؤمنا أو منافقا» ومعلوم أن المذكورين لم يكونوا من نجد العراق بل من نجد الحجاز. **سادسا**: مما يردّ دعواكم أن نجدا حيث أطلقت من غير قيد لا يصح حملها على نجد العراق قال الرافعي في فتح العزيز (٧/ ٨٠) ما نصه: «وقد ذكر الأئمة أن اليمن يشتمل على نجد وتهامة، وكذلك الحجاز، وإذا أطلق ذكر نجد كان المراد منه نجد الحجاز» ونقله عنه الكرماني في الكواكب الدراري في شرح صحيح البخاري (٢/ ١٦٤) والشمس البرماوي في اللامع الصبيح بشرح الجامع الصحيح (٢/ ١٢٣) مع إقرارهما له، وقال الشيخ ابن حجر الهيتمي في حاشيته على الإيضاح (ص/ ١٧٢) ما نصه: «والحجاز واليمن مشتملان على نجد وتهامة، فإذا أطلق نجد فالمراد به نجد الحجاز».

(ص) حيّ في الأزل، عالم في الأزل، قادر في الأزل، سميع في الأزل، بصير في الأزل، مريد في الأزل، متكلّم في الأزل، خالق في الأزل.

(ش) ذكر المصنف رحمه اللَّه تعالى في هذه الجملة أزلية الصفات، سواء كانت صفة ذات وهي الحياة والعلم والقدرة والسمع والبصر والإرادة والكلام أم صفة فعل وهي الخلق، كما قال الطحاوي في عقيدته المشهورة «ما زال بصفاته قديما قبل خلقه لم يزدد بكونه شيئا لم يكن قبلهم من صفته» أي أن اللَّه تعالى متصف بجميع صفاته قبل وصف الواصفين إياه بها أي أن اللَّه تعالى موصوف بأسمائه وصفاته الذاتية كالحياة والقدرة والعلم وبصفاته الفعلية كالإحياء والإماتة أزلا، وتأخرَ ظهور ءاثارها إلى الأوقات التي علم وجودها في الأزل، وتأخرُ ظهور الأثر عن المؤثر ثابت بالأدلة القاطعة، قال نجم الدين منكوبرس في شرح الطحاوية (١/ ٤٢٩) ما نصه: «وإذ قد ثبت

بالأدلة القاطعة أن صانع العالم قديم ومن شرط القديم التبرؤ عن النقائص ثبت أنه حي قادر سميع بصير عالم؛ إذ لو لم يكن كذلك لكان موصوفا بأضدادها إذ هي صفات مضادّة مُعاقِبة لتلك، فلو لم تكن هذه الصفات وهي الحياة والقدرة والسمع والبصر والعلم ثابتةً لثبت ما يعاقبها ويضادها من الموت والجهل والعمى والصمم والعجز وهي نقص، ومن شرط القديم الكمالُ، فدل أنه موصوف بما بينا من صفات الكمال لما انتفى عنه أضدادها التي هي من سمات الحدث لكونها نقائص». اهـ

تنبيه: لا خلاف بين أهل السنة في أن صفات الذات أزلية أبدية قائمة بذات اللَّه ومنها القدرة، وأن كل شيء يوجد فالله أوجده وأنه المكوِّن والعالم مكوَّنه، ولا خلاف بينهم أنه لا يقوم بذات اللَّه صفة حادثة، والأشاعرة والماتريدية يقولون اللَّه مكون العالم والعالم وجد بتكوين اللَّه، لا يختلفون في هذا وإنما يختلفون في شرحه، فقال الأشعري ولحقه عموم الأشاعرة: وظيفة القدرة هي الإيجاد والإعدام، فالله يوجد ويعدم بقدرته ويحيي بقدرته ويميت بقدرته والإحياء والإماتة ونحوهما ءاثار القدرة أمور حادثة ليست قائمة بذات اللَّه تعالى بل هي اعتبارية يعتبرها الذهنُ لا وجود لها في الخارج وهي المسماة بصفات الأفعال، فإن قيل: إن كانت عبارة عن ءاثار القدرة فلأي شيء قالوا عنها صفات؟ أجيب بأنها سميت بذلك لكونها تضاف إلى اللَّه تعالى فيقال إحياء اللَّه وتكوينه، وأما الماتريدية وكذا بعض قدماء الأشاعرة فقالوا صفات الأفعال قديمة قائمة بذات اللَّه ولم يفسروها بأنها ءاثار القدرة ولا قالوا هي أمور اعتبارية بل قالوا صفات الفعل موجودة محققة الوجود أزلية أبدية، وقالوا إن الإيجاد والإعدام من وظيفة التكوين، فالله يوجد ويعدم بتكوينه الأزلي لا بالقدرة، ويسمى تكوين اللَّه لحياة زيد إحياء وتكوينه لموت عمرو إماتة، فالإحياء تكوين مخصوص والإماتة تكوين مخصوص والرَّزق تكوين مخصوص وهكذا، وقد مر الكلام عن وظيفة القدرة عند الماتريدية فراجعه، وسيأتي مزيد كلام في التكوين والمكون.

قال الحافظ ابن حجر في الفتح (١٣/ ٤٣٩) ما نصه: «ومسألة التكوين مشهورة بين المتكلمين، وأصلها أنهم اختلفوا هل صفة الفعل قديمة أو حادثة، فقال جمع من السلف منهم أبو حنيفة هي قديمة، وقال ءاخرون منهم ابن كُلّاب والأشعري هي حادثة لِئلّا يلزم أن يكون المخلوق قديمًا. وأجاب الأوّل بأنه يوجد في الأزل صفة الخلق ولا مخلوق، وأجاب الأشعري بأنه لا يكون خلق ولا مخلوق كما لا يكون ضاربٌ ولا مضروبٌ، فأَلْزَمُوه بحدوث صفاتٍ فيلزم حلول الحوادث بالله، فأجاب بأن هذه الصفات لا تحدث في الذات شيئًا جديدًا، فتعَقَّبُوه بأنه يلزم أن لا يُسَمَّى في الأزل خالِقًا ولا رازِقًا وكلامُ اللَّه قديم وقد ثبت فيه أنّه الخالق الرزاق، فانفصل بعضُ الأشعرية بأنّ إطلاق ذلك إنما هو بطريق المجاز وليس المراد بعدم التسمية عدمَها بطريق الحقيقة، ولم يرتضِ هذا بعضهم بل قال وهو المنقول عن الأشعري نَفْسِه: إنّ الأسامِي جارية مَجرى الأعلام، والعلم ليس بحقيقة ولا مجاز في اللغة، وأما في الشرع فلفظ الخالق والرازق صادقٌ عليه تعالى بالحقيقة الشرعية، والبحث إنما هو فيها لا في الحقيقة اللُّغَوِيّة، فألزموه بتجويز إطلاق اسم الفاعل على مَن لم يَقُم به الفعل، فأجاب أنّ الإطلاق هنا شرعيّ لا لُغَويّ» اهـ

وقول الماتن رحمه اللَّه «مريد في الأزل» فيه رد على من قال من المعتزلة إنه تعالى مريد بإرادة حادثة لا في محل، ويعنون بذلك أن الإرادة التي هو مريد بها حادثة في غير محل فلا هي قائمة بذات اللَّه ولا هي قائمة بشئ غيره وهذا ظاهر البطلان، وفيه رد على الكرامية الذين يقولون إرادته حادثة في ذاته تعالى وهذا أيضًا ظاهر البطلان لأن الذات المقدس لو كان يحدث فيه شئ لكان حادثًا ولو كان حادثًا لاحتاج إلى محدِث ولم يكن إلهًا محدِثًا للعالم.

وقوله «متكلم في الأزل» فيه رد على ابن تيمية وأمثاله من الذين قالوا بحدوث الكلام في ذاته تعالى فإنه يقول في مجموع الفتاوى (١٦/ ٣٨٦) ما نصه: «بخلاف ما إذا قيل «كان قبل هذا الكلام كلامٌ وقبل هذا الفعل فعل» جائزٌ عند أكثر العقلاء أئمة السنة وأئمة الفلاسفة وغيرهم». وقال في

كتابه المسمى درء تعارض العقل والنقل مفتريا على السلف (٢/ ٢٧٨) ما نصه: «وإذا قال السلف والأئمة إن اللَّه لم يزل متكلما إذا شاء فقد أثبتوا أنه لم يتجدد له كونه متكلما بل نفس تكلمه بمشيئته قديم وإن كان يتكلم شيئا بعد شيء فتعاقب الكلام لا يقتضي حدوث نوعه إلا إذا وجب تناهي المقدورات المرادات» وقال فيه (٤/ ١٢٧) ما نصه: «وحينئذ فيكون الحق هو القول الآخر وهو أنه لم يزل متكلما بحروف متعاقبة لا مجتمعة» وقال في مجموع الفتاوى (١٢/ ٥٢٩) ما نصه: «بل هو سبحانه يتكلم إذا شاء ويسكت إذا شاء» اهـ وقال فيه (١٢/ ١٥٨) ما نصه: «وحينئذ فكلامه قديم مع أنه يتكلم بمشيئته وقدرته وإن قيل إنه ينادي ويتكلم بصوت ولا يلزم من ذلك قدم صوت معين وإذا كان قد تكلم بالتوراة والقرءان والإنجيل بمشيئته وقدرته لم يمتنع أن يتكلم بالباء قبل السين وإن كان نوع الباء والسين قديما لم يستلزم أن يكون الباء المعينة والسين المعينة قديمة لما علم من الفرق بين النوع والعين» اهـ وصرح ابن تيمية بقوله بقيام الحوادث في ذات اللَّه تعالى فمن ذلك قوله في المنهاج (٢/ ٢٦٣) ما نصه: «فإنا نقول إنه يتحرك وتقوم به الحوادث والأعراض فما الدليل على بطلان قولنا» وقال في مجموع الفتاوى (١٦/ ٣٨٢) ما نصه: «ومن قال إن الخلق حادث كالهشامية والكرامية قال نحن نقول بقيام الحوادث به، ولا دليل على بطلان ذلك» وقال في مجموع الرسائل (٣/ ١١٨) ما نصه: «فإن قلتم لنا فقد قلتم بقيام الحوادث بالرب قلنا لكم نعم وهذا قولنا الذي دل عليه الشرع والعقل» وقال في درء التعارض (١/ ١١٨): «فمن أين في القرءان ما يدل دلالة ظاهرة على أن كل متحرك محدث أو ممكن، وأن الحركة لا تقوم إلا بحادث أو ممكن، وأن ما قامت به الحوادث لم يخل منها، وأن ما لا يخلو من الحوادث فهو حادث» اهـ

وقد بين شرف الدين التلمساني في شرح لمع الأدلة (ص/ ٨٠) فساد ذلك فقال ما نصه: «وخالف إجماع الأمة طائفة نبغوا من سجستان لقبوا بالكرامية نسبة إلى محمد بن كرام وزعموا أن الحوادث تطرأ يعني تتجدد على

ذات اللَّه، تعالى عن قولهم، وهذا المذهب نظير مذهب المجوس، ووجه مضاهاته لمذهب المجوس أن طائفة منهم تقول بقدم النور وحدوث الظلمة وأن سبب حدوثها أن يزدان فكر فكرة فحدث منها شخص من أشخاص الظلمة فأبعده وأقصاه وهو هُرْمُن وجميع الشر ينسب إليه، وكذلك الكرامية تزعم أن اللَّه تعالى إذا أراد إحداث محدث أوجد في ذاته كافا ونونا وإرادة حادثة وعن ذلك تصدر سائر المخلوقات المباينة لذاته» اهـ

وقال سيف الدين الآمدي في غاية المرام في علم الكلام (ص/ ١٩١) ما نصه: «فالرأي الحق والسبيل الصدق والأقرب إلى التحقيق أن يقال لو جاز قيام الحوادث به لم يخل عند اتصافه بها إما أن توجب له نقصا أو كمالا أو لا نقص ولا كمال، لا جائز أن يقال بكونها غير موجبة للكمال ولا النقصان فإن وجود الشيء بالنسبة إلى نفسه أشرف له من عدمه فما اتصف بوجود الشيء له وهو مما لا يوجب فوات الموصوف ولا فوات كمال له وبالجملة لا يوجب له نقصا فلا محالة أن اتصافه بوجود ذلك الوصف له أولى من اتصافه بعدمه لضرورة كون العدم في نفسه مشروفا بالنسبة إلى مقابله من الوجود والوجودُ أشرف منه وما اتصف بأشرف الأمرين من غير أن يوجب له في ذاته نقصا تكون نسبة الوجود إليه مما يرجع إلى النقص والكمال على نحو نسبة مقابله من العدم ولا محالة أن كانت نسبته إلى ذلك وجودَ ذلك الوصف أشرف منه بالنسبة إلى عدمه، ولا جائز أن يقال إنها موجبة لكماله وإلا لوجب قدمها لضرورة أن لا يكون البارئ ناقصا محتاجا إلى ناحية كمال في حال عدمها فبقي أن يكون اتصافه بها مما يوجب القول بنقصه بالنسبة إلى حاله قبل أن يتصف بها وبالنسبة إلى ما لم يتصف بها من الموجودات، ومحال أن يكون الخالق مشروفا أو ناقصا بالنسبة إلى المخلوق ولا من جهة كما مضى» اهـ

(ص) والحياة والعلم والقدرة والسمع والبصر والإرادة والكلام والخلق -وهو التكوين- صفاته، وصفاته قائمة بذاته.

(ش) بعدما بين المصنف رحمه اللَّه أن اللَّه تعالى حي عالم قادر سميع بصير مريد متكلم خالق، شرع ببيان أنه حي بحياة وعالم بعلم وقادر بقدرة وسميع بسمع وبصير ببصر ومريد بإرادة ومتكلم بكلام وخالق بخلق خلافا للمعتزلة النافين للصفات، قال الزركشي في تشنيف المسامع (٤/ ٦٦٧) ما نصه: «مذاهب الناس في الصفات ثلاثة:

ذهب أهل الحق إلى إثبات الصفات وأنها زائدة على مفهوم الذات ويجمعها قول الشاطبي رحمه اللَّه تعالى: [البسيط]

حيٌّ عليمٌ قديرٌ والكلامُ له ... باقٍ سميعٌ بصيرٌ ما أراد جرى

وأرجعها المصنف إلى ما يدل عليها فعله أو يقتضي التنزيه، وأرجعها الشيخ عز الدين في القواعد إلى ما لا يتعلق بغيره كالحياة، وإلى ما يتعلق بغيره كشفا كالعلم والسمع والبصر، وإلى ما يتعلق بغيره تأثيرا كالقدرة، وإلى ما يتعلق بغيره من غير كشف وتأثير كالكلام، وأعمُّها تعلقا الكلام والعلم، وأخصها السمع ويتوسطها البصر.

الثاني: قول الفلاسفة وقدماء المعتزلة: نفي الصفات وأنه لا صفة هناك ثبوتية زائدة، ويقولون: لو ثبت لزم التركيب في الذات، ولا نزاع بينهم في أن للَّه تعالى أسماء وصفات، لكن بعض من جمع بين الحديث والفلسفة كابن حزم ينكر لفظ الصفات وطعن في الحديث الذي في الصحيحين من أنها صفة الرحمن مطعنا غير مقبول، وجوزوا إطلاقها عليه لغة، وقالوا: إنها تسميات تنبئ عن ضُروب من الإضافات، فلا يقال: عالم ولا قادر، ولكن يقال: ليس بجاهل ولا عاجز، وبالغوا في نفي الكثرة عنه حتى قالوا إن وجوده وجود محض ولا ماهية ولا حقيقة له يضاف وجوده إليها، ثم اختلفوا فقال بعضهم: معنى كونه عالما قادرا حيا، أنه ليس بعاجز ولا جاهل ولا ميت،

وكذلك سائرها، ويُسمَّون السلبية، وقال ءاخرون: هو كذلك لمعان ليست موجودة ولا معدومة، هي مشتقة من المعاني الثبوتية سموها أحوالا كالعالمية والقادرية والحيية، وهي كونه عالما قادرا حيا.

الثالث: قول متأخري المعتزلة كأبي هاشم وغيره: نفي حقائق هذه الصفات وإثبات أحكامها فقالوا: عالم لذاته لا بعلم، وكذا الباقي، تعلقا بأن الصفة غير الموصوف، فلو كان له صفات للزم تعدد القديم، وقال تعالى ﴿لَّقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ ثَالِثُ ثَلَٰثَةٍ﴾[1] ويقولون بثبوت العالمية والقادرية له بناء على أنها نِسب وإضافات لا وجود لها في الخارج بخلاف العلم والقدرة والحياة فإنها صفات حقيقية.

ولنا أن اللَّه تعالى أثبت هذه الصفات لنفسه في كتابه العزيز فوجب القول بها مع أنه يستحيل إثبات موجود بهذه الأوصاف مع نفي هذه الصفات، وإذا لزم إثباته بهذه الأوصاف لزم إثبات هذه الصفات له، قال تعالى: ﴿وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِّنْ عِلْمِهِۦٓ إِلَّا بِمَا شَآءَ﴾[2] [3] وقال: ﴿وَسِعَ كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا﴾[4] وقال: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلرَّزَّاقُ ذُو ٱلْقُوَّةِ ٱلْمَتِينُ﴾[5] فأثبت القوة لنفسه وهي القدرة، وأثبت العلم، فدل على أنه عالم بعلم وقادر بقدرة، ولأنه لو جاز عالم لا علم له لجاز علم ولا عالم به، كما أنه لو جاز فاعل لا فعل له لجاز

(١) سورة المائدة / ٧٣.

(٢) سورة البقرة / ٢٥٥.

(٣) أورد الزركشي هذه الآية للاستدلال على اتصاف اللَّه تعالى بصفة العلم إلا أن قوله تعالى ﴿مِّنْ عِلْمِهِۦٓ﴾ يراد به هنا المعلوم لورود الاستثناء بعده، ويؤخذ من هذا ثبوت العلم له.

(٤) سورة طه / ٩٨.

(٥) سورة الذاريات / ٥٨.

فعل لا فاعل [له]، وقال: ﴿أَنزَلَهُۥ بِعِلْمِهِۦ﴾[١] وقال ﴿وَسِعَ رَبِّي كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا﴾[٢] ولا شك أن العالم من قام به العلم وهو وصف ثبوتي، وقال أيضا ﴿فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ﴾[٣] مع أن الفعل مشتق من المصدر وهو الإرادة وقد وجد الفعل المشتق فوجب أن تكون الإرادة المشتق منها موجودة، إذا ثبت هذا في العلم والإرادة وجب مثله في باقي الصفات إذ لا قائل بالفرق». انتهى كلام الزركشي.

قال الحافظ ابن بطال في شرح البخاري (١٠/٤٠٨) ما نصه: «فمن دفع علم البارئ تعالى الذي هو حقيقة في كونه عالما وزعم أنه عالم بنفسه لا بعلم فقد رد نصه تعالى على إثبات العلم الذي هو حقيقة في كونه عالما، ولا خلاف بين رد نصه على أنه ذو علم وبين نصه على أنه عالم، فالنافي لعلمه كالنافي لكونه عالما، واجتمعت الأمة على أن من نفى كونه عالما فهو كافر، فينبغي أن يكون من نفى كونه ذا علم كافرًا؛ إذ من نفى أحد الأمرين كمن نفى الآخر، والقول في العلم بهذا كاف من القول به في جميع صفاته».

وتقدم قول محمد الخادمي (ت ١١٧٦) في شرح رسالة محمد بن بير علي البركوي (ت ٩٨١) ما نصه: «(وفيها سئل عمن قال بأن اللَّه تعالى عالم بذاته) أي ذاته عين علمه (ولا يقول له العلم، قادر بذاته ولا يقول له القدرة) وكذا سائر صفاته (وهم المعتزلة) وكذا الفلاسفة إذ عندهما أن جميع صفاته تعالى عين ذاته (هل يحكم بكفرهم أم لا؟ قال يحكم بكفرهم لأنهم ينفون الصفات ومن نفى الصفات فهو كافر)» اهـ

(ص) والله تعالى قديم بصفاته.

(ش) اختلف إماما أهل السنة والجماعة هل يقال مثلا علم اللَّه قديم

(١) سورة النساء / ١٦٦.

(٢) سورة الأنعام / ٨٠.

(٣) سورة البروج / ١٦.

وقدرته قديمة وإرادته قديمة فذهب الشيخ أبو منصور إلى أنه لا يقال ذلك بل يقال اللَّه قديم بصفاته وكذلك قال بعض متقدمي الأشاعرة وعللوا ذلك بأن القديم قديم بقدم فلو قيل إن علم اللَّه قديم اقتضى ذلك قيام القدم بالعلم وهو محال، وقال الشيخ أبو الحسن الأشعري لا مانع من قوله «علم اللَّه قديم» لأن القديم قديم لنفسه لا بقدم يقوم به، قال الشيخ أبو منصور في رسالة التوحيد (ص/ ٥٢) ما نصه: إن صفات اللَّه تعالى لا توصف لأن في ذلك تشبيهَ أنها أغيار، ولا فيها موصوفات، وتفسير ذلك أنه لا يقال «علم اللَّه قديم، وقدرته قديمة، وتكوينه قديم» وغير ذلك من الصفات، ولا يقال أيضا «قدرته لم تزل وعلمه لم يزل» بل يقال «إن اللَّه قديم بصفاته وبصفاته لم يزل» فالصفات تضاف إلى اللَّه ثم إنه يوصف اللَّه تعالى بأنه قديم بصفاته». انتهى كلام الماتريدي، وقال الزركشي في التشنيف (٤/ ٦٧٠) ما نصه: قال البيهقي: فإن قالوا فتقولون إن علمه قديم وهو قديم؟ قيل: من أصحابنا من لا يقول ذلك مع إثباته أزليا، ومنهم من يقول ذلك ولا يجب به الاشتباه لأن القديم هو المتقدم في وجوده والوجود لا يوجب الاشتباه عند أحد فكذلك المتقدم في الوجود لا يوجب الاشتباه. فإن قالوا: لو كان له علم لم يخل إما أن يكون هو أو غيرَه أو بعضه، قيل: هذه دعوى، بل ما قيل من علم لا يجوز أن يقال هو هو لاستحالة أن يكون العلم عالما، ولا أن يقال غيره لاستحالة مفارقته له، ولا بعضه لأنه ليس الوجوب متبعضا اهـ ثم قال الزركشي (٤/ ٦٧٣) ما نصه: «إنما قال المصنف «لم يزل» ولم يقل قديمة، لأن هذه الصفات للرب سبحانه وتعالى عند المتقدمين من أصحابنا لا يقال لها قديمة، لأن القديم عندهم هو بقدم فلا يجوز أن يقوم بالصفات قدم بل هي أزلية كذا حكاه ابن القشيري في المرشد قال: وعند أبي الحسن صفات ذات الرب قديمة ومنع أن يكون القديم قديما بقدم بل القديم قديم لنفسه» اهـ

(ص) ليس شيء من صفاته محدثًا.

(ش) أن هذا تأكيد وتنبيه من المصنف رحمه اللَّه أنه وإن تحرز من التعبير بأن الصفة قديمة إلا أنه لا يعني بذلك أن اللَّه تعالى تقوم به صفة حادثة، لأن حدوث الصفة يستلزم حدوث الذات كما مر.

(ص) وصفاته لا هو ولا غيره.

(ش) أن هذا جواب عن قول المعتزلة لو كان لله صفات لكانت أزلية ولو كانت أزلية لتعدد القدماء فبطل التوحيد، فنفوا أن يوصف اللَّه بصفات قائمة بذاته، فإذا قيل لهم ألا تثبتون القدرة؟ قالوا لا نثبت معنى زائدا على الذات بل نقول هو قادر بذاته إذ لو قلنا قادر بقدرة وعالم بعلم ومريد بإرادة ومتكلم بكلام هو صفة له فقد أثبتنا ءالهة كثيرة وجعلنا هذا العلم إلها مع اللَّه وجعلنا القدرة إلها مع الذات المقدس، فقال أهل السنة في الجواب عن ذلك: ذات اللَّه واحد متصف بصفات لا هي عينه بل لها مفهوم غير مفهوم الذات لأنك إذا قلت «علم اللَّه» فهم من هذه الكلمة غير مفهوم الذات المقدس وإذا قلت «الله» فهم منه الذات، ولا هي غيره أي لا يصح انفكاكها عنه كالغَيْرَين، فلا يلزم من قولنا «الله له علم قديم وقدرة قديمة وإرادة قديمة وسمع قديم وبصر قديم وحياة قديمة وكلام قديم قائمات بذاته» إثباتُ ءالهة بل أثبتنا إلها واحدًا متصفًا بصفات أزلية بأزلية الذات، فصفات اللَّه تعالى ليست عين الذات ولا غير الذات، وأما النصارى فإنهم وإن لم يصرحوا بالقدماء المتغايرة لكنه يلزمهم ذلك لأنهم أثبتوا الأقانيم الثلاثة التي هي الوجود والعلم والحياة كما تقدم ذلك، وزعموا أن أُقْنُومَ العلم قد انتقل إلى بدن عيسى عليه السلام فجوزوا الانفكاك والانتقال على صفات اللَّه فكانت ذواتًا متغايرة، وعندنا لا يجوز أن تنتقل صفة الإله لأن الأزلي لا يطرأ عليه التغير، فإذا قيل اللَّه واجب الوجود بذاته وصفاتُه واجبة للذات الواجب فلا إشكال في ذلك، قال

التفتازاني في شرح العقائد (ص/ ١٤٦): ولصعوبة المقام[1] ذهبت المعتزلة والفلاسفة إلى نفي الصفات والكرامية إلى نفي قدمها اهـ فالفلاسفة مذهبهم قريب من مذهب المعتزلة، بخلاف أهل السنة الماتريدية والأشاعرة فقد ذهبوا إلى نفي غيريَّتها وعينيَّتها، وأما صفاتنا نحن فهي غير الذات لأن وجود ذواتنا بدونها متصور معقول لأن الإنسان أولَ ما يوجد يكون على صفات ثم يتطور إلى صفات أخرى والذات هو هو.

قال الإمام أبو القاسم الأنصاري في شرح الإرشاد (ص/ ١٥٦) ما نصه: «والذي ارتضاه المحققون من أئمتنا في حقيقة الغيرين أنهما الموجودان اللذان يجوز مفارقة أحدهما للثاني بزمان أو مكان أو وجود أو عدم» ثم قال (ص/ ١٥٧): «فإن قيل إن تقطعوا بما ذكره أئمتكم في حقيقة الغيرين فهل تقطعون بالمنع من إطلاق الغيرية في صفات البارئ تعالى وذاته؟ قلنا: هذا مما نمنع منه قطعًا لاتفاق الأئمة على منع إطلاقه، وكما لا توصف الصفات بأنها أغيار للذات فلا يقال إنها هو، ولا نتحاشى من إطلاق القول بأن الصفات موجودات وأن العلم مع الذات موجودان، وكذلك القول في جميع الصفات، وامتنع الأئمة من إطلاق القول بأن الصفات مختلفة».

(ص) والتكوين غير المكوَّن لأن التكوين أزليّ؛ إذ هو صفته، والمكوَّنَ محدَث.

(ش) أن هذه المسألة مبنية على ما تقدم في صفة التكوين فإن الماتريدية لما قالوا التكوين صفة أزلية قائمة بذات اللَّه تعالى وإن المكوَّن هو الحادث المخلوق قالوا إن التكوين غير المكون، ولما قال الأشعرية التكوين أثر القدرة الأزلية قالوا إن التكوين عين المكون.

---

(١) أي أن من أهل البدع من صعب عليه المقام وأما عقيدة أهل السنة فسهلة غير صعبة.

قال التفتازاني في شرح العقائد (ص/ ١٠١) ما نصه: «ولأنه لو كان -أي التكوين- نفس المكون لزم أن يكون المكون مخلوقا مكونا بنفسه ضرورة أنه مكون بالتكوين الذي هو عينه فيكون قديما مستغنيا عن الصانع وهو محال، ويلزم أيضا أن لا يكون للخالق تعلق بالعالم سوى أنه أقدم منه وقادر عليه من غير صنع وتأثير فيه ضرورة تكونه بنفسه وهذا لا يوجب كونه خالقا والعالم مخلوقا فلا يصح القول بأنه خالق العالم وصانعه، هذا خلف أي باطل، ولزم أن لا يكون اللَّه تعالى مكونا للأشياء ضرورة أنه لا معنى للمكوِّن إلا من قام به التكوين والتكوين إذا كان عين المكون لا يكون قائما بذات اللَّه تعالى، وأن يصح القول بأن خالق سواد هذا الحجر أسود وهذا الحجر خالق السواد إذ لا معنى للخالق والأسود إلا من قام به الخلق والسواد وهما واحد فمحلهما واحد، وهذا كله تنبيه على كون الحكم بتغاير الفعل والمفعول ضروريا» اهـ وعلى ذلك أيضا الإمام البخاري فإنه يقول في صحيحه (٩/ ١٣٣) ما نصه: «باب ما جاء في تخليق السموات والأرض وغيرهما من الخلائق وهو فعل الرب تبارك وتعالى وأمره، فالرب بصفاته وفعله وأمره وهو الخالق المكوّن غير مخلوق، وما كان بفعله وأمره وتخليقه وتكوينه فهو مفعول مخلوق مكوَّن».

وما ذكره الماتريدية من الإلزامات للأشاعرة لا يلتزمه الأشاعرة ويجيبون عنها بأجوبتهم فالخلاف بينهما سهل ولهذا قال ابن السبكي في السيف المشهور (ص/ ٢٤) بعد عرض الخلاف الحاصل بين الأشاعرة والماتريدية ما نصه: «واعلم أن خلافنا مع الحنفية في هذه المسألة أمر سهل وإن أكثر الفريقان الكلام وبسطوا القول».

(ص) وكلامه ليس من جنس الحروف والأصوات، بل هو صفة أزلية له منافية للسكوت والآفة، والحروف والأصوات عبارات عن كلامه ودلالات عليه، وأنها محدثة.

(ش) بعدما أنهى المصنف الكلام عن الصفات عاد للكلام عن صفة

الكلام لأهمية التنبيه على ذلك، فإن مسألة الكلام مما طال فيها الجدل قديما وحديثا، حتى قال بعضهم لأجلها سمي العلم بعلم الكلام، فبين المصنف رحمه اللَّه في هذه الجملة أن كلامه تعالى صفة أزلية ثابتة لله تعالى بإثباتها ننفي عنه السكوت والآفة كالخرس، وكلامه تعالى ليس ككلام غيره فكلامه ليس بصوت ولا حرف ولا لغة بخلاف كلامنا نحن فإنه بصوت وحرف ولغة، وأما اللفظ المنزل فهو دلالة على كلامه تعالى ولهذا يسمى كلام اللَّه ويسمى قرءانا كما سيأتي في المسألة التالية، وممن ضل وخالف في هذه المسألة ابن تيمية فقال في مجموع الفتاوى (٥/ ٥٥٦) ما نصه: «وجمهور المسلمين يقولون إن القرءان العربي كلام اللَّه وقد تكلم اللَّه به بحرف وصوت فقالوا إن الحروف والأصوات قديمة الأعيان أو الحروف بلا أصوات وإن الباء والسين والميم مع تعاقبها في ذاتها فهي أزلية الأعيان لم تزل ولا تزال» وقال في درء التعارض (٤/ ١٢٧) ما نصه: «وحينئذ فيكون الحق هو القول الآخر وهو أنه لم يزل متكلما بحروف متعاقبة لا مجتمعة» اهـ ومر أنه جعل الكلام من متعلقات المشيئة وأنه يحدث شيئا بعد شيء وتقدم الجواب عن ذلك.

وأما أحاديث الصوت فليس فيها ما يحتج به في العقائد وقد ورد حديث مختلف في بعض رواته وهو عبد اللَّه بن محمد بن عقيل بن أبي طالب قال فيه ابن المديني[١] «كان ضعيفا»، وكان مالك ويحيى بن سعيد لا يرويان عنه، وقال الحاكم[٢] «عمّر فساء حفظه فحدّث على التخمين»، وضعفه ابن القيسراني، وقال ابن معين[٣] «ضعيف في كل أمره»، وقال أبو حاتم الرازي[٤]

(١) انظر: سؤالات ابن أبي شيبة (ص/ ٨٨).

(٢) انظر: تهذيب التهذيب (٦/ ١٥).

(٣) انظر: الجرح والتعديل (٥/ ١٥٣).

(٤) الجرح والتعديل (٥/ ١٥٣).

«لين الحديث ليس بالقوي ولا ممن يحتج بحديثه»، وقال ابن الجوزي[1] «ضعيف جدا»، هذا وقد روى حديثه البخاري بصيغة التمريض، قال: «ويُذكر عن جابر» وفيه: «**فيناديهم بصوت يسمعه من بعُدَ كما يسمعه من قرُبَ، أنا الملِك أنا الديّان**»، وإنما ذكره البخاري بصيغة التمريض من أجل راويه هذا، قال الحافظ ابن حجر في الفتح (١/ ١٧٤): «ونظر البخاري أدق من أن يعترض عليه بمثل هذا فإنه حيث ذكر الارتحال فقط جزم به لأن الإسناد حسن وقد اعتضد، وحيث ذكر طرفا من المتن لم يجزم به؛ لأن لفظ الصوت مما يُتوقف في إطلاق نسبته إلى الرب ويحتاج إلى تأويل، فلا يكفي فيه مجيء الحديث من طريقٍ مختلَفٍ فيها ولو اعتضدت» اهـ. أي لا يكفي ذلك في مسائل الاعتقاد وإن كان البخاري ذكر أوله في كتاب العلم بصيغة الجزم لأنه ليس فيه ذكر الصوت إنما فيه ذكر رحيل جابر بن عبد اللَّه إلى عبد اللَّه بن أنَيْس من المدينة إلى مصر.

والحديث الآخر عن أبي سعيد الخدري رضي اللَّه عنه قال: قال النبي ﷺ: «**يقول اللَّه يوم القيامة: يا ءادم، فيقول: لبيك وسعديك، فينادى بصوت: إن اللَّه يأمرك أن تخرِج من ذريتك بعثًا إلى النار**»، هذا اللفظ رواه رواة البخاري على وجهين، بعضهم رواه بكسر الدال وبعضهم رواه بفتح الدال. قال الحافظ ابن حجر في الفتح (١٣/ ٤٦٠): «ووقع فينادِي مضبوطًا للأكثر بكسر الدال، وفي رواية أبي ذر بفتحها على البناء للمجهول، ولا محذور في رواية الجمهور، فإن قرينة قوله «**إن اللَّه يأمرك**» تدل ظاهرًا على أن المنادي ملك يأمره اللَّه بأن ينادي بذلك» اهـ. وهذا الحديث رواه البخاري موصولًا مسندًا، لكنه ليس صريحًا في إثبات الصوت صفة لله فلا حجة فيه لذلك للصوتية.

وهناك حديث ءاخر عند البخاري: «**إذا تكلم اللَّه بالوحي سمع أهل السموات شيئًا**»، ورواه أبو داود بلفظ: «**سمع أهل السماء للسماء صلصلة**

(١) انظر: الضعفاء والمتروكين (٢/ ١٤٠).

كجر السلسلة على الصفوان» وهذا قد يحتج به المشبهة، وليس لهم فيه حجة لأن الصوت خارجٌ من السماء، فالحديث فسر الحديث بأن الصوت للسماء.

قال الكوثري في تعليقه على السيف الصقيل ما نصه: «وحديثُ جابر المعلقُّ في صحيح البخاري مع ضعفه في سياق ما بعده من حديث أبي سعيد ما يدل على أن المنادي غير اللَّه حيث يقول «**فينادي بصوت إن اللَّه يأمرك**» فيكون الإسناد مجازيا على أن الناظم -يعني ابن زفيل- ساق في حادي الأرواح بطريق الدارقطني حديثا فيه «**يَبعثُ اللَّه يومَ القيامة مناديا بصوت**» وهذا نص من النبي ﷺ على أن الإسناد في الحديث السابق مجازي، وهكذا يخرّب الناظم بيته بيده وبأيدي المسلمين، وللحافظ أبي الحسن المقدِسي جزء في تبيين وجوه الضعف في أحاديث الصوت فليراجع ثمة» وقال الكوثري في مقالاته (ص/ ٣٢): «ولم يصح في نسبة الصوت إلى اللَّه حديث». وقال أيضا (ص/ ٤٤): «وقد أفاض الحافظ أبو الحسن المقدسي شيخ المنذري في رسالة خاصة في تبيين بطلان الروايات في ذلك زيادة على ما يوجبه الدليل العقلي القاضي بتنزيه اللَّه عن حلول الحوادث فيه سبحانه، وإن أجاز ذلك الشيخ الحراني [يعني ابن تيمية] تبعًا لابن ملكا اليهودي الفيلسوف المتمسلم، حتى اجترأ على أن يزعم أن اللفظ حادث شخصًا قديم نوعًا، يعني أن اللفظ صادر منه تعالى بالحرف والصوت فيكون حادثًا حتمًا، لكن ما من لفظ إلا وقبله لفظ صدر منه إلى ما لا أول له فيكون قديمًا بالنوع، ويكون قدمه بهذا الاعتبار في نظر هذا **المخرّف**، تعالى اللَّه عن إفك الأفّاكين، ولم يدر المسكين بطلان القول بحلول الحوادث في اللَّه جل شأنه وأن القول بحوادث لا أوّل لها **هذيان**، لأن الحركة انتقال من حالة إلى حالة، فهي تقتضي بحسب ماهيتها كونها مسبوقة بالغير، والأزل ينافي كونه مسبوقًا بالغير، فوجب أن يكون الجمع بينهما محالا، ولأنه لا وجود للنوع إلا في ضمن أفراده، فادعاء قدم النوع مع الاعتراف بحدوث الأفراد يكون ظاهر البطلان. وقد أجاد الرد

عليه العلَّامة قاسم [يعني ابنَ قطلوبغا] في كلامه على المسايرة» اهـ

هذا وليعلم أن من قال بالصوت من أهل السنة فقد حمله على معنى يليق بالله تعالى فقال الصوت له معنى ليس كمعناه إذا أضيف للبشر لا تدرك حقيقته قديم غير حادث بل هو صفة أزلية أبدية لا يوصف بالتعاقب ولم يحمله على الظاهر وهو مع ذلك مكابرة ظاهرة لا حاجة لها.

(ص) والقرءان كلام اللّه غير مخلوق، ويقال: القرءان مقروء بألسنتنا، مكتوب في مصاحفنا، غير حالٍ فيها، ومعناه أن القراءة الدالّة عليه بألسنتنا، والكتابة الدالّة عليه في مصاحفنا، كما يقال: اللّٰه تعالى مذكور بألسنتنا، معناه أن الذكر الدالّ عليه بألسنتنا.

(ش) هذا شروع من المصنف رحمه اللَّه في بيان الفرق بين القراءة والمقروء والكتابة والمكتوب، فالمقروء والمكتوب كلام اللَّه تعالى وهو غير مخلوق، والقراءة والكتابة حادثة وهي عبارة عن كلام اللَّه تعالى كما إذا ذكر اللَّه تعالى باللسان فالذكر حادث والمذكور وهو رب العباد قديم أزلي، وقد بين ذلك شيخنا الهرري في الدليل القويم (ص/ ٢٢١) فقال ما نصه: «وكُتُب اللَّه المنزلة من القرءان والتوراة والإنجيل والزبور وغير ذلك مما أنزله على رسله، عبارات عن كلامه الذاتي الأزلي الأبدي. والعبارة غير المعبَّر عنه، ولذلك اختلفت باختلاف الألسنة. فإذا عُبِّر عن الكلام الذاتي بحروف القرءان التي هي عربية فقرءان، وبالعبرانية فتوراة، وبالسريانية فإنجيل وزبور. فالاختلاف في العبارات دون المعبَّر عنه. فحروف القرءان حادثة، والمعبَّر عنه بها هو الكلام الذاتي القائم بذات اللَّه أزليٌّ. فتبين أن القراءة والتلاوة والكتابة حادثة، والمتلوَّ والمقروء والمكتوب أي ما دلّت عليه الكتابة والقراءة والتلاوة من كلامه الذاتي قديم أزلي، كما أنه إذا ذُكر اللَّهُ بألسنةٍ متعددةٍ ولغات مختلفة فإن الذكر حادث والمذكور هو ربّ العباد قديم أزلي» اهـ

وقال الزركشي في التشنيف في شرح قول ابن السبكي «القرءان كلامه

غير مخلوق» (٤/ ٦٨٠) ما نصه: «القرءان لفظ مشترك يطلق ويراد به المقروء وهو صفة قديمة قائمة بذات اللَّه تعالى وليست من قبيل الحروف والأصوات، ويدل عليه قول السلف قاطبة «القرءان كلام اللَّه تعالى وهو غير مخلوق»، قال علي رضي اللَّه عنه: «ما حكَّمتُ مخلوقا وإنما حكمت القرءان» وكما نعقل متكلما ولا مخارج له ولا أدوات كذلك نعقل كلاما ليس بحروف ولا أصوات، والدليل عليه: أن كلامه صفة موجودة والحروف إن كانت كتابة فهي أجسام، وإن كانت حركاتِ أدوات فهي أعراض، ومحال قيام الأجسام والأعراض بالبارئ تعالى عن ذلك، ويلزم القائل بذلك القول بخلق القرءان، ويطلق ويراد به العبارات الدالة على الصفة القديمة التي هي القراءة ومنه قوله تعالى: ﴿إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُۥ وَقُرْءَانَهُۥ﴾[١] أي قراءته إذ ليس للقرءان قرءان ءاخر ﴿فَإِذَا قَرَأْنَٰهُ فَٱتَّبِعْ قُرْءَانَهُۥ﴾[٢] أي قراءته، وقوله تعالى: ﴿وَقُرْءَانَ ٱلْفَجْرِ﴾[٣] وقوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِى فَرَضَ عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ﴾[٤] أي القراءة، ومنه حديث: «**ما أذِن اللَّه لشيء كأذَنِه لنبي حسن الترنم يتغنى بالقرءان**» ومعناه بالقراءة، ويدل عليه قول السلف «القرءان معجزة رسول اللَّه ﷺ» ويستحيل أن يكون القديم معجزة إذ لا اختصاص للصفة الأزلية ببعض المتحدَّين، وسمى الرب تعالى الصلاة قرءانا لاشتمالها على القراءة فقال تعالى: ﴿**إن قرءان الفجر كان مشهودا**﴾[٥] معناه: إن صلاة الفجر». ثم قال في شرح قول ابن السبكي «على الحقيقة لا المجاز مكتوب في مصاحفنا محفوظ في صدورنا مقروء بألسنتنا» (٤/ ٦٩١) ما نصه: «الجار والمجرور في قوله «على الحقيقة» متعلق بما

---

(١) سورة القيامة / ١٧.

(٢) سورة القيامة / ١٨.

(٣) سورة الإسراء / ٧٨.

(٤) سورة القصص / ٨٥.

(٥) سورة الإسراء / ٧٨.

بعده من اسم المفعول في مكتوب ومحفوظ ومقروء، فلهذا قطعه عما قبله لئلا يتوهم أنه متعلق بالذي قبله، ودليل ما قال قوله تعالى: ﴿بَلْ هُوَ ءَايَـٰتٌۢ بَيِّنَـٰتٌ فِى صُدُورِ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ﴾[1] وقوله ﷺ: «**لا تسافروا بالقرءان إلى أرض العدو مخافة أن يناله العدو**»، والمعنى أن القرءان مكتوب إلى ءاخره، أي: إنما يقال بهذا التقييد، ولا يطلق عليه غير مقيد لما فيه من الإيهام كما لا يقال: إن اللَّه تعالى في المسجد وفي القلوب إلا على التقييد بأن اللَّه تعالى معبود في المسجد معلوم في القلوب مذكور بالألسن لاستحالة وجوده في الجهات فذلك حكم كلامه. ووضحه بعضهم فقال: معنى قولنا إن القرءان مكتوب في المصحف محفوظ في الصدور: أن الكتابة التي يكون كلام اللَّه بها مكتوبا في المصحف لا نفس الكلام القائم بذاته، وكذلك الحفظ له، لا نفس واحد من هذه المعاني مع زيادات أضيفت له حتى لا يعرف إذا ذكر إلا ذلك المعنى مع هذه الزيادات، ولا يذهب وهم السامع إلى ما كان في أصل اللغة قبل اقتران هذه الزيادات به» اهـ ثم قال (٤/ ٦٩٣) ما نصه: «قال الآمدي: ولم يخالف في أن القراءة غير المقروء والكتابة غير المكتوب إلا النجارية والمعتزلة والحشوية مع زيادة القول بالقدم. وقال الشيخ أبو إسحاق الشيرازي: القراءة والمقروء شيئان متغايران، وهذا معلوم لكل عاقل أنصف ولم يسلك طريق التجاهل والمكابرة لأن المقروء لم يزل موجودا ولا يزال، والقراءة لم تكن فكانت، لأنه من المحال تقدير وجود قراءة لا قارئ لها كتقدير فعل لا فاعل له، وقد نبه البارئ على ذلك بقوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَـٰبَ ٱللَّهِ﴾[2] وكان يجري مجرى قوله:﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُوا۟ رَبُّنَا ٱللَّهُ﴾[3] وقوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ

(١) سورة العنكبوت / ٤٩.

(٢) سورة فاطر / ٢٩.

(٣) سورة فصلت / ٣٠.

﴿يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَىٰ ظُلْمًا﴾[١] أفترى القول هو الرب والرب هو القول والأكل هو المال والمال هو الأكل؟! فإذا لم يصح ذلك لم يصح أن تكون التلاوة هي الكتاب والكتاب هو التلاوة، بل يجب أن تكون التلاوة معنى غيرَ الكتاب فالتلاوة فعل العبد والكتاب هو المقروء الذي هو الكلام الأزلي، وبيان ذلك أن حال الصفة حال الموصوف فإذا لم يستحل أن يكون الموصوف معلوما لنا مذكورا معبودا مع كونه قديما لا يوجب ذلك القربَ منه ولا الاتصال ولا الحلول، كذلك الصفة التي هي الكلام القديم لا يستحيل أن يكون مقروءا لنا محفوظا مكتوبا ولا يوجب ذلك الحلول، قال: وكلام اللَّه تعالى فيما لم يزل قديم غير منزل ولا مقروء ولا مكتوب ولا محفوظ، فلما خلق الخلق وبعث النبي ﷺ وأوحى إليه منزلا محفوظا مقروءا مكتوبا مسموعا وذلك لا يوجب تغير حاله كما أن القديم سبحانه وتعالى لم يكن في الأزل معبودا ولا مسجودا له ولا معلوما للخلق فلما أوجد الخلق وعلموه وعبدوه وذكروه كان معلوما لهم معبودا مذكورا ولم يوجب ذلك تغير حاله، كذلك ههنا».

(ص) واللّه تعالى ليس بجسم ولا جوهر ولا عرض.

(ش) بعدما أنهى المصنف الكلام في صفات المعاني شرع في الكلام بما يتعلق بالمخالفة للحوادث، والجسم كما عرفه الإمام أحمد اسم لكل ذي طول وعرض وسمك وتركيب وصورة وتأليف، كما نقله عنه أبو الفضل التميمي، وقال الإمام أبو الحسن الأشعري فيما نقله عنه ابن فورك[٢]: «أقل ما يقع عليه اسم الجسم جوهران مؤتلفان» وقال الإمام أبو منصور الماتريدي في كتاب التوحيد (١/ ٣٨): «إن الجسم اسم ذي الجهات أو اسم محتمِل النهايات أو اسمُ ذي الأبعاد الثلاثة فغيرُ جائزٍ القولُ به في اللَّه سبحانه».

---

(١) سورة النساء / ١٠.

(٢) مجرد مقالات الأشعري (ص/ ٢١٤).

والجوهر اصطلاحا ما تركب منه الجسم فهو الجزء الذي لا يتجزأ لتناهيه في القلة، والعرض ما لا يقوم بنفسه بل بغيره بأن يكون تابعا له في التحيز فإنه لا يعرض له التحيز إلا بواسطة الجوهر الذي هو موضوعه وأما هو في ذاته فلا يشغل فراغا بل الفراغ الذي يشغله الجوهر قبل اتصافه به هو الفراغ الذي يشغله مع اتصافه به من غير زيادة، وقد تقدم بعض الكلام في الجوهر والعرض أوائل الكتاب فراجعه.

فائدة في بيان الأعراض:

الأعراض على ما قيل هي الحركة والسكون والحرارة[١] والبرودة والرطوبة واليبوسة والليونة والصلابة والخشونة والملاسة والطول والقصر وكبر الحجم وصغره والذكاء والبلادة والاتصال والانفصال والشجاعة والجبن والكسل والنشاط والصحة والمرض والضعف والقبح والانقباض[٢] والانبساط[٣] والطعوم والروائح والألوان والجهات والفراغ والصوت والتفكر والعقل والتغير والموت والوجود الحادث والعلم الحادث والمكان والتحيز في جهة ومكانٍ والإدراكُ الحادث[٤] والانفعال والمحاذاة والكلام الحادث والمشيئة الحادثة. وقيل غير ذلك.

فائدة ثانية في أن من الأعراض ما يبقى زمانين:

---

(١) النار جسم كثيف ونورها جسم لطيف وحرارتها عرض، قال شيخنا الهرري: «الماء والنار كثيف، لكن يقال لطيف نسبي أي بالنسبة إلى غيره لطيف».

(٢) كالذي يحصل للإنسان عند الخوف والغم.

(٣) كالذي يحصل للإنسان عند الفرح.

(٤) الإدراك إذا استعمل في حق الإنسان فإنه يطلق بمعنى العلم الحادث بالشيء بالحاسة أو غيرها، وأما الإدراك الذي قال به بعض المتكلمين من أهل السنة كالقاضي أبي بكر الباقلاني وإمام الحرمين الجويني بأنه صفة لله فالمراد به علم اللَّه تعالى بالملموسات والمشمومات والمذوقات من غير اتصال بمحال الملموسات ولا مماسة ولا تكيف بكيفياتها.

الأعراض تنقسم إلى نوعين ما لا يدوم بل يعدم ثم يوجد كالحركة فإن أفرادها تتجدد كل لحظة أي أن الحركة التي تقوم بالجسم المتحرك في الزمان الثاني هي غير الحركة التي تقوم به في الزمان الأول وغير الحركة التي تقوم به في الزمان الثالث، والنوع الثاني من الأعراض ما يستمر فيما يقوم به وذلك كالألوان ونحوها مما يشهد الحس باستمراره، وقال الجرجاني في التعريفات (١/ ١٤٨) ما نصه: «والأعراض على نوعين: قار الذات وهو الذي يجتمع أجزاؤه في الوجود كالبياض والسواد، وغير قار الذات وهو الذي لا يجتمع أجزاؤه في الوجود كالحركة والسكون» وردّ في حاشية العطار على شرح جمع الجوامع (٢/ ٤٩٩) ذهاب المصنف إلى أن الأصح أن العرض لا يبقى زمانين، وضعف هذه الطريقة أيضا شيخنا الهرري والتفتازاني واللقاني وغيرهم وهذا ما أشار إليه الناظم بقوله: [مشطور الرجز]

وقــولُ بعضِهــم إذا حــدَّ العَــرَضْ «مــا يتلاشــى حين ينشــا» معترضْ

فائدة ثالثة في بيان حكم من يقول في اللَّه إنه جسم لا كالأجسام:

اعلم رحمك اللَّه أن لفظ «المجسّم» يطلقونه على من قال اللَّه جسم وهو يفهم معنى الجسم الذي تقدم بيانه ويطلقونه أيضا على من قال ذلك وهو لا يفهم من هذا الكلام إلا وصف اللَّه بالوجود وأنه قائم بنفسه، الأول هو مبحث كلامنا وهو كافر بالإجماع وهو مخالف لأهل السنة في اللفظ والمعنى، وأما الثاني فهو مخالف في اللفظ وموافق في المعنى ولذا قد يقول «هو جسم لا كالأجسام» يعني بذلك موجود لا كالموجودات فهذا مبتدع لا يكفر ببدعته وهو الذي اعتمده المتأخرون ولكن صرح بعض المتقدمين بتكفيره أيضا لإطلاقه في حق اللَّه تعالى ما لا يليق به، واستشكله بعض المتأخرين فقال لا ينبغي أن يختلف في عدم تكفيره كعبد الرحمن الشربيني في تعليقه على البناني وهو الذي عناه البقاعي في النكت الوفية من أنه لم يقف على خلاف في تكفيره ولهذا جعل الميلي في السيوف المشرفية الخلاف في تكفير المجسم

لفظيا فحمل القول بالتكفير على القسم الأول والقول بعدم التكفير على القسم الثاني، وأما إن قال «هو جسم لا كالأجسام» مع فهم المعنى فهو من القسم الأول وهو كافر لا شك في كفره لأنه مخالف في اللفظ والمعنى ولا ينفعه قوله «لا كالأجسام» وهو ما عناه الإمام أحمد وغيره، وما ذكرناه هو ما عبر عنه بعض المتأخرين بأن قائل «الله جسم لا كالأجسام» إن التزم معاني الجسمية كفر وإلا فلا أي أن من قال هذه العبارة وهو لا يفهم معنى الجسم بأن كان يعتقد أن للجسم في اللغة معنى غير الحجم يليق بالله كموجود أو شيء وأطلقه على اللَّه فإنه لا يكفر لجهله بمعنى اللفظ على حقيقته ولكنه يأثم، وينظر هنا هل يلتزم معاني الجسم أو لا يلتزمها، فإن التزمها أي اعتقد أن اللَّه موجود له حجم فهو كافر، وإن كان لا يعتقد اللوازم بل يفهم من هذه الكلمة أنه شيء موجود مع اعتقاد أنه تعالى لا يشابه المخلوقات بوجه من الوجوه لكن دخل عليه الخلل في اللفظ فقط بسبب جهله باللغة فإنه لا يكفر، وما ينسب إلى بعض الأشاعرة من أنه لا يُكفِّر المجسم القائل جسم لا كالأجسام ولو فهم المعنى فهو نقل باطل كما قال الزركشي في التشنيف (٤/ ١١٤) ما نصه: «وهذا النقل عن الأشعرية ليس بصحيح». فاعجب ثم اعجب من المتشعّرين الذين لا يكفرون الفرقة الوهابية القائلة بالتجسيم وهي تفهم معاني الجسم بدليل أنها التزمت القول بالتحيز والانتقال وغير ذلك وقد تقدم نقل بعض ذلك عنهم، ولو اطلع على كلام هؤلاء المتشعرين المؤلفون الذين يستدلون بكلامهم لعدم تكفير الوهابية لحكموا على هذا المتشعر بالكفر كما قال الميلي (ق/ ٨١) ونصه: «وقد تبين فساد قولهم في ذلك وبان كفرهم فكيف بعد ذلك نقبل تأويل هؤلاء ونصفهم بالابتداع فقط **فهذا عين الجهل والغلط وعدم التأمل في الواقع والاقتصار على كلام بعض المؤلفين الذين لو شاهدوا هؤلاء لحكموا بأن من شك في كفرهم أنه أقبح الكافرين**» وقال (ق/ ٢٠) «فلا خلاف في كفر من شك في كفرهم» وقال (ق/ ١٦): «فقد اتضح لك من هذا الأول بطلان قول هؤلاء السفلية كابن تيمية وأتباعه النجدية

المخزية القائلين بالجسمية وإنه لا يتوقف في كفرهم مميز من البرية»، نعم قد يظن ظان لجهله باللغة أن العبارة إذا قيلت بهذا السياق يكون معناها في اللغة موجود لا كالموجودات حتى لو كان يعرف أن الجسم ما له طول وعرض وتركيب وتأليف لكنه يظن أن لها معنى ءاخر لغة وهو الموجود يظهره السياق فالعبارة فاسدة بلا شك لكن لا يحكم بالكفر على قائله[1].

ويحضرني هنا أن أذكر ما قاله ابن حجر الهيتمي في الفتاوى الحديثية

---

(١) يتصور عدم فهم معنى الجسم من شخص أعجمي علمه مدرس جاهل بلغته أن معنى الجسم الموجود، فأمثال هؤلاء يشملهم هذا التفصيل. أما من نشأ في بلاد العرب فبعيدٌ أنْ لا يعرف معنى الجسم وأنه المؤلف المركب، ولكن لو فُرِض وجوده فينطبق عليه هذا التفصيل أيضا لجهله بالمعنى واعتقاده أن لهذه الكلمة معنى يليق بالله ليس فيه تشبيه له بخلقه، كحال أناس من الكرّاميّة بجرجان وبيار وجبال طبرستان لقيهم المقدسي ووصفهم في كتابه «أحسن التقاسيم» (١/ ٢٤٥) بأنهم أهل زهد وتعبّد ومرجعهم إلى أبي حنيفة وأنهم لم يشبّهوا اللَّه ويصفوه بصفات المخلوقين. وقد التقى الإمام أبو منصور التميمي البغدادي (ت٤٢٩هـ) -وهو من هو في الشِدَّة على الفرق الضالة بقوم من عوامِّ الكرامية لا يعرفون من الجسم إلا اسمه، ولا يعرفون أن خواصّهم يقولون بحلول الحوادث في ذات اللَّه تعالى، ولهذا أحل نكاحهم وذبائحهم والصلاة عليهم، ذكر ذلك في كتابه «أصول الدين» (ص/ ٣٤١) بعد بيان أن المرأة منهم إن اعتقدت اعتقادهم حرم نكاحها. ومعلوم أن الكرامية أتباع ابن كرام مشبهة، قالوا: إن اللَّه جسم، ولكن بيَّن المقدسي والتميمي أن منهم من لا يشبه اللَّه بخلقه ولا يفهم معنى الجسم، فهؤلاء لا يحكم عليهم بحكم من ينسب لله الجسمية ويفهم منه التركيب والأعضاء والاحتياج إلى المكان كما يصفهم بعض من يدافع عنهم من متشعري زماننا، فهؤلاء المشبهة لا شك في كفرهم بل في كفر من لا يكفرهم كما ذكر علي الميلي الجزائري رحمه اللَّه تعالى. وينبغي لمن يعلم الناس أن يبين لهم الحكم الأصلي وهو أن من قال عن اللَّه جسم كفر ولو قال جسم لا كالأجسام كما ذكر ذلك الإمام أحمد بن حنبل. ثم إن ظهر له استثناء يبينه، ولا يفتي إلا بعد أن يعرف لغة البلد الذي هو فيه، ولا يترك مجالا لمن يضل الناس ويتلاعب ويريد التهرب بدعوى أنه قصد معنى بعيدا غير المعنى المعروف في البلد وسيأتي في التنبيه الآتي كلام الشهرستاني والرازي في أمثال هؤلاء.

(ص/ ١٤٥) عسى أن يتدبروا ذلك فينكفوا عن مطالعة ما أضلهم فإنه يقول ما نصه: «وسئلت: عن مطالعة كتب العقائد؟ فأجبت بقولي: لا ينبغي للإنسان الذي لم يحط بمقدمات العلوم الإلهية والبراهين القطعية أن يشتغل بمطالعة شيء من كتب العقائد المشكلة، فإنها مزلة الأقدام للعوام جالبة لوقوعهم في ورطة الحيرة والأوهام، **بل ربما أدى بهم ذلك إلى الكفر الصريح والابتداع القبيح**، فليترك العاقل ذلك إذا أراد سلامة دينه، فإن كان فاعلا ولا بد فيلزم شيخا عالما بفن الكلام وغيره نصوحا سليم العقيدة فليقرأ عليه في ذلك مبتدئا فيه إلى أن يحيط بشيء منه بقدر ما يصحح به عقيدته».

تنبيه: بعض المجسمة يقول «الله جسم لا كالأجسام» تسترا فهؤلاء أيضا يقطع بكفرهم كما بينه الميلي (ق/ ٨٧) فقال ما نصه: «الثاني من أراد أن يؤول ذلك بعد الاطلاع عليه ولا شك أيضا أن هذا من أهل النفاق وليس فيه نزاع».

وقال عبد الكريم الشهرستاني في نهاية الإقدام في علم الكلام (ص/ ١١٦) ما نصه: «وقد تخطى بعض الكرامية إلى إثبات الجسمية فقال أعني بها القيام بالنفس وذلك تلبيس على العقلاء وإلا فمذهب أستاذهم مع اعتقاد كونه محلًا للحوادث قائلًا بالأصوات مستويا على العرش استقرارًا مختصًا بجهة فوق مكانًا واستعلاءً، فليس ينجيه من هذه المخازي **تزويرات** ابن هيصم، **فليس يريد بالجسمية القائم بالنفس ولا بالجهة الفوقية علاءً ولا بالاستواء استيلاءً**، وإنما هو إصلاح مذهب لا يقبل الإصلاح، وإبرام معتقد لا يقبل الإبرام والإحكام، وكيف استوى الظل والعود أعوج، وكيف استوى المذهب وصاحب المقالة أهوج والله الموفق».

وقال الرازي في التفسير (١/ ١١٩): «لا نسلم أنهم أرادوا بكونه جسما معنى غير الطول والعرض والعمق، وكيف لا نقول ذلك وإنهم يقولون: إنه تعالى فوق العرش، ولا يقولون إنه في الصغر مثل الجوهر الفرد، والجزء الذي

لا يتجزأ، بل يقولون: إنه أعظم من العرش، وكان ما كان كذلك كانت ذاته ممتدة من أحد جانبي العرش إلى الجانب الآخر فكان طويلا عريضا عميقا، فكان جسما بمعنى كونه طويلا عريضا عميقا، فثبت أن قولهم إنا أردنا بكونه جسما معنى غير هذا المعنى **كذب محض وتزوير صرف**».

(ص) ولا على مكان ولا في مكان، ولا في جهة من الجهات الستّ، ولا في زمان؛ بل كان ولا مكان ولا زمان، وهو الآن على ما كان، لا يحويه مكان ولا يُبليه زمان.

(ش) اتفق أهل السنة على أن اللَّه تعالى لا يحويه مكان ولا يجري عليه زمان، وقال الزركشي عند شرح قول ابن السبكي «لم يزل وحده ولا زمان ولا مكان ولا قطر ولا أوان» (٤/ ٦٥٠) ما نصه: «وما ذكره المصنف مستمد من حديث عمران بن حصين السابق لما سألوه عن أول الأمر فقال: «**كان اللَّه ولم يكن شيء قبله**» وفي لفظ «**معه**» وفي لفظ «**غيره**» الحديث فأثبت وجود الباري تعالى بلا زمان ولا جهة ولا هواء ولا ملاء ولا خلاء» اهـ والمكان غيرُ اللَّه قطعا فهذا الحديث الشريف هو أصل قول أهل السنة نصرهم اللَّه وخذل أعداءهم «كان اللَّه ولا مكان». وهذا الحديث فيه رد أيضا على القائلين بالجهة في حقه تعالى لأنه يثبت أن اللَّه تعالى كان في الأزل بلا جهات وبعد أن خلق الجهات الستَّ هو موجود على ما كان بلا تغير ولو كان الاتصاف بالجهة كمالا في حق اللَّه لكان وجوده بلا جهة نقصا تعالى اللَّه عن ذلك، والجهات الست هي الفوق والتحت والأمام والخلف واليمين والشمال، وقد قال سيدنا علي رضي اللَّه عنه: «قد كان ولا مكان وهو الآن على ما كان» رواه أبو منصور البغدادي في الفرق بين الفرق (ص/ ٣٢١) بصيغة الجزم ولم يبين إسناده وروى عنه أنه قال «إن اللَّه تعالى خلق العرش إظهارا لقدرته لا مكانا لذاته» وقال أبو منصور قبلهما: «وأجمعوا على أنه لا يحويه مكان ولا يجري عليه زمان» فمدار الاحتجاج هو على الإجماع ويستأنس له بما البغدادي رواه

عن علي رضي اللَّه عنه.

ويستدل أيضا لنفي المكان عنه عز وجل بأن التحيز في المكان من لوازم الجسمية واللَّه تعالى ليس جسما، ولنفي الزمان بأن الزمان مقارنة متجدد بمتجدد واللَّه تعالى لا تقوم الحوادث بذاته.

قال الحافظ مرتضى الزبيدي في الإتحاف (٢/ ١٠٩): «والذي يُدحِض شبهَهم أن يقال لهم قبل أن يخلق العالم أو المكان هل كان موجودا أم لا؟ فمن ضرورة العقل أن يقول بلى فيلزمه لو صح قوله «لا يعلم موجود إلا في مكان» أحدُ أمرين: إما أن يقول المكان والعرش والعالم قديم، وإما أن يقول الرب محدث، وهذا مآل الجهلة الحشوية» أي أنه كما صح وجوده قبل المكان بلا مكان صح وجوده بعد المكان بلا مكان

ويكفي في تنزيه اللَّه عن المكان والحيز والجهة من المنقول قوله تعالى ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾[1] لأنه لو كان له مكان لكان له أمثال إذ كل جسم متحيزٌ في مكان ولكان له أبعاد ثلاثة أي طول وعرض وعمق، ومن كان كذلك كان محدثا محتاجا لمن حده بهذا الطول وبهذا العرض وبهذا العمق لأن من اتصف بطول معين وعرض معين وعمقٍ معين جاز عليه أن يتصف بأكبرَ منها وبأصغر فلما اختص بهذا الطول دون غيره وبهذا العرض دون غيره وبهذا العُمق دون غيره دل على أن ثَم من خصصه بها فيكون محتاجا إليه.

وقال الحافظ البيهقي في الأسماء والصفات (٢/ ٢٨٧) ما نصه: «واستدل بعض أصحابنا في نفي المكان عنه تعالى بقول النبي ﷺ «**أنت الظاهرُ فَلَيسَ فَوقَكَ شَيءٌ وأَنْتَ البَاطِنُ فَلَيْسَ دُوْنَكَ شيءٌ**» وإذا لم يكن فوقه شيء ولا دونه شيء لم يكن في مكان» اهـ لأن من كان له مكان فلا بد أن يكون تحته شيء أو فوقه شيء.

(١) سورة الشورى / ١١.

قال نجم الدين منكوبرس (٢/ ٦٧٧) في شرح الطحاوية ما نصه: «وأما قولُهم [يعني أهل السنة] «لا تحويهِ الجهاتُ الستُّ كسائرِ المبتدعاتِ» فإنما قالوا ذلك بالنصوصِ المحكمةِ والبراهينِ القاطعةِ، أما النصوصُ فنحوُ قولِه تعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾[١] نفى عن نفسِه مشابهةَ العالمِ إياهُ، ففي التحيُّزِ بجهةٍ منَ الجهاتِ مشابهةُ الأجسامِ والجواهرِ، وفي التمكنِ في مكانٍ مماثلةٌ للجواهرِ المتمكنةِ في الأمكنةِ، ففي وصفِه بالجهاتِ قولٌ بالانحصارِ فيها، وفي القولِ بالتمكُّنِ بالمكانِ إثباتُ الحاجةِ إلى المكانِ، وفي كلِّ ذلكَ إيجابُ حدوثِه وإزالةُ قِدمِه، وذلكَ كلُّه محالٌ في حقِّ القديمِ.

ومن تلكَ النصوصِ قوله تعالى: ﴿وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ﴾[٢] والكفو المساوي والمماثلُ، فنفى عن نفسِه المماثلةَ والمساواةَ. ومنها قوله تعالى: ﴿سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾[٣] وقولُه: ﴿سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾[٤] فوجبَ تنزيهُه عن صفاتِ الخلقِ. ومنها قوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ ٱلْغَنِىُّ وَأَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ﴾[٥] فوجبَ إثباتُ تعاليهِ عن كلِّ ما يفتقرُ إليهِ الخلقُ منَ الاتصافِ بالمكانِ والجهةِ. ومنها قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَغَنِىٌّ عَنِ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾[٦] فأثبَتَ لنفسِه الاستغناءَ عنْ جميعِ العالمينَ، والجهاتُ والأمكنةُ مِن أجزاءِ العالمِ، فوجبَ إثباتُ تعاليهِ واستغنائِه عنِ العالمينَ، وعنْ كلِّ وصفٍ منْ صفاتِ المحدَثينَ.

ومنَ البراهينِ القاطعةِ أنَّ الجهاتِ الستَّ محدَثةٌ، وهيَ أوصافٌ للعالَمِ المحدَثِ، واللهُ تعالى قديمٌ لم يزلْ، كانَ ولا مكانَ، ولا حينَ ولا زمانَ، ولا

---

(١) سورة الشورى / ١١.

(٢) سورة الإخلاص / ٤.

(٣) سورة المؤمنون / ٩١.

(٤) سورة الطور / ٤٣.

(٥) سورة محمد / ٣٨.

(٦) سورة العنكبوت / ٦.

فوقَ ولا تحتَ، ولا خلفَ ولا قدَّامَ، ولا يمينَ ولا يسارَ. فلما أحدَثَ العالمَ وأخرجَه منَ العدمِ إلى الوجودِ صارَ العالمُ محصورًا بجهاتٍ ستٍّ، فما قطعَهُ من أعلى صارَ فوقًا، وما قطعَه من أسفلَ صارَ تحتًا، وما تقدَّمَه صارَ أمامًا، وما تأخرَ عنه صارَ خلفًا، وما تيامنَ عنهُ صارَ يمينًا، وما تياسرَ عنه صارَ شمالًا، فصارَ العالمُ محصورًا بالجهاتِ. وصانعُ العالمِ قديمٌ لم يزَلْ، دائمٌ لا يزالُ، وهوَ بكلِّ شيء محيطٌ لا كإحاطةِ الحقَّةِ باللؤلؤةِ، بل بالعلمِ والقدرةِ والقهرِ والسلطانِ، لا يعزبُ عن علمِه مثقالُ ذرةٍ في السمواتِ ولا في الأرضِ، وكلُّ شيء تحتَ حكمِه وقهرِه وسلطانِه، ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾[1].

وهذا كلُّه مذهبُ أهلِ الحقِّ، وهم أهلُ السنةِ والجماعةِ. وخالفَهم في ذلكَ اليهودُ والكراميةُ والغلاةُ، فقالوا بأنَّ البارئَ تعالى جسمٌ متبعِّضٌ على مثالِ صورةِ البشرِ، وأنهُ في الجهةِ العليا في مكانٍ مخصوصٍ، وهو العرشُ» انتهى كلام منكوبرس.

فائدة في تكفير المشبهة المجسمة لأنفسهم:

قال **عثمان بن سعيد الدارمي** المجسم (ت ٢٨٠) في الكتاب المنسوب له «النقض على المريسي» (ص/ ٢٦٣) ما نصه: «وأما دعواك أنهم يقولون: جارح مركب؛ فهذا كفر لا يقوله أحد من المسلمين، ولكنا نثبت له السمع والبصر والعين بلا تكييف» وقال أيضا (ص/ ٣٢١) ما نصه: « فيقال لهذا المعارض: أما ما ادعيت أن قوما يزعمون أن لله عينا فإنا نقوله؛ لأن اللَّه قاله ورسوله، وأما جارح كجارح العين من الإنسان على التركيب؛ فهذا كذب ادعيته علينا عمدا، لما أنك تعلم أن أحدا لا يقوله، غير أنك لا تألو ما شنعت ليكون أنجع لضلالتك في قلوب الجهال، والكذبُ لا يصلح منه جد ولا هزل، فمن أيّ الناس سمعت أنه قال جارح مركب؟ فأشر إليه! فإن قائله كافر».

(١) سورة الشورى / ١١.

وقال **أبو يعلى محمد ابن الفراء** المشبه المموه (ت ٤٥٨) في كتابه إبطال التأويلات (ص/ ٤٢) ما نصه: «وبإسناده عن أبي هريرة قال: قال رسول اللَّه ﷺ «**لا تقوم الساعة حتى يكفر بالله جهرة**» وذلك عند كلامهم في ربهم ... ونهيُ النبي ﷺ عن الكلام في ذلك محمولٌ على من تكلم بما يُنافي ما ورد به القرءان، وجاءت به الأخبار، كالنصارى الذين وصفوه سبحانه بالجوهر، والمجسمة الذين وصفوه بالجسم، والـمُشَبِّهة الذين شبهوا صفاته بصفات خلقه. وقد أنكر أحمد التشبيه، فقال في رواية حنبل: المشبهة تقول: بصرٌ كبصري، ويدٌ كيدي، وقَدَمٌ كقدمي، ومن قال ذلك فقد شبَّه اللَّه بخلقه» ولعلمه بما في التشبيه والتجسيم من الكفر تبرأ من ذلك فقال (ص/ ٧٠٢): «حتَّى رمونا بالتَجْسِيم والتَّشْبيه والكفر، لأجل ما رويناه من الصِّفات التي جاءَ بها القرءان والأخبار» وقال في كتاب الاعتقاد (ص/ ٣١) ما نصه: «فإن اعتقد معتقد في هذه الصفات ونظائرها مما وردت به الآثار الصحيحة التشبيهَ في الجسم والنوع والشكل والطول فهو كافر». وقال في المعتمد في أصول الدين (ص/ ٢٧١) ما نصه: «من يعتقد أن اللَّه تعالى جسم من الأجسام ويعطيه حقيقة الجسم من التأليف والانتقال من مكان إلى مكان فهو كافر؛ لأنه غير عارف بالله تعالى؛ لأن اللَّه تعالى يستحيل وصفه بهذه الصفات، فإذا لم يعرف اللَّه وجب أن يكون كافرا، فإن أطلق عليه هذه التسمية وقال جسم لا كالأجسام ولا يعطيه حقيقة هذا الجسم فقد قيل إنه يكفر بإطلاق هذه التسمية لأنه سمى اللَّه بما لم يسم به نفسه ولا سمى به رسولُه ولا أجمع المسلمون على تسميته بذلك بل حظروا ذلك، وقيل لا يكفر وإنما يفسق وهو قول بعض الأشعرية لأن الكفر ثبوت ذلك المعنى لا اللفظ وقد نفى معناه فلم يكن كافرا».

وقال **ابن تيمية** المجسم المموه (ت ٧٢٨) في مجموع الفتاوى (٦/ ٣٥٦) ما نصه: «بل أكثر أهل السنة من أصحابنا وغيرهم يكفرون المشبهة والمجسمة».

وقال **ابن كثير** (ت ٧٧٤) موافقا لأهل السنة في تفسيره (٣/ ٤٢٧) ما نصه: «بل الأمرُ كما قال الأئمة منهم نُعيم بن حماد الخزاعي شيخ البخاري قال من شبه اللَّه بخلقه كفر ومن جحد ما وصف اللَّه به نفسه فقد كفر» وقال في كتاب العقائد ما نصه: «ومن وصف اللَّه بمعنى من معاني البشر فقد كفر فمن أبصر هذا اعتبر وعن مثل قول الكفار انزجر».

وقال **ابن المبرد يوسف بن حسن ابن عبد الهادي** (ت ٩٠٩) في كتابه تحفة الوصول إلى علم الأصول (ص/ ١٠٠) ما نصه: «قال القاضي أبو يعلى الصغير ولا يختلف أصحابنا أن من اعتقد أن اللَّه سبحانه جسم من الأجسام فهو كافر، واختلفوا فيمن أثبت التسيمة خاصة من غير معنى فقال جسم لا كالأجسام فقال بعضهم يكفر أيضا وقال بعضهم لا يكفر».

وقال **سليمان بن عبد اللَّه بن محمد بن عبد الوهاب** (ت ١٢٣٣) في كتابه التوضيح عن توحيد الخلاق (ص/ ٦٩) موافقا لأهل السنة ما نصه: «فمن اعتقد أو قال إن اللَّه بذاته في كل مكان أو في مكان فكافر بل يجب الجزم بأنه تعالى بائن من خلقه مستو على عرشه من غير تكييف ولا تشبيه ولا تمثيل فالله تعالى كان ولا مكان ثم خلق المكان وهو تعالى كما كان قبل خلق المكان ولا يعرف بالحواس ولا يقاس بالناس ... فمن شبهه بمخلوقه فقد كفر».

وقال **محمود شكري الألوسي** (ت ١٣٤٢) في مختصر التحفة الاثني عشرية (ص/ ٤٨) ما نصه: «وحكموا أيضا بصحة روايات المشبهة والمجسمة ومن جوز البداء عليه تعالى مع أن هذه الأمور كلها مكفرة».

وقال **أبو بكر جابر بن موسى الجزائري** (ت ١٤٣٩) في أيسر التفاسير لكلام العلي الكبير (٢/ ٣٥٨) ما نصه: «وإن قيل اليهود والنصارى يؤمنون بالله وباليوم الآخر فكيف نفت الآية عنهم ذلك؟ والجواب أن اليهود في إيمانهم بالله مشبهة مجسمة يصفون اللَّه تعالى بصفاتٍ تعالى اللَّه عنها

علوًا كبيرًا، والنصارى يعتقدون أن اللَّه حلّ في المسيح، أن اللَّه ثالث ثلاثة واللَّه ليس كذلك، فهم إذًا لا يؤمنون باللَّه تعالى كما هو اللَّه الإله الحق، فلذا إيمانهم باطل وليس بإيمان».

وقال **عثمان الخميس** الكويتي المشبه مموها عندما سئل: «هل أهل السنة والجماعة [يعنون بذلك الوهابية] مجسمة أو حشوية كما يسميهم بعض من المخالفين لهم في الاعتقاد» ما نصه: «إن أهل السنة والجماعة يمنعون الإنسان من أن يقول بالتجسيم ويرون أن هذا من الكفر والعياذ بالله».

(ص) ورفع الأيدي إلى السماء عند الدعاء تعبّد، لا أنه تعالى في السماء، كالتوجّه إلى الكعبة في الصلاة ليس أنه في الكعبة، لكن الكعبة قبلة الصلاة والسماء قبلة الدعاء.

(ش) بعدما بين المصنف رحمه اللَّه تعالى عقيدة أهل السنة في تنزيه اللَّه عن المكان شرع في رد شبهة للمخالفين، وهي «إذا لم يكن اللَّه ساكنا للسماء فلماذا نرفع الأيدي إليها عند الدعاء» فأجاب بأن الرفع تعبّد من اللَّه لنا بذلك كما تعبدنا بالتوجه إلى الكعبة في الصلوات ولا يلزم من ذلك وجودُه فيها بدليل أن القبلة كانت في وقتٍ لبيت المقدس، والسماء مهبط الرحمات والبركات قال تعالى ﴿وَفِي ٱلسَّمَآءِ رِزۡقُكُمۡ وَمَا تُوعَدُونَ﴾[1] وقال تعالى ﴿وَمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن مَّآءٖ فَأَحۡيَا بِهِ ٱلۡأَرۡضَ بَعۡدَ مَوۡتِهَا﴾[2] وقال تعالى ﴿وَهُوَ ٱلَّذِيٓ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ فَأَخۡرَجۡنَا بِهِۦ نَبَاتَ كُلِّ شَيۡءٖ فَأَخۡرَجۡنَا مِنۡهُ خَضِرٗا نُّخۡرِجُ مِنۡهُ حَبّٗا مُّتَرَاكِبٗا﴾[3] وقال تعالى ﴿أَلَمۡ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ

(١) سورة الذاريات / ٢٢.

(٢) سورة البقرة / ١٦٤.

(٣) سورة الأنعام / ٩٩.

مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَتُصْبِحُ ٱلْأَرْضُ مُخْضَرَّةً إِنَّ ٱللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ ﴾[١] وقال تعالى ﴿ هُوَ ٱلَّذِى يُرِيكُمْ ءَايَـٰتِهِۦ وَيُنَزِّلُ لَكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ رِزْقًا ﴾[٢] وقال تعالى ﴿ وَمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن رِّزْقٍ فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا ﴾[٣].

فائدة في تفسير بعض الآيات المتشابهات:

إن من الآيات التي يوردها المشبهة الجهوية للتشويش على عوام المسلمين قوله تعالى ﴿ٱلرَّحْمَـٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ ﴾[٤] فنقول ثبت عن الإمام مالك رضي اللَّه عنه بإسناد جيد كما قال الحافظ ابن حجر العسقلاني في الفتح (١٣/ ٤٠٧) من طريق عبد اللَّه بن وهب قال: كنا عند مالك بن أنس فدخل رجل فقال يا أبا عبد اللَّه، ﴿ٱلرَّحْمَـٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ ﴾ كيف استواؤه؟ قال: فأطرق مالك وأخذته الرُّحَضاء ثم رفع رأسه فقال: ﴿ٱلرَّحْمَـٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ ﴾ كما وصف نفسه، ولا يقال كيفَ، وكَيْف عنه مرفوعٌ، وأنت رجل سوء صاحب بدعة أخرجوه، قال: فأُخرِج الرجل اهـ وقال المحدث الشيخ سلامة القضاعي العزامي من علماء الأزهر في كتابه فرقان القرءان (ص/ ١٦) عن قول مالك لذاك الرجل صاحب بدعة: «لأن سؤاله عن كيفية الاستواء يدل على أنه فهم الاستواء على معناه الظاهر الحسي الذي هو من قبيل تمكن جسم على جسم واستقراره عليه، وإنما شك في كيفية هذا الاستقرار فسأل عنها، وهذا هو التشبيه بعينه الذي أشار إليه الإمام بالبدعة».

وقال إمامنا الشافعي رضي اللَّه عنه لما سئل عن الاستواء: ءامنت بلا تشبيه وصدقت بلا تمثيل واتهمت نفسي في الإدراك وأمسكت عن الخوض فيه كل الإمساك. ذكره الإمام أحمد الرفاعي في البرهان المؤيد (ص/ ١٩)،

---

(١) سورة الحج / ٦٣.

(٢) سورة غافر / ١٣.

(٣) سورة الجاثية / ٥.

(٤) سورة طه / ٥.

والعز عبد السلام في حل الرموز (ص/ ٤٤)، والشيخ تقي الدين الحصني في دفع شبه من شبه وتمرد (ص/ ٥٦)، والشهاب الرملي في فتاويه (٤/ ٢٦٧)، والنفراوي في الفواكه الدواني (ص/ ٥١) وغيرهم، ونقلوا كلهم عن الإمام أحمد أنه قال «استوى كما أخبر لا كما يخطر للبشر» كما في البرهان المؤيد (ص/ ١٨) وحل الرموز (ص/ ٤٤) ودفع الشبه (ص/ ٢٩) والفتاوى (٤/ ٢٦٦) والفواكه (ص/ ٨٢)، ونقل بعضهم عن الإمام أبي حنيفة أنه قال في الاستواء: «من قال لا أعرف اللَّه أفي السماء هو أم في الأرض فقد كفر؛ لأن هذا القول يوهم أن للحق مكانًا ومن توهم أن للحق مكانا فهو مشبه» كما في البرهان المؤيد (ص/ ٢٤) وحل الرموز (ص/ ١٢١) ودفع الشبه (ص/ ١٨). ومن شاء فلينظر كتابنا **البدور الزواهر في ترجمة القطب الجيلاني عبد القادر** فقد ذكرنا كلام الأئمة الأربعة في الاستواء مع فوائد كثيرة.

وقال ابن القشيري في التذكرة الشرقية كما نقله عنه الزبيدي في الإتحاف (٢/ ١٠٨): «فإن قيل [أي من جهة المشبهة] أليس اللَّه يقول: ﴿ٱلرَّحۡمَٰنُ عَلَى ٱلۡعَرۡشِ ٱسۡتَوَىٰ﴾[١] فيجب الأخذ بظاهره قلنا [أي في الجواب] اللَّه يقول أيضا: ﴿وَهُوَ مَعَكُمۡ أَيۡنَ مَا كُنتُمۡ﴾[٢] ويقول تعالى ﴿أَلَآ إِنَّهُۥ بِكُلِّ شَيۡءٖ مُّحِيطُۢ﴾[٣] فينبغي أيضا [أي على مقتضى قاعدتكم التي ذكرتموها] أن نأخذ بظاهر هذه الآيات حتى يكونَ على العرش [أي أخذا بظاهر ءاية الاستواء] وعندنا ومعنا [أي أخذا بظاهر ﴿وَهُوَ مَعَكُمۡ﴾] ومحيطا بالعالم محدِقا به [أي محيطا به من كل جهة] بالذات [أخذا بظاهر ﴿بِكُلِّ شَيۡءٖ مُّحِيطُۢ﴾] في حالة واحدة والواحدُ يستحيل أن يكون بذاته في حالة واحدة بكل مكان [لأن تعدد الأمكنة يقتضي تعدد الأجزاء الحالّة في كل مكان منها

(١) سورة طه / ٥.

(٢) سورة الحديد / ٤.

(٣) سورة فصلت / ٥٤.

في وقت واحد فبطل بذلك كلام هؤلاء المشبهة ودَحَضت دعواهم فإن] قالوا قوله ﴿وَهُوَ مَعَكُمْ﴾ يعني بالعلم، و﴿بِكُلِّ شَيْءٍ مُّحِيطٌ﴾ إحاطة العلم، قلنا [أي معشر أهل السنة] وقوله ﴿عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ﴾ قهر وحفظ وأبقى. [ثم إن قال المشبه إن تفسيركم للاستواء بالقهر يشعر بكون اللَّه تعالى مغالبا للعرش قبل أن يصير غالبا وقاهرا فهو باطل فالجواب ما قال القشيري رحمه اللَّه] ولو أشعر ما قلنا [أي تفسير الاستواء بالقهر] توهُّمَ غلبته [أي توهم كونه مغالبا قبل صيرورته غالبا] لأشعر قوله ﴿وَهُوَ ٱلْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِۦ﴾[1] بذلك أيضا حتى يقالَ [أي على مقتضى كلامكم] كان مقهورا قبل خلق العبادِ -هيهاتَ- إذ لم يكن للعباد وجود قبل خلقه إياهم [أي ومع ذلك هو تعالى موصوف بالقهر ولا يلزم منه حدوث القهر له تعالى فكذلك ما نحن فيه فظهر أن ما ادعيتموه أيها المشبهة غير صحيح وأنه كما لا يشعر قوله ﴿وَهُوَ ٱلْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِۦ﴾[2] بسبق المغالبة أو المغلوبية لا يشعر تفسير قوله تعالى ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ﴾[3] بالقهر بسبق مغالبة أو مغلوبية] بل لو كان الأمرُ على ما توهمه الجهلة من أنه استواءٌ بالذات [أي لو كان المراد من الاستواء معناه الظاهر من الجلوس والاستقرار] لأشعر ذلك بالتّغير واعوجاجٍ سابق على وقت الاستواء [بمعنى أنه لم يكن جالسا ثم صار جالسا وكان معوجا ثم صار مستويا] فإن البارئ تعالى كان موجودا قبل العرش» انتهى كلام القشيري مع بعض الشرح له.

وقال الشيخ أبو المظفر الأسفراييني في التبصير (ص/ ١٥٨): «وأن تعلم أن خالق العالم لا يجوز عليه الحد والنهاية لأن الشيء لا يكون مخصوصا بحد إلا أن يخصه مخصص بذلك الحد ويقدّره على تلك النهاية لجواز غيره من

(١) سورة الأنعام / ١٨.

(٢) سورة الأنعام / ١٨.

(٣) سورة طه / ٥.

الحدود عليه والصانعُ لا يكون مصنوعا ولا محدودا ولا مخصَّصا، وأصله في كتاب اللَّه تعالى قولُه تعالى ﴿مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَىٰ ثَلَٰثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ﴾[١] الآيةَ مع قوله ﴿فَأَتَى ٱللَّهُ بُنْيَٰنَهُم مِّنَ ٱلْقَوَاعِدِ﴾[٢] ومع قوله ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ﴾[٣] ولو كان مخصوصا بجهة وحد ونهاية لم يجز أن يكون منسوبا إلى أماكن مختلفة متضادة وكان لا يجوز أن يكون مع كل واحد وأن يكون على العرش وأن يأتي بنيان قوم سلط عليهم الهلاك فجاء من الجمع بين هذه الآيات تحقيقُ القول بنفي الحد والنهاية واستحالةِ كونه مخصوصا بجهة من الجهات، وفي الجمع بين هذه الآيات دليل على أن معنى قوله ﴿مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَىٰ ثَلَٰثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ﴾ إنما هو بمعنى العِلم بأسرارهم، ومعنى قوله ﴿فَأَتَى ٱللَّهُ بُنْيَٰنَهُم مِّنَ ٱلْقَوَاعِدِ﴾ أي خلق في بنيان القوم معنى من زلزلة ورجف يكون ذلك سبب خرابه كما قال ﴿فَخَرَّ عَلَيْهِمُ ٱلسَّقْفُ مِن فَوْقِهِمْ﴾». انتهى

وقوله تعالى ﴿يَخَافُونَ رَبَّهُم مِّن فَوْقِهِمْ﴾[٤] قال النسفي (٢/ ٢١٦): «يخافونه أن يرسل عليهم عذابا من فوقهم».

وقوله تعالى ﴿ءَأَمِنتُم مَّن فِي ٱلسَّمَآءِ أَن يَخْسِفَ بِكُمُ ٱلْأَرْضَ فَإِذَا هِيَ تَمُورُ﴾[٥] فسره العراقي في الأمالي (ص/ ٧٧) بالملائكة، وقال القاضي عياض في إكمال المعلم ما نصه: «لا خلاف بين المسلمين قاطبة محدِّثِهم وفقيههم ومتكلمهم ومقلدهم ونُظَّارِهم أَنَّ الظواهر الواردة بذكر اللَّه فى السماء كقوله: ﴿ءَأَمِنتُم مَّن فِي ٱلسَّمَآءِ﴾ أنها ليست على ظاهرها، وأنها متأولة عند جميعهم».

---

(١) سورة المجادلة / ٧.

(٢) سورة النحل / ٢٦.

(٣) سورة طه / ٥.

(٤) سورة النحل / ٥٠.

(٥) سورة الملك / ١٦.

وقوله تعالى ﴿ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾[١] أي هادي أهل السموات وأهل الأرض إلى نور الإيمان، رواه البيهقي في الأسماء والصفات (ص/ ١٠٢) عن عبد اللَّه بن عباس رضي اللَّه عنهما.

وقوله تعالى في حق موسى ﴿وَلِتُصْنَعَ عَلَىٰ عَيْنِيٓ﴾[٢] أي بحفظي وحراستي، قاله القرطبي في تفسيره (١٧/ ٧٨).

وقوله تعالى ﴿وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ﴾[٣] أي عالم بكم أينما كنتم، رواه السيوطي في الدر المنثور (١٤/ ٢٦١) عن ابن عباس رضي اللَّه عنهما.

وقوله تعالى ﴿يَوْمَ يُكْشَفُ عَن سَاقٍ﴾[٤] فقد قال الحافظ ابن حجر في شرح البخاري (١٣/ ٤٢٨): وأما الساق فجاء عن ابن عباس في قوله تعالى ﴿يَوْمَ يُكْشَفُ عَن سَاقٍ﴾ قال: عن شدة من الأمر والعربُ تقول قامت الحرب على ساقٍ إذا اشتدت ومنه:

قد سنَّ أصحابُك ضربَ الأعناقْ وقامتِ الحربُ بنا على ساقْ

وجاء عن أبي موسى الأشعري في تفسيرها: عن نور عظيم، قال ابن فورك: معناه ما يتجدد للمؤمنين من الفوائد والألطاف، قال المهلّب: كشفُ الساق للمؤمنين رحمةٌ ولغيرهم نِقمة، وقال الخطابي: تهيّب كثير من الشيوخ الخوضَ في معنى الساق، ومعنى قول ابن عباس أن اللَّه يكشف عن قدرته التي تظهر بها الشدة، وأسند البيهقي الأثر المذكور عن ابن عباس بسندين كلٌّ منهما حسن وزاد: إذا خفي عليكم شيء من القرءان فابتغوه من الشعر، وذكر الرجز المشار إليه وأنشد الخطابي في إطلاق الساق على الأمر الشديد:

---

(١) سورة النور / ٣٥.

(٢) سورة طه / ٣٩.

(٣) سورة الحديد / ٤.

(٤) سورة القلم / ٤٢.

في سَنة قد كشفت عن ساقها. انتهى

وقال الحافظ البيهقي في الأسماء والصفات (٢/ ١٠٧): أخبرنا أبو عبد اللَّه الحافظُ وأبو بكرٍ القاضي قالا ثنا أبو العباس محمدُ بن يعقوب حدثنا الحسن بن علي بنِ عفان ثنا أبو أسامة عن النضر عن مجاهد في قوله عز وجل ﴿فَأَيْنَمَا تُوَلُّواْ فَثَمَّ وَجْهُ ٱللَّهِ﴾[1] قال: قِبلةُ اللَّه، فأينما كنت في شرق أو غرب فلا تَوجهن إلا إليها اهـ

(ص) واللَّه تعالى لا صورة له، وكلّ ما تصوّر في وهمك فاللَّه خالقه.

(ش) أن اللَّه تعالى هو المصوِّر فهو منزه عن الصورة قال أبو سليمان حمد بن محمد الخطابي في شرح البخاري (١/ ٥٢٩) ما نصه: «فإن الذي يجب علينا وعلى كل مسلم أن نعلم أن ربنا عز وجل ليس بذي صورة ولا هيئة، فإن الصورة تقتضي الكيفية، وهي عن اللَّه وعن صفاته منفية» ويدل على أن الصورة تقتضي الكيفية قوله تعالى ﴿فِيٓ أَيِّ صُورَةٖ مَّا شَآءَ رَكَّبَكَ﴾[2].

وقال الشيخ جمال الدين محمد بن العباس الخوارزمي (ت ٣٨٣) في «مفيد العلوم ومبيد الهموم» في بيان ما يلزم المكلف اعتقاده (ص/ ٣٣) : «وأنه ليس بجوهر ولا عرض ولا جسم ولا صورة ولا جسد ولا حركة ولا سكون ولا غم ولا فرح ولا سهو ولا غفلة وأنه بلا كيفية ولا آنية وأنه منفرد بإحداث الأعيان لا خالق غيره، ثم يعتقد قدم الصفات من قدرته وعلمه وحياته بلا روح ولا نفس وقدرته على مقتدراته قدرة واحدة ... ومن شك في شيء من ذلك فهو كافر».

وقال أبو بكر بن العربي في العواصم من القواصم (ص/ ٢١٨) ما نصه: «فإن قالوا بالصورة والصوت والتعبير بالحوادث، لم يكونوا من أهل القبلة،

---

(١) سورة البقرة / ١١٥.

(٢) سورة الانفطار / ٨.

وحكم بخروجهم أصلا وفرعا من الملة».

وقال نجم الدين منكوبرس في شرح الطحاوية ما نصه: «وأما النوع الثالث وهو الإشراك في الوصف بالصورة والجسم وسائر صفات المحدثين فهو كقول اليهود في البارئ تعالى إنه على مثال صورة البشر وتابعتهم على ذلك المشبهة الجعدية والمجسمة الكرامية حتى وصفوه بالأعضاء والجوارح».

وقول المصنف «وكل ما تصور في وهمك فالله خالقه» عبارة جامعة لنفي التشبيه عن اللَّه تعالى وهي مأخذوة من قوله تعالى ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾[1] لأن مَن زعم أنه يتصور ربه في ذهنه فقد جعل هذه الصورة مماثلة لربه الذي يعبده فيكون قد أثبت مثيلا له وهو ما تخيله في ذهنه إذ ليس مراد المشبه أن ما تصوره في ذهنه هو الوجود الحقيقي للرب بل يريد أن هذا مثيل للرب الجالس فوق العرش بزعمه وهذه الآية تنفي وجود المثيل لله سواء في ذلك الخارجُ والداخل، وقال الملا علي في شرح الفقه الأكبر (ص/ ٧٧) ما نصه: «وما أحسن قول الرازي رحمه اللَّه المجسم ما عبد اللَّه قط؛ لأنه يعبد ما تصوره في وهمه من الصورة والله تعالى منزه عن ذلك». وروى ابن عساكر في تاريخ دمشق (١٧/ ٤٠٤) عن ذي النون المصري أنه قال ضمن جوابه عن التوحيد «ومهما تُصور في نفسك شيء فاللَّه بخلافه» وفي لفظ «وكل ما تُصور في وهمك فاللَّه بخلاف ذلك».

(ص) واللَّه تعالى لا يشبه شيئًا من المخلوقات بوجه من الوجوه، ولا يشبهه شيء من المخلوقات بوجه من الوجوه، لا يشبه ذاته ذات المخلوقين ولا صفاته صفات المخلوقين بوجه من الوجوه، كما قال اللّٰه عز وجل: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾ أي ليس مثلَه شيء.

(ش) أن هذه الجمل تأكيد لما سبق من تنزيه اللَّه تعالى عن مشابهة

(١) سورة الشورى / ١١.

المخلوقات، وقوله «ولا يشبهه شيء من المخلوقات بوجه من الوجوه» تأكيد للجملة التي قبلها «لا يشبه شيئا من المخلوقات بوجه من الوجوه»، وما بعدهما شرح لهما، فالله تعالى واحد في ذاته وواحد في صفاته وواحد في فعله، فلا يوجد ذات كذاته ولا لأحد صفة كصفته ولا فعل كفعله، وهذا معنى الوحدانية، قال محمد الفضالي (ت ١٠٢٠) في كفاية العوام (ص/ ١٠٣) ما نصه: «فالوحدانية الواجبة له تعالى نفت الكموم الخمسة المستحيلة فالكم المتصل في الذات: تركبها من أجزاء، والكم المنفصل فيها: أن يكون لها ذات تشبهها، والكم المتصل في الصفات: أن يكون له تعالى قدرتان مثلا، والكم المنفصل فيها: أن يكون لغيره تعالى صفة تشبه صفة من صفاته تعالى، والكم المنفصل في الأفعال: أن يكون لغيره تعالى فعل كفعله عز وجل، وهذه الكموم الخمسة انتفت بالوحدانية الواجبة له سبحانه، ومعنى الكم العدد» اهـ.

فمن قال بأن العبد يخلق فعله فهو مشرك، قال أبو منصور البغدادي في الفرق بين الفرق (ص/ ٣٢٨) ما نصه: «فَمن زعم أن العباد خالقون لأكسابهم فهو قدري مُشْرك بربه؛ لدعواه أن العباد يخلقون مثل خلق اللَّه من الأعراض التي هي الحركات والسكون فى العُلُوم والإرادات والأقوال والأصوات وَقد قَالَ اللَّه عز وجل في ذمّ أصحاب هذا القول ﴿أَمْ جَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ خَلَقُوا كَخَلْقِهِ فَتَشَابَهَ الْخَلْقُ عَلَيْهِمْ قُلِ اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ﴾[1]» ثم قال: «ومن قال إن العبد مكتسِب لعمله والله سبحانه خَالق لكسبه فهو سني عدْلي منزّه عَن الجبْر والقدر». وقوله تعالى ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾[2] يفيد التنزيه الكلي وقد اجتمع فيها ثلاثة أشياء أولُها: كلمة شيء وهي تشمل كل ما دخل في الوجود من أعيان وأعراض، ثانيها: زيادة الكاف الدالة على تأكيد النفي وقد أشار إليه الشارح بقوله «أي ليس مثله شيء»، ثالثها: ورود «شيء» في سياق النفي مما

(١) سورة الرعد / ١٦.

(٢) سورة الشورى / ١١.

أفاد العموم، فكان معنى الآية نفي مشابهة اللَّه تعالى لجميع خلقه من جميع الوجوه فكانت أصرحَ ءاية في إفادة التنزيه.

وقال أبو المعين ميمون بن محمد النسفي (ت ٥٠٨) في تبصرة الأدلة (١/ ٣٢٩) ما نصه: «والله تعالى نفى المماثلة بين ذاته وبين غيره من الأشياء، فيكون القول بإثبات المكان له ردا لهذا النص المحكم –أي قوله تعالى ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾– الذي لا احتمال فيه لوجهٍ ما سوى ظاهره، ورادُّ النص كافر عصمنا اللَّه تعالى عن ذلك».

وقال الشيخ إسماعيل بن إبراهيم الشيباني الحنفي (ت ٦٢٩) في شرحه على الطحاوية (ص/ ٢١) ما نصه: «فكان القول بالمكان والتمكن ردا لهذا النص المحكم ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾ الذي لا احتمال فيه، ورد مثله يكون كفرا».

وقال أبو محمد عبدُ اللَّه بنُ أبِي جمرةَ الأندلسيُّ (ت ٦٧٥) فِي بهجة النفوس عند شرح حديث «**على أن لا تشركوا بالله شيئا**» (١/ ٣٤) ما نصه: ولولا التطويلُ لذكرناهم قسمًا قسمًا، ولكن بالمثال لِمَنْ له نظرٌ يتبيَّنُ له الباقِي مع أنه لا بدَّ لنا مِن بيان الطريقة المحمدية وتبيينِ الفرقة الناجية، وبتبيينِ ذلك يتبيَّنُ ما عداه مِن أنواع المخالفات، ولكن نذكر منها شيئًا زيادةَ بيانٍ وإيضاحٍ لفسادِ مذاهبهم وكيفيةِ سوء اعتقادهم، مِن جملة الشِّيَعِ المخصِّصةِ لهذا العموم الذِى به مرَقُوا منَ الدين همُ القدريةُ... ومنهم المجسمةُ لأنهم يقولون بالجسم والحلول ومعتقد هذا لا يصِحُّ منه الإيمانُ بعموم اللفظ المذكور في الحديث لأنه لا يصح الإيمان بمقتضى لفظِ الحديث حتى يصحَّ الإيمان به عزّ وجلّ بمقتضى ما أخبر به عن نفسه حيث يقولُ ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾ وشيْءٌ ينطلق على القليل والكثير وعلى كلِّ الأشياء، فمَنْ خصَّصَ هذا العمومَ وهو قولُهُ ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾ لم يصِحَّ منه الإيمان بعموم لفظ الحديث وإنِ ادَّعاه لأنَّ مَن لا يعرفُ معبودَهُ كيف يصِحُّ له الإيمانُ به وذلك

محالٌ اهـ

وقال تقي الدين الحصني (ت ٨٢٩) في دفع شُبه من شَبه وتمرد (ص/ ١٩) ما نصه: «فمَن جعل الاستواء على العرش بمعنى الاستقرار والتمكن فقد ساوى بينه عز وجل وبين خلقه وذلك من الأمور الواضحة التي لا يقف في تصورها بليد فضلا عمن هو حسن التصور جيد الفهم والذوق، وحينئذ فلا يقف في تكذيبه ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾ وذلك كفر محقّق».

(ص) والله تعالى واحد أحد فرد، لا شريك له، ولا ضد، ولا ربّ سواه، ولا إله غيرُه.

(ش) أن اللَّه تعالى واحد، والواحد في حق اللَّه تعالى معناه الذي لا شريك له في ذاته ولا في صفاته ولا في فعله وبمعناه الفرد، أما في حق المخلوق فقد يقال: فلان واحد عصره بين نظرائه، وقد يقال بمعنى أنه ليس له نظير في الأمر الذي اختص به بين أهل عصره، كقول الشاعر في طلحة الطَّلحات والي سِجِسْتان: [مجزوء الكامل]

يـا واحـدَ الـعـرب الـذي ... مـا فـي الأنـام لـه نـظـيـرْ
لـو كـان مـثـلـك ءاخـر ... مـا كـان فـي الـدنـيـا فـقـيـرْ

وأما الأحد فمعناه الذي لا ينقسم لأنه ليس جسما ولا جوهرا يتركب منه الجسم.

وقوله «لا ضد» أي ليس له منازع وممانع أبدا.

وقوله «ولا رب سواه ولا إله غيره» الجملتان بمعنى واحد، وهذا مأخوذ من دلالة التمانع وقد بينها شيخنا الهرري بعبارات مختلفة فقال في الدليل القويم (ص/ ١٠٤) ما نصه: «وبرهان الوحدانية أيضًا أنه لو كان اثنين وأراد أحدهما أمرًا فالثاني إن كان مضطرًا إلى مساعدته كان هذا الثاني مقهورًا

عاجزًا ولم يكن إلهًا قادرًا، وإن كان قادرًا على مخالفته ومدافعته كان هذا الثاني قويًّا قاهرًا والأول ضعيفًا قاصرًا ولم يكن إلهًا قادرًا.

وأيضًا لو كان للعالَم مكوِّنان فصاعدًا لم يخل إما أن يكونا قادرين فلو كانا قادرين على الكمال لجاز في العقول تدافعهما بأن يريدَ أحدهما بقاء الجسم في حالة معينة ويريد الآخرُ فناءه في تلك الحالة، فإذا قدرا على تنفيذ إرادتيهما أدى ذلك إلى المحال وهو أن يكون الجسم موجودًا معدومًا في حالة واحدة وما أدى إلى المحال محال، وإن كانا عاجزين أو كان أحدهما عاجزًا فالعاجز لا يصلح للإلهية لأنه ثبت أن الصانع قديم وعَجْزٌ قديمٌ محال لأنه لا يكون إلا عن فعل يُعجَز عنه وما لم يُتصورِ الفعل لم يُتصور العجز .

وإن شئت قلت: لا بد للصانع من أن يكون حيًّا قادرًا عالـمًا مريدًا مختارًا فإذا ثبت وصف الصانع بما ذكرناه قلنا لو كان للعالم صانعان وجب أن يكون كل واحد منهما حيًّا قادرًا عالـمًا مريدًا مختارًا والمختاران يجوز اختلافهما في الاختيار لأن كل واحد منهما غير مجبر على موافقة الآخر في اختياره، فإذا صح هذا فلو أراد أحدهما خلاف مراد الآخر في شيء لم يخل من أن يتم مرادهما أو لا يتم مرادهما أو يتمَّ مراد أحدهما ولا يتم مراد الآخر، ومحال تمام مراديهما لتضادهما، وإن لم يتم مرادهما فهما عاجزان، وإن تم مراد أحدهما ولم يتم مراد الآخر فإن الذي لم يتم مراده عاجز ولا يكون العاجز إلهًا ولا قديمًا وهذه الدلالة معروفة عند الموحدين تسمى بدلالة التمانع» اهـ

وقال الزركشي في التشنيف (٤/ ٦٣٨) ما نصه: «واعلم أن الوحدة تطلق في حق الإله من ثلاثة أوجه: أحدها: بمعنى نفي الكثرة المصحِّحة للقسمة عن ذاته تعالى وهي تفسير الأحد الصمد. الثاني: بمعنى نفي النظير عنه في ذاته وصفاته كما يقال الشمس واحد بمعنى لا نظير لها في الوجود ووجود نظير الرب محال. والثالث: بمعنى أنه منفرد بالخلق والإيجاد والتدبير، فلا مساهم له في شيء من اختراع المصنوعات وتدبير المخترعات. ومنهم: من زاد معنى

آخر وهو أنه لا يشبهه شيء» اهـ.

فائدة في بطلان تقسيم التوحيد إلى توحيد ألوهية وتوحيد ربوبية:

من بدع الضلالة تقسيم الوهابية التوحيد إلى ثلاثةٍ: توحيد ربوبية وتوحيد ألوهية وتوحيد الأسماء والصفات[١] وروي عنهم أن التوحيد منقسم إلى قسمين توحيد ربوبية وتوحيد ألوهية، قال ابن تيمية في مجموع الفتاوى (١٥/ ١٤): «إن الرسل لم يبعثوا إلا لتوحيد الألوهية وهو إفراد اللَّه بالعبادة، وأما توحيد الربوبية وهو اعتقاد أن اللَّه رب العالمين المتصرفُ في أمورهم فلم يخالف فيه أحد من المشركين والمسلمين[٢]» ومما فرّعوه على ذلك قولهم «إن الذين يتوسلون بالأنبياء والأولياء ويتشفّعون بهم ويُنادونهم عند الشدائد هم عابدون لهم، قد كفروا بما كفر به عباد الأوثان والملائكةِ والمسيحِ سواء بسواء، فإنهم لم يكفروا باعتقادهم الربوبية في تلك الأوثان وما معها بل بتركهم توحيدَ الألوهية بعبادتها، وهذا ينطبق على زوار القبور المتوسلين بالأولياء المنادين لهم المستغيثين بهم» بل قال ابن عبد الوهاب: «إن كفرهم أشنع من كفر عباد الأوثان» فيظهر لك أنهم جعلوا حال المتوسل كحال المشركين الذين عبدوا الأوثان وقالوا ﴿مَا نَعۡبُدُهُمۡ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلۡفَىٰٓ﴾[٣] فزعموا أن المشركين قد وحدوا توحيد الربوبية دون توحيد الألوهية،

---

(١) يريدون بهذا القسم إثبات التشبيه والتجسيم وبيان أنه غير مذموم. تعالى اللَّه عن ذلك.

(٢) قال محمد بن عبد الوهاب في رسالته المسماة الرسالة المفيدة المهمة الجلية: أما توحيد الربوبية فهو الذي أقر به الكفار على زمن رسول اللَّه ﷺ ولم يُدخلْهم في الإسلام وقاتلهم رسول اللَّه واستحل دماءهم وأموالهم وهو توحيدُه بفعله تعالى، وأما توحيد الألوهية فهو الذي وقع فيه النزاع من قديم الدهر وحديثِه وهو توحيد اللَّه تعالى بأفعال العباد كالدعاء والنذر والنحر والرجاء والخوف والتوكل والرغبة والرهبة والإنابة. اهـ باختصار

(٣) سورة الزمر / ٣.

واستدلوا بنحو قوله تعالى حكاية عن أهل الكهف ﴿هَٰٓؤُلَآءِ قَوۡمُنَا ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً﴾[١] وقوله تعالى ﴿أَمِ ٱتَّخَذُوٓاْ ءَالِهَةً مِّنَ ٱلۡأَرۡضِ هُمۡ يُنشِرُونَ﴾[٢] وقوله ﴿وَٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً لَّا يَخۡلُقُونَ شَيۡـٔٗا وَهُمۡ يُخۡلَقُونَ﴾[٣] وقوله تعالى حكاية عن المشركين ﴿أَجَعَلَ ٱلۡأٓلِهَةَ إِلَٰهٗا وَٰحِدًاۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَيۡءٌ عُجَابٞ﴾[٤] فقالوا: إن المشركين موحدون توحيد الربوبية وليس عندهم إلا رب واحد وإنما أشركوا في توحيد الألوهية فإن هذه النصوص كلَّها تدور حول شركهم بالإله، قلنا هذا ممنوع فقد قال يوسف عليه السلام لصاحبَي السجن وهو يدعوهما إلى التوحيد ﴿ءَأَرۡبَابٞ مُّتَفَرِّقُونَ خَيۡرٌ أَمِ ٱللَّهُ ٱلۡوَٰحِدُ ٱلۡقَهَّارُ﴾[٥] وقال تعالى ﴿وَهُمۡ يَكۡفُرُونَ بِٱلرَّحۡمَٰنِۚ قُلۡ هُوَ رَبِّي لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾[٦] أي فهم لم يجعلوه ربا ولا إلها، وقال تعالى ﴿لَّٰكِنَّا۠ هُوَ ٱللَّهُ رَبِّي وَلَآ أُشۡرِكُ بِرَبِّيٓ أَحَدٗا﴾[٧] خطابا لمن أنكر ربوبيته تعالى، وانظر إلى قول المشركين يوم القيامة ﴿تَٱللَّهِ إِن كُنَّا لَفِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٍ ٩٧ إِذ نُسَوِّيكُم بِرَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾[٨] ويقول تعالى في أخذ الميثاق ﴿أَلَسۡتُ بِرَبِّكُمۡۖ قَالُواْ بَلَىٰۛ شَهِدۡنَآ﴾[٩] فلو كان الإقرارُ بالربوبية غيرَ كاف وكان متحققا عند المشركين ولكنه لا ينفعهم لَما صح أن يؤخذ عليهم الميثاقُ بهذا ولا صح أن يقولوا يوم القيامة ﴿إِنَّا كُنَّا عَنۡ هَٰذَا غَٰفِلِينَ﴾[١٠]

---

(١) سورة الكهف / ١٥.

(٢) سورة الأنبياء / ٢١.

(٣) سورة الفرقان / ٣.

(٤) سورة ص / ٥.

(٥) سورة يوسف / ٣٩.

(٦) سورة الرعد / ٣٠.

(٧) سورة الكهف / ٣٨.

(٨) سورة الشعراء / ٩٧.

(٩) سورة الأعراف / ١٧٢.

(١٠) سورة الأعراف / ١٧٢.

وكان ينبغي على مقتضى ما ذهبوا إليه أن يكون الميثاق بما يوجِب اعترافَهم بتوحيد الألوهية حيث إن توحيد الربوبية غيرُ كاف على ما ذهبوا إليه، ثم انظر إلى الحوار الدائر بين فرعون وموسى عليه السلام فقد قال فرعون ﴿أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلْأَعْلَىٰ﴾[١] ثم قال ﴿لَئِنِ ٱتَّخَذْتَ إِلَٰهًا غَيْرِى لَأَجْعَلَنَّكَ مِنَ ٱلْمَسْجُونِينَ﴾[٢]، ثم إن ما زعمه ابن تيمية أن المشركين ما كانوا يرون لهذه الأصنام ضرا ولا نفعا وإنما كانوا يتخذونها وسيلة فقط كحال المتوسلين مردودٌ فانظر إلى قولهم لهودٍ عليه السلام ﴿إِن نَّقُولُ إِلَّا ٱعْتَرَىٰكَ بَعْضُ ءَالِهَتِنَا بِسُوٓءٍ﴾[٣] ثم انظر إلى قوله تعالى ﴿فَقَالُوا۟ هَٰذَا لِلَّهِ بِزَعْمِهِمْ وَهَٰذَا لِشُرَكَآئِنَا ۖ فَمَا كَانَ لِشُرَكَآئِهِمْ فَلَا يَصِلُ إِلَى ٱللَّهِ ۖ وَمَا كَانَ لِلَّهِ فَهُوَ يَصِلُ إِلَىٰ شُرَكَآئِهِمْ ۗ سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾[٤][٥] فقدَّموا شركاءهم على اللَّه تعالى في ذلك، وانظر إلى قول أبي سفيان يوم أحد «اعْلُ هُبَل»[٦] فأجابه ﷺ بقوله «**الله أعلى وأجل**»، فانظر إلى هذا ثم قل لي ماذا ترى في ذلك من التوحيد الذي ينسبُه إليهم ابن تيمية ويقول إنهم فيه مثلُ المسلمين سواء بسواء وإنما افترقوا بتوحيد الألوهية!! وقال تعالى ﴿ٱتَّخَذُوٓا۟ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَٰنَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَٱلْمَسِيحَ ٱبْنَ مَرْيَمَ وَمَآ أُمِرُوٓا۟

---

(١) سورة النازعات / ٢٤.

(٢) سورة الشعراء / ٢٩.

(٣) سورة هود / ٥٤.

(٤) سورة الإنعام / ١٣٦.

(٥) فالمشركون كانوا يعينون أشياء من حرث ونتاج لله وأشياءَ منهما لآلهتهم أي الأصنام فإذا رأوا ما جعلوا لله زاكيا ناميا رجعوا فجعلوه للأصنام وإذا زكا ما جعلوه للأصنام تركوه لها وقالوا إن اللَّه غني، وإنما ذاك لحبهم ءالهتَهم وإيثارهم لها. تفسير النسفي (١/ ٥٤٠).

(٦) أي أنت كن الأعلى أي أنت أنجدْنا فكانوا يعتقدون أنه ينفع ويضر.

﴿إِلَّا لِيَعْبُدُوٓاْ إِلَٰهًا وَٰحِدًا﴾[١] فدلت الآية على أن عبادةَ المشركين للأوثان إشراكٌ بربوبية اللَّه تعالى وألوهيتِه فالإله هو الرب والرب هو الإله فهما متلازمان يقع كل منهما في موضع الآخر قال تعالى ﴿أَلَمۡ تَرَ إِلَى ٱلَّذِي حَآجَّ إِبۡرَٰهِـۧمَ فِي رَبِّهِۦٓ﴾[٢] وكان اللازمُ على مقتضى كلام التيميين حيث كان النمرود يعرف توحيد الربوبية أن يقال «ألم تر إلى الذي حاج إبراهيمَ في إلهه» وقال تعالى ﴿ثُمَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِرَبِّهِمۡ يَعۡدِلُونَ﴾[٣] وكان اللازم على مقتضى كلامهم أن يقال «ثم الذين كفروا بإلههم يَعدلون» وفي حديث مسلم في قصة أهل الأخدود أن الملِك قال لجليسه «**ولك رب غيري**» وروى ابن حبان في حديث الماشطة أن بنت فرعون قالت لها «**وإن لك ربا غير أبي**» وكان اللازم على مقتضى كلامهم أن يقول الملك «ولك إله غيري» وأن تقول البنت «وإن لك إلها غير أبي» وكذلك ما ورد في حديث فتاني القبر حيث يَكتفي الملكان بسؤال العبد «من ربك» من غير أن يسألوه «من إلهك» واللازم على مقتضى كلامهم أن لا يكتفى بذلك إذ إن توحيد الربوبية عندهم اتفق فيه المسلمون والمشركون وكذلك حديث «**أمرت أن أقاتل الناس حتى يشهدوا أن لا إله إلا اللَّه وأني رسول اللَّه**» فجعل الرسول اعتراف العبد بتفرد اللَّه بالألوهية وبوصفه هو بالرسالة كافيا، هذا ولم يقل صحابي من صحابة النبي ﷺ إن التوحيد منقسم ولا أحد من التابعين ولا من أتباعهم ولم يقل به الإمام أحمد الذي هم ينتسبون إليه زورا بل لم يقل به أحد قبل القرن السابع فدل ذلك على فساد تقسيمهم التوحيد إلى ثلاثة أو اثنين على اختلاف أقوال ابن تيمية وما هو إلا بدعة ضلالة فإذا فسد الأصل فسد الفرع تبعا له.

---

(١) سورة التوبة / ٣١.

(٢) سورة البقرة / ٢٥٨.

(٣) سورة الأنعام / ١.

(ص) كلّ مخلوق بخلقته شاهد على أن خالقَه واحد، كما قال: ﴿وَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلرَّحْمَٰنُ ٱلرَّحِيمُ﴾[1].

(ش) بين المصنف رحمه اللَّه في هذه الجملة أن من نظر في خلقة المخلوقات علم أن خالقها واحد فإن انتظامها واتساقها شاهد على أن الخالق واحد وإلا لفسدت المخلوقات قال تعالى ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَا﴾[2] قال الزركشي في تشنيف المسامع (٣/ ٤١١) ما نصه: «والتقدير واللَّه أعلم لو كان في خلق السماوات والأرض اجتماع ءالهة لفسدتا لكن لم يتحقق الفساد بل يقينا منتظمين، فلم يكن خالقهما آلهة». وقال نجم الدين منكوبرس في تفسير قوله تعالى (﴿وَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلرَّحْمَٰنُ ٱلرَّحِيمُ﴾[3] ما نصه: «وهذا خطابٌ لكافةِ المكلفينَ بالوحدانيةِ وتجريدِ الألوهيةِ، ففي قوله ﴿وَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ﴾ إثباتُ ألوهيةِ إلهٍ واحدٍ، وفي قوله ﴿لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ نفيُ الألوهيةِ عما سواهُ». وقال الخازن (١/ ٩٨) ما نصه: «سبب نزول هذه الآية أن كفار قريش قالوا «يا محمد صف لنا ربك وانسبه» فأنزل اللَّه هذه الآية وسورةَ الإخلاص، ومعنى الوحدة الانفراد، وحقيقة الواحد هو الشيء الذي لا يتبعض ولا ينقسم، والواحد في صفة اللَّه أنه واحد لا نظير له وليس كمثله شيء، وقيل واحد في ألوهيته وربوبيته ليس له شريك لأن المشركين أشركوا معه الآلهة فكذبهم اللَّه تعالى بقوله: (**وَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ**﴾ يعني لا شريك له في ألوهيته ولا نظير له في الربوبية، والتوحيد هو نفي الشريك والقسيم والشبيه، فالله تعالى واحد في أفعاله لا شريك له يشاركه في مصنوعاته، وواحد في ذاته لا قسيم له، وواحد في صفاته لا يشبهه شيء من خلقه ﴿لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ تقرير للوحدانية بنفي غيره من الألوهية وإثباتها له

---

(١) سورة البقرة / ١٦٣.

(٢) سورة الأنبياء / ٢٢.

(٣) سورة البقرة / ١٦٣.

سبحانه وتعالى ﴿ٱلرَّحۡمَٰنُ ٱلرَّحِيمُ﴾ يعني أنه المولى لجميع النعم وأصولها وفروعها فلا شيء سواه بهذه الصفة لأن كل ما سواه إما نعمة وإما منعم عليه، وهو المنعم على خلقه الرحيمُ بهم».

وقريب من هذه المعاني قول أبي العتاهية العباسي: [المتقارب]

فيا عجبًا كيف يُعصى الإلهُ ... أم كيفَ يجحدُه الجاحدُ

وفي كلِّ شيءٍ لهُ ءايةٌ ... تدلُّ على أنهُ واحدُ

ولله في كلِّ تحريكةٍ ... وتسكينةٍ أبدًا شاهدُ

(ص) ومحمد بن عبد الله بن عبد المطّلب بن هاشم بن عبد مناف بن قُصَي بن كِلابٍ رسولُ الله عليه السلام، سيّد المرسلين وإمام المتّقين وخاتم النبيّين.

(ش) بعدما أنهى المصنف رحمه اللَّه الكلام فيما يتعلق بالشهادة الأولى شرع في الكلام عما يتعلق بالشهادة الثانية، وقد بدأ المصنف بذكر نسبه قال تعالى ﴿لَقَدۡ جَآءَكُمۡ رَسُولٞ مِّنۡ أَنفُسِكُمۡ عَزِيزٌ عَلَيۡهِ مَا عَنِتُّمۡ حَرِيصٌ عَلَيۡكُم بِٱلۡمُؤۡمِنِينَ رَءُوفٞ رَّحِيمٞ﴾[1] وقرئ أنفسكم بضم الفاء أي منكم وبفتحها أي من خياركم، وقال ﷺ فيما رواه البخاري: «**بعثت من خير قرون بني ءادم قرنا فقرنا حتى كنت من القرن الذي كنت فيه**»، وقال ﷺ: «**إن اللَّه اصطفى من ولد إبراهيم إسماعيلَ، واصطفى من ولد إسماعيل بني كنانة، واصطفى من بني كنانة قريشًا، واصطفى من قريشٍ بني هاشم، واصطفاني من بني هاشم**» رواه الترمذي وقال «حديث حسن صحيح».

ومحمد علم منقول من اسم مفعول حمّد المضعف العين، ومعناه من

(١) سورة التوبة / ١٢٨.

كثرت خصاله الحميدة أو من كثر حمد الغير له.

وهو **ابن عبد اللَّه** وكان أرفع فتى في بني هاشم وهو أول من فدي بمائة من الإبل، فقد روي أن أباه عبد المطلب لما أمِر في منامه بحفر زمزم ولم يكن له من الولد إلا الحارث نذر إن ولد له عشرة نفر لينحرن أحدهم عند الكعبة فلما توافى بنوه عشرة وعرف أنهم سينصرونه وذلك بعد حفره زمزم جمعهم ثم أخبرهم بنذره ودعاهم إلى الوفاء به فأطاعوه وقالوا أوف بنذرك وافعل ما شئت، فقال ليأخذ كل رجل منكم قدحا ثم يكتب فيه اسمه ثم ائتوني ففعلوا فخرج السهم على عبد اللَّه وكان أحبهم إلى أبيه فقالت له امرأة اذبح بدله عشرة من الإبل وأعد السهم فبقي هكذا حتى بلغت مائة من الإبل فنحرها عبد المطلب جميعا فداء لابنه ففرحت قريش بذلك، ولهذا لقب النبي ﷺ بابن الذبيحَين.

ابن **عبد المطلب** واسمه شيبة الحمد سمي به لأنه وُلد وفي رأسه شيبة أي شعرة بيضاء وكانت تُرى في ذؤابته، وكنيته أبو الحارث، وأمه سَلْمَة بنت عمرو من أهل المدينة من بني النجار من الخزرج، ولد في المدينة ونشأ بها إلى أن صار عمره سبعا، فمر رجل بالمدينة فرأى غلمانا ينتضلون بالسهام وفيهم غلام كلما أصاب قال أنا ابن هاشم أنا ابن سيد البطحاء، فقال له الرجل: ممن أنت يا غلام؟ فقال أنا شيبة بن هاشم بن عبد مناف، فانصرف الرجل إلى مكة وأخبر المطلب بذلك فانطلق إلى المدينة لجلبه ثم دخل به مكة ضحى مُردِفَه خلفه والناس في أسواقهم ومجالسهم وكان شيبة إذ ذاك يلبس ثيابا بالية أثرت فيها الشمس فقال له الناس من هذا؟ فقال عبدي ابتعته بيثرب، ثم أدخله منزله واشترى له حُلَّة ارتضاها وألبسه إياها ثم أخرجه إلى حيث يجتمع قومه وقال لهم: هذا ابن أخي، فكان بعد ذلك إذا مشى في مكة قالوا هذا عبد المطلب، فغلب عليه هذا اللقب.

ابن **هاشم** واسمه عمرو، لقب هاشما لأنه أول من هَشَم الثريد لقومه

لضائقة أصابتهم، وذلك أن أهل مكة أصابهم جَهد وشدة فرحل إلى فلسطين فاشترى منها دقيقا كثيرا وقدم به إلى مكة فأمر بخبزه فخبز ثم كسره لهم في المرق واللحم وأطعمهم إياه، وفيه قال الشاعر: [الكامل]

عمرو الذي هشم الثريد لقومِه ورجالُ مكةَ مُسنتون عِجافُ

ابن **عبد مناف** سمي به لطوله من قولهم مائة ونيّف، واسمه المغيرة، وكنيته أبو عبد شمس، كان يقال له قمر البطحاء من شدة جماله، وقال فيه الشاعر: [الكامل]

كانت قريش بَيضةً فتفلقتْ فالمحُّ خالصُه لعبدِ منافِ

ابنِ **قصي** واسمه زيد وقيل مجمّع، لقب قُصَيا لأنه نشأ بعيدا عن أهله، وهو أول من ولي البيتَ من أجداده عليه الصلاة والسلام، وكان قبل ذلك تليه خزاعة فانتقل منهم إليه، وجمع قريشا من شعاب مكة وجبالها إلى مكة وأدخلهم إليها فأطاعه قومه إلى ذلك ورأسوه عليهم، وذلك أن سيد خزاعة أبا غبشان شرب ليلة مع جماعة فنفد شرابه، فقال من يشتري مني سِدانة البيت بزق خمر، فاشتراها قصي وأشهد عليه، وفي ذلك قال الشاعر: [البسيط]

باعت خزاعةُ بيتَ اللَّه إذ سكرت بزق خمر فبئست صفقةُ البادي

باعت سِدانتها للبيت وانتقلت عن المقامِ وظلَّ البيت والنادي

ومن الأمثال قولهم «أحمق من أبي غبشان» وقولهم «أندم من أبي غبشان» وقولهم «أخسر من أبي غبشان»، ثم حاولت خزاعة ارتداده بالقوة فلم تقدر.

ابن **كلاب** لقب به لأنه كان يصيد بالكلاب فيجمعها لذلك، واسمه حَكيم وقيل عروة، وكنيته أبو زهرة، وفي كلاب يجتمع نسب أبيه وأمه عليه الصلاة والسلام، وفي كلاب يقول الشاعر: [المتقارب]

حكيمُ بنُ مرةَ ساد الورى ببذل النوالِ وكف الأذى

ابن **مرة** وكنيته أبو يقَظَة، ومرة منقول من قولهم «مر الشيء إذا اشتدت مرارته».

ابن **كَعب** هذا اسمه كذلك، وكنيته أبو هُصَيص، وكان عظيم القدر عند العرب، وكان يخطب الناس في الحج وغيره يجمع قريشا ويعظهم ويذكرهم، ولعظم قدره وارتفاع شأنه أرّخوا بموته حتى كان عامُ الفيل أرخوا به فيقولون مثلا: حصل كذا قبل موت كعب بخمس سنين وهكذا، ويروى عنه أنه كان يذكر قومه بمبعث نبي ءاخر الزمان ويعلمهم أنه من ولده ويأمرهم باتباعه إذا ظهر وينشد في هذا أبياتا منها قوله: [البسيط]

يا ليتني شاهدٌ فحواءَ دعوتِه إذا قريشٌ تبغي الحقَّ خِذلانا

ابن **لؤي** وكنيته أبو كعب، وعرف بالحكمة من صغره.

ابن **غالب** وكنيته أبو تَيم، وتيم ابنه هو المعروف بتيم الأدرم لأن أحد لحييه كان أنقص من الآخر، وفي قريش تيمان تيم بن مرة وتيم الأدرم.

ابنِ **فِهر** وهو لقبه، واسمه قريش، وكنيته أبو غالِب، فمن جاوز فهرا فليس من قريش.

ابن **مالك** وكنيته أبو الحارث، ولم يكن له من الولد غير فهر.

ابن **النضر** هذا لقبه لنضارته أي ملاحته وجماله، واسمه قيس، وكنيته أبو يخلُد.

ابن **كنانة** وكنيته أبو النضر، وكان عظيم البركة عند العرب يتبركون به، سُمي كنانة لأنه كان سِترا على قومه كالكِنانة أي الجُعبة الساترة للسهام، ويروى عنه أنه بشَّر بنبي ءاخر الزمان.

ابن **خزيمة** وكنيته أبو أسد، وكان كثير الكرم حتى قيل فيه: [الكامل]

أما خزيمة فالمكارم جمةٌ سبقت إليه وليس ثم عتيدُ

ابن **مدركة** هذا لقبه، واسمه عمرو، وكنيته أبو هذيل، ولقب بذلك لأنه أدرك إبلا نفرت لأبيه.

ابن **إلياس** بكسر الهمزة وفتحها، وكنيته أبو عمرو، عظم أمره عند العرب حتى كانت تدعوه بكبير قومه وسيد عشيرته وكانت لا تقضي أمرا دونه، ولما مات حزنت عليه زوجته خِنْدِف حزنا شديدا لم يظلها سقف بعد موته حتى ماتت.

ابن **مضر** هذا لقبه، واسمه عمرو، وكان من أحسن الناس صوتا وأجملهم وجها، ولقب بذلك لأنه كان يضير قلب من رءاه لحسنه وجماله وقيل من اللبن الماضر لقب به لبياض وجهه، وهو أول من حدا للإبل، فإن الحداء ينشط الإبل لا سيما إن كان بصوت حسن فإنها عند سماعه تمد أعناقها وتصغي إلى الحادي وتسرع في سيرها وتستخف الأحمال الثقيلة فربما قطعت المسافة البعيدة في زمن قصير وربما أخذت ثلاثة أيام في يوم واحد، وعقد في استحبابه النووي بابا في الأذكار.

ابن **نزار** وكنيته أبو إياد، وسمي بذلك لأنه كان فريد عصره.

ابن **مَعَد** وكنيته أبو قُضاعة، وكان مخشوشنا بعيدا عن التنعم ولذلك قال سيدنا عمر: اخشوشنوا تمعددوا، يعني كونوا كمعد هذا لأنه كان بعيدا عن التنعم.

ابن **عدنان** وكنيته أبو معد، ويقال إنه أول من كسا الكعبة.

هذا هو النسب المجمع عليه في نسبه ﷺ عند العلماء بالأنساب، ولا خلاف أيضا أن عدنان هذا من نسل نبي اللَّه إسماعيل بن إبراهيم ﷺ، لكن اختلفوا في أسماء الآباء من عدنان إلى إسماعيل بن إبراهيم وكذلك من إبراهيم إلى ءادم عليهما السلام فليس فيه رواية ثابتة وإنما الثابت إلى عدنان، ومن ثم أنكر مالك على من رفع نسب النبي ﷺ إلى ءادم وقال: من أخبره به؟!

وقوله «سيّد المرسلين» أي أفضل الأنبياء وتقدم في أوائل الكتاب الكلام في جواز إضافة السيد لغير اللَّه تعالى، وقوله «إمام المتّقين» أي المقدم عليهم، والتقي من أدى حقوق الحق وحقوق الخلق، وقوله «خاتم النبيّين» سيأتي قريبا بسط ذلك.

(ص) وقد كان قبله رُسُل؛ أولهّم ءادم عليه السلام وءاخرهم رسولنا محمد صلوات اللّٰه عليهم، كلّهم صدقوا فيما بلّغوا عن اللّٰه.

(ش) مما يجب الإيمان به أن اللَّه تعالى أرسل أنبياء مبلغين عنه دينه وشرائعه، أولهم ءادم وءاخرهم محمد صلى اللَّه عليهم وسلم، متصفين بالصفات اللائقة بمنصبهم ومهمتهم في التبليغ عن اللَّه تعالى، فمن ذلك:

الصدق: وهو مطابقة الخبر للواقع، سواء في ذلك الأحكام وغيرها، وذلك أنّ النبيّ قد ظهرت على يده المعجزة، والمعجزة نازلة منزلة قول اللَّه تعالى «صدق عبدي فيما يُبلّغ عني»[1]، فلو كان مع هذا يصدر منه أيّ كذبة لارتفعت الثقة في كلامه بين الناس، ولصار هذا تكذيبًا لمقتضى المعجزة، ولأدّى إلى تكذيب اللَّه تعالى، وهذا محال، فقطعنا بصدقه لذلك، حتى ما كان من أنواع الكذب مباحا في حقنا يستحيل عليهم كما ذكره القاضي عياض في الشفا (٢/ ١٢٣-١٣٥)، وكان نبيُّنا ﷺ معروفًا بين قومه قبل نزول الوحي عليه بـ«الصادق الأمين»، وقد قال ﷺ حين جمع بطون قريش يومًا ليُنذرهم: «**أَرَأَيْتَكُمْ لَوْ أَخْبَرْتُكُمْ أَنَّ خَيْلًا بِالوَادِي تُرِيدُ أَنْ تُغِيرَ عَلَيْكُمْ، أَكُنْتُمْ مُصَدِّقِيَّ؟**» فقالوا: «نعم، ما جرّبنا عليكَ إلا صدقًا» متفق عليه.

تنبيه: ويُعلَم من هذا أنّ ما ورد في الصحيحين في حق سيدنا إبراهيم مما ظاهره نسبة الكذب إليه عليه السلام لا يُمكن حمله على أنه صدر منه

(١) أي كأن اللَّه تعالى قال «صدق عبدي فيما يبلغ عني» وليس المراد أن هذا اللفظ وارد في القرءان أو الحديث القدسي.

كذبٌ حقيقيّ، وذلك حديث النبي ﷺ: «لَمْ يَكْذِبْ إِبْرَاهِيمُ عَلَيْهِ السَّلامُ إِلَّا ثَلَاثَ كَذَبَاتٍ قَوْلُهُ ﴿إِنِّي سَقِيمٌ﴾ وَقَوْلُهُ ﴿بَلْ فَعَلَهُۥ كَبِيرُهُمْ هَٰذَا﴾ وَقَالَ: بَيْنَا هُوَ ذَاتَ يَوْمٍ وَسَارَةُ، إِذْ أَتَى عَلَى جَبَّارٍ مِنَ الجَبَابِرَةِ، فَقِيلَ لَهُ: إِنَّ هَا هُنَا رَجُلًا مَعَهُ امْرَأَةٌ مِنْ أَحْسَنِ النَّاسِ، فَأَرْسَلَ إِلَيْهِ فَسَأَلَهُ عَنْهَا، فَقَالَ: مَنْ هَذِهِ؟ قَالَ: أُخْتِي، فَأَتَى سَارَةَ قَالَ: يَا سَارَةُ: لَيْسَ عَلَى وَجْهِ الأَرْضِ مُؤْمِنٌ غَيْرِي وَغَيْرُكِ، وَإِنَّ هَذَا سَأَلَنِي فَأَخْبَرْتُهُ أَنَّكِ أُخْتِي، فَلا تُكَذِّبِينِي» فهذا الحديث اعترض عليه الرازي في التفسير (٢٦/ ٣٤٢) وقال إن نسبة الكذب إلى رواة الحديث أولى من نسبته إلى نبيّ من الأنبياء، وأمّا من قَبِل الحديث من العلماء فلم يحمله على ظاهره من نسبة الكذب حقيقة إلى النبي إبراهيم عليه السلام وإنما سُمّي كذبًا لأن صورته صورة الكذب وليس كذبًا في الحقيقة، وهذا معنى كلامهم إنه محمول على المعاريض؛ فقالوا قوله ﴿إِنِّي سَقِيمٌ﴾ أي سأسقم فإنّ كل إنسان معرَّض للمرض قبل موته، فاعتذر بذلك عن الخروج مع قومه إلى عيدهم كما ذكره الحافظ في الفتح (٦/ ٣٩١)، وقوله ﴿بَلْ فَعَلَهُۥ كَبِيرُهُمْ هَٰذَا﴾ بعد أن كسَّر أصنامهم وعلّق الفأس على الصنم الكبير فقد ذكروا له وجوهًا كثيرةً منها أنّ مراده بذلك تقرير الفعل لنفسه وتبكيت الكفرة بالتعريض بأنّ هذا الصنم مع أنّه كبير الأصنام لا قدرة له على تكسيرها فكيف يصح كون العاجز إلهًا كما ذكره الحافظ في الفتح أيضا، ومن وقف على ﴿بَلْ فَعَلَهُۥ﴾ كالكسائيّ فالتقدير عنده: بل فعله مَن فعله، ثم يبتدئ ﴿كَبِيرُهُمْ هَٰذَا﴾ على أنّه مبتدأ وخبر، ويدخُل عليه في مُبهَم الفاعل سيدُنا إبراهيم عليه السلام، وأمّا قوله عن سارة: «أختي» فذلك أنّها أخته في الإسلام والله تعالى يقول ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾[1] كما جاء التصريح بذلك في الرواية الأخرى عند مسلم التي فيها أن إبراهيم عليه السلام قال لسارة: «فَإِنَّكِ أُخْتِي فِي الإِسْلامِ فَإِنِّي لا أَعْلَمُ فِي الأَرْضِ مُسْلِمًا غَيْرِي وَغَيْرَكِ»

(١) سورة الحجرات / ١٠.

فقولُه حقٌّ ليس كذبًا. والحاصل أنه لا يُحتجّ بهذا الحديث لإثبات الكذب حقيقة لنبيّ من أنبياء اللَّه تعالى.

الأمانة: يجب للأنبياء عليهم السلام عصمتهم من الخيانة في الأقوال والأفعال والأحوال، وعصمتهم عما لا يليق بمنصبهم من نحو الكفر وكبائر المعاصي وهي ثابتة لهم قبل النبوة وبعدها قال القرطبي في المفهم (١/ ٤٣٤): «والذي ينبغي أن يقال: إن الأنبياء معصومون مما يناقض مدلول المعجزة عقلًا، كالكفر بالله تعالى، والكذب عليه، والتحريف في التبليغ والخطأ فيه، ومعصومون من الكبائر وعن الصغائر التي تزري بفاعلها، وتحط منزلته وتسقط مروءته إجماعًا». ويُعلم بذلك أنه يستحيل عليهم الخيانة في أداء الرسالة، أو الكذب على من طلب منهم النصيحة، أو أكل أموال الناس بالباطل، لأن من يصدر منه شيء من ذلك لا يكون محلّ ثقة ليأخذ الناس منه دينهم. وقد شهدت سير الأنبياء على أمانتهم في مختلف الوقائع؛ فمن ذلك أنّ سيدنا محمدًا ﷺ لما أراد أن يهاجر من مكة إلى المدينة كان عنده ودائع لأهل مكة، فإنّهم كانوا يضعون ودائعهم عند النبي محمد ﷺ لما عُرف بينهم من صدقه وأمانته، فخلَّف عليه الصلاة والسلام عليًّا بمكة حتى يؤدّي الأمانات إلى أهلها قبل أن يلحق بالمؤمنين إلى المدينة. ومن ذلك أيضًا قصة فاطمة بنت قيس أنّها قالت: خطبني أبو جهم ومعاوية ، قالت: فأتيتُ رسول اللَّه ﷺ فذكرتُ ذلك له، فقال: «**أَمَّا مُعَاوِيَةُ فَرَجُلٌ لَا مَالَ لَهُ، وَأَمَّا أَبُو جَهْمٍ فَرَجُلٌ شَدِيدٌ عَلَى النِّسَاءِ**» وفي رواية أنّ النبيّ ﷺ قال لها: «**انْكِحِي أُسَامَةَ**» قالت: فخطبني أسامة بن زيد فتزوّجني، فبارك اللَّه لي في أسامة، ففيه أنّ النبي ﷺ أدّى لها النصيحة فيما استنصحته فيه ولم يغشّها فيستر عنها عيب من خطبها.

ومما يجب الحذر منه قول بعضهم إن النبي محمدًا ﷺ أراد الانتحار، واستدلوا بحديث البخاري في قصة بدء الوحي عن عائشة رضي اللَّه عنها أن النبي ﷺ حين فَتَرَ الوحيُ عنه في أوائل البعثة هَمَّ بأَنْ يُلقِيَ نفسَه مِن ذُروة

الجبل، ففسروا ذلك بأنّ النبيّ ﷺ أراد الانتحار وهو باطل لأن قتل النفس من أكبر الذنوب فالهمُّ به ينافي أمانة الأنبياء عليهم الصلاة والسلام، ونقول أيضًا إن العلماء بيّنوا أن هذه الزيادة ليست من كلام عائشة رضي اللّه عنها ولا من كلام عروة راوي الحديث عنها وإنّما من كلام بعض رواة الحديث من التابعين وهو الزهري على ما قال الحافظ في الفتح (١٢/ ٣٥٩) أو معمر على ما قاله القاضي عياض في الشفا (٢/ ١٠٤) وهو لم يشهد الحادثة وقد رواها بلاغًا حيث قال: «فيما بلغنا» ولم يذكر إسناده فيها فلا تكفي روايته هذه للاحتجاج بها، ولو سلمنا ثبوتها فمعناها أنّ النبيّ ﷺ أراد بذلك تخفيف شدّة الوجد والشوق الذي حصل له مِن إبطاء الوحي عليه لا الانتحار، وهو يعلم أن اللّه يحفظه من الأذى بأن يخرق العادة له فلا ينضرّ بذلك الإلقاء، ولا حرج في أن يكون النبي ﷺ قد حزن في فترة الوحي اشتياقًا للوحي ولنزول آيات القرءان المبين، فغدا إلى ذُروة الجبل التي كانت ملتقاه الأول مع أمين الوحي جبريل عليه السلام وسبق أن تجلّى له في آفاقها.

ويجب الحذر مما يُنسَب لبعض الأنبياء عليهم السلام مما يُنافي أمانتهم كمن ينسب لنبي اللّه إبراهيم عليه السلام أنه كان على الشرك، ومن ينسب ليوسف عليه السلام أنه همّ بفعل الفاحشة، ومن ينسب لداود عليه السلام أنه رغب بزوجة أحد قادته فأرسله ليموت في الحرب، ومن ينسب لنبيّنا محمد ﷺ أنه احتال على زيد ليأخذ منه زوجته، وغير ذلك كثير مما نسبه بعض المؤلفين للأنبياء زورًا وضلالًا أو دُسَّ في كتب علماء أهل السنة، وكثير منه إنما هو من الإسرائيليّات المفتراة على أنبياء اللّه عليهم السلام.

ويُعلَم بذلك أيضًا أن النبوة لا تصحّ لإخوة يوسف العشرة وهم من سوى بنيامين الذين صدرت منهم أفاعيل خسيسة لا تليق بمنصب الأنبياء من ضربهم يوسف ورميهم له في البئر، قال القرطبي في تفسيره (٩/ ١٣٣): «وفي هذا ما يدل على أن إخوة يوسف ما كانوا أنبياء لا أولا ولا ءاخرًا لأن الأنبياء لا يدبرون في قتل مسلم».

التبليغ: يجب للأنبياء تبليغ كلّ ما أُمروا بتبليغه دون نقصان أو تحريف، فلم يمت واحد منهم إلا وقد بلّغ رسالته على الوجه الذي أمره اللَّه به، فيستحيل عليهم كتمان شيء من ذلك وإلا لبطلت الثقة برسالتهم قال اللَّه تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغۡ مَآ أُنزِلَ إِلَيۡكَ مِن رَّبِّكَ﴾[١]، وقال تعالى عن أنبيائه: ﴿رُّسُلٗا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ﴾[٢] ولا يتمّ الإنذار إلا بالتبليغ فدلّ ذلك على أنه لا بد لكلّ نبيّ من أنبياء اللَّه من التبليغ. وقال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَٰلَٰتِ ٱللَّهِ وَيَخۡشَوۡنَهُۥ وَلَا يَخۡشَوۡنَ أَحَدًا إِلَّا ٱللَّهَ﴾[٣] وقال: ﴿وَمَا هُوَ عَلَى ٱلۡغَيۡبِ بِضَنِينٖ﴾[٤] أي لا يبخل بتبليغ ما أوحي إليه وأُمر بتبليغه، وقُرئ ﴿**بظنين**﴾ بالظاء أي ليس بمتّهم في الوحي والغيب[٥].

ويُبيَّن في هذا المقام أنّ ما في قصة زواج النبي ﷺ من زينب بنت جحش من أنّ النبيَّ كان أخفى إعلام اللَّه له بأنّ زينب ستصير زوجته ليس إخلالًا في التبليغ المأمور به ﷺ، فإن النبي ﷺ كان زوّج زينب لزيد بن حارثة ثم أوحى اللَّه إلى نبيّه ﷺ أنّ زيدًا سيطلّقها وأنه يتزوّجها بتزويج اللَّه إياها لكن لم يكن أُمر بتبليغ ذلك، فلمّا شكا زيدٌ زينبَ للنبي ﷺ وأعلمه بأنه يريد طلاقها قال له ﷺ: «**أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ**» ولم يُرد أن يأمره بالطلاق وأخفى أنه يعلم أنه سيطلّقها، وهذا المراد بقوله تعالى ﴿**وَتُخۡفِي فِي نَفۡسِكَ مَا ٱللَّهُ مُبۡدِيهِ**﴾[٦] فليس المراد أن اللَّه أنزل على النبي قرءانًا وأُمر النبي بتبليغه ولم يبلّغه، ثم بعد أن طلّقها زيد وقضت عدّتها زوّجها اللَّه لنبيّه وأنزل اللَّه

---

(١) سورة المائدة / ٦٧.

(٢) سورة النساء / ١٦٥.

(٣) سورة الأحزاب / ٣٩.

(٤) سورة التكوير / ٢٤.

(٥) انظر: تفسير الطبري (٢٤/ ٢٦٠).

(٦) سورة الأحزاب / ٣٧.

في ذلك قوله: ﴿فَلَمَّا قَضَىٰ زَيْدٌ مِّنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَٰكَهَا﴾ وأظهر النبي ﷺ ذلك وتلاه الناس قرآنًا، فليس في هذه القصة ما ينافي ما وجب للأنبياء عليهم السلام من تبليغ ما أُمروا بتبليغه.

الصيانة: يجب للأنبياء الصيانة عما يُعد منقصة في مرتبتهم، فيستحيل على الأنبياء كل ما يُنفّر الناس عن قبول الدعوة منهم في أخلاقهم أو أبدانهم أو أفعالهم أو أسمائهم، فكانوا كلهم أصحاب خلقة سوية حسنة، لأن ما أرسلهم اللَّه به هو دعوة الناس، فليس فيهم من يكون صورته منفّرة أو صوته منفِّرًا أو نحو ذلك، قال رسول اللَّه ﷺ: «**مَا بَعَثَ اللَّهُ نَبِيًّا إِلَّا حَسَنَ الْوَجْهِ حَسَنَ الصَّوْتِ**» رواه الترمذي في الشمائل، فيُعلَم من هذا بطلان ما يدّعيه بعض الناس من أنّ ءادم عليه السلام كان قردًا أو يشبه القرد، فإنه منقصة لا تليق بمقام النبوّة، كما أنه لا يليق أن يكون أول البشر قردًا والله تعالى قال: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِىٓ ءَادَمَ﴾[1] وقال: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ فِىٓ أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ﴾[2] أي في أعدل قامة وأحسن صورة، فهذا القول الباطل مخالف للقرآن الكريم.

ويستحيل على الأنبياء العمى الذي يكون في الابتداء مع البعثة، فأول ما ينزل الوحي على النبي لا بد أن يكون بصيرًا، أما العمى الطارئ لمدة بعد البعثة فقد يحصل معهم وذلك كما حصل مع سيدنا يعقوب عليه السلام فإنه عمِيَ من شدة حزنه على ابنه يوسف عليه السلام حتى ابيضّت عيناه من شدة البكاء فعمي ثم ردَّ اللَّه تعالى عليه بصرَه لما أرسل يوسفُ بقميصه فشمَّ يعقوبُ ريح يوسف في هذا القميص فارتدّ بصره قال اللَّه تعالى عن يعقوب عليه السلام ﴿وَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ وَقَالَ يَٰٓأَسَفَىٰ عَلَىٰ يُوسُفَ وَٱبْيَضَّتْ عَيْنَاهُ مِنَ ٱلْحُزْنِ فَهُوَ كَظِيمٌ﴾[3] ثم قال حكاية عن يوسف عليه السلام ﴿ٱذْهَبُوا۟

(١) سورة الإسراء / ٧٠.

(٢) سورة التين / ٤.

(٣) سورة يوسف / ٨٤.

بِقَمِيصِي هَـٰذَا فَأَلْقُوهُ عَلَىٰ وَجْهِ أَبِي يَأْتِ بَصِيرًا ﴾[1].

ويُعلَم أيضًا بما تقدّم أنه يستحيل على الأنبياء عليهم السلام الجنون، كما أنه يستحيل عليهم أن يؤثّر السحر في عقولهم أو في قلوبهم أو ألسنتهم بحيث يصير الواحد منهم لا يضبط كلامه ولا يعرف ما يفعل، وأما في أجسادهم فمن العلماء من جوّز أن يؤثّر السحر في جسم النبيّ فيصيبه الألم، واختار شيخنا الهرري رحمه اللَّه تعالى أن السحر لا يؤثّر في فكرهم ولا في أجسادهم، وقد بين الإمام أبو سليمان الخطابي في أعلام الحديث (٢/ ١٥٠٠) أن من العلماء من رد حديث «**يخيل إليه أنه كان يفعل الشيء ولم يفعله**» وقالوا لو جاز أن يؤثّر السحر في النبي لم يؤمن أن يؤثّر ذلك فيما يوحى إليه من أمور الدين فيؤدي ذلك إلى ضلال الأمة وهو ممتنع.

ويستحيل على الأنبياء عليهم السلام الرذالة وهي صفات الدون من الناس كاختلاس النظر إلى النساء الأجنبيات بشهوة وكسرقة حبة عنب، ويستحيل عليهم السفاهة أيضًا وهي التصرّف بخلاف الحكمة كالتلفُّظ بألفاظ شنيعة تستقبحُها النفس، ويُعلَم بذلك بطلان ما يُنسَب لنبي اللَّه يوسف عليه السلام من أنّه همّ بالزنا بامرأة العزيز كما تقدم، فإن من يصدر منه فعل كهذا ينفر الناس عن قبول الدعوة منه، فلا يليق بمنصب الأنبياء الهمّ بالزنا أي قصده كما أنه لا يليق بمنصبهم فعل الزنا، وأما قوله تعالى: ﴿ **وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِۦ وَهَمَّ بِهَا لَوْلَآ أَن رَّءَا بُرْهَـٰنَ رَبِّهِۦ** ﴾[2] فقد بيّن الرازي (٢٩/ ٤٢٧) وابن الجوزي (٢/ ٤٢٧) في تفسيرهما أنّه لا يصح تفسير الآية بحصول الهمّ بالزنا من يوسف عليه السلام، وإنما معنى قوله تعالى ﴿**لَوْلَآ أَن رَّءَا بُرْهَـٰنَ رَبِّهِۦ** ﴾ أن اللَّه تعالى عصمه من ذلك ولولا عصمة اللَّه له لهمّ بالزنا فانتفى بذلك عنه الهمّ بالزنا كما في البحر المحيط لأبي حيان (٦/ ٢٥٧)، قال اللَّه تعالى:

---

(١) سورة يوسف / ٩٣.

(٢) سورة يوسف / ٢٤.

﴿كَذَٰلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ ٱلسُّوٓءَ وَٱلْفَحْشَآءَ إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُخْلَصِينَ﴾[1]، وقيل في تفسيرها إن المراد أن يوسف عليه السلام همّ بدفعها عنه كما ذكره الزركشي في البرهان (٣/ ١٥٠)، فليُتنبَّه.

ويستحيل عليهم كذلك الأمراض والعوارض المنفّرة كخروج الدود من البدن فإن من كان كذلك ينفر الناس عن مجالسته عادة فضلًا عن التعلّم منه، ويُعرف بذلك بطلان ما يُفترى على نبي اللَّه أيوب عليهم السلام من أنه كان يخرج من جسده الدود، فإن هذا من الإسرائيليّات المفتراة ولا يصح اعتقادها لما فيها من نسبة ما ينافي منصب النبوة لنبي من الأنبياء، والقرءان لم يرد بذلك وإنما الذي ورد في القرءان أن سيدنا أيوب عليه السلام أصابه الضرّ في بدنه، قال اللَّه تعالى: ﴿۞ وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥٓ أَنِّي مَسَّنِيَ ٱلضُّرُّ وَأَنتَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿٨٣﴾ فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ فَكَشَفْنَا مَا بِهِۦ مِن ضُرٍّ ۖ وَءَاتَيْنَٰهُ أَهْلَهُۥ وَمِثْلَهُم مَّعَهُمْ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَذِكْرَىٰ لِلْعَٰبِدِينَ﴾[2]، فيُحمل ذلك على ما يليق بمنصب الأنبياء من أنه بلاء وضرّ طبيعيّ غير منفّر وإن كان شديدًا. ودعاء أيوب لم يكن من باب الجزع وليس منافيا للصبر فإن اللَّه تعالى أخبر عنه أنه كان صابرًا حيث قال تعالى في حقّه: ﴿إِنَّا وَجَدْنَٰهُ صَابِرًا ۚ نِّعْمَ ٱلْعَبْدُ ۖ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ﴾[3].

ويُعلم من ذلك أيضًا أنه لا يكون اسم نبيّ مشتقًّا ممّا يُنفِّر أو يُشتقّ منه ما يُنفِّر، ولهذا يُنبّه العلماء على أنّ اسم نبيّ اللَّه لوط ليس مشتقًّا من فعل اللواط ولا اسم فعل اللواط مشتقًّا من اسمه عليه السلام، لما مرّ من صيانتهم عليهم السلام.

الفطانة: وهي التيقّظ وشدة الذكاء، ويستحيل عليهم البلادة والغباوة أي

---

(١) سورة يوسف / ٢٤.

(٢) سورة الأنبياء / ٨٣-٨٤.

(٣) سورة ص / ٤٤.

ضعف الفهم، وذلك لأنهم لو كانوا أغبياء – لا يقتدرون على على إقامة الحجة وإلزام الخصوم وإبطال دعاويهم الباطلة – لانفضَّ الناس عنهم وما اجتمعوا عليهم لِما رأوا من غباوتهم، والله حكيم، وإنما أرسل الأنبياء ليبلّغوا الناس مصالح دينهم ودُنياهم ولا يتحقق هذا المطلوب بمن كان بليدًا.

الشجاعة: يجب للأنبياء عليهم الصلاة والسلام الشجاعة ويستحيل عليهم الجُبن، وأما الخوف الطبيعي كالنفور من الحيّة فلا يُنافي شجاعتهم عليهم الصلاة والسلام، ويشهد لشجاعتهم عليهم الصلاة والسلام ما استفاض من قصصهم في كتب السير، من ذلك ما جاء عن سيدنا عليّ رضي اللَّه عنه أنه قال: «كُنّا إذا حمي البأس ولقي القومُ القومَ اتقينا برسول اللَّه ﷺ فما يكون منّا أحدٌ أدنى من القوم منه»، وما جاء في مسلم عن أنس رضي اللَّه عنه أنه قال عن النبي ﷺ: «وكان أشجع الناس» ثم ذكر أنه قد فزع أهل المدينة ذات ليلة فانطلق الناس إلى جهة الصوت فتلقّاهم رسول اللَّه ﷺ راجعًا وقد سبقهم إلى الصوت، الحديث، وهذا دليل على شجاعته ﷺ إذ كان قد سبقهم وحده على الصوت.

وقول الماتن رحمه اللَّه «أولهم ءادم» يعلم به فساد من ينكر نبوته عليه السلام حتى قال الإمام أبو منصور البغدادي في أصول الدين (ص/ ١٥٧): «فمن أنكر نبوته كفر» وقال التفتازاني في شرح العقائد (ص/ ١٢٦): «أما نبوة ءادم عليه السلام فبالكتاب وكذا بالسنة والإجماع» اهـ فهو نبي رسول كما ورد ذلك في حديث أبي ذر الذي أخرجه ابن حبان وصححه وأقره الحافظ ابن حجر وفيه «قلت يا رسول اللَّه أنبي مرسل؟ قال **نعم**»، فهو ﷺ نبي رسول لأن النبي يؤمر باتباع شرع من قبله وءادم هو أول البشر فلا يصح أن يبلغ شريعة نبي قبله، وقد أنزل اللَّه عليه شرعا، فهو نبي رسول بإجماع المسلمين، وأما حديث البخاري عن قول المؤمنين يوم القيامة لنوح «**أنت أول الرسل إلى أهل الأرض**» فأجاب عنه القسطلاني (٥/ ٣٢٩) بقوله: «استُشكلت الأولية هنا بأن ءادم نبي مرسل وكذا شيث وإدريس وهم قبل نوح، وأجيب بأن

الأولية مقيدة بقوله إلى أهل الأرض لأن ءادم ومن بعده لم يرسلوا إلى أهل الأرض، واستشكل بقوله من حديث جابر «**أعطيت خمسًا**» وفيه: «**وكان النبي يبعث إلى قومه خاصة وبعثت إلى الناس كافة**»، وأجيب بأن بعثة نوح إلى أهل الأرض باعتبار الواقع لصدق أنهم قومه بخلاف عموم بعثة نبينا ﷺ لقومه ولغير قومه»، ويؤيد ما ذكرنا حديثُ الترمذي وابن ماجه عن أبي سعيد أن النبي ﷺ قال «**وما من نبي يومئذ ءادم فمن سواه إلا تحت لوائي**» وقال الرازي (١٣/ ١٥١) في قوله تعالى ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰٓ ءَادَمَ وَنُوحًا﴾[1] ما نصه: «وأجمعوا على أن المراد بهذا الاصطفاء إنما هو النبوة».

(ص) وما أُنزل عليهم من الكتب والصحف كلّ ذلك كان حقًّا وصدقًا.

(ش) مما يجب الإيمان به الكتب والصحف المنزلة على الرسل لحديث «**الإيمان أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه**» وهي مائة وأربعة كتاب كما رواه ابن حبان من حديث أبي ذر رضي اللَّه عنه عن النبي ﷺ قال: «**مائة كتاب وأربعة كتب، أنزل على شيثٍ خمسون صحيفة، وأنزل على أَخْنُوخ**[2] **ثلاثون صحيفة، وأنزل على إبراهيم عشر صحائف، وأنزل على موسى قبل التوراة عشر صحائف، وأنزل التوراة والإنجيل والزبور والقرءان**» فأشهرها هذه الكتب الأربعة أعني التوراة على موسى والإنجيل على عيسى والزبور على داود والقرءان على محمد، وقال وهب بن منبه: قرأت بضعة وسبعين كتابا مما أنزل اللَّه تعالى. فيجب الإيمان أن هذه الكتب منزلة من قبل اللَّه تعالى، وليس للملَك ولا للنبي تصرف في النظم ولا في المعنى لكنهما يبلغان عن اللَّه تعالى، وهذه الكتب نزلت بلغات مختلفة فالتوراة باللغة العبرية والإنجيل باللغة السريانية والقرءان باللغة العربية، وهذه الكتب عبارة ودلالة على كلامه تعالى

(١) سورة ءال عمران / ٣٣.

(٢) هو إدريس عليه السلام.

كما تقدم ذلك، قال ابن أبي شريف: «واعلم أن كلامه النفسي لا يوصف بأنه متبعض ولا متجزئ ولا يوصف بأنه عبري ولا سوري [أي سرياني] ولا عربي إنما العبري والسوري والعربي هو اللفظ الدال عليه». وقال القونوي في شرح الطحاوية ما نصه: «فيكون التعدد والتكثّر والتجزؤ والتبعض من الحاصل في الدلالات لا في المدلول، وهذه العبارات مخلوقة لأنها أصوات وهي أعراض وسميت كلام اللّٰه لدلالتها عليه وتأديه بها».

(ص) ومحمد رسول اللّٰه عليه السلام خاتم الأنبياء لا نبيَّ بعده.

(ش) أن مما يجب الإيمان به أن ءاخر الأنبياء بعثا هو نبيا محمد ﷺ فلا يبعث نبي بعده قال تعالى ﴿وَخَاتَمَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ﴾ أي ءاخرهم، وروى مسلم من حديث أبي هريرة مرفوعا «**فضلت على الأنبياء بست**» ثم قال: «**وختم بي النبيون**» وروى البخاري من حديث أبي هريرة عن النبي ﷺ قال: «**كانت بنو إسرائيل تسوسهم الأنبياء كلما هلك نبي [أي مات] خلفه نبي وإنه لا نبي بعدي**» وروى أيضا أن النبي ﷺ قال لعليّ حين خلفه على المدينة في معركة تبوك: «**أما ترضى أن تكون مني بمنزلة هارون من موسى غير أنه لا نبي بعدي**» وروى أيضا «**ذهبت النبوة وبقيت المبشرات**» وروى الترمذي «**لو كان بعدي نبي لكان عمر**».

وبما ذكر يعلم فساد ما دعى إليه غلام أحمد بن غلام مرتضى القادياني المتوفى سنة ١٩٠٨ م في قاديان الذي ادعى أولا أنه المسيح الموعود وحرّف النصوص الواردة في نزول عيسى عليه السلام فقال «والله أنا المسيح الموعود وأعطاني ربي سلطانا مبينا» ثم ادعى النبوة فقال في كتابه المسمى بمواهب الرحمن: «إن جبريل جاء إلي واختارني» وقال في كتابه المسمى خطبة إلهامية: «فأراد اللّٰه أن يتم النبأ ويكمل البناء باللبنة الأخيرة فأنا تلك اللبنة أيها الناظرون» وقال ابنه محمود كما في صحيفة الفضل ١٩٣١ م: «إن كل مسلم لم يدخل في بيعة المسيح الموعود سواء سمع باسمه أو لم يسمع هو

كافر وخارج عن الإسلام» وكان أوصى أن يكتب على قبره «ميرزا غلام أحمد موعود». وكان من المشايخ الذين تصدوا له الشيخ ثناء اللَّه الأمرتسري وناظره وأقام الحجة عليه حتى باهله القادياني داعيا بأن يقبض اللَّه المبطل في حياة صاحبه ويسلط عليه داء الإسهال فهذا الذي حصل فمات بالإسهال، وقد أخبر ابنه بشير أحمد عن أمه أن غلام أحمد في ءاخر لحظات عمره قضى حاجته ثم غلبه القيء في مكانه ثم خر على ظهره ومات، ومن شاء فليراجع كتابنا «**القاديانية المؤامرة الدنية والعقيدة الكفرية**».

وقال شيخنا الهرري رحمه اللَّه مخاطبا بعض أدعياء القاديانية نظما من بحر الطويل:

أقــولُ لـمـن لـلـقـاديـانـيّ ينتمي ... ويــزعــمُ أنـــه نـبـيٌّ ومـرسَـلُ

بـــأي كـتـــابٍ أم بـــأيـــةِ سـنـةٍ ... ترى صلبَ عيسى يا ضلولُ المجهَّلُ

فهل من حديثٍ لو ضعيفًا مخبرٌ ... بـذلـك أم فـي الـذِّكـر ذاك منزل

ألـسـت تـقـولُ إنـــه لا يـخـالِـفَـنْ ... نبيَّ الهدى المختارَ فيما يحاوِلُ

فهل قال ذا قطبُ الكمالِ محمدٌ ... وهل قال ذا الصحبُ الكريم المبجَّلُ

وهــل قـال بـعـدَهـم خـبـيـرٌ بسنةٍ ... إلى عصرِنا هـذا سوى مَن يدجّلُ

وهذا ابنُ عباس الإمامُ الرضى الذي ... بـتـفـسـيـره مِـــن بَـعـــدِه يـتـأول

يـقـولُ بـأن الـصـلـبَ للشبه بعدما ... عـلا للسما عيسى ونِـعـمَ الـمـؤوّل

كذبتَ وحـقِّ الحق لستَ بمسلمٍ ... ومَـن عـانَـد الـقـرءان فهو المضلَّل

بـلايـا بـقـاديـان حـلـت فبلبلت ... صـدور الـردى والـشـرُّ للشر أقـبَـلُ

وإن عِـبـتـم شـعـرًا فـلـي أسـوةٌ بشا ... عر المصطفى حسان ذاك المفضلُ

(ص) وإذا نزل عيسى عليه السلام من السماء في ءاخر الزمان؛ فإنما ينزل على شريعته، ويدعو الناس إلى شريعته، ويكون كواحد من دُعاته.

(ش) بعدما بين المصنف رحمه اللَّه أنه لا نبي بعد نبينا محمد ﷺ نبه على أنا معشر أهل السنة نثبت نزول عيسى عليه السلام ءاخر الزمان وهذا لا ينافي ما تقدم لأن عيسى لا يبعث بعد نبينا بل هو بعث قبله ثم إذا نزل لا يأمر الناس بالشريعة التي كان عليها قبل رفعه بل يأمرهم بشريعة نبينا عليه الصلاة والسلام فيكون كواحد من دعاة هذه الأمة من هذه الحيثية، ولنا على ذلك حديث البخاري ومسلم عن أبي هريرة عن النبي ﷺ أنه قال: «**والذي نفسي بيده ليوشكن أن ينزل فيكم ابن مريم حكما عدلا فيكسر الصليب ويقتل الخنزير ويضع الجزية ويفيض المال حتى لا يقبله أحد حتى تكون السجدة خيرا من الدنيا وما فيها**» وفي رواية البيهقي في الأسماء والصفات «**ينزل عيسى ابن مريم من السماء**» وفي هذه الرواية تكذيب للقاديانية في دعواهم أنه لم يرد في حديث نزول المسيح ذكر السماء، وعند أبي داود بإسناد صحيح «**ويدعو الناس إلى الإسلام ويضع الجزية**» أي أن اللَّه تعالى جعل إقرار الكفار بالجزية مغيا بنزول المسيح فمن شرعِ محمد عليه الصلاة والسلام إبطال الجزية بنزول المسيح عليه السلام، وقال الطبري في تفسيره (٦/ ٤٥٨) ما نصه: «لتواتر الأخبار عن رسول اللَّه ﷺ أنه قال «**ينزل عيسى ابن مريم فيقتل الدجال**»». وقال الشيخ محمد زاهد الكوثري في نظرة عابرة في مزاعم من ينكر نزول المسيح قبل الآخرة: «وقد نص على تواتر حديث نزول عيسى عليه السلام ابن جرير والآبري وابن عطية وابن رشد الكبير والقرطبي وأبو حيان وابن كثير وابن حجر وغيرهم من الحفاظ وهم أصحاب الشأن» ثم قال: «والتواتر في حديث نزول عيسى عليه السلام تواتر معنوي حيث تشاركت أحاديث كثيرة جدا بينها الصحاح والحسان بكثرة في التصريح بنزول عيسى مع اشتمال كل حديث منها على معان أخرى، وهذا ما لا يستطيع إنكاره أحد ممن شم رائحة علم الحديث».

وقال القرطبي في التفسير (٤/ ١٠٠): «والصحيح أن اللَّه تعالى رفعه إلى السماء من غير وفاة ولا نوم كما قال الحسن وابن زيد، وهو اختيار الطبري، وهو الصحيح عن ابن عباس وقاله الضحاك».

وقال أبو بكر بن أبي شيبة في مصنفه (٦/ ٣٣٩) ما نصه: «حدثنا أبو معاوية حدثنا الأعمش عن المنهال عن سعيد بن جبير عن ابن عباس قال لما أراد اللَّه أن يرفع عيسى عليه السلام إلى السماء خرج إلى أصحابه وهم اثنا عشر رجلا من عين في البيت ورأسُه يقطر ماء فقال لهم: أما إن منكم من سيكفر بي اثنتي عشرة مرة بعد أن ءامن بي، ثم قال: أيكم سيلقى عليه شبهي فيقتل مكاني ويكون معي في درجتي[1]؟ فقام شاب من أحدثهم فقال: أنا، فقال عيسى: اجلس، ثم أعاد عليهم فقام الشاب، فقال عيسى: اجلس، ثم أعاد عليهم فقام الشاب فقال: أنا، فقال: نعم أنت ذاك، فألقي عليه شبه عيسى ثم رفع إلى السماء من كوة كانت في البيت ثم جاء الطلب من اليهود فأخذوا الشبيه فقتلوه ثم صلبوه، ثم افترق أتباعه ثلاث فرق فقالت فرقة كان فينا اللَّه ما شاء ثم صعد إلى السماء وهؤلاء اليعقوبية، وقالت فرقة كان فينا ابن اللَّه ثم رفعه اللَّه إليه وهؤلاء النسطورية، وقالت فرقة كان فينا عبد اللَّه ورسوله ما شاء اللَّه ثم رفعه اللَّه إليه[2] وهؤلاء المسلمون».

وأما ما يرويه بعضهم من أن يهوديا جاء مع اليهود ليدلهم عليه ووعدوه عطية مال فلما أدخلهم إلى البيت ألقي عليه شبه المسيح فقتلوه فهذا غير ثابت والصحيح ما قاله ابن عباس رضي اللَّه عنهما.

وأما قوله تعالى ﴿يَٰعِيسَىٰٓ إِنِّي مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ وَمُطَهِّرُكَ مِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا﴾[3] فمعناه كما قال القرطبي: «على التقديم والتأخير لأن الواو لا

(١) أي معي في الجنة ولا يعني أنه يساوي مرتبه في الجنة.

(٢) أي إلى محل كرامتي وهو السماء.

(٣) سورة ءال عمران / ٥٥.

توجب الرتبة والمعنى إني رافعك إلي ومطهرك من الذين كفروا ومتوفيك بعد أن تنزل من السماء» وقوله تعالى ﴿إِلَيَّ﴾ معناه كما قال النسفي: «إلى سمائي ومقر ملائكتي» ويصح أن يفسر قوله تعالى ﴿مُتَوَفِّيكَ﴾ بمعنى قابضك من الأرض وأنت حي قال القرطبي نقلا عن الحسن البصري ما نصه: «قابضك ورافعك إلى السماء من غير موت مثل توفيت مالي من فلان أي قبضته».

(ص) والمعراج حق، وقد أُسري بالنبي عليه السلام بشخصه في ليلة واحدة من مكة إلى بيت المقدس، ثم عُرج به إلى السماء، إلى حيث شاء اللّه.

(ش) أن من معجزات النبي ﷺ الإسراء من مكة إلى بيت المقدس والمعراج بعده من بيت المقدس إلى السموات السبع ثم إلى ما فوقها حيث شاء اللَّه والرجوع إلى مكة وذلك كله في أقل من ليلة بروحه وجسده في اليقظة واختُلف في وقت حصوله فقال الزهري كان قبل خروجه إلى المدينة بسنة فيكون في ربيع الأول رواه البيهقي واختار السدي أنه قبل الهجرة بستة عشر شهرا فيكون في ذي القعدة رواه الحاكم واختار العراقي في ألفيته أنه كان قبل الهجرة بعام ونصف فيكون في رمضان، والمشهور من أقوال العلماء أنَّ الإسراء والمعراج وقع في شهر رجبٍ الأصمّ، وقد حكى الحافظ السيوطي ما يزيد على خمسة عشر قولًا؛ أشهرُها أنه كان في شهر رجب، ونقل الإمام أبو حيان في تفسيره «البحر المحيط» (٦/ ٥) عن أم المؤمنين عائشة رضي اللَّه عنها أنها قالت: «إنه كان في رجب»ـ وجزم به الحافظُ سراج الدين البلقيني في «محاسن الاصطلاح» (ص/ ٧١٨) فقال: «ليلة الإسراء بمكة، ليلةَ سبعٍ وعشرين من شهر رجب» اهـ وبهذا القول جزم محققا المذهب الشافعي: الشيخان الإمامان الرافعيُّ والنووي في «روضة الطالبين وعمدة المفتين» (١٠/ ٢٠٦) فذكرا أن زمن ليلة الإسراء ليلة سبعٍ وعشرين من رجب اهـ

وروى البيهقي عن شدّادِ بنِ أوسٍ قال: قلنا يا رسولَ اللَّه كيف أُسريَ بك؟

قال: «صلَّيْتُ لأصحابي صلاةَ العَتَمَةِ بمكة مُعْتِمًا، وأتاني جبريلُ عليهِ السلامُ بدابّةٍ بيضاءَ فوقَ الحمارِ ودونَ البغلِ، فقال: اركبْ فاسْتَصْعَبَتْ عليَّ، فَدَارَها بِأُذُنِها ثم حَمَلني عليها، فانْطَلَقَتْ تهوي بنا يَقَعُ حافرُها حيثُ أدركَ طرفُها حتى بلغْنا أرضًا ذاتَ نَخْلٍ فأنزلني فقالَ: صَلّ. فصليتُ، ثم ركِبْنا فقالَ: أتدري أينَ صلَّيتَ؟ قلتُ: اللَّه أعلمُ قالَ: صليتَ بيثربَ، صليتَ بطَيبةَ، فانطلقتْ تهوي بنا يقعُ حافرُها حيثُ أدركَ طَرْفها، ثم بلغنا أرضًا فقال: انزِلْ فنـزلتُ ثم قال: صلّ. فصليتُ ثم ركبنا فقالَ: أتدري أينَ صليتَ؟ صليتَ بطورِ سيناءَ حيثُ كلّمَ اللَّه عزَّ وجلَّ موسى عليهِ السلامُ، ثم انطلقتْ تهوي بنا يقعُ حافرُها حيث أدركَ طرْفُها، ثم بلغْنَا أرضًا بدتْ لنا قُصورٌ، فقالَ: انزِلْ. فنـزلتُ فقالَ: صلّ. فصليتُ ثم ركِبنا قالَ: أتدري أينَ صليتَ. قلتُ: اللَّه أعلمُ، قالَ: صليتَ ببيتِ لَحمٍ حيثُ ولدَ عيسى عليهِ السلامُ المسيحُ ابنُ مريَم، ثم انطلقَ بي حتى دَخَلْنا المدينة من بابِها اليمانيّ فأتى قِبْلَةَ المسجِدِ فرَبَطَ بِهِ دابّتَهُ ودخلْنا المسجدَ مِنْ بابٍ فيه تميلُ الشمسُ والقمرُ فصليتُ مِنَ المسجدِ حيثُ شاءَ اللَّه». وكانَ قد شُقَّ صَدرُ النبيّ ﷺ قبلَ أن يُسْرَى بهِ ليلا منْ بيتِ أم هانئ منْ مكةَ المكرمةِ منَ المسجدِ الحرامِ. قالَ أنسُ بنُ مالكٍ كانَ أبو ذرٍ يحدّثُ أنَّ رسولَ اللَّه ﷺ قال: « فُرِجَ سقفُ بيتي وأنا بمكةَ فنـزلَ جبريلُ ففرَجَ صدري ثُمَّ غَسَلَهُ من ماء زمزم ثم جاءَ بِطَسْتٍ مِنْ ذهبٍ ممتلئ حكمةً وإيمانًا فأَفْرَغَها في صدري ثم أطبقَهُ « رواه مسلمٌ.

وقَدْ جمعَ اللَّه عزَّ وجلَّ لسيدنا محمدٍ ﷺ جميعَ الأنبياءِ صلواتُ اللَّه وسلامُهُ عليهم في بيتِ المقدسِ مِنْ ءادمَ فمنْ بعدَهُ فصلَّى بهمْ إمامًا. وهذا دليل على أن الأنبياء لهم تصرف بإذن اللَّه بعد موتهم وينفعون من شاء اللَّه أن ينتفع منهم فهم ليسوا كالناس العاديين فقد روى البزار والبيهقي وغيرهما أن الرسول ﷺ قال: «الأنبياء أحياءٌ في قبورهم يصلون». وقالَ رسولُ اللَّه ﷺ في حديث الإسراءِ والمعراجِ: «ثُمَّ دخلتُ بيتَ المقدسِ فجُمِعَ لِيَ الأنبياءُ عليهمُ السلامُ فَقَدَّمَنِي جبريلُ حتى أَمَمْتُهُمْ ثم صُعِدَ بيَ إلى السماءِ» رواه النسائي.

ومن جملة ما رأى في الإسراء الدنيا وإبليس ومر بقبر ماشطة بنت فرعون ورأى المجاهدين في سبيل اللَّه وخطباء الفتنة والذين لا يؤدون الزكاة وتاركي الصلاة والزناة وشاربي الخمر والمشائين بالغيبة.

وقد ثبت الإسراء بنص القرءان العزيز فقال تعالى ﴿سُبْحَانَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ لَيْلًا﴾[1] أي تنزه اللَّه الذي أسرى بمحمد ﷺ ﴿مِّنَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ﴾ في مكة واختلف في تعيين الموضع الذي أسري به من مكة فقيل من شعب أبي طالب وقيل من بيت أم هانئ وقيل من الحجر بالمسجد الحرام ﴿إِلَى ٱلْمَسْجِدِ ٱلْأَقْصَا﴾ في بيت المقدس ﴿ٱلَّذِى بَـٰرَكْنَا حَوْلَهُۥ﴾ أي جعلنا البركة فيما حوله من بلاد الشام ﴿لِنُرِيَهُۥ مِنْ ءَايَـٰتِنَآ﴾ أى لأجل أن نطلعه على عجائب المخلوقات التي تدل على عظيم قدرة اللَّه عز وجل. وسمي المسجد الحرام كذلك لحرمته أي لشرفه على غيره من المساجد وسمي المسجد الأقصى كذلك لبعد المسافة بينه وبين المسجد الحرام وأما قوله تعالى ﴿لَيْلًا﴾ مع أن الإسراء لا يكون إلا في الليل فأريد منه تأكيد تقليل مدة الإسراء وأنها كانت أقل من ليلة واحدة.

وأما حديث المعراج فقد رواه البخاري ونصه: بينما أنا في الحطيم -وربما قال: في الحجر- مضطجعا إذ أتاني ءات، فقدَّ -قال وسمعته يقول فشقّ- ما بين هذه إلى هذه -فقلت للجارود وهو إلى جنبي: ما يعني به؟ قال: من ثغرة نحره إلى شعرته، وسمعته يقول: من قصه إلى شعرته- فاستخرج قلبي، ثم أتيت بطست من ذهب مملوءة إيمانا، فغسل قلبي، ثم حشي ثم أعيد، ثم أتيت بدابة دون البغل، وفوق الحمار أبيض، -فقال له الجارود: هو البراق يا أبا حمزة؟ قال أنس: نعم- يضع خطوه عند أقصى طرفه، فحملت عليه، فانطلق بي جبريل حتى أتى السماء الدنيا فاستفتح[2]، فقيل من هذا؟

---

(١) سورة الإسراء / ١.

(٢) أي طلب أن يفتح له.

قال: جبريل، قيل: ومن معك؟ قال: محمد، قيل: وقد أرسل إليه؟[١] قال: نعم، قيل: مرحبا به فنعم المجيء جاء ففتح، فلما خلَصْتُ[٢] فإذا فيها ءادم، فقال: هذا أبوك ءادم فسلم عليه، فسلمت عليه[٣]، فرد السلام، ثم قال: مرحبا بالابن الصالح والنبي الصالح، ثم صعد بي حتى أتى السماء الثانية، فاستفتح قيل: من هذا؟ قال: جبريل، قيل: ومن معك؟ قال: محمد، قيل: وقد أرسل إليه؟ قال: نعم، قيل: مرحبا به فنعم المجيء جاء ففتح، فلما خلَصت إذا يحيى وعيسى، وهما ابنا الخالة، قال: هذا يحيى وعيسى فسلم عليهما، فسلمت فردا، ثم قالا: مرحبا بالأخ الصالح والنبي الصالح، ثم صعد بي إلى السماء الثالثة، فاستفتح، قيل: من هذا؟ قال: جبريل، قيل: ومن معك؟ قال: محمد، قيل: وقد أرسل إليه؟ قال: نعم، قيل: مرحبا به فنعم المجيء جاء ففتح، فلما خلصت إذا يوسف، قال: هذا يوسف فسلم عليه، فسلمت عليه، فرد ثم قال: مرحبا بالأخ الصالح والنبي الصالح، ثم صعد بي حتى أتى السماء الرابعة فاستفتح، قيل: من هذا؟ قال: جبريل، قيل: ومن معك؟ قال: محمد، قيل: أوقد أرسل إليه؟ قال: نعم، قيل: مرحبا به، فنعم المجيء جاء ففتح، فلما خلصت إلى إدريس[٤]، قال: هذا إدريس فسلم عليه فسلمت عليه، فرد ثم قال: مرحبا بالأخ الصالح والنبي الصالح، ثم صعد بي حتى أتى السماء الخامسة فاستفتح، قيل: من هذا؟ قال: جبريل، قيل: ومن معك؟ قال: محمد، قيل: وقد أرسل إليه؟ قال: نعم، قيل: مرحبا به، فنعم المجيء جاء، فلما خلصت فإذا هارون، قال: هذا هارون فسلم عليه،

---

(١) يعني هل طلب للعروج، وسؤال الملك كان فرحا واستبشارا لا استبعادا واستنكارا، قال النووي: ليس مراده الاستفهام عن أصل البعثة والرسالة فإن ذلك لا يخفى عليه إلى هذه المدة فهذا هو الصحيح.

(٢) أي وصلت.

(٣) فيه استحباب أن يسلم المار على القاعد وإن كان المار أفضل من القاعد.

(٤) الصحيح أنه مات ودفن في الأرض.

فسلمت عليه، فرد ثم قال: مرحبا بالأخ الصالح والنبي الصالح، ثم صعد بي حتى أتى السماء السادسة فاستفتح، قيل: من هذا؟ قال: جبريل، قيل: من معك؟ قال: محمد، قيل: وقد أرسل إليه؟ قال: نعم، قال: مرحبا به، فنعم المجيء جاء، فلما خلصت فإذا موسى، قال: هذا موسى فسلم عليه فسلمت عليه، فرد ثم قال: مرحبا بالأخ الصالح والنبي الصالح، فلما تجاوزتُ بكى[١]، قيل له: ما يبكيك؟ قال: أبكي لأن غلاما[٢] بعث بعدي يدخل الجنة من أمته أكثر ممن يدخلها من أمتي، ثم صعد بي إلى السماء السابعة فاستفتح جبريل، قيل: من هذا؟ قال: جبريل، قيل: ومن معك؟ قال: محمد، قيل: وقد بعث إليه؟ قال: نعم، قال: مرحبا به، فنعم المجيء جاء، فلما خلصت فإذا إبراهيم قال: هذا أبوك[٣] فسلم عليه، قال: فسلمت عليه فرد السلام، قال: مرحبا بالابن الصالح والنبي الصالح، ثم رُفعت إلي سدرة المنتهى[٤]، فإذا نبِقُها[٥] مثل قلال هجر[٦]، وإذا ورقها مثل ءاذان الفيلة، قال: هذه سدرة المنتهى، وإذا

(١) كان بكاؤه رقة لقومه وشفقة عليهم لأنه كان يحب لهم أن لو كانوا على خير أكثر مما عملوا. قال الخطابي وابن الملقن والبدر العيني: لا يجوز أن يتأول بكاؤه على الحسد له ﷺ لأن ذلك لا يليق بصفات الأنبياء.

(٢) وصفه له بالغلام ليس ذلك على سبيل التنقيص بل للتنويه بقدرة اللَّه وعظيم كرمه إذ أعطى من كان في ذلك السن ما لم يعطه أحدا قبله ممن هو أسن منه قاله العسقلاني، والعرب تسمي الرجل المستجمع السن غلاما ما دامت فيه بقية من القوة فالمراد استقصار مدته مع استكثار فضائله واستتمام سواد أمته.

(٣) أي أحد أجدادك.

(٤) أي استبانت له سدرة المنتهى بنعوتها كل الاستبانة حتى اطلع عليها كل الاطلاع فكان ذلك بمثابة الشيء المقرب إليه فعبر به.

(٥) أي ثمرها، والنبق هو ثمر شجرة السدر.

(٦) أي ثمارها كبيرة، الواحدة منها كالقلة أي الجرة الكبيرة المعروفة في هجر وهي قرية قرب المدينة المنورة وليست هجر البحرين.

أربعة أنهار: نهران باطنان[١] ونهران ظاهران[٢]، فقلت: ما هذان يا جبريل؟ قال: أما الباطنان فنهران في الجنة[٣]، وأما الظاهران فالنيل والفرات، ثم رفع لي البيت المعمور، ثم أُتيت بإناء من خمر[٤]، وإناء من لبن، وإناء من عسل، فأخذت اللبن فقال: هي الفطرة التي أنت عليها وأمتُك، ثم فرضت علي الصلوات خمسين صلاة كلَّ يوم، فرجعت فمررت على موسى، فقال: بما أمرتَ؟ قال: أمرتُ بخمسين صلاة كلَّ يوم، قال: إن أمتك لا تستطيع خمسين صلاة كل يوم، وإني والله قد جربت الناس قبلك، وعالجت بني إسرائيل أشدَّ المعالجة، فارجع إلى ربك[٥] فاسأله التخفيف لأمتك، فرجعت فوضع عني عشرا، فرجعت إلى موسى فقال مثله، فرجعت فوضع عني عشرا، فرجعت إلى موسى فقال مثله، فرجعت فوضع عني عشرا، فرجعت إلى موسى فقال مثله، فرجعت فأمرت بعشر صلوات كل يوم، فرجعت فقال مثله، فرجعت فأمرت بخمس صلوات كل يوم، فرجعت إلى موسى، فقال: بم أمرت؟ قلت: أمرت بخمس صلوات كل يوم، قال: إن أمتك لا تستطيع خمس صلوات كل يوم، وإني قد جربت الناس قبلك وعالجت بني إسرائيل أشد المعالجة، فارجع إلى ربك فاسأله التخفيف لأمتك، قال: سألت ربي حتى استحييت، ولكني أرضى وأسلّم، قال: فلما جاوزت نادى مناد: أمضيت فريضتي، وخففت عن عبادي».

ومما ورد في قصة الإسراء والمعراج أن النبي ﷺ لما رجع أخبر أم هانئ بذلك ثم أخبر الكفار فلم يصدقوه واستهزؤوا به فذهب ناس من قريش

---

(١) أي يجريان في الجنة ولا يخرجان منها.

(٢) أي يخرجان من الجنة ليجريا خارجها.

(٣) قيل هما الكوثر والرحمة وقيل الكوثر والسلسبيل.

(٤) طاهر من خمر الجنة.

(٥) أي إلى المكان الذي كنت تناجي اللَّه فيه.

إلى أبي بكر فقالوا له: هل لك في صاحبك يزعم أنه قد جاء بيت المقدس ثم رجع إلى مكة في ليلة واحدة، فقال لهم: أوَقال ذلك؟ قالوا: نعم، فقال: فاشهدوا لئن كان قال ذلك لقد صدق، قالوا: تصدقه بأن يأتي الشام في ليلة واحدة ثم يرجع إلى مكة قبل أن يصبح؟ قال نعم إني أصدقه بأبعد من ذلك أصدقه بخبر السماء، قال أبو سلمة: فبها سمي أبو بكر الصديقَ. وطلب الكفار من رسول اللَّه ﷺ أن يصف لهم المسجد الأقصى لعلمهم أنه لم يرحل قبلُ مع أهل بلده إلى هناك فجمع أبو جهل قومه فحدثهم الرسول بما رءاه فقال قوم منهم ممن كان قد سافر إلى بيت المقصد «أما النعت فقد والله أصاب». وفي ذلك قال الشاعر من بحر الكامل:

يا واصف الأقصى أتيتَ بوصفه وكأنك الرسامُ والبناءُ

فائدة: قال النووي في شرح مسلم (١/ ٢) ما نصه: «بمعجزات أخر زائدات على الألف والمئين» وقال البيهقي في المدخل «بلغت ألفا» وقال الزاهدي من الحنفية: «ظهر على يديه ألف معجزة وقيل ثلاثة ءالاف».

فائدة ثانية: أشهر معجزات النبي ﷺ القرءان لأنه تحدى به العربَ وهم أفصح الناس لسانا واشدهم اقتدارا على الكلام بأن يأتوا بسورة مثله فعجزوا مع شدة عداواتهم له وصدهم عنه، حتى قال بعض العلماء أقصر سورة في القرءان ﴿إِنَّآ أَعۡطَيۡنَٰكَ ٱلۡكَوۡثَرَ﴾[1] فكل قرءانٍ من سورة أخرى كان قدرها سواء كان ءاية أو أكثر أو بعض ءاية فهو داخل في تحديهم به، وعلى هذا فتصل معجزات القرءان من هذه الحيثية إلى عدد كثير جدا. ووجوه إعجاز القرءان من جهة حسن تأليفه والتئام كلماته وفصاحته وإيجازه في مقام الإيجاز وبلاغته ظاهرة جدا مع ما انضم إلى ذلك من حسن نظمه وغرابة أسلوبه مع كونه على خلاف قواعد النظم والنثر، هذا مع ما اشتمل عليه من الإخبار بالمغيَّبات

(١) سورة الكوثر / ١.

مما وقع من أخبار الأمم الماضية مما كان لا يعلمه إلا أفراد من أهل الكتاب ولم يُعلم أن النبي ﷺ اجتمع بأحد منهم ولا أخذ عنهم، ومما سيقع فوقع على وفق ما أخبر به في زمنه ﷺ وبعده، هذا مع الهيبة التي تقع عند تلاوته والخشية التي تلحق سامعه وعدم دخول الملال والسآمة على قارئه وسامعه، مع تيسير حفظه لمتعلميه وتسهيل سرده لتاليه ولا ينكر شيئا من ذلك إلا جاهل أو معاند، ومن أظهر معجزات القرءان بقاءه مع استمرار الإعجاز، وأشهر ذلك تحديه اليهود أن يتمنوا الموت في قوله تعالى ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ هَادُوٓاْ إِن زَعَمْتُمْ أَنَّكُمْ أَوْلِيَآءُ لِلَّهِ مِن دُونِ ٱلنَّاسِ فَتَمَنَّوُاْ ٱلْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٦﴾ وَلَا يَتَمَنَّوْنَهُۥٓ أَبَدًا﴾[1] فلم يقع ممن سلف منهم ولا خلف من تصدى لذلك ولا أقدم مع شدة عداوتهم لهذا الدين وحرصهم على إفساده، وأما ما عدا القرءان من نبع الماء من بين أصابعه ﷺ وتكثير الطعام وانشقاق القمر ونطق الجماد فمنه ما وقع التحدي به للكفار ومنه ما وقع دالا على صدقه من غير سبق تحد، ومجموع ذلك يفيد القطع بأنه ظهر على يده ﷺ من خوارق العادات شيء كثير، فأفاد ذلك القطع عند أهل العلم بالآثار والعناية بالسير والأخبار وإن لم يصل عند غيرهم إلى هذه الرتبة لعدم عنايتهم بذلك.

(ص) وكرامة الأولياء حق، يجوز أن يُظهرها اللّٰه تعالى على يد من شاء من الصالحين من عباده.

(ش) مما أثبته أهل السنة خلافا للمعتزلة كرامات الأولياء وهي أمر خارق للعادة غير مقارن لدعوى النبوة بل يقع على يد الأولياء وهم العارفون بالله تعالى المواظبون على الطاعات المجتنبون للمعاصي المعرضون عن الانهماك في اللذات والشهوات، ويدل لذلك قوله تعالى ﴿كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا ٱلْمِحْرَابَ وَجَدَ عِندَهَا رِزْقًا ۖ قَالَ يَٰمَرْيَمُ أَنَّىٰ لَكِ هَٰذَا ۖ قَالَتْ هُوَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ۖ

(١) سورة الجمعة / ٥-٦.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَرۡزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيۡرِ حِسَابٖ﴾[١] وقوله تعالى في حق ءاصف بن برخيا ﴿أَنَا۠ ءَاتِيكَ بِهِۦ قَبۡلَ أَن يَرۡتَدَّ إِلَيۡكَ طَرۡفُكَۚ فَلَمَّا رَءَاهُ مُسۡتَقِرًّا عِندَهُۥ قَالَ هَٰذَا مِن فَضۡلِ رَبِّي﴾[٢]، وقال ابن العراقي في الغيث الهامع (ص/ ٧٧٩) ما نصه: «وقد جرت خوارق على أيدي الصحابة والتابعين ومن بعدهم لا يمكن إنكارها؛ لتواتر مجموعها» ومن ذلك ما رواه البخاري من تكثير الطعام لأبي بكر رضي اللَّه عنه، ومنها ما رواه البخاري أن خُبيبًا في أسره كان يأكل العنب وما في مكة من ثمرة، ومنها ما رواه أبو نعيم في الدلائل (ص/ ٥٧٩) وابن الأعرابي في كرامات الأولياء قال السيوطي بسند حسنٍ عن نافع عن ابن عمر أن عمر رأى وهو على المنبر في المدينة جيشه في نهاوند حتى قال لأمير الجيش يا ساريةُ الجبل الجبل محذرا له من وراء الجبل لكَمْن العدو خلفه وسمع سارية كلامه مع بعد المسافة. وغيرُ ذلك من الخوارق كجريان النيل

(١) سورة ءال عمران / ٣٧.

(٢) سورة النمل / ٤٠.

بكتاب عمر[١] وكشرب خالد السم من غير تضرر به[٢] وغير ذلك من الخوارق التي ثبت وقوعها للصحابة والتابعين وغيرهم.

فائدة: نظم بعض العلماء الخوارق في قوله:

إذا ما رأيت الأمرَ يخرق عادةً ... فمعجزةٌ إن من نبي لنا صدرْ
وإن بان منه قبلَ وصفِ نبوةٍ ... فالارهاصَ سِمْه تتبعِ القومَ في الأثرْ
وإن جاء يومًا مِن ولي فإنه الـ ... كرامةُ في التحقيقِ عند ذوي النظرْ
وإن كان مِن بعضِ العوامِ صدورُه ... فكنّوه حقا بالمعونة واشتهرْ
ومِن فاسقٍ إن كان وفقَ مُرادِه ... يُسمّى بالاستدراج فيما قدِ استقرْ
وإلا فيُدعى بالإهانةِ عندهم ... وقد تمتِ الأقسامُ عند الذي اختبرْ

---

(١) روى اللالكائي في كرامات الأولياء لما فتحت مصر أتى أهلها إلى عمرو بن العاص حين دخل بئونة من أشهر العجم فقالوا: أيها الأمير إن لنيلنا هذا سنة لا يجري إلا بها، فقال: وما ذاك؟ قالوا: إذا كان ثنتا عشرة ليلة خلون من هذا الشهر عمدنا إلى جارية بكر من أبويها فأرضينا أبويها وجعلنا عليها من الحلي والثياب أفضل ما يكون ثم ألقيناها في هذا النيل، فقال له عمرو: إن هذا مما لا يكون في الإسلام، إن الإسلام يهدم ما قبله، قال: فأقاموا بئونة وأبيب ومسرى والنيل لا يجري قليلا ولا كثيرا حتى هموا بالجلاء، فلما رأى ذلك عمرو كتب بذلك إلى عمر بن الخطاب، فكتب: إنك قد أصبت بالذي فعلت، وإن الإسلام يهدم ما قبله، وإني قد بعثت إليك ببطاقة داخل كتابي هذا فألقها في النيل، فلما قدم كتاب عمر إلى عمرو أخذ البطاقة ففتحها فإذا فيها: «من عبد اللَّه عمر أمير المؤمنين إلى نيل مصر، أما بعد: فإن كنت إنما تجري من قبلك فلا تجر، وإن كان اللَّه الواحد القهار هو الذي يجريك فنسأل اللَّه الواحد القهار أن يجريك»، قال: فألقى البطاقة في النيل، فلما ألقى البطاقة أصبحوا يوم السبت وقد أجراه اللَّه تعالى ستة عشر ذراعا في ليلة واحدة.

(٢) روى أبو يعلى في مسنده عن أبي السفَر قال: نزل خالد بن الوليد الحيرة على أمر بني المرازبة، فقالوا له: احذر السم، لا يسقيكه الأعاجم، فقال: «ائتوني به»، فأتي به، فأخذه بيده، ثم اقتحمه، وقال: «بسم اللَّه»، فلم يضره شيئا.

(ص) والمؤمن وإن علَتْ درجتُه وارتفعت منزلتُه وصار من جملة الأولياء لا يسقط عنه العبادات المفروضة في القرءان من الصلاة والزكاة والصوم وغيرها، ومن زعم أن من صار وليًّا ووصل إلى الحقيقة سقطت عنه الشريعة فهو كافر ملحد، لم تسقط العبادة عن الأنبياء عليهم السلام فكيف تسقط عن الأولياء.

(ش) بعد أن بيّن المصنف رحمه اللَّه تعالى ثبوت المعجزة للنبي ﷺ والكرامة للولي نبه على أن الولي مهما علت رتبته لا يصل إلى مرتبة تسقط فيها عنه التكاليف الشرعية كوجوب الصلاة والزكاة وغيرهما فإن هذه التكاليف لم تسقط عن نبي من الأنبياء بعد أن وجبت في غير النسخ فأنى تسقط عن ولي من أمتهم، ولهذا من قال إن الولي الفلاني وصل إلى مرتبة سقطت عنه تكاليف الشريعة فقد خرج من ربقة الإسلام وولج في زمرة الكافرين الملحدين، ومن جملة القصص التي تنبه لذلك ما رواه عبد الرزاق بن سيدنا الشيخ محيي الدين عبد القادر الجيلي رحمه اللَّه أنه قال: «خرجت في بعض سياحاتي إلى البرية، ومكثتُ أيامًا لا أجد ماءً، فاشتدَّ بي العطَش، فظلَّلتني سحابة، ونزل عليَّ منها شيء يشبه النَّدى، فتروَّيتُ به، ثم رأيتُ نورًا أضاء به الأفق، وبدت لي صورة، ونوديت منها يا عبد القادر، أنا ربُّك، وقد حلَّلْتُ لك المحرَّمات، أو قال: -ما حرمت على غيرك- «فقلت: أعوذ بالله من الشَّيطان الرَّجيم، اخسأ يا لعين، فإذا ذلك النُّور ظلام، وتلك الصورة دخان، ثم خاطبني، وقال: يا عبد القادر، نجوتَ منّي بعلمك بحكم ربّك، وفقهك في أحوال منازلاتك، ولقد أضللتُ بمثل هذه الواقعة سبعين من أهل الطَّريق. فقلت: لربي الفَضْل والمِنَّة» كما رواها سبط ابن الجوزي في مرءاة الزمان (٢١/ ٨٩).

وقال سيدنا أحمد الرفاعي رضي اللَّه عنه في البرهان المؤيد (ص/ ١٣٥) ما نصه: «لا تقولوا كما يقول بعض المتصوفة: نحن أهل الباطن وهم أهل الظاهر، هذا الدين الجامع باطنه لب ظاهره وظاهره ظرف باطنه، لولا الظاهر لما بطن، لولا الظاهر لما كان الباطن ولما صح، القلب لا يقوم بلا جسد،

بل لولا الجسد لفسد، والقلب نور الجسد». يعني لن يصل الشخص إلى علم الباطن العلم اللَّدني إلا بأن يكون متمسكا بالظاهر، يؤدي الواجبات كلها ويجتنب المحرمات كلها ويكثر من النوافل حتى يصير من أولياء اللَّه تعالى ثم يرزق هذا العلم أي علم الباطن فإنه هو علم لدني موهوب، لا يطلب كما يطلب العلم من مشايخ أهل العلم، بل يُفيضه اللَّه على قلب بعض الأولياء الصالحين، وليس هو شيئًا يخالف شرع اللَّه تعالى.

وقال الرفاعي رضي اللَّه عنه في البرهان المؤيد (ص/ ١٣٦) ما نصه: «هذا العلم الذي سماه بعضهم بـ»علم الباطن»: هو إصلاح القلب، فالأول عمل بالأركان وتصديق بالجنان، إذا انفرد قلبك بحسن نيته، وطهارة طويته، وقتلت وسرقت وزنيت، وأكلت الربا، وشربت الخمر، وكذبت وتكبرت، وأغلظت القول، فما الفائدة من نيتك وطهارة قلبك؟ وإذا عبدت اللَّه وتعففت، وصمت وصدقت وتواضعت، وأبطن قلبك الرياء والفساد، فما الفائدة من عملك؟ فإذا تعين لك أن الباطن لب الظاهر والظاهر ظرف الباطن ولا فرق بينهما، ولا غنى لكليهما عن الآخر، فقل: نحن من أهل الظاهر وكأنك قلت: ومِن أهل الباطن».

وقال أيضا (ص/ ١٠٦): «من لم يعرف أدب الظاهر لا يؤتمن على أدب الباطن، كل الآداب منحصرة في متابعة النبي ﷺ قولًا وفعلًا وحالًا وخُلقًا، فالصوفي آدابه تدلّ على مقامه، زنوا أقواله وأفعاله وأحواله وأخلاقه بميزان الشرع يعلم لديكم ثقل ميزانه وخفته، خُلق النبي القرءان قال تعالى: ﴿مَّا فَرَّطْنَا فِي ٱلْكِتَٰبِ مِن شَىْءٍ﴾[1]، من التزم الآداب الظاهرة دخل في جنسية القوم وحسب في أعدادهم، ومن لم يلتزم الآداب الظاهرة فهو فيهم غير، لا يلتبس حاله عليهم؛ لأن استعمال الآداب دليل الجنسية بل تكون علة الضم».

فالحكم الشرعي يُبنى بالنظر إلى أحكام الشريعة الظاهرة،كما قال سيدنا

(١) سورة الأنعام / ٣٨.

الجنيد رضي اللَّه عنه سيد الطائفة الصوفية ورئيسهم قال كما في الرسالة القشيرية (١/ ٦١) ما نصه: «رُبَّمَا يقع فِي قلبي النكتة [أي الإلهام] من نكت القوم أيامًا فلا أقبل منه إلا بشاهدين عدلين من الكتاب والسنة».

وهذا فيه بناء قواعد التصوف، والصوفية التي بنيت على قواعد متينة لا يحكمها الهوى والشهوات، ولا يسمى الصوفي صوفيًّا إلَّا إذا تعلم وبنى أمره على العلم كما أخبر الغزالي حيث قال في كتابه المنقذ من الضلال (ص/ ١٧٠) ما نصه: «ثم إني لما فرغت من هذه العلوم أقبلت بهمتي على طريق الصوفية، وعلمت أن طريقتهم إنما تتم بعلم وعمل، وكان حاصل علومهم قطع عقبات النفس، والتنزه عن أخلاقها المذمومة وصفاتها الخبيثة، حتى يتوصل بها إلى تخلية القلب عن غير اللَّه تعالى وتحليته بذكر اللَّه. وكان العلم أيسر علي من العمل».

(ص) ونبي واحد أفضل من جميع الأولياء ولأن العبادة وجوبها بحق العبودية أو بحق شكر النعمة، والولي بالولاية لا يخرج عن حدّ العبودية ولا عن كونه مُنعَمًا عليه، ولقد صحّ أنّ رسول اللَّه عليه السلام صلّى حتى تورّمت قدماه فقيل له: ألم يغفر اللَّه لك ما تقدّم من ذنبك وما تأخّر، فقال: «أفلا أكون عبدًا شكورًا».

(ش) بعدما بين المصنف رحمه اللَّه امتناع سقوط العبادة عن الأولياء أكد أفضلية الأنبياء على الأولياء بقوله «نبي واحد أفضل من جميع الأولياء» ففي ذلك رد على بعض جهلة المتصوفية وعلى الروافض القائلين بتفضيل الأئمة على الأنبياء، فإن هذا باطل لأن الولي إنما يستحق الولاية باتباعه النبي واقتدائه به في طاعة اللَّه تعالى على شريعته فيستحيل أن يكون أفضل منه أو مثله، قال تعالى بعد ذكر عدد من الأنبياء ﴿وَكُلًّا فَضَّلْنَا عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ﴾[1]

(١) سورة الأنعام / ٨٦.

ولا يجوز تأويل الآية بأن المراد عالمو زمان أولئك المذكورين كما قاله محمد ماهر شمس الدين لأن هذا تأويل بلا دليل وهو ممنوع.

وقوله «لأن العبادة إلخ» راجع إلى المسألة السابقة من امتناع سقوط التكاليف الشرعية عن الأولياء فبين أن وجوب العبادة إما بحق كونهم عبيدا لله وإما بحق شكر المنعم على النعمة والولي لا يخرج عنهما في أي حال، ثم أكد ذلك بذكر حديث البخاري عن المغيرة بن شعبة أنه قال: قام النبي ﷺ حتى تورمت قدماه -يعني من غير إلحاق ضرر بنفسه- فقيل له «غفر اللَّه لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر فقال: «**أفلا أكون عبدا شكورا**». ففي هذا دليل على تمسك النبي ﷺ بالمواظبة على العبادات والإكثار منها مع أنه أفضل الخلق ﷺ.

قال الحافظ في الفتح نقلا عن القرطبي في قصة موسى مع الخضر (١/ ٢٢١) ما نصه: «ولننبه هنا على مغالطتين:

الأولى وقع لبعض الجهلة أن الخضر أفضل من موسى تمسكا بهذه القصة وبما اشتملت عليه وهذا إنما يصدر ممن قصر نظره على هذه القصة ولم ينظر فيما خص اللَّه به موسى عليه السلام من الرسالة وسماع كلام اللَّه وإعطائه التوراة فيها علم كل شيء وأن أنبياء بني إسرائيل كلهم داخلون تحت شريعته ومخاطبون بحكم نبوته حتى عيسى وأدلة ذلك في القرءان كثيرة، ويكفي من ذلك قوله تعالى ﴿يَٰمُوسَىٰٓ إِنِّي ٱصۡطَفَيۡتُكَ عَلَى ٱلنَّاسِ بِرِسَٰلَٰتِي وَبِكَلَٰمِي﴾[1] وسيأتي في أحاديث الأنبياء من فضائل موسى ما فيه كفاية. قال: والخضر وإن كان نبيا فليس برسول باتفاق والرسول أفضل من نبي ليس برسول، ولو تنزلنا على أنه رسول فرسالة موسى أعظم وأمته أكثر فهو أفضل، وغاية الخضر أن يكون كواحد من أنبياء بني إسرائيل وموسى أفضلهم، وإن

(١) سورة الأعراف / ١٤٤.

قلنا إن الخضر ليس بنبي بل ولي فالنبي أفضل من الولي وهو أمر مقطوع به عقلا ونقلا والصائر إلى خلافه كافر لأنه أمر معلوم من الشرع بالضرورة. قال: وإنما كانت قصة الخضر مع موسى امتحانا لموسى ليعتبر.

الثانية ذهب قوم من الزنادقة إلى سلوك طريقة تستلزم هدم أحكام الشريعة فقالوا إنه يستفاد من قصة موسى والخضر أن الأحكام الشرعية العامة تختص بالعامة والأغبياء وأما الأولياء والخواص فلا حاجة بهم إلى تلك النصوص بل إنما يراد منهم ما يقع في قلوبهم ويحكم عليهم بما يغلب على خواطرهم لصفاء قلوبهم عن الأكدار وخلوها عن الأغيار فتنجلي لهم العلوم الإلهية والحقائق الربانية فيقفون على أسرار الكائنات ويعلمون الأحكام الجزئيات فيستغنون بها عن أحكام الشرائع الكليات كما اتفق للخضر فإنه استغنى بما ينجلي له من تلك العلوم عما كان عند موسى ويؤيده الحديث المشهور «استفت قلبك وإن أفتوك». قال القرطبي: وهذا القول زندقة وكفر لأنه إنكار لما علم من الشرائع فإن اللّه قد أجرى سنته وأنفذ كلمته بأن أحكامه لا تعلم إلا بواسطة رسله السفراء بينه وبين خلقه المبينين لشرائعه وأحكامه كما قال اللّه تعالى ﴿ٱللَّهُ يَصۡطَفِي مِنَ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلٗا وَمِنَ ٱلنَّاسِۚ﴾[1] وقال ﴿ٱللَّهُ أَعۡلَمُ حَيۡثُ يَجۡعَلُ رِسَالَتَهُۥۗ﴾[2] وأمر بطاعتهم في كل ما جاؤوا به وحث على طاعتهم والتمسكِ بما أمروا به فإن فيه الهدى، وقد حصل العلم اليقين وإجماع السلف على ذلك فمن ادعى أن هناك طريقا أخرى يعرف بها أمره ونهيه غير الطرق التي جاءت بها الرسل يستغني بها عن الرسول فهو كافر يقتل ولا يستتاب. قال: وهي دعوى تستلزم إثبات نبوة بعد نبينا لأن من قال إنه يأخذ عن قلبه لأن الذي يقع فيه هو حكم اللّه وأنه يعمل بمقتضاه من غير حاجة منه إلى كتاب ولا سنة فقد أثبت لنفسه خاصة النبوة كما قال نبينا

(١) سورة الحج / ٧٥.

(٢) سورة الأنعام / ١٢٤.

ﷺ «**إن روح القدس نفث في روعي**». قال: وقد بلغنا عن بعضهم أنه قال «أنا لا آخذ عن الموتى وإنما آخذ عن الحي الذي لا يموت» وكذا قال آخر «أنا آخذ عن قلبي عن ربي» وكل ذلك كفر باتفاق أهل الشرائع، نسأل اللَّه الهداية والتوفيق.

وقال غيره: من استدل بقصة الخضر على أن الولي يجوز أن يطلع من خفايا الأمور على ما يخالف الشريعة ويجوز له فعله فقد ضل وليس ما تمسك به صحيحا فإن الذي فعله الخضر ليس في شيء منه ما يناقض الشرع فإن نقض لوح من ألواح السفينة لدفع الظالم عن غصبها ثم إذا تركها أعيد اللوح جائز شرعا وعقلا ولكن مبادرة موسى بالإنكار بحسب الظاهر، وقد وقع ذلك واضحا في رواية أبي إسحاق التي أخرجها مسلم ولفظه «**فإذا جاء الذي يسخرها فوجدها منخرقة تجاوزها فأصلحها**» فيستفاد منه وجوب التأني عن الإنكار في المحتملات، وأما قتله الغلام فلعله كان في تلك الشريعة، وأما إقامة الجدار فمن باب مقابلة الإساءة بالإحسان والله أعلم».

(ص) وإيمان العبد هو تصديقه بالقلب، وهو على طريق الاختصار: تصديق اللّه تعالى في جميع ما أنزل على رسله عليهم السلام أو تصديق رسله عليهم السلام في جميع ما بلّغوا عن اللّه، ويدخل تحت هذه العبارة الإيمان باللّه وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر؛ لأن كلّ ذلك قد أنزل اللَّه على رسله، ورسله قد بلّغوا ذلك كلَّه عن اللَّه تعالى.

(ش) أن الإيمان لغة اسم لمطلق التصديق قال تعالى حكاية عن قول إخوة يوسف لأبيهم ﴿وَمَآ أَنتَ بِمُؤۡمِنٖ لَّنَا﴾[1] أي بمصدق في أن يوسف أكله الذئب، وشرعا اسم للتصديق الاختياري بأمور مخصوصة سواء قيل تصديق اللَّه في جميع ما أنزل على رسله أو قيل تصديق رسله في جميع ما بلغوا

(١) سورة يوسف / ١٧.

عن اللَّه تعالى، فهو الإذعان والقبول لما ذكر فلا يجامع الإنكار بخلاف المعرفة والعلم قال تعالى ﴿يَعْرِفُونَهُۥ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَآءَهُمْ﴾[١] وقال موسى لفرعون ﴿لَقَدْ عَلِمْتَ مَآ أَنزَلَ هَٰٓؤُلَآءِ إِلَّا رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾[٢]، وقال الأشعري: الإيمان هو التصديق بكل ما علم بالضرورة مجيء الرسول به وتابعه أكثر المتكلمين كالقاضي أبي بكر والأستاذ أبي إسحاق، وفي الحديث الصحيح: «الإيمان أن تؤمن بالله وملاكته وكتبه ورسله واليوم الآخر وتؤمن بالقدر خيره وشره» وذلك داخل سواء قلنا الإيمان هو تصديق اللَّه في جميع ما أنزل على رسله لأن كل ذلك قد أنزله اللَّه على رسله أو قلنا هو تصديق الرسل في جميع ما بلغوا عن اللَّه تعالى لأن الرسل قد بلغوا ذلك كله عن اللَّه تعالى أو قلنا بعبارة الأشعري لأن كل ذلك مما علم بالضرورة مجيء الرسول به.

(ص) ولا خلاف أن التصديق بالقلب ركن الإيمان حتى لا يصير العبد مؤمنًا بدونه وإن أقرّ بلسانه.

(ش) أنه لا خلاف أن العبد إذا أقر بلسانه بالشهادتين وادعى الإيمان ولكنه لم يصدق في قلبه بمعنى الشهادتين وبما بجاء به النبي ﷺ لم يصر مؤمنا لا عند اللَّه ولا عندنا بل هو كافر منافق قال تعالى ﴿بَشِّرِ ٱلْمُنَٰفِقِينَ بِأَنَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾[٣] وقال ﴿إِذَا جَآءَكَ ٱلْمُنَٰفِقُونَ قَالُوا۟ نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ ٱللَّهِ ۘ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُۥ وَٱللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَكَٰذِبُونَ﴾[٤] وقال ﴿وَإِذَا لَقُوا۟ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَوْا۟ إِلَىٰ شَيَٰطِينِهِمْ قَالُوٓا۟ إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِءُونَ﴾[٥]

---

(١) سورة البقرة / ١٤٦.

(٢) سورة الإسراء / ١٠٢.

(٣) سورة النساء / ١٣٨.

(٤) سورة المنافقون / ١.

(٥) سورة البقرة / ١٤.

وقال ﴿ ۞ قَالَتِ ٱلۡأَعۡرَابُ ءَامَنَّاۖ قُل لَّمۡ تُؤۡمِنُواْ وَلَٰكِن قُولُوٓاْ أَسۡلَمۡنَا ﴾[1] أي أنكم أيها الأعراب لم تؤمنوا بالله ورسوله فأنتم كاذبون بقولكم ءامنا ولكن قولوا إنكم انقدتم ظاهرا للرسول فالإسلام في اللغة بمعنى الانقياد، قال أبو حيان في تفسيره (٩/ ٥٢٣) ما نصه: «فهو اللفظ الصادق من أقوالكم وهو الاستسلام والانقياد ظاهرا ولم يواطئ أقوالكم ما في قلوبكم» وقال القرطبي في تفسيره (١٦/ ٣٤٨) ما نصه: «ومعنى ﴿ وَلَٰكِن قُولُوٓاْ أَسۡلَمۡنَا ﴾ أي استسلمنا خوف القتل والسبي وهذه صفة المنافقين».

تنبيه: يدخل فيما نحن فيه أيضا بعض أهل الأهواء الذين نطقوا بالشهادتين بلسانهم وهم معتقدون للكفر بقلبهم وقائلون بالمقالات الكفرية وإن انتسبوا للإسلام لفظا وصلوا إلى القبلة بل هم أشد من المنافقين لأن المنافق لم يظهر منه ما يقتضي منا أن نعامله معاملة الكافر بخلاف هؤلاء ولهذا قال الإمام أبو منصور البغدادي في تفسير الأسماء والصفات ما نصه: «فإن قيل هلا جعلتم أهل الأهواء كالمنافقين الذين هم كفار وهم مع ذلك يعاملون معاملة المسلمين لإظهارهم شهادة أن لا اله الا اللّٰه وأن محمدا رسول اللّٰه وإقرارهم في الظاهر بأحكام المسلمين؟ قيل لو أظهر المنافق بدعته وضلالته التي اعتقدها كما أظهر المعتزلي وأهل الأهواء لحكمنا عليهم بحكم الكفار ولم يلتفت إلى حكم إقرارهم».

وقال الحليمي: «ولو قال اليهودي لا إله إلا اللّٰه لم يكن مسلما حتى يقر بأنه ليس كمثله شيء ولو قال الوثني لا إله إلا اللّٰه وكان يزعم أن الصنم يقربه إلى اللّٰه لم يكن مؤمنا حتى يتبرأ من عبادة الصنم» نقله عنه الحافظ في الفتح.

وقال الشيخ أبو العباس الوانشريسي (ت ٩١٤) في المعيار المعرب ما نصه: «فإنه يلزم منه أن من قال ذلك - أي الشهادتين - وهو معتقد في الإله

(١) سورة الحجرات / ١٤.

تعالى شبه المخلوقات وصورة من صور الموجودات أن يكون مؤمنا حقا، وقد وجدنا من الجهلة من هو كذلك وكُتب إلينا بذلك وأشباهِه ومن اعتقد ذلك فهو كافر بإجماع المسلمين، وقد نص أئمتنا على ذلك وعلى غيره مما هو كفر بإجماع».

(ص) واختلف المشايخ في الإقرار باللسان أنه هل هو ركن أم لا؟ فعامة المشايخ جعلوه ركنًا أيضًا إذا لم يكن الرجل أخرس، وبعضهم لم يجعلوه ركنًا وقالوا: الركن هو التصديق بالقلب، ويصير العبد مؤمنًا بينه وبين ربه بالتصديق المجرَّد، وإنما الإقرار باللسان دلالة عليه ليُوقف على إيمانه فيُجرى عليه أحكام الإيمان، وهذا مرويّ عن أبي حنيفة رحمة اللّٰه عليه، وهو اختيار إمام الهدى الشيخ أبي منصور الماتريدي السمرقندي رحمة اللّٰه عليه، وهو قول جماعة من المتكلّمين.

(ش) ذكر المصنف رحمه اللَّه في هذه الجملة مسألة الإقرار باللسان هل هو شطر الإيمان أي ركن فيه أم شرط؟ فنقول أولا أن عامة الشيوخ على جعله ركنا فمن صدق بقلبه ولم ينطق بلسانه فليس مؤمنا إلا أن يكون تركه النطق لنحو خرس فهو مؤمن عند اللَّه تعالى، واختار بعضهم أن الإقرار باللسان شرط لا شطر وبنوا على ذلك أن من ترك الإقرار بلسانه عن غير إباء ولو مع القدرة عليه فهو مؤمن عند اللَّه كافر عندنا وهو خطأ، وحكايته عن الإمام أبي حنيفة مردودة فإنه يقول في الفقه الأكبر ما نصه: «والإيمان هو الإقرار والتصديق»، وقال في الوصية ما نصه: «الإيمان إقرار باللسان وتصديق بالجنان» وقال الكوراني في الدرر اللوامع (ص/ ٦٤٨) ما نصه: «وقيل مركب من الاعتقاد والقول إليه ذهب أبو حنيفة»، وقال البياضي في إشارات المرام من عبارات الإمام (ص/ ٧٠) ما نصه: «الثالثة أن من تمكن من الإقرار ولو سرا ولم يقر لا يكون مؤمنا وإن حصل له التصديق».

وكذا لا يصح عن الشيخ أبي منصور الماتريدي وإن اشتهر حكايته عنه عند بعض المتأخرين كالمصنف رحمه اللَّه، ولهذا قطع الحكيم السمرقندي صاحب الماتريدي في السواد الأعظم (ص/ ٢٦) بأن الإيمان هو الإقرار والتصديق، وأن من عرف اللَّه بقلبه ولم يقر بلسانه فهو كافر بالله، وهاك قول بعض الحنفية في بيان المسألة وإن كان بعضهم حكى القول الآخر: قال أبو المنتهى أحمد بن محمد المغنيساوي في شرح الفقه الأكبر (ص/ ٨٣) ما نصه: «وفي الشرع هو الإقرار باللسان والتصديق بالجنان بأن اللَّه تعالى واحد لا شريك له موصوف بالصفات الذاتية والفعلية وبأن محمدا رسول اللَّه أي نبيه الذي بعثه بالكتاب والشريعة، فالإقرار وحده لا يكون إيماما لأنه لو كان إيمانا لكان المنافقون كلهم مؤمنين، وكذلك المعرفة وحدها لأنها لو كانت إيمانا لكان أهل الكتاب كلهم مؤمنين، وقال اللَّه تعالى في حق المنافقين ﴿وَٱللَّهُ يَشۡهَدُ إِنَّ ٱلۡمُنَٰفِقِينَ لَكَٰذِبُونَ﴾[1] وقال اللَّه تعالى في حق أهل الكتاب ﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيۡنَٰهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ يَعۡرِفُونَهُۥ كَمَا يَعۡرِفُونَ أَبۡنَآءَهُمۡ﴾[2] فمن أراد أن يكون من أمة محمد فقال بلسانه لا إله إلا اللَّه محمد رسول اللَّه وصدق بقلبه معناه فهو مؤمن وإن لم يعرف الفرائض والمحرمات».

وقال علاء الدين البخاري في شرح الفقه الأكبر (ص/ ١٩٤) ما نصه: «وقال مالك والشافعي والأوزاعي وجميع أهل الحديث الإيمان هو التصديق والإقرار والعمل فمن أخل بالأول فهو منافق وبالثاني كافر وبالثالث فاسق ينجو من الخلود في النار ويدخل الجنة».

وقال الغزنوي في شرح الطحاوية (ص/ ١١٩) ما نصه: «وقال شمس الأئمة [يعني محمد بن أحمد السرخسي] وفخر الإسلام الإقرار باللسان ركن الإيمان كالتصديق إلا أنه ركن زائد يحتمل السقوط بعذر الإكراه، والتصديق

(١) سورة المنافقون / ١.

(٢) سورة البقرة / ١٤٦.

ركن أصلي لا يحتمل السقوط بحال، فمن صدق بقلبه ولم يقر بلسانه من غير عذر لم يكن مؤمنا».

وقال النسفي في بحر الكلام (ص/ ١٤٩) ما نصه: «الإيمان هو الإقرار باللسان والتصديق بالقلب عند أكثر أهل السنة والجماعة».

وأما ما يروى عن أبي حنيفة وأبي منصور من أن الإيمان هو التصديق فلا يحتج به على مسألتنا إذ المراد بذلك التوصل إلى أن المقلد الجازم بالحق مؤمن لحصول التصديق منه كما سيأتي.

هذا وقد نص الزركشي أنه لا بد من العقد والقول معا حتى عند القائلين بالشرطية لا بالشطرية حيث قال في التشنيف (٤/ ٧٥٩) ما نصه: «قال الأشاعرة ولا يكفي مجرد التصديق بالقلب مع القدرة على الإقرار باللسان ولا ينتفي الكفر إلا بهما لأن القول مأمور به كالعقد قال تعالى ﴿قُولُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ﴾[1] الآية وقال عليه الصلاة والسلام: «**أمرت أن أقاتل الناس حتى يشهدوا أن لا إله إلا اللّه**» فلا بد من العقد والقول جميعا، وعلى هذا فالتلفظ شرط لا ركن، فمن صدق بقلبه ولم يتلفظ بالشهادتين إن عجز عن التلفظ لخرس أو اقتران منية قبل التمكن منه فهو من الناجين، وإن قدر عليه بأن عرض عليه التلفظ وأبى لم ينفعه التصديق القلبي بالاتفاق كأبي طالب، وإن لم يعرض عليه أو لم يتفق له التلفظ ومات مصدقا بقلبه فالجمهور على أن مجرد التصديق لا ينجيه والحالة هذه». وقد بين أن ما ينقل عن الغزالي من أن من لم ينطق فهو مؤمن عند اللّه يمكن حمله على نحو من اخترمته المنية فقال (٤/ ٧٦٠) ما نصه: «ومنهم من فصّل فقال من صدق بقلبه ثم اختُرم قبل اتساع وقته للتلفظ بالشهادتين فهو محكوم بإيمانه، وأما من صدق بقلبه وطالت مهلته ولم يتلفظ فلا؛ لتفريطه، وينبغي تنزيل كلام الإمام الغزالي على هذا، ويشهد له عبارته في الاقتصاد حيث قال: من عرف اللّه بالدليل ومات

(١) سورة البقرة / ١٣٦.

عقب معرفته حُكم له بالإيمان انتهى».

وقال ابن جماعة في لمع اللوامع (٢/ ٤٤٦) ممزوجا بالمتن ما نصه: «(ولا يعتبر) تصديق القلب (إلا مع التلفظ بالشهادتين) شهادة أن لا إله إلا اللَّه وأن محمدا رسول اللَّه وهذا (من القادر) على الإقرار باللسان لأن اللفظ مأمور به في قوله تعالى ﴿قُولُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ﴾ وقال ﷺ «**أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا لا إله إلا اللَّه**» فلا بد من التصديق واللفظ جميعا (و)على هذا (هل التلفظ) بالشهادتين (شرط) فمن عجز عن اللفظ لخرس أو اخترام منية قبل التمكن فهو من الناجين وإن قدر على اللفظ أو عرض عليه وأبى لم ينفعه التصديق القلبي كأبي طالب (أو) لفظ الشهادتين (شطر) الإيمان الحقيقي (فيه تردد) وبالأول قال المتكلمون والثاني محكي عن أكثر السلف منهم الشافعي وأبو حنيفة». فانظر رحمك اللَّه كيف بيّن أن من لم يتلفظ مع القدرة من غير أن تخترمه المنية فهو كافر سواء قلنا بالشرطية أم بالشطرية.

ولأجل ذلك لم يعتبر النووي الخلاف في المسألة فنقل اتفاق أهل السنة على اشتراط التلفظ بالشهادتين فقال في شرح مسلم (١/ ١٤٩) ما نصه: « واتفق أهل السنة من المحدثين والفقهاء والمتكلمين على أن المؤمن الذي يُحكم بأنه من أهل القبلة ولا يُخلَّد في النار لا يكون إلا من اعتقد بقلبه دينَ الإسلام اعتقادا جازما خاليا من الشكوك ونَطَقَ بالشهادتين فإن اقتصر على إحداهما لم يكن من أهل القبلة أصلا إلا إذا عجز عن النطق لخلل في لسانه أو لعدم التمكن منه لمعاجلة المنية أو لغير ذلك فإنه يكون مؤمنا «.

وقال الحليمي (ت ٤٠٣) في المنهاج (١/ ١٦٨) ما نصه: «**وأجمعنا** على أن الإيمان لا يتم بمجرد الاعتقاد ولكنه يحتاج معه إلى الإقرار باللسان».

وقد نقل الطبري عن الإمام الشافعي أنه حكى **الإجماع** على أن الإيمان **قول** وعمل، كما في مناقب الشافعي للمناوي (ص/ ١٥٦).

وأنكر أبو بكر بن العربي (ت ٥٤٣) في عارضة الأحوذي على من نقل

عن مالك أن التصديق بالقلب كاف وقال «الإيمان بالقلب مع إمكان النطق باللسان لا يجزئ بوجه».

وقال الزاهد الصفار (ت ٥٣٤) في تلخيص الأدلة (ص/ ٥١٢) ما نصه: «واعلم أن فقهاء أهل الحديث نحو مالك وأهل المدينة والأوزاعي والشافعي وجميع أهل الحديث نحو إسحاق بن راهويه وأحمد بن حنبل قالوا إن الإيمان هو التصديق بالقلب والإقرار باللسان والطاعة لله بالأركان». وقال قبل ذلك (ص/ ٥٠٢) ما نصه: «وأما الإيمان الذي يصير به الإنسان مؤمنا فهو التصديق بالقلب والإقرار باللسان، هكذا قال أبو حنيفة رضي اللَّه عنه».

تنبيه: مما يرد على قول بعض المتأخرين ما حكوه من أن الإسلام هو التلفظ بالشهادتين، وقد اتفقوا على أن الإسلام والإيمان شرعا متلازمان كالظهر مع البطن فلا يوجد أحدهما دون الآخر حتى قال السعد في شرح العقائد ما نصه: «وبالجملة لا يصح في الشرع أن يحكم على أحد بأنه مؤمن وليس بمسلم أو مسلم وليس بمؤمن ولا نعني بوحدتهما سوى هذا» وسيأتي ذلك في كلام المصنف أيضا فكيف يصح بعد هذا أن يقال إن تارك النطق مؤمن مع أنه غير مسلم! وسيأتي مزيد كلام في ذلك.

تنبيه ثان: خرج بقولنا فيما تقدم عن غير إباء ما لو كان ترك النطق عن إباء كأبي طالب فصاحبه كافر إجماعا، قال صاحب مراصد المعتمد:

وإن يكن ذلكَ عن إباءِ فحكمُه الكفرُ بلا امتراءِ

فقد روى البخاري أن النبي ﷺ دخل على أبي طالب في مرض وفاته وعنده أبو جهل بن هشام وعبدُ اللَّه بن أبي أمية فقال رسول اللَّه ﷺ: «**يا عم، قل لا إله إلا اللَّه كلمة أشهد لك بها عند اللَّه**» فقالا له «يا أبا طالب أترغب عن ملة عبد المطلب» فلم يزل رسول اللَّه ﷺ يَعرضها عليه ويعودان بتلك المقالة حتى قال أبو طالب ءاخرَ ما كلمهم هو على ملة عبد المطلب وأبى أن يقول لا إله إلا اللَّه، وفي مصنف أبي شيبة لما مات أبو طالب جاء علي إلى

النبي ﷺ فقال: «**إن عمك الشيخ الكافر قد مات**» وفي رواية عند أحمد في المسند والنسائي في السنن عن علي قال: «لما مات أبو طالب أتيتُ النبي ﷺ فقلتُ له إن عمّك الشيخ الضالّ قد مات» قال «**اذهب فواره**» قلتُ «إنه مات مشركا» قال «**اذهب فواره، ولا تُحْدِث شيئا حتى تأتيَني**» الحديثَ، وفي ذلك إقرار من النبي ﷺ لعلي على حكمه على أبيه بالكفر.

(ص) ثمّ إذا وُجد من العبد الإيمان بحدّه وحقيقته صار العبد مؤمنًا للحال حقًّا على البتات من غير شكّ، ولا يجوز أن يقول: أنا مؤمن إن شاء اللَّه؛ لأن الشيء بعد وجوده تحقق لوجود حدُّه وحقيقته، فإدخال الشكّ في وجوده ضرب من التناقض، كالقائم يقول: أنا قائم إن شاء اللَّه، وكالقاعد يقول: أنا قاعد إن شاء اللَّه.

(ش) أن الإنسان إذا وجد فيه حقيقة الإيمان جاز له أن يقول «أنا مؤمن» ولكن هل له أن يقول «أنا مؤمن إن شاء اللَّه»؟ قلنا: إن قال ذلك على سبيل الشك في الإيمان فقد كفر قطعا كما بينه البناني في حاشيته على المحلي (٢/ ٤٢٥)، لما فيه من الشك في الإيمان من غير سبب يقتضيه، وأما إن لم يقصد الشك فقد اختار بعض الحنفية الحرمة لما فيه من الإيهام، ولأنه لا معنى للتعليق حينئذ وحاله كحال القائم يقول أنا قائم إن شاء اللَّه وكحال القاعد يقول أنا قاعد إن شاء اللَّه، ولكن الراجح أنه لا يحرم وهو قول أكثر السلف وحكي عن عمر وابن مسعود وعليه الشافعية والمالكية والحنابلة والأشعري وسفيان الثوري وأحمد كما حكاه عنهم الزركشي في التشنيف (٤/ ٨٧١) ولذلك عدة محامل ذكر القاضي زكريا الأنصاري في غاية الأصول (ص/ ١٧٠) أربعة منها:

الأول: الخوف من سوء الخاتمة المجهولة وهو الموت على الكفر.

الثاني: الدفع لتزكية النفس.

الثالث: التبرك بذكر اللَّه تعالى كقوله تعالى ﴿لَتَدْخُلُنَّ ٱلْمَسْجِدَ ٱلْحَرَامَ إِن

شَآءَ ٱللَّهُ ﴾[١] وقوله ﷺ: «**وإنا إن شاء اللَّه بكم لاحقون**».

الرابع: التأدب وإحالة الأمور على مشيئة اللَّه تعالى.

وعلى الجواز فقد اختُلف في الأَولى فجرى المحلي على أن الأولى قوله «أنا مؤمن إن شاء اللَّه» وجرى تلميذه الأنصاري كالسعد التفتازاني أن الجزم أولى فيقول «أنا مؤمن حقا».

وصرح الزركشي في التشنيف والسيوطي في شرح الكوكب بأن النزاع لفظي ونص عبارة الزركشي (٤/ ٨٧٣) هي: «ويحصل من هذا كله أن النزاع في هذه المسألة لفظي لاتفاقهم على أن أمر الخاتمة مجهول وأن الاعتضاد الحاضر يضره أدنى تردد وأن الانتفاع به مشروط بالموافاة عليه» وهو ما جرى عليه ابن السبكي في نونيته[٢] حيث قال:

ولقد يؤولُ خلافُها إما إلى لفظٍ كالاستثناءِ في الإيمانِ

(ص) والأعمال ليست من الإيمان، بل هي شرائع الإيمان؛ لأن الإيمان تصديق، والأعمال ليست من التصديق في شيء، وكذا الإيمان وهو التصديق ذاته لا يزيد ولا ينقص والأعمال تزيد وتنقص.

(ش) أنه مما اختلف فيه بين الأشاعرة والماتريدية أن الإيمان هل يزيد وينقص؟ فقال الأشاعرة بزيادته ونقصانه بناء على أن الإيمان يطلق بمعنى ما لا يصح الإيمان بدونه وهو حينئذ التصديق بالجنان والإقرار باللسان ويطلق بمعنى أعم من ذلك وهو حينئذ التصديق بالجنان والإقرار باللسان والعمل بالأركان جمعا بين الأدلة قال تعالى ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَٰنَكُمْ ﴾[٣] أي

(١) سورة الفتح / ٢٧.

(٢) انظر: الطبقات الكبرى (٣/ ٣٨٣)

(٣) سورة البقرة / ١٤٣.

صلاتكم كما في تفسير الطبري (٣/ ١٦٧)، وقال ﷺ «**الإيمان بضع وسبعون شعبة أعلاها لا إله إلا اللَّه وأدناها إماطة الأذى عن الطريق**». وقال الماتريدية لا يزيد ولا ينقص بناء على تفسير الإيمان بالمعنى بالأول فقط والتصديق لا يقبل فيه زيادة ولا نقصان فإنه نقص خرج عن التصديق وإن زاد تبين أنه لم يكن تصديقا واستدلوا بقوله تعالى ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُمۡ جَنَّٰتُ ٱلنَّعِيمِ﴾[1] والعطف يقتضي التغاير وبقوله تعالى ﴿وَمَن يَعۡمَلۡ مِنَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِن ذَكَرٍ أَوۡ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤۡمِنٞ﴾[2] حيث جعل الإيمان شرطا لقبول الأعمال مما يدل على أنها غير داخلة فيه، وبين شيخنا المتكلم الأصولي الهرري رحمه اللَّه في شرح الطحاوية الكبير المسمى بإظهار العقيدة السنية (ص/ ٣٢٠) أن الخلاف لفظي وذلك لأن من قال إن الإيمان لا يزيد ولا ينقص فمراده أن أصل الإيمان الذي لا يتحقق معناه بدونه لا يزيد ولا ينقص ومن قال إن الإيمان يزيد وينقص فمراده التفاضل في التقوى والخشية والأعمال الصالحة بين المؤمنين فلم يتوارد القولان على محل واحد وكلّ من الفريقين لا ينازع في معنى ما يقوله الفريق الآخر فرجع الخلاف لفظيا، ومن ثم قال البزدوي من الحنفية في أصول الدين (ص/ ١٥٦): «ونحن نقول إنه [يعني الإيمان] يزداد وصفا بالعبادات لا ذاتا، وكذا يزداد بمعان أخر صفة لا ذاتا».

تنبيه: إن مما ينبغي التنبه له أن الأشاعرة لم يوافقوا المعتزلة في تعريفهم للإيمان لأن المعتزلة حين عرفوا الإيمان بقولهم تصديق بالجنان وإقرار باللسان وعمل بالأركان أرادوا به تعريف القدر الذي من نقص عنه لا يكون مؤمنا، وأما الأشاعرة فأرادوا به تعريف كمال الإيمان كما تقدم، فمن ترك الأعمال عند المعتزلة كان فاسقا خارجا من الإيمان ويخلد في النار وأما عند الأشاعرة فهو مؤمن عاص تحت مشيئة اللَّه تعالى، وقد تقدم قول علاء الدين

---

(١) سورة لقمان / ٨.

(٢) سورة النساء / ١٢٤.

البخاري في شرح الفقه الأكبر (ص/ ١٩٤) ونصه: «وقال مالك والشافعي والأوزاعي وجميع أهل الحديث الإيمان هو التصديق والإقرار والعمل فمن أخل بالأول فهو منافق وبالثاني كافر وبالثالث فاسق ينجو من الخلود في النار ويدخل الجنة».

(ص) والإيمان والإسلام واحد؛ فكلّ مؤمن مسلم، وكلّ مسلم مؤمن.

(ش) تقدم بيان الإيمان لغة وشرعا وأنه التصديق والإقرار وأما الإسلام فهو لغة الانقياد وشرعا انقياد لما جاء به النبي ﷺ بالنطق بالشهادتين، وقال الإمام أبو حنيفة في الفقه الأكبر: «لا يكون إيمان بلا إسلام ولا إسلام بلا إيمان فهما كالظهر مع البطن» أي كما أن الظهر لا ينفصل عن البطن مع أنهما مختلفان فكذلك الإيمان لا ينفصل عن الإسلام ولا العكس، فمن ءامن بما جاء به الرسول ﷺ وصدق ذلك بالنطق بالشهادتين بلسانه فهو مسلم مؤمن إن مات على ذلك لا بد أن يدخل الجنة، ويقال لمن ءامن بالله ورسوله ولم يقم بالفرائض ولم يجتنب المعاصي مؤمن مسلم عاص ولا يقال فلان مسلم ولكنه ليس بمؤمن، قال النووي في شرح مسلم (٢/ ١٦) ما نصه: «قوله ﷺ «**لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه** أو قال **لجاره ما يحب لنفسه**» هكذا هو في مسلم «لأخيه أو جاره» على الشك، وكذا هو في مسند عبد بن حميد على الشك، وهو في البخاري وغيره «لأخيه» من غير شك، قال العلماء رحمهم اللّٰه معناه لا يؤمن الإيمان التام وإلا فأصل الإيمان يحصل لمن لم يكن بهذه الصفة» اهـ واختار البعض كابن السبكي أن الإسلام هو إعمال الجوارح بنحو التلفظ بالشهادتين والصلاة والزكاة أخذا من ظاهر حديث جبريل وهو خلاف المشهور كما قال القاضي زكريا في حاشيته على المحلي (٤/ ٢٢٧) وقال فيها ما نصه: «إن كلا من الإيمان والإسلام عندنا لا يوجد بدون الآخر، ومن ثم ذهب بعضهم إلى اتحادهما، وهو صحيح نظرا إلى ماصدقهما ظاهرا». ويؤيده قوله تعالى ﴿فَأَخْرَجْنَا مَن كَانَ فِيهَا مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٣٥﴾ فَمَا وَجَدْنَا فِيهَا

غَيْرَ بَيْتٍ مِّنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴾[١] قال الماتريدي في التأويلات (٩/ ٣٨٧) ما نصه: «دل تسمية الملائكة عليهم السلام إياهم مؤمنين ومسلمين على أن الإسلام والإيمان واحد» واستدل له أيضا بقوله تعالى ﴿قَالَ ٱلْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنصَارُ ٱللَّهِ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَٱشْهَدْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴾[٢] وقوله تعالى ﴿ وَقَالَ مُوسَىٰ يَٰقَوْمِ إِن كُنتُمْ ءَامَنتُم بِٱللَّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوٓاْ إِن كُنتُم مُّسْلِمِينَ ﴾[٣] وقوله تعالى ﴿وَكَفَرُواْ بَعْدَ إِسْلَٰمِهِمْ﴾[٤] فقال (٥/ ٤٣٠) ما نصه: وفي الآية دلالة أن الإسلام والإيمان واحد؛ لأنه قال: ﴿وَكَفَرُواْ بَعْدَ إِسْلَٰمِهِمْ﴾ وقال في ءاية أخرى ﴿ وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ ﴾[٥] ثم قال ﴿كَيْفَ يَهْدِى ٱللَّهُ قَوْمًا كَفَرُواْ بَعْدَ إِيمَٰنِهِمْ ﴾[٦] وقال في ءاية أخرى ﴿كَفَرُواْ بَعْدَ إِيمَٰنِهِمْ ثُمَّ ٱزْدَادُواْ كُفْرًا ﴾[٧] فدل أن الإسلام والإيمان واحد»، واستدل أيضا بقوله تعالى ﴿وَهُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ ﴾[٨] حيث قال في ءاية أخرى ﴿وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴾[٩] ليعلم أن الإيمان والإسلام واحد، واستدل أيضا بقوله تعالى ﴿وَإِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِهِۦٓ إِنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّنَآ إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلِهِۦ مُسْلِمِينَ ﴾[١٠] لأنهم قالوا ﴿ءَامَنَّا بِهِۦٓ ﴾ وقالوا ﴿إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلِهِۦ مُسْلِمِينَ ﴾ فدل على أنهما واحد.

---

(١) سورة الذاريات / ٣٥.

(٢) سورة ءال عمران / ٥٢.

(٣) سورة يونس / ٨٤.

(٤) سورة التوبة / ٧٤.

(٥) سورة ءال عمران / ٨٥.

(٦) سورة ءال عمران / ٨٦.

(٧) سورة ءال عمران / ٩٠.

(٨) سورة النحل / ١٠٢.

(٩) سورة يونس / ٥٧.

(١٠) سورة القصص / ٥٣.

(ص) وإيمان المقلّد صحيح، وهو الذي اعتقد جميع ما فُرض عليه اعتقادُه من حَدَث العالم وقدم الصانع ووحدانيّته ورسالاته وغير ذلك اعتقادًا جزمًا بلا شكّ وارتياب من غير دليل عقليّ، فهذا مؤمن وإيمانه صحيح نافع في الدنيا والآخرة.

(ش) أن من جزم بقلبه بالإيمان بالله ورسوله وخلا عن الاستدلال الإجمالي والتفصيلي مؤمن عاص لترك الواجب العيني من الاستدلال الإجمالي، قال السعد التفتازاني في شرح المقاصد (ص/ ١٥) ما نصه: «والحق أن المعرفة بدليل إجمالي أي كالنظر على طريق العامة بحيث يرفع الناظر عن حضيض التقليد فرض عين لا مخرج عنه لأحد من المكلفين، وبدليل تفصيلي على طريق المتكلمين بحيث يتمكن معه من إزاحة الشبه وإلزام المنكرين وإرشاد المسترشدين فرض كفاية لا بد أن يقوم به البعض» فيجب على كل مسلم الاستدلال بالدليل الإجمالي ولو لم يرتبه على طريقة المتكلمين وهذا لا يخلو عنه غالب عوام المسلمين فإن من شاهد منهم شيئا يعجبه سبح وحمد مما يدل على استشعاره أن هذا المرئي العجيب له خالق خلقه وجعله على هذه الصورة، وصوره بعضهم بمن نشأ على نحو شاهق جبل فمر به أناس مسلمون فسمع منهم إن للعالم ربا خلقه وهو واحد لا شريك له وأرسل إليهم رسولا اسمه محمد بن عبد اللَّه فصدق بما سمع وجزم به إجلالا لهم عن الخطإ من غير استدلال منه بالمرة فهذا هو المقلد الصرف، والقول الصحيح فيه أنه مسلم عاص خلافا للمعتزلة القائلين بأنه لا بد لصحة الإسلام من معرفة الدليل العقلي، ونقول مما يدل على جزم هذا المقلِّد أنه لو رجع مقلَّده عن الإيمان إلى كفر لم يرجع هو.

وأما ما حكي عن الأشعري من عدم صحة إيمان المقلد فأنكره الأستاذ أبو القاسم القشيري وقال[1]: «هذا كذب وزور من تلبيس الكرامية على العوام

(١) انظر: تشنيف المسامع (٤/ ٦٢٥).

فإنهم يقولون الإيمان الإقرار المجرد ومن لا يقول الإيمان الإقرار، انسد عليه طريق التمييز بين المؤمن والكافر، لأنه إنما فرق بينهما بالإقرار، وعند الأشعري الإيمان هو التصديق، والظن بجميع المسلمين أنهم يصدقون اللَّه تعالى في أخباره فأما ما تنطوي عليه العقائد فالله أعلم به» وقال الأستاذ أبو منصور في المقنع[١]: «أجمع أصحابنا على أن العوام مؤمنون عارفون بالله تعالى» وقال ابن السبكي في الجمع: «والتحقيق إن كان ءاخذا بقول الغير بغير حجة مع احتمال شك أو وهم فلا يكفي وإن كان جازما فيكفي خلافا لأبي هاشم». فلهذا حمل بعضهم كلامه على المقلد المرتاب وهو من يقول اعتقدت الإسلام وتابعت أهله احتياطا لنفسي فإن كان حقا فقد فزت وإن لم يكن من ذلك شيء لم يضرني قال اللامشي في التمهيد (ص/ ١٣٦) «فهذا المقلد ليس بمؤمن بلا خلاف لأنه لم يعتقد ما يجب عليه اعتقاده ولم يصدق فيما جاء به من عند اللَّه تعالى بل هو شاك في ذلك والإيمان مع الشك لا يصح» ولأجل ذلك قال التاج السبكي في نونيته[٢]:

وكـذاك إيـمـان المقلد وهْـو مما أنـكـر ابـنُ هـوازنَ الـربـانـي

ولـوَ انـه مـمـا يـصـح فخلفهمْ فـيـه لـلـفـظٍ عـاد دون مـعـانـي

تنبيه: إن قيل ما الفرق بين المقلد وطالب العلم الذي يدرس عند شيخه علم العقائد قلنا إن التلامذة بعد إرشاد المشايخ لهم إلى الأدلة صاروا من العارفين وقد ضرب السنوسي في المنهج السديد[٣] مثالا للفرق بينهم وبين المقلدين بجماعة نظروا للهلال فسبق بعضهم إلى رؤيته فإن أخبر الباقي وصدقوه من غير معاناة وتطلع له كانوا مقلدين وإن أرشدهم بالعلامات

(١) انظر: تشنيف المسامع (٤/ ٦٢٥).

(٢) انظر: الطبقات الكبرى (٣/ ٣٨٥)

(٣) المنهج السديد (ص/ ٥٢)

حتى عثروا عليه خرجوا عن التقليد ألا ترى أن الأولى إذا سئلت عن الهلال كان جوابها قالوا إنه ظهر وأما الثانية فتقول رأيته بعيني في مكان كذا وتذكر العلامات.

(ص) وكلّ من دخل في رَبَض الإيمان[1] لا يخرج منه إلا من الباب الذي دخله، أي ما لم يبدّل التصديق بالتكذيب لا يخرج من الإيمان، والمؤمن إذا ارتكب ذنبًا صغيرةً أو كبيرةً غير مستحلّ لها ولا مستخفّ بمن نهى عنها، بل مع اعتقاد الحرمة وخوف العقوبة ورجاء العفو؛ فهذا اسمه مؤمنٌ، لا يخرج من الايمان ولا يدخل في الكفر، ولا يكون له منزلة بين منزلتَيْن.

(ش) ذكر المصنف رحمه اللَّه في هذه الجمل بيان كيفية خروج الإنسان من الإيمان بعد الحكم عليه به رادا بذلك مذهبي المعتزلة والخوارج، فبين أن الإنسان لا يخرج من الإيمان إلا من الباب الذي دخله أي ما لم يصدر منه تكذيب يناقض التصديق الذي أدخله في زمرة المؤمنين وذلك كما قال الطحاوي في عقيدته المشهورة: «ولا يخرج العبد من الإيمان إلا بجحود ما أدخله فيه» قال القونوي في القلائد في شرح هذه الجملة (ص/ ٣٤٥) ما نصه: «والذي أدخله في الإيمان هو التصديق بالجنان والإقرار باللسان. وفيه إشارة إلى بطلان قول من أخرجه من الإيمان بمطلق الذنب، وإلى بطلان قول من أثبت له منزلة بين المنزلتين بفعل الكبائر» وقال منكوبرس في شرحه (٢/ ٨٣٧) ما نصه: « فمعناهُ أنهم بالتصديقِ والقبولِ دخلوا في الإيمانِ، فالخروجُ منه – نعوذُ باللهِ العظيمِ – يكونُ بالردِّ والتكذيبِ، والأصلُ في هذا أنَّ الدخولَ في الإسلامِ يكونُ بإيمانِ الجملةِ، وهوَ التصديقُ بوحدانيةِ اللَّهِ تعالى وبما جاءَ بهِ محمدٌ صلى اللَّهُ عليهِ وسلمَ مِن عندِ اللَّهِ، وجميعُ ما يجبُ

(١) الربَض السُّورُ، فالمعنى «كل من حكم عليه بالإيمان» تشبيها له بالداخل إلى مدينة لها سور وباب واحد فإنه لا يخرج منها إلا من الباب الذي دخله.

اعتقادُه فقَد دخَلَ تحتَ هذهِ الجملةِ. فالعبدُ مؤمنٌ بإيمانِ الجملةِ، ولا يخرُجُ منهُ إلا بجحودِ كلِّه أو جحودِ شيء منه عندَ التفصيلِ إذ رَدُّ بعضِه كردِّ كلِّه».

هذا وقد بين المصنف رحمه اللَّه بيان ما ذكر بقوله: «والمؤمن إذا ارتكب ذنبًا صغيرةً أو كبيرةً غير مستحلّ لها ولا مستخفّ بمن نهى عنها، بل مع اعتقاد الحرمة وخوف العقوبة ورجاء العفو؛ فهذا اسمه مؤمنٌ، لا يخرج من الايمان ولا يدخل في الكفر، ولا يكون له منزلة بين منزلتَيْن» فهذا صريح منه أن ما ذكر هو لرد مذهبي المعتزلة والخوارج حيث قالت الفرقة الأولى منهما إن العبد بالفسق يخرج من الإيمان ولا يدخل في الكفر ولكنه يخلد في النار فأثبتوا له منزلة بين منزلتي الإيمان والكفر، وقالت الفرقة الثانية بالفسق يخرج من الإيمان ويدخل في الكفر، فخالفا بذلك أهلَ السنة والجماعة فإننا لا نكفر بالفسق سواء كان فسقا عمليا أو اعتقاديا إلا إذا أدى به ذلك إلى ما يقتضي كفره كأن يفعل الفسق العملي معتقدا حله أو مستخفا بالله تعالى وكأن توصله البدعة الاعتقادية إلى إنكار شيء مما يتضمنه أصل الشهادتين كنفي الصفات وإثبات التجسيم والعجز ونحو ذلك.

فائدة في بيان معنى قول أهل السنة لا نكفر أحدا من أهل القبلة:

إن هذه العبارة أطلقها بعضهم كابن السبكي في جمع الجوامع وقيدها كثير فقالوا «لا نكفر أحدا من أهل القبلة بذنب» ورويت في الحديث المرفوع ولا تصح، واشتهرت عن الإمام أبي حنيفة ونقلها عنه أصحاب مذهبه، وليعلم أنها واردة في رد عقيدة الخوارج القائلين بتكفير مرتكب الكبيرة فبيّن رحمه اللَّه أن التكفير بالذنب ليس مذهب أهل السنة، ولا يعني بذلك عدم تكفير كل من انتسب للقبلة بدليل قول الطحاوي «ولا نكفر أحدا من أهل القبلة بذنب ما لم يستحله» فبين رحمه اللَّه أن من كان من أهل القبلة فعمل الذنب مستحلا له حكم بكفره، وبعبارة أخرى نقول معنى هذه الجملة أن من كان يشهد أن لا إله إلا اللَّه وأن محمدا رسول اللَّه وأن الكعبة قبلته لا نكفره بما

يرتكبه من الذنوب ما لم يعلم منه ما يقتضي الكفر وليس مرادهم بذلك أن كل من يقول الشهادتين لا يكفر وإن اعتقد بعض الاعتقادات الكفرية، فإن ممن ينطق بالشهادتين وينتسب للإسلام ويظن نفسه مسلما كفر كفريات صريحة لا يتردد فيها عالم ولا جاهل كقول البيانية إن اللَّه يفنى يوم القيامة كله إلا وجهه متأولين قوله تعالى ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُۥ﴾[1] فظنوا أن لله وجها مركبا على البدن كالبشر والملائكة والبهائم فهؤلاء كانوا يقولون الشهادتين ويصومون ويصلون كغيرهم فهل يجوز ترك تكفيرهم لأنهم يقولون بألسنتهم لا إله إلا اللَّه ويستقبلون قبلتنا!! وكذلك من كان على مثل هذا ممن يعتقد في اللَّه أنه جسم مركب، وهذا ما نبه عليه التقي السبكي حيث يقول ما نصه[2]: «تعني هذه العبارة أنا لا نكفر بالذنوب التي هي المعاصي كالزنا والسرقة وشرب الخمر خلافا للخوارج حيث كفروهم أما تكفير بعض المبتدعة بعقيدة تقتضي كفره حيث يقتضي الحال القطع بذلك أو ترجيحه، فلا يدخل في ذلك وهو خارج بقولنا: بذنب» وكذلك الشيخ محمود القونوي في القلائد (ص/ ٣٢٣) حيث قال ما نصه: «قوله بذنب إشارة إلى تكفيره بفساد اعتقاده كفساد اعتقاد المجسمة والمشبهة والقدرية ونحوهم» وقال الكوراني في الدرر اللوامع (٤/ ٣٢٧): «قوله «ولا نكفر أحدا من أهل القبلة» أقول هذا كلام قد اشتهر بين الناس ونقل عن الأئمة مثل الشافعي وأبي حنيفة وليس على إطلاقه إذ المجسم كافر وإن صام وصلى».

وقد بين الأشعري مراده بهذه العبارة حيث قال فيما رواه عنه الحافظ ابن عساكر في التبيين (ص/ ١٦٠): «وندين بأن لا نكفر أحدا من أهل القبلة بذنب يرتكبه كالزنا والسرقة وشرب الخمر كما دانت بذلك الخوارج وزعمت أنهم كافرون، ونقول إن من عمل كبيرة من هذه الكبائر مثل الزنا والسرقة وما

(١) سورة القصص / ٨٨.

(٢) انظر: تشنيف المسامع (٤/ ٨٠٢).

أشبههما مستحلا لها غير معتقد بتحريمها كان كافرا» وقال الملا علي في شرح الشفا (٢/ ٤٥٥) ما نصه: «وأما القول بأنا لا نكفر أحدا من أهل القبلة فليس على إطلاقه».

تنبيه: اعلم أن أهل السنة اختلفوا في المراد بقول «أهل القبلة» فأطلقها بعضهم على كل من توجه إلى القبلة ولو كفر ببدعته كالتاج الأرموي في الحاصل حيث قال: «الكافر الموافق في القبلة كالمجسمة» وابن الرفعة في الكفاية حيث قال: «وهذا ينظم من كفره مجمع عليه ومن كفرناه من أهل القبلة» والكوراني في الكوثر الجاري (٨/ ٤١٨) حيث قال ما نصه: «فإن قلتَ أليس هؤلاء من أهل القبلة؟ قلتُ كم من كافر كالمجسمة والجبرية المحضة القائلين بعدم اعتبار كسب العبد من أهل القبلة». وخصها بعضهم بمن لم يكفر كالغزالي حيث قال في المستصفى (ص/ ١٤٥) ما نصه: «أما إذا كفر ببدعته فعند ذلك لا يعتبر خلافه وإن كان يصلي إلى القبلة ويعتقد نفسه مسلما لأن الأمة ليست عبارة عن المصلين للقبلة بل عن المؤمنين وهو كافر وإن كان لا يدري أنه كافر، نعم لو قال بالتشبيه والتجسيم كفرناه» وقال ابن العربي في العواصم (ص/ ٢١٨) ما نصه: «فإن قالوا بالصورة والصوت والتعبير بالحوادث، لم يكونوا من أهل القبلة، وحكم بخروجهم أصلا وفرعا من الملة» وقال التاج السبكي في الطبقات الكبرى (١/ ٩٩) ما نصه: «ليس كل من صلى لقبلتنا من أهل القبلة ألا ترى أن المنافقين يصلون لقبلتنا وهم كفار بالإجماع».

(ص) ويكون بما معه من الإيمان وما أتى به من الطاعات مطيعًا، وبما أتى به من المعاصي عاصيًا وفاسقًا، ولكن لا يجوز أن يسمّى فاسقًا على الإطلاق؛ لأنه مطيع من وجوه كثيرة.

(ش) أن هذا تأكيد لما تقدم من أن فسق المؤمن لا يخرجه من الإيمان بل يكون بالتصديق الذي عنده وبالطاعات التي يباشرها مؤمنا لا يزيله فسقه

خلافا للمعتزلة والخوارج، ويكون بما أتى به من المعاصي عاصيا وفاسقا لا يمنع إيمانه تسميته بذلك خلافا للمرجئة القائلين بأنه لا يضر مع الإيمان ذنب وهذا تكذيب للنصوص الشرعية فقد ورد الكتاب بوعيد أصحاب الكبائر قال تعالى ﴿فَوَيْلٌ لِّلْمُصَلِّينَ * ٱلَّذِينَ هُمْ عَن صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ﴾[1] وقال ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَٰلَ ٱلْيَتَٰمَىٰ ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِى بُطُونِهِمْ نَارًا ۖ وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا﴾[2] ووردت الأخبار المستفيضة في تعذيب أصحاب الكبائر وشفاعتهم كما سيأتي في مبحث الشفاعة، وعلى ذلك إجماع أهل السنة والجماعة كما نقله نجم الدين منكوبرس في شرح العقائد، وسيأتي الكلام فيه بعد قليل.

وأما قوله «ولكن لا يجوز أن يسمّى فاسقًا على الإطلاق؛ لأنه مطيع من وجوه كثيرة» أي فلا يجوز أن يقال عنه فاسق غير مؤمن لأن ذلك صفة الكافر وأما العاصي فهو وإن كان فاسقا من وجه لكنه مؤمن مطيع من وجه ءاخر.

(ص) فإذا خرج من الدنيا من غير توبة وقد خُتم له على الإيمان لا يجوز أن يقال: إن اللّٰه تعالى يعاقبه لا محالة، ولا أن يقال: يعفو عنه لا محالة، بل هو في مشيئة اللّٰه تعالى، كما قال اللّٰه تعالى ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ﴾[3] إن شاء عفا عنه بفضله وكرمه أو ببركة ما معه من الإيمان وكثير من الطاعات أو بشفاعة محمد عليه السلام أو باستغفار الرسل والملائكة عليهم السلام لعامّة المؤمنين أو بشفاعة واحد من الأخيار، وإن شاء عذّبه بقدر ذنبه ثم أخرجه إلى الجنة، وعاقبته الجنة لا محالة، ولا يُخلّد في النار مؤمن.

(ش) أن هذا تتمة لما قبله من أننا أيها الأشاعرة والماتريدية لا نقول بتكفير مرتكب الذنب ولا بتنزيله منزلة بين المنزلتين فبناء عليه من مات

(١) سورة الماعون / ٤-٥.

(٢) سورة النساء / ١٠.

(٣) سورة النساء / ٤٨.

من عصاة المسلمين من غير توبة لا نجزم بعقابه ولا بالعفو عنه بل نقول هو في مشيئة اللَّه تعالى إن شاء عذبه مدة من الزمن ثم أدخله الجنة وإن شاء عفا عنه بفضله وكرمه أو بفضله بسبب طاعة فعلها كالمرأة البغيّ التي غفر لها بسبب إسقاء كلب أو بسبب شفاعة شافع قال تعالى ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغۡفِرُ أَن يُشۡرَكَ بِهِۦ وَيَغۡفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ﴾ أي ويغفر اللَّه ما دون الشرك لمن يشاء ممن مات مرتكبا للذنوب من غير توبة أيضا، أما من مات تائبا من الذنب فإنه يغفر له قال ﷺ: «**التائب من الذنب كمن لا ذنب له**» رواه ابن ماجه، وخالف المعتزلة ففسروا الآية بأنها خاصة بمن مات بتوبة وأجاب الدواني في العقائد (ص/ ٨٦) بأنه يرد عليهم أن الكفر بعد التوبة أيضا مغفور فيلزم عليه تساوي ما نفى عنه الغفران وما ثبت له اهـ

وفي الآية أيضا رد على المرجئة حيث نفوا التعذيب عن مرتكب الذنوب مطلقا ما لم يصل إلى الكفر، وفي الآية التي ذكرها المصنف رد على الفريقين حيث جوّز المغفرة للعاصي فدل على أنه ليس مخلدا في النار وعلقها بالمشيئة فدل على أن العذاب واقع لبعضهم، وفي الحديث المتفق عليه «**فإن اللَّه حرم على النار**» أي الخلود فيها أبدا «**من قال لا إله إلا اللَّه يبتغي بذلك وجه اللَّه**» أي القربَ إليه سبحانه بأن قالها اعتقادا لا نفاقا ليرضيَ المسلمين، والوجه يطلق ويراد به عدة معان كالذات والقصد والطاعة وهو المقصود هنا، وفي الحديث دلالة على أن أعظم حقوق اللَّه على عباده هو توحيده تعالى، وإنما اكتفى في الحديث بذكر الشهادة الأولى لأن ذكرها في هذا المقام صار ملحوظا فيه في عرف الشرع الشهادةُ الثانية.

فائدة: قد دلت الآيات على أن من مات مجتنبا للكبائر وليس عليه إلا صغائر فإنها تغفر له قال تعالى ﴿ٱلَّذِينَ يَجۡتَنِبُونَ كَبَٰٓئِرَ ٱلۡإِثۡمِ وَٱلۡفَوَٰحِشَ إِلَّا ٱللَّمَمَۚ إِنَّ رَبَّكَ وَٰسِعُ ٱلۡمَغۡفِرَةِ﴾[1] قال النسفي في تفسيره (٣/ ٣٩٤) ما نصه: «﴿إِلَّا

(١) سورة النجم / ٣٢.

﴿ٱللَّمَمَ﴾ أي الصغائر والاستثناء منقطع لأنه ليس من الكبائر والفواحش وهو كالنظرة والقبلة واللمسة والغمزة» وقال تعالى ﴿إِن تَجْتَنِبُواْ كَبَآئِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ وَنُدْخِلْكُم مُّدْخَلًا كَرِيمًا﴾[1] قال القرطبي في تفسيره (٥/ ١٥٨) ما نصه: «لما نهى تعالى في هذه السورة عن آثام هي كبائر، وعد على اجتنابها التخفيف من الصغائر، ودل هذا على أن في الذنوب كبائر وصغائر. وعلى هذا جماعة أهل التأويل وجماعة الفقهاء، وأن اللمسة والنظرة تكفر باجتناب الكبائر قطعا بوعده الصدق وقوله الحق، لا أنه يجب عليه ذلك».

تنبيه: ليس المقصود من الآية أن الإشراك وحده لا يغفره اللَّه من سائر أنواع الكفر بل كل أنواعه لا يغفرها اللَّه لمن مات عليها قال تعالى ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ثُمَّ مَاتُواْ وَهُمْ كُفَّارٌ فَلَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَهُمْ﴾[2] وقوله ﴿وَهُمْ كُفَّارٌ﴾ جملة حالية تفيد الشرطية فالشرط المنصوص عليه في الآية لامتناع المغفرة للكافر هو موته على الكفر فإنها نصت على أن من مات كافرا لا يُغفر له حيث قيل ﴿ثُمَّ مَاتُواْ وَهُمْ كُفَّارٌ﴾ ولم يعلَّق بالصدِّ أيضا فلو كان الصد شرطا أيضا لقيل «وهم كفار صادُّون عن سبيل اللَّه» ويقال أيضا إن الصفة المذكورة في قوله ﴿وَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ إنما ذكرت لموافقة الواقع وعليه فلا مفهوم لها ويدل لكل هذا قوله تعالى ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَمَاتُواْ وَهُمْ كُفَّارٌ أُوْلَٰٓئِكَ عَلَيْهِمْ لَعْنَةُ ٱللَّهِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴿١٦١﴾ خَٰلِدِينَ فِيهَا لَا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ ٱلْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ﴾[3] حيث رتب اللعنة والخلود في النار على الكفر من غير تعرض للصد، وأطلَقت الآيةُ لفظ الكفر فشملت ما كان شركا وما كان غير شرك كالإيمان بالله ربّا وأنه واحد لا شريك له مع الإعراض عن الإيمان

(١) سورة النساء / ٣١.

(٢) سورة محمد / ٣٤.

(٣) سورة البقرة / ١٦١-١٦٢.

برسول اللَّه محمد ﷺ فكلُّ شرك كفر وليس كل كفر شركا، وشمِلت أيضا من كان يمنع غيره عن الدخول في الإسلام ومن لم يكن كذلك فمن مات كافرا لن يغفر له سواء كان ممن يمنع غيره من الإسلام أو يساعده على الدخول في الإسلام أو لا يفعل شيئا من ذلك إلا أن الأول أشد ذنبا، ومثل الموت فيما ذكر أن يصل إلى حالة اليأس من الحياة كأن يصل إلى الغرغرة أو يرى ملك الموت مع ملائكة العذاب أو بشره ملك الموت بالعذاب وكذا من طلعت عليه الشمس من مغربها لا تقبل له توبة.

(ص) ولا يجوز أن يُشهد لأحد من المؤمنين بالجنة إلا الأنبياء عليهم السلام ولمن بشّره النبي عليه السلام بها، ولا على أحد من المؤمنين بالنار.

(ش) أننا معشر أهل السنة لا ننزل أحدا من المؤمنين جنة ولا نارا لأن ذلك إخبار عن الغيب وذلك لا يكون إلا بطريق الوحي، ولا وحي بعد رسول اللَّه ﷺ. ولأن تبدل الأحوال في حق غير الأنبياء عليهم السلام ومن شهد لهم النبي ﷺ بالجنة بل في ءاحاد المحسنين أو المسيئين جائز على ما يكون سبق في علم اللَّه تعالى وذلك غيب عنا، فيكون إنزال المحسن بظاهر حاله الجنة قولا بما لا علم له، وذلك لا يجوز. وكذا إنزال المسيء بظاهر حاله النار يكون تأليا على اللَّه عز وجل، وذلك باطل محظور، وقد روي عن علي رضي اللَّه عنه أنه قال: «لا تنزلوا العارفين المخبتين الجنة ولا المسيئين النار حتى يكون اللَّه تعالى هو الذي ينزلهم» رواه الديلمي في الفردوس، وإنما قال المصنف في حق غير من بشره النبي بالجنة لأن هؤلاء مأمونو العاقبة لتبشير الصادق المصدوق لهم بالموت على الإيمان، فهؤلاء نجزم بأنهم من أهل الجنة. وكذا من بلغ درجة الولاية فهو مأمون العاقبة محفوظ من الكفر على الصحيح. لكن نحن لا اطلاع لنا على ذلك، فلذلك لا نجزم لإنسان بعينه أنه ولي وأنه ناج، وإن كنا نقول من بلغ درجة الولاية فلا ينقلب حاله إلى

الكفر، ويشهد لذلك قول النبي ﷺ فيما يروي عن ربه عز وجل: «**وما يزال عبدي يتقرب إلي بالنوافل حتى أحبه**» رواه البخاري، وفي رواية أبي نعيم في الحلية: «**ويكون من أوليائي وأصفيائي**».

(ص) ولا يجوز أن يقال: الذنب لا يضرّ مع الإيمان، بل يضرّ؛ لأنه يثبت به للحال جوازُ المؤاخذة عليه، وعسى لا يُعفى عنه.

(ش) أن هذا رد على المرجئة كما تقدم فإنهم أرجؤوا العذاب عن العصاة بمعنى أنهم نفوه عنهم وبنوا ذلك على أن ءايات الوعيد كلها مخصصة في الكفار وءايات الوعد عامة في المؤمنين تقيهم وفاسقهم، وقال أهل السنة ءايات الوعد ظاهرة العموم وءايات الوعيد ظاهرة العموم، ولا يصح نفوذ كلها لوجهه بسبب تعارضها في الظاهر كقوله تعالى: ﴿لَا يَصْلَىٰهَآ إِلَّا ٱلْأَشْقَى ۞ ٱلَّذِى كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ﴾[1] وقوله: ﴿وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَإِنَّ لَهُۥ نَارَ جَهَنَّمَ﴾[2] فلا بد أن نقول: إن ءايات الوعد لفظها لفظ عام والمراد بها الخصوص في المؤمن المحسن وفي التائب، وفيمن سبق في علمه تعالى العفو عنه دون تعذيب من العصاة، وإن ءايات الوعيد لفظها لفظ عام والمراد بها الخصوص في الكفرة، وفيمن سبق في علمه تعالى أنه يعذبه من العصاة. وتحكم بقولنا الآية المارة وهي نص في موضع النزاع، قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ﴾[3] فإنها جلت الشك وردت على المرجئة والمعتزلة معا؛ وذلك أن قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ﴾ فصل مجمع عليه، وقوله: ﴿وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ﴾ فصل قاطع بالمعتزلة راد على قولهم ردا لا محيد عنه. ولو وقفنا في هذا الموضع من الكلام لصح قول المرجئة فجاء قوله: ﴿لِمَن يَشَآءُ﴾ رادا عليهم موجبا أن غفران ما دون الشرك إنما هو لقوم دون

(١) سورة الليل / ١٥-١٦.

(٢) سورة الجن / ٢٣.

(٣) سورة النساء / ٤٨.

قوم، بخلاف ما زعموه من أنه مغفور لكل مؤمن.

(ص) وكلّ آدميّ له أجل واحد، والمقتول ميّت بأجله ليس له أجل آخر، وأجل الإنسان منتهى عمره.

(ش) أنه لا يموت أحد من الخلق إلا في أجله وهو الوقت الذي كتب اللَّه في الأزل انتهاء حياة الإنسان فيه بقتل أو غيره وذلك بأن اللَّه تعالى قد حكم بآجال العباد بلا تردد فقال ﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ﴾ وحكم بأنهم ﴿لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ﴾[1]، وفي الحديث الصحيح: «**إن خلق أحدكم يُجمع في بطن أمه أربعين يوما ثم يكون علقة مثله ثم يكون مضغة مثله ثم يبعث اللَّه إليه الملك فيؤذن بأربع كلمات، فيكتب: رزقه، وأجله، وعمله، وشقي أم سعيد، ثم ينفخ فيه الروح**» الحديثَ، فإنه يشهد أن الملك يكتب الوقت المقدر لموت هذا الإنسان قبل أن تلده أمه، وخالف في ذلك المعتزلة فقالوا إن المقتول ميت في غير أجله بناء على نفيهم خلق اللَّه لأعمال العباد، ومما أجاب به أهل السنة أن اللَّه مطلع على أحوال العباد كلها، وهو عالم بها من غير تردد، فحكم بموتهم في الوقت الذي علم موتهم فيه، ولا يجوز أن يشاء موتهم في زمن يعلم أنهم لن يبلغوه لما فيه من تجهيل نفسه، وهو محال.

واستدل أهل السنة أيضا بقوله تعالى ﴿وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَن تَمُوتَ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ﴾[2] وقوله ﴿قُلْ يَتَوَفَّاكُم مَّلَكُ الْمَوْتِ الَّذِي وُكِّلَ بِكُمْ﴾[3]، ويلزم على قول المعتزلة بطلان ولاية ملك الموت عن عموم تسليط اللَّه تعالى على قبض أرواح العالمين وذلك لأن القاتل عندهم هو الذي تولى إماتة هذا

(١) سورة الأعراف / ٣٤.

(٢) سورة ءال عمران / ١٤٥.

(٣) سورة السجدة / ١١.

المقتول فيكون هو من توفاه.

وتمسك المعتزلة بشبهة أن المقتول إذا كان ميتا بأجله فلماذا يقتص من القاتل مع أنه لم يقتله إلا في الوقت الذي شاء اللَّه موته فيه، فأجاب أهل السنة بأن وجوب القصاص على القاتل ليس على ما وجد في المقتول من المعنى المنافي للحياة ولا على انزهاق الروح، بل لمباشرته بمحل قدرته الفعل المنهي عنه من مباشرة المقتول بضربه بالسيف ونحوه الذي أفضى به إلى الموت، فاستحق القصاص لذلك.

(ص) وكلّ أحد يأكل رزق نفسه، ولا يقدر أحد أن يأكل رزق غيره، وكلّ من أكل شيئًا من حلال أو حرام فذلك رزقه.

(ش) أن الرازق عند أهل السنة هو اللَّه تعالى ولا رازق غيره قال تعالى ﴿إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلرَّزَّاقُ﴾[1] فأفهم ضمير الفصل الحصرَ بأنه لا رازق غيره تعالى، وخالف في ذلك المعتزلة فقالوا من حصل له الرزق بتعب فهو الرازق نفسه ومن حصله بغير تعب فاللَّه هو الرازق له، وأما عند أهل السنة فالرزق هو ما ينتفع به في التغذي وغيره كاللبس ولو كان حراما بسرقة أو غصب، وقال بعض أهل السنة الرزق هو اسم لما يسوقه اللَّه تعالى إلى الحيوان من إنسان أو غيره كالجن والبهائم وقال التفتازاني في شرح العقائد (ص/ ١٢٨) هو أولى لخلو الأول عن معنى الإضافة إلى اللَّه تعالى، وقالت المعتزلة لا يكون الرزق إلا حلالا وعرفوا الرزق بأنه مملوك يأكله المالك فأورد عليهم بأنه يلزم عليه أن لا يكون ما ينتفع به الدواب رزقا وهو مخالف لقوله تعالى ﴿۞ وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي ٱلۡأَرۡضِ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزۡقُهَا﴾[2]، ففر بعض المعتزلة من ذلك بقولهم الرزق ما لا يمنع من الانتفاع به فيشمل الرزق للبهائم، وأجيب بأنه يلزم عليه

(١) سورة الذاريات / ٥٨.

(٢) سورة هود / ٦.

أن المغتذي بالحرام فقط طولَ عمره لم يرزقه اللَّه وهو أيضا مخالف للآية المتقدمة.

وقوله «وكلّ أحد يأكل رزق نفسه، ولا يقدر أحد أن يأكل رزق غيره» يدل عليه قوله ﷺ: «**إن روح القدس نفث في روعي أن نفسا لن تموت حتى تستكمل رزقها فاتقوا اللَّه وأجملوا في الطلب**» وأما على قول المعتزلة في تعريف الرزق فيلزم عليه أن الإنسان قد يأكل رزق غيره إذ من المعلوم أن الإنسان قد يأكل مملوك غيره وهو ممنوع من ذلك.

(ص) وكتابة الكرام الكاتبين أعمالَ بني آدم في الدنيا حقّ.

(ش) أن مما يؤمن به أهل السنة إثبات وجود الحفظة وهم ملائكة كرام يحصون لأعمال بني ءادم في الدنيا قال تعالى ﴿وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَٰفِظِينَ ۞ كِرَامًا كَٰتِبِينَ ۞ يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ﴾[1] وقال تعالى ﴿مَّا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ﴾[2] فبيّنت الآية أن كل قول يتلفظ به المرء يكتبه الملكان رقيب وعتيد، سواء كان هذا اللفظ خيرا أم شرا أم مباحا؛ وذلك أن «ما» حرف نفي و«قولٍ» نكرة والنكرة إذا جاءت في سياق النفي أفادت العموم فكانت الآية لذلك مفيدة أن كل قول يتكلم به الشخص يكتبه الملكان إلا أنه قد جاء في النصوص ما يدل على أن المباح والمكروه يمحيان ولا يكونان يوم القيامة في صحيفة الإنسان عند وزن أعماله وهذا أحد تفاسير قوله تعالى ﴿يَمْحُوا۟ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ وَيُثْبِتُ﴾[3]، وهذان الملكان يلازمان العبد ولا يفارقانه إلا نادرا كأن كان في حال التغوط أو الجماع فيبتعدان عنه ومع ذلك يعلمهما اللَّه ما قال وما فعل فيكتبانه.

---

(١) سورة الانفطار / ١٠-١١-١٢.

(٢) سورة ق / ١٨.

(٣) سورة الرعد / ٣٩.

ومن الحكمة في ذلك الزيادة في ترغيبهم في الخيرات وتحذيرهم عن ارتكاب السيئات إذ جميع ما تكتب الحفظة من خير وشر عملوه فإنهم يقرؤونه يوم القيامة ويجازون عليه، فيبعثه ذلك في الدنيا على الازدياد من الخير والكف عن الشر، ولأن في الشاهد من علم أن عليه رقيبا وحافظا يحفظ عليه أفعاله ويراقب أحواله كان أحذر في التنبه والتيقظ.

(ص) وعذاب القبر للكفار حق، ولمن كان مستحقًّا لذلك من المؤمنين حقّ. والإنعام على أهل الطاعة وإيصالُ اللذات إلى أبدانهم في القبر حقّ. يخلق اللّٰه تعالى في الميّت في القبر ضربَ حياة بقدر ما يتألّم به أو يتلذّذ.

(ش) أنه مما يؤمن به أهل السنة هو إثبات عذاب القبر لمن كان له أهلا قال اللَّه تعالى ﴿ٱلنَّارُ يُعۡرَضُونَ عَلَيۡهَا غُدُوّٗا وَعَشِيّٗا﴾[1] أي أول النهار وءاخره ﴿وَيَوۡمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ﴾ يقال لخزنة جهنم ﴿أَدۡخِلُوٓاْ ءَالَ فِرۡعَوۡنَ﴾ أي أتباعه إذ معلوم أن مِن أهله ءاسية بنتَ مزاحم وهي من خير نساء العالمين ﴿أَشَدَّ ٱلۡعَذَابِ﴾ أي عذاب جهنم، وروى ابن ماجه مرفوعا «**إذا مات أحدكم عرض على مقعده بالغداة والعشي إن كان من أهل الجنة فمن أهل الجنة وإن كان من أهل النار فمن أهل النار يقال هذا مقعدك حتى تبعث يوم القيامة**» والمعنى أن النار تعرض عليهم ففي الآية قلبٌ للمبالغة وكذا في الحديث أي يحصل لهم ذلك مرتين مرة أول النهار ومرة ءاخر النهار، وقال البقاعي في نظم الدرر (١٧/ ٨٢) «إن هذه الآية نص في عذاب القبر كما نُقل عن عكرمة ومحمد بن كعب» وقال النسفي في تفسيره (٣/ ٢١٤) «وهذه الآية دليل على عذاب القبر» وقد ذكرها البخاري تحت باب بعنوان ما جاء في عذاب القبر.

(١) سورة غافر / ٤٦.

وقال تعالى: ﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي﴾[١] أي عن الإيمان ﴿فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكًا﴾ أي ضيقة ﴿وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَىٰ﴾ أي عن الحجة ففي الآية بيان أن المعيشة الضيقة تحصل له قبل يوم القيامة وقد فسرها رسول اللَّه ﷺ بعذاب القبر كما رواه مرفوعا ابن حبان والطبراني من طريق أبي هريرة رضى اللَّه عنه والبيهقي من طريقه وطريق أبى سعيد الخدري رضي اللَّه عنهما، ومعلوم أن الناس لا يرون النار في الدنيا وأن كثيرا من الكفار لهم في الدنيا معيشة موسعة.

وأفادت كل من الآيتين أن ذلك قبل يوم القيامة فبقي أنه في القبر أي في الحياة البرزخية، والبرزخ الفاصل بين الشيئين، فحياة البرزخ هي الفاصلة بين الدنيا والآخرة، وهاتان الآيتان واردتان في عذاب القبر للكفار لأن الأولى تتكلم عن أتباع فرعون والثانية عمن أعرض عن الإيمان، وقال تعالى أيضا ﴿سَنُعَذِّبُهُم مَّرَّتَيْنِ ثُمَّ يُرَدُّونَ إِلَىٰ عَذَابٍ عَظِيمٍ﴾[٢] وقد استدل بها البخاري في صحيحه (١/ ٤٦٠) لذلك، وأما عصاة المسلمين من أهل الكبائر الذين ماتوا قبل التوبة فهم صنفان صنفٌ يُعفيهم اللَّه من عذاب القبر فلا يصيبهم وصنفٌ يعذبهم اللَّه في القبر ثم ينقطع عنهم العذاب ولا يزيد على سبعة أيام ويُؤخَّر لهم بقيةُ عذابهم إلى الآخرة فلا يستمر العذاب مدة بقاء الجسد، وخرج بالعصاة التقاةُ فإنهم منعمون في القبر، وبقولنا من أهل الكبائر أهلُ الصغائر الذين اجتنبوا الكبائر فإنه مغفور لهم كما تقدم، وبقولنا الذين ماتوا قبل التوبة من تاب قبل وفاته فإنه مغفور له أيضا.

والأحاديث الدالة على عذاب القبر عديدة تبلغ رتبة التواتر المعنوي منها أن النبي ﷺ كان يدعو في الصلاة فيقول «**اللهم إني أعوذ بك من عذاب القبر**» رواه البخاري، وروى أيضا أن عائشة رضي اللَّه عنها سألت النبي عن

---

(١) سورة طه / ١٢٤.

(٢) سورة التوبة / ١٠١.

عذاب القبر فأثبته ﷺ، وروى ابن ماجه من حديث أبي هريرة مرفوعا: «**أكثر عذاب القبر من البول**»، وروى الترمذي «**إنما القبر روضة من رياض الجنة أو حفرة من حفر النار**»، وروى البخاري ومسلم والترمذي وأبو داود والنسائي عن ابن عباس رضي اللَّه عنهما أنه قال: مر رسول اللَّه ﷺ على قبرين فقال: «**إنهما لَيعذبان**» واللام فيه للتأكيد فقد أثبت النبي لهما العذابَ في القبر ثم قال «**وما يعذبان في كبير إثم**» أي بحسب ما يتوهم الناس، وفي كثير من الروايات من غير تقييد بالإثم وفسره بعضهم بأنه ليس كبيرا دفعه والتحرز عنه بل يسهل ذلك، قال «**بلى**» أي في الحقيقة إنهما يعذبان في ذنب كبير لا كما يحسب بعض الناس «**أما أحدُهما فكان يمشي بالنميمة وأما الآخر فكان لا يستتر من البول**» أي أنه لا يجعل بينه وبين بوله سترة يعني لا يتحفظ منه فيوافق رواية «**لا يستنزه**» لأنها من التنزه وهو الإبعاد وفي ذلك إثباتٌ صريح لعذاب القبر وهو وارد في العصاة بدليل قوله ثم دعا النبيُّ بعسيب رطب أي غصنَ نخلٍ أخضرَ فشقّه اثنين فغرَس على هذا من جهة رأسه شقا وعلى هذا من جهة رأسه الشق الآخر ثم قال «**لعله يخفف عنهما**» أي لعل عذاب القبر يخفف عنهما ما دام هذان الشقان رطبين كما يدل عليه رواية البخاري وفيها «**لعله يخفف عنهما ما لم ييبسا**». قال ابن دقيق العيد في إحكام الأحكام (١/ ١٠٦) ما نصه: «إشارة إلى أن النبات يسبح ما دام رطبا فإذا حصل التسبيح بحضرة الميت حصلت له بركته» ثم قال: «أخذ بعض العلماء من هذا: أن الميت ينتفع بقراءة القرءان على قبره، من حيث إن المعنى الذي ذكرناه في التخفيف عن صاحبي القبرين هو تسبيح النبات ما دام رطبا فقراءة القرءان من الإنسان أولى بذلك».

وقال النووي في شرح مسلم (٣/ ٢٠٢) ما نصه: «واستحب العلماء قراءة القرءان عند القبر لهذا الحديث لأنه إذا كان يرجى التخفيف بتسبيح الجريد فتلاوة القرءان أولى».

وقال القرطبي في تفسيره (١٠/ ٢٦٧) ما نصه: «قال علماؤنا ويستفاد

من هذا غرسُ الأشجار وقراءة القرءان على القبور، وإذا خفف عنهم بالأشجار فكيف بقراءة الرجل المؤمن القرءان».

وأما ما رواه مسلم من أن النبي ﷺ قال «**فأحببت بشفاعتي أن يرفّه عنهما**» فليس فيه نفي فائدة الجريد الرطب بل تشفع النبي ﷺ بأن يكون في تسبيح الجريد الأخضر فائدة للميت المسلم فيخفف عنهما بذلك ثم ينسحب ذلك على من يكون بعدهما ولهذا أوصى بعضُ الصحابة أن يجعل على قبره الجريد وكذا بعض التابعين واستمر ذلك بعدهم في الأمة إلى أيامنا ولو لم يكن نفع في وضع الجريد على القبر لما فعله رسول اللَّه ﷺ إذ لكان عبثا وهو عليه الصلاة والسلام معصوم عنه بل الأصل في أفعاله عليه الصلاة والسلام أنها للتعليم ولتقتدي به الأمة لا للخصوصية كما ذكره الأصوليون.

واعلم أنه ثبت في الأخبار الصحيحة عود الروح إلى الجسد في القبر كحديث البراء بن عازب المرفوع الذي رواه الحاكم في المستدرك والبيهقي في الشعب وأبو عَوانة في صحيحه وصححه غير واحد من الحفاظ وفيه «**فترد روحه إلى جسده**» وقال الحاكم: «هذا حديث صحيح على شرط الشيخين» ووافقه الذهبي، وكحديثِ ابن عباس رضي اللَّه عنهما مرفوعا: «**ما مِن أحد يمر بقبر أخيه المؤمن كان يعرفه في الدنيا**» أي وهو غير شهيد كما قاله القرطبي حيث قال «عمومه محمول على غير الشهداء» «**فيسلم عليه إلا عرفه ورد عليه السلام**» رواه ابن عبد البر في التمهيد والاستذكار بإسناد صحيح كما نقل المناوي في الفيض عن الحافظ العراقي ورواه الحافظ عبد الحق الإشبيلي في الأحكام الصغرى وصححه فيستلزم ذلك رجوع الروح إلى البدن كله وذلك ظاهر الحديث المذكورِ ويدل عليه حديث ابن حبان «**نعم كهيئتكم اليوم**» وقال بعضهم كالحافظ ابن حجر في الفتح (٣/ ٢٣٥) تعود الروح إلى بعض الجسد وقال الحافظ العراقي[1]: «المعرفة ورد السلام فرعُ الحياة وردِّ الروح ولا

(١) انظر: فيض القدير (٥/ ٤٨٧).

مانع من خلق هذا الإدراك برد الروح في بعض جسده وإن لم يكن ذلك في جميعه».

تنبيه: يتأكد عود الحياة في القبر إلى الجسد مزيد تأكد في حق الأنبياء عليهم السلام فإنه ورد من حديث أنسٍ رضي اللَّه عنه عن النبي ﷺ أنه قال «**الأنبياء أحياءٌ في قبورهم يصلون**» صححه الحافظ البيهقي في جزء حياة الأنبياء وأقره الحافظ ابن حجر العسقلاني فحكم بقوته في الفتح، ويشهد له ما رواه مسلم أن النبي مر ليلة الإسراء بقبر موسى عليه السلام وهو قائم يصلي فيه، وقال الحافظ في الفتح (٦/ ٤٨٧) ما نصه: «قال البيهقي وفي حديث سعيد بن المسيب عن أبي هريرة أنه لقيهم ببيت المقدس فحضرت الصلاة فأمهم نبينا ﷺ ثم اجتمعوا في بيت المقدس وفي حديث أبي ذر ومالك بن صعصعة في قصة الإسراء أنه لقيهم بالسموات وطُرق ذلك صحيحة فيحمل على أنه رأى موسى قائما يصلي في قبره ثم عرج به هو ومن ذكر من الأنبياء إلى السموات فلقيهم النبي ﷺ ثم اجتمعوا في بيت المقدس فحضرت الصلاة فأمهم نبينا ﷺ قال وصلاتهم في أوقات مختلفة وفي أماكن مختلفة لا يرده العقل وقد ثبت به النقل فدل ذلك على حياتهم، قلتُ وإذا ثبت أنهم أحياء من حيث النقل فإنه يقويه من حيث النظر كونُ الشهداء أحياء بنص القرءان والأنبياء أفضل من الشهداء، ومن شواهد الحديث ما أخرجه أبو داود من حديث أبي هريرة رفعه وقال فيه «**وصلوا علي فإن صلاتكم تبلغني حيث كنتم**» سنده صحيح وأخرجه أبو الشيخ في كتاب الثواب بسند جيد بلفظ «**من صلى علي عند قبري سمعته ومن صلى علي نائيا بلغته**» وعند أبي داود والنسائي وصححه ابن خزيمة وغيره عن أوس بن أوس رفعه في فضل يوم الجمعة «**فأكثروا علي من الصلاة فيه فإن صلاتكم معروضة علي**» قالوا يا رسول اللَّه وكيف تعرض صلاتنا عليك وقد أرمت؟ قال «**إن اللَّه حرم على الأرض أن تأكل أجساد الأنبياء**»». انتهى كلام العسقلاني.

فائدة: قولنا «عذاب القبر» لا نعني به أن من لم يقبر لا يصل إليه العذاب

بعد وفاته، بل من مات ولم يدفن يصله العذاب أيضا كما نص عليه القاضي زكريا الأنصاري في حاشيته على المحلي (٤/ ٢٤١).

ومما ورد في أحاديث نعيم القبر حديث مسلم عن أم سلمة رضي اللَّه عنها أن رسول اللَّه ﷺ قال لما مات أبو سلمة: «**اللهم افسح له في قبره ونور له فيه**» وروى الديلمي وأبو نعيم عن علي رضي اللَّه عنه قال قال رسول اللَّه ﷺ: «**من قال في كل يوم مائة مرة لا إله إلا اللَّه الملك الحق المبين كان له أمانا من الفقر وأنسا في وحشة القبور وفتحت له أبواب الجنة**»، وروى أبو يعلى والبيهقي عن أبي هريرة عن رسول اللَّه ﷺ قال: «**المؤمن في قبره في روضة خضراء ويرحب قبره سبعين ذراعا وينور له كالقمر ليلة البدر**» وهذا حاصل للمؤمن التقي ومن شاء اللَّه له من غير الأتقياء كبعض شهداء المعركة ممن استشهدوا ولم يكونوا أتقياء، وبعض الناس يتسع قبرهم مد البصر، ومن النعيم أيضا شم رائحة الجنة، ومما شوهد من ذلك ما حصل مع الصحابة في قصة العلاء بن الحضرمي رضي اللَّه عنه حين ذهب في غزاة له ومات في طريق العودة فدفنوه في أرض مسبعة ثم رجعوا إليه وفتحوا قبره فلم يجدوه ووجدوا قبره موسعا مد البصر ومنيرا.

(ص) وسؤال منكر ونكير للميّت في القبر حقّ، يسألان الميّتَ عن ربّه ودينه ونبيّه.

(ش) أن مما يثبته أهل السنة والجماعة سؤالَ الملكين منكر ونكير للميت بعد رد روحه إليه عن ربه ودينه ونبيه، قال تعالى ﴿ يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱلْقَوْلِ ٱلثَّابِتِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ﴾[1] كما فسرها النبي ﷺ فيما رواه الشيخان، ورويا أيضا عن أنس رضي اللَّه عنه عن النبي ﷺ أنه قال: «**العبد إذا وُضِع في قبره وتولى وذهبَ أصحابُه حتى إنّه ليسمع قرعَ نعالهم أتاه**

(١) سورة إبراهيم / ٢٧.

ملكان فأقعداه فيقولان له: ما كنت تقول في هذا الرجل محمد؟» أي الذي جاءكم ودعاكم إلى الإيمان به وليس المراد أنه يكون حاضرا معهم عند السؤال بل هي إشارة إلى المعهود ذهنا «**فيقول: أشهد أنه عبد اللَّه ورسوله، فيقال: انظر إلى مقعدك من النار أبدلك اللَّه به مقعدا من الجنة فيراهما جميعا**» أي المقعدين اللذين أحدهما من الجنة والآخر من النار ويعرف حينئذ فضل الإسلام معرفة عيانية كما كان يعرف في الدنيا معرفة قلبية «**وأما الكافر أو المنافق فيقول لا أدري كنت أقول ما يقول الناس فيقال**» له إهانةً له «**لا دريتَ ولا تليت**» أي لا عرفتَ وقوله «لا تليت» للتأكيد والمراد منهما واحد كما تقول العرب «حسن بسن» و«شيطان ليطان» «**ثم يُضرب بمطرقة من حديد ضربةً بين أذنيه**» من جهة قفاه ضربةً لو ضرب بها الجبل لاندكّ «**فيصيح صيحة يسمعُها من يليه**» من حيوان «**إلا الثقلين**» أي الإنسَ والجن، والحكمة في عدم سماعهما الابتلاء فلو سمعا لكان الإيمان منهما ضروريا قاله القسطلاني ولَمَا تدافَن الناس، ويستثنى من هذا السؤال الأنبياء والشهداء والأطفال الذين ماتوا قبل البلوغ والمجانين الذين لم يكلفوا، هذا وقد اختلف هل هذا السؤال خاص بهذه الأمة أم لا، فقال الحكيم الترمذي هو من خصائص هذه الأمة واستدل له بظاهر بعض الأخبار كخبر «**إن هذه الأمة تبتلى في قبورها**» وخبر «**أوحي إلي أنكم تفتنون في قبوركم**»، واختلف أيضا هل السؤال خاص بالمقبور أم يشمل غيره كمن أكلته السباع أو احترق وتمزق جسمه فيعيد اللَّه لهذه الأجزاء الإحساس ويسأله الملكان وما ذلك بعزيز على اللَّه تعالى.

فائدة: الثابت أن اسم الملكين هو مُنكَر ونكير من غير فرق بين المؤمن والكافر، خلافا لابن يونس القائل بأن الملكين الآتيين إلى التقي هما مُبشِّر وبشير.

فائدة ثانية: إن قيل كيف يمكن سؤالُ عدد كثير من الأموات في وقت واحد؟ فالجواب ما قاله أبو عبد اللَّه الحليمي (ت ٤٠٣ه) في المنهاج في

شعب الإيمان (١/ ٤٨٩): «والذي يشبه أن تكون ملائكة السؤال جماعة كثيرة يسمى بعضهم منكرا وبعضهم نكيرا فيبعث إلى كل ميت اثنان منهما» أي فيأتي إلى كل ميت اثنان منهم أحدهما من هذا الفريق والآخر من ذاك الفريق، ويجوز أن يكونا اثنين فقط ولكل منهما أشباح كثيرة تديرها روح واحدة فيحضران إلى كل ميت بشبحين إما بالشبح الأصلي وإما بالشبح الفرعي، وكذلك عزرائيل يحتمل أنه يتطور إلى أشباح كثيرة ويقبض هذه الأرواح الكثيرة فلو أراد أن يقبض مائة ألف نفس في ساعة واحدة يستطيع أن يحضر ويقبض هذه الأرواح ثم يتناولها منه الملائكةُ إما ملائكة الرحمة وإما ملائكة العذاب ولا يتركون الروح في يد عزرائيل طرفة عين فيذهبون بها إلى السماء إن كانت الروح مؤمنةً وإن كانت الروح كافرة يرفعونها إلى الجو ويمرون بجمع من الملائكة فيجدون لهذه الروح رائحة خبيثة فيقولون روح من هذه؟ فيقولون «روح فلان» فلا يفتح له باب السماء فيذهب بها إلى الأرض السابعة في سجين.

(ص) ويوم القيامة.

(ش) أن مما يجب الإيمان به يوم القيامة وهو يوم طويل مقداره خمسون ألف سنة من سنينا وفيه خمسون موقفا كل موقف مقداره ألف عام قال اللَّه تعالى في سورة المعراج ﴿تَعْرُجُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ إِلَيْهِ فِى يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُۥ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ﴾[1] وقوله ﴿إِلَيْهِ﴾ أي إلى المكان المشرف عنده وهو السماء وليس المراد أن اللَّه يسكن السماء تعالى اللَّه عن ذلك علوا كبيرا، وقبل يوم القيامة هناك عشر علامات تحصل تسمى بعلامات الساعة الكبرى أخبر عنها النبي ﷺ وهي:

خروج الأعور الدجال وهو رجل ضخم من بني ءادم إحدى عينيه طافية

(١) سورة المعارج / ٤.

والأخرى ممسوحة فلذلك يقال له الأعور وهو أول العشرة.

والعلامة الثانية نزول عيسى عليه السلام من السماء الثانية وهو عبد اللَّه ورسوله وقد تقدم الكلام في بعض ذلك، قال تعالى في سورة ءال عمران ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَ﴾[1] أي كما أن ءادم عليه السلام خلق من تراب ليس له أب فكذلك سيدنا عيسى، وقال تعالى في حق سيدنا عيسى وأمه ﴿كَانَا يَأْكُلَانِ ٱلطَّعَامَ﴾[2] وهذا دليل على عدم استحقاق عيسى الألوهية فإن الإله لا يأكل ولا يشرب.

والعلامة الثالثة خروج قوم يأجوج ومأجوج وهم كثيرون جدا أجارنا اللَّه من شرهم، قال تعالى ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا فُتِحَتْ يَأْجُوجُ وَمَأْجُوجُ وَهُم مِّن كُلِّ حَدَبٍ يَنسِلُونَ﴾[3] وقد جاء في وصفهم أن الواحد منهم لا يموت حتى يلد ألفا لصلبه.

والرابعة والخامسة طلوع الشمس من مغربها وخروج دابةِ الأرض وهي دابة تكلم الناس وتميز المؤمن من الكافر، وهاتان العلامتان تحصلان في يوم واحد، وبعد ذلك لا يقبل اللَّه من أحد توبة.

ثم الدخانُ وثلاثة خسوف خسفٌ في المشرق وخسف في المغرب وخسف في جزيرة العرب.

والعاشرة نار تخرج من قعر عدن في اليمن فتسوق الناس إلى المغرب.

وهناك علامات أخرى تسمى بعلامات الساعة الصغرى تحصل قبلها وأكثرها حصل فإن الساعة قريبة قال تعالى ﴿ٱقْتَرَبَتِ ٱلسَّاعَةُ وَٱنشَقَّ

(١) سورة ءال عمران / ٥٩.

(٢) سورة المائدة / ٧٥.

(٣) سورة الأنبياء / ٩٦.

ٱلْقَمَرُ ﴾[1] فعلينا أن نتوب قبل فوات الأوان.

وبعد حصول العلامات العشر تأتي ريح وتدخل تحت إبط كل مسلم فيموت كل المسلمين ويبقى الكفار ثم بعد مائة عام تقوم القيامة عليهم حيث ينفخ الملك إسرافيل عليه السلام في البوق فيفزعون من هذا الصوت فإن هوله عظيم تتقطع منه قلوب الكفار حتى يموتوا من شدة هذا الصوت وكذلك الجن الكفار يموتون تلك الساعة فلا يبقى بشر ولا جن على وجه الأرض إلا وقد مات، وهذا بالنسبة للأحياء وأما الذين ماتوا قبل ذلك من المسلمين والكافرين فيغشى عليهم تلك الساعة أي يغمى عليهم إلا شهداء المعركة فلا يغشى عليهم تلك الساعة وهذه هي النفخة الأولى عندما يموت الخلق إلا من شاء اللَّه له البقاء كحملة العرش وخزنة الجنة وخزنة النار والحور والولدان فلا يموتون، وءاخرُ من يموت سيدُنا عزرائيل عليه السلام ثم يحيي اللَّه إسرافيلَ بعد أربعين عاما فينفخ النفخة الثانية فيحيي اللَّه الموتى ويخرجهم من قبورهم وهذا أول القيامة المسمى بالبعث فالقيامة من خروج الناس من قبورهم إلى استقرار أهل الجنة في الجنة وأهل النار في النار.

(ص) والبعث وإحياء الموتى.

(ش) أن أول حوادث يوم القيامة هو إحياء الموتى عند النفخة الثانية في الوقت الذي شاءه اللَّه تعالى وإعادة الأجساد التي أكلها التراب إن كانت من الأجساد التي يأكلها التراب وهي أجساد غير الأنبياء لما صح في حديث أبي داود وغيره: «**إن اللَّه عز وجل حرم على الأرض أجساد الأنبياء**»، وشهداء المعركة لما تواتر من مشاهدة الشهداء بعد سنين طويلة من دفنهم لم تأكل الأرض أجسادهم كما شوهد هذا في شهداء أحد وغيرهم، ويشير إليه قوله

(١) سورة القمر / ١.

تعالى ﴿بَلْ أَحْيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ﴾[١]، ومما حصل في زماننا هذا بقاء جثمان محمد عمارة عند اليهود قريب العشرين سنة فقد تفوجئ به عند تبادل الجثث، وكذلك زياد الأيوبي بقيت جثته عند اليهود ثمانية عشر عاما ثم أعيد دفنه في محلة الهري في الشمال وقد رأت عمته الدم يخرج منه عند دفنه، وأجساد بعض الأولياء أيضا لما تواتر من مشاهدة بعض الأولياء الذين لم تبل أجسادهم عند فتح قبورهم بعد مدة طويلة من دفنهم ومنهم الشيخ الحافظ أبو عمرو عثمان بن عبد الرحمن المعروف بابن الصلاح رحمه اللَّه تعالى فقد فتح قبره بعد أكثر من سبعمائة سنة من دفنه فوجد صحيح الجسم والكفن، وقريب من ذلك حصل للحافظ أبي شامة المقدسي ووجدوا الشامة لا زالت على وجهه، وكذلك الصحابي الجليل عبد اللَّه بن عمرو والد جابر، قال تعالى ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ﴾[٢] وقال ﴿كَمَا بَدَأْنَآ أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُۥ﴾[٣] وقال ﴿كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ﴾[٤].

فائدة: اختلف هل المعاد هو إيجاد للجسم بأجزائه الأصلية وعوارضه من الكم والكيف بعد فنائه أم هو جمع لأجزائه بعد تفرقها، وظاهر كلام ابن السبكي الأول وقال شيخنا في المطالب الوفية (ص/ ١٧١) هو الموافق لظواهر النصوص، واعتمد القاضي زكريا الأنصاري التوقف، وأما أن يقال إن الأجسام بعد البعث تعدم ثم يخلق غيرها فيدخلون بها الجنة والنار فهذا مخالف لإجماع المسلمين.

ثم بعثهم بإخراجهم من القبور التي دفنوا فيها قال تعالى ﴿وَنُفِخَ فِى ٱلصُّورِ

(١) سورة ءال عمران / ١٦٩.

(٢) سورة الروم / ٢٧.

(٣) سورة الأنبياء / ١٠٤.

(٤) سورة الأعراف / ٢٩.

فَإِذَا هُم مِّنَ ٱلْأَجْدَاثِ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يَنسِلُونَ﴾[١] وقال ﴿ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ تُبْعَثُونَ﴾[٢] وقال ﴿زَعَمَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَن لَّن يُبْعَثُوا۟ قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّى لَتُبْعَثُنَّ﴾[٣] وقال ﴿أَلَا يَظُنُّ أُو۟لَـٰٓئِكَ أَنَّهُم مَّبْعُوثُونَ ۞ لِيَوْمٍ عَظِيمٍ ۞ يَوْمَ يَقُومُ ٱلنَّاسُ لِرَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ﴾[٤] وأول من ينشق عنه القبر سيدنا محمد ﷺ، فإن قيل كيف يجمع بين هذا وبين ما ورد في الحديث من أن النبي ﷺ قال «**فأجد موسى متعلقا بقائمة من قوائم العرش فلا أدري أأفاق قبلي أو جوزي بصعقة الطور**» فقد أجاب عنه بعض العلماء بأن هذا الحديث يحتمل أن يكون قبل أن يوحى إليه أنه أول من ينشق عنه القبر والله أعلم، وبعده الأنبياء عليهم الصلاة والسلام ثم أهل مكة والمدينة والطائف.

(ص) وحشر الأجساد.

(ش) أن حشر الأجساد حق واقع في الوقت الذي شاءه اللَّه تعالى قال تعالى ﴿وَحَشَرْنَـٰهُمْ فَلَمْ نُغَادِرْ مِنْهُمْ أَحَدًا﴾[٥] وهو أن يجمع الخلق بعد البعث، ويكون على القبر ملكان يقال لأحدهما سائق وللآخر شهيد فيسوقون العباد إلى أرض الشام كما جاء في الأحاديث الصحيحة، ثم إما أن تمدَّ أرض الشام لتكون محشر كل الناس وإما أن يكون المراد أنهم يوجهون إليها من النواحي المختلفة وإن كان قسم منهم خارجا عنها، ثم تدك هذه الأرض وينقلون إلى ظلمة عند الصراط وتدك الجبال حتى تصير غبارا ناعما تطير في الهواء قال تعالى ﴿وَتَرَى ٱلْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِىَ تَمُرُّ مَرَّ ٱلسَّحَابِ﴾[٦] إلا ما كان من جبل

---

(١) سورة يس / ٥١.

(٢) سورة المؤمنون / ١٦.

(٣) سورة التغابن / ٧.

(٤) سورة المطففين / ٤-٥-٦.

(٥) سورة الكهف / ٤٧.

(٦) سورة النمل / ٨٨.

أحد فإنه ينقل إلى الجنة وتبدل أوصاف هذه الأرض التي خرجوا منها وقيل يؤتى بأرض أخرى ثم يعاد الناس فيكون الحساب على الأرض المبدلة وهي أرض مستوية كالجلد المشدود لا جبال فيها ولا وديان أكبر وأوسع من أرضنا هذه بيضاءُ كالفضة قال ﷺ «**يحشر الناس يوم القيامة على أرض بيضاء عفراء كقُرصة النَّقي**» أي مثل رغيف الخبز من القمح الصافي «**ليس فيها علَم لأحد**» رواه مسلم، وتطوقهم الملائكة بسبعة صفوف دائريّة قال تعالى ﴿وَجَآءَ رَبُّكَ وَٱلْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا﴾[1] فيجيءُ الملائكة إلى الأرض المبدلة أفواجا أفواجا فيحيطون بالخلق من كل الجهات ومعنى قوله ﴿وَجَآءَ رَبُّكَ﴾ أي جاءت ءاثار القدرة فيرى الخلق يومئذ عجائب قدرة اللَّه وليس المراد أن اللَّه تعالى يجيء إلى الأرض المبدلة مجيء نقلة حاشا لله فإن الانتقال من صفات المخلوقات والله تعالى ليس كمثله شيء، ومن تلك الآثار التي تَظهر ما رواه مسلم عن ابن مسعود مرفوعا «**يؤتى بجهنم يوم القيامة لها سبعون ألف زمام مع كل زمام سبعونَ ألفَ ملك يجرونها**» فيكون عدد الملائكة الذين يجرون جهنم أربع مليارات وتسعمائة مليون، وقال بعضهم المراد بالعدد التكثير، وهذا من غير أن ينفصل ذلك الجزء عنها فيرى الخلق هذا الجزء فيزداد الكفار عذابا إلى عذابهم ويزداد يقين الأتقياء بما ءامنوا به، ويخلق اللَّه لهذا الجزء من النار عينين تبصران ولسانا فصيحا ينطق فتبصر الكافرين وتقول «**وُكِّلتُ بكل من جعل مع اللَّه إلها ءاخر**» كما روي مرفوعا عند أحمد والترمذي وغيرهما، وأهل الجنة يومئذ مائة وعشرون صفا وأمة محمد ﷺ هم ثمانون صفا كما جاء في حديث الترمذي، ويأتي بعض الأنبياء ولم يؤمن به إلا واحد أو اثنان، بل بعض الأنبياء يجيء ولم يؤمن به أحد، فالحمد لله الذي جعلنا من أمة محمد عليه الصلاة والسلام.

ويكون الحشر للناس على ثلاثة أقسام:

---

(١) سورة الفجر / ٢٢.

الأول: الأتقياء يحشرون طاعمي الطعام مكسيي الثياب راكبي نوق رحائلها[١] من ذهب.

الثاني: أهل الكبائر من المسلمين الذين ماتوا بلا توبة يحشرون حفاة من غير نعال عراة من غير ثياب غرلا من غير اختتان.

الثالث: الكفار بأنواعهم يحشرون وهم يمشون على وجوههم.

كما يؤخذ ذلك من حديث أبي هريرة قال قال رسول اللَّه ﷺ: «**يحشر الناس يوم القيامة ثلاثة أصناف: صنفا مشاة، وصنفا ركبانا، وصنفا على وجوههم**» قيل: يا رسول اللَّه وكيف يمشون على وجوههم؟ قال: «**إن الذي أمشاهم على أقدامهم قادر على أن يمشيهم على وجوههم، أما إنهم يتقون بوجوههم كل حدَب وشوك**» قال الترمذي «هذا حديث حسن».

وقول المصنف «حشر الأجساد» رد على الفلاسفة المنتسبين للإسلام الذين يزعمون أن الحشر للأرواح فقط وهي من جملة المسائل التي كفروا لأجلها.

(ص) والثواب والعقاب حقّ.

(ش) مما يجب الإيمان به الثواب الأخروي للطائعين والعقاب الأخروي للعاصين وذلك فضل منه تعالى وعدل لا واجب عليه خلافا للمعتزلة، والثواب هو الجزاء الذي يجزى به المؤمن مما يسره في الآخرة على ما عمل من الطاعات في الدنيا والثواب خاص بالمؤمنين، والعقاب هو ما يسوء العبد يوم القيامة جزاء على ما ارتكبه من المعاصي والعقاب وليس خاصا بالكافرين، وهو على قسمين أصغر وأكبر، فالأكبر هو دخول النار، والأصغر هو ما دون ذلك كأذى حر الشمس يوم القيامة فإنها تقترب من الناس ذلك

(١) جمع رِحالة وهي في الأصل السرج من جلد ليس فيه خشب.

اليوم قدر ميل فمنهم من يأخذه العرق إلى كعبيه ومنهم من يأخذه إلى ركبتيه ومنهم من يأخذه إلى حِقويه والكافر يلجمه عرقه إلجاما ولا يتجاوز العرق صاحبه بل يقتصر عليه وتبلغ شدة ذلك عليهم حتى يقول الكافر من شدة ما يقاسي منها «رب أرحني ولو إلى النار»، وكوطء بعض البهائم بأقدامها من كان لا يزكيها في الدنيا، روى البخاري مرفوعا: «**تأتي الإبل على صاحبها على خير ما كانت إذا هو لم يعطِ فيها حقها تطؤه بأخفافها، وتأتي الغنم على صاحبها على خير ما كانت إذا لم يعط فيها حقها تطؤه بأظلافها وتنطحه بقرونها**» وقال ﷺ: «**ولا يأتي أحدكم يوم القيامة بشاة يحملها على رقبته لها يُعار، فيقول: يا محمد، فأقول: لا أملك لك شيئا قد بلغتُ، ولا يأتي ببعير يحمله على رقبته له رُغاء فيقول: يا محمد، فأقول: لا أملك لك من اللَّه شيئا قد بلغت**» وروى أيضا عن أبي هريرة رفعه «**من ءاتاه اللَّه مالا، فلم يؤد زكاته مُثّل له ماله يوم القيامة شجاعا أقرع له زبيبتان يطوقه يوم القيامة، ثم يأخذ بلهزمتيه -يعني بشدقيه - ثم يقول أنا مالك أنا كنزك**» وقال تعالى ﴿وَٱلَّذِينَ يَكۡنِزُونَ ٱلذَّهَبَ وَٱلۡفِضَّةَ وَلَا يُنفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ فَبَشِّرۡهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٖ * يَوۡمَ يُحۡمَىٰ عَلَيۡهَا فِي نَارِ جَهَنَّمَ فَتُكۡوَىٰ بِهَا جِبَاهُهُمۡ وَجُنُوبُهُمۡ وَظُهُورُهُمۡۖ هَٰذَا مَا كَنَزۡتُمۡ لِأَنفُسِكُمۡ فَذُوقُواْ مَا كُنتُمۡ تَكۡنِزُونَ﴾[1] وروى أيضا من حديث ابن عباس مرفوعا: «**من تحلم بحلم لم يره كلف أن يعقد بين شعيرتين ولن يفعل، ومن استمع إلى حديث قوم وهم له كارهون أو يفرون منه صُب في أذنه الآنك يوم القيامة، ومن صور صورة عذب وكلف أن ينفخ فيها وليس بنافخ**» وغير ذلك من العذاب بينما يكون المؤمن التقي تلك المدة تحت ظل العرش كما في حديث البخاري: «**سبعة يظلهم اللَّه في ظله**» أي ظل عرشه كما في حديث سلمان عند سعيد بن منصور بإسناد حسن والإضافة للتشريف كناقة اللَّه واللَّه تعالى منزه عن

(١) سورة التوبة / ٣٤-٣٥.

الظل إذ هو من خواص الأجسام: «**يوم لا ظل إلا ظله إمام عَدْل، وشاب نشأ في عبادة اللَّه، ورجل قلبه معلَّق في المساجد، ورجلان تحابا في اللَّه اجتمعا عليه وتفرقا عليه، ورجل دعته امرأة ذات منصب وجمال فقال إني أخاف اللَّه، ورجل تصدق بصدقة فأخفاها حتى لا تعلم شماله ما تنفق يمينه، ورجل ذكر اللَّه خاليا ففاضت عيناه**».

(ص) يُحيي اللّه الموتى، فيُدخل الكفّار النار ويعذّبهم بَها في طبقاتها، ويُدخل المؤمنين الجنة فيكرمهم فيها بأنواع الكرامات والنعم، ودرجات أهل الجنة في الجنة تكون على التفاوت.

(ش) بعدما ذكر المصنف رحمه اللَّه الثواب والعقاب بيّن بعض ذلك وهو إدخال الكفار النار وتعذيبهم بها وإدخال المؤمنين الجنة وإكرامهم بها، فيكون لأهل الجنة درجات متفاوتة أعلاها الفردوس روى البخاري «**إذا سألتم اللَّه فسلوه الفردوس فإنه أوسط الجنة وأعلى الجنة وفوقه عرش الرحمن**» وفي رواية ذكرها الرازي والعيني وغيرهما «**وسقفها عرش الرحمن**» فهي الآن فوق السماء السابعة من غير أن تتصل بها، ومن يدخلها من البشر يكونون على صورة ءادم عليه السلام من حيث الحجم ستون ذراعا طولا في سبعة أذرع عرضا كما رواه أحمد في المسند، جميلو الصورة فإن المؤمن أقل ما يعطى في الجنة من الجمال مثل جمال يوسف الصديقِ عليه السلام ويجعل اللَّه تعالى في كل واحد علامة تميزه عن غيره، وهم جرد جمع أجرد وهو من لا شعر على جسده مرد جمع أمرد وهو من لا لحية له فليس لهم إلا شعر الرأس والأجفان والحاجبين وكلهم كأنهم في عمر ثلاثة وثلاثين عاما قال ﷺ: «**وإنّ لكم أن تشبّوا فلا تهرَمُوا أبدا**» وروى ابن حبان في صحيحه وابن ماجه في سننه أن النبي ﷺ قال في وصف الجنة: «**هل مشمر للجنة**» وهو كناية عن الجد والاجتهاد في طلب الشيء النفيس والاهتمام في تحصيله بارتكاب أسبابه أي هل فيكم يا معاشر الأصحاب مجد مجتهد لنيل الجنة «**فإن الجنة لا خطر لها**» أي لا مثيل

لها «**هي**» أي الجنة التي رغّبتكم في طلبها والاجتهاد في نيلها «**وربِّ الكعبة**» أي أقسمت لكم برب الكعبة إنها «**نور**» أي دارُ نورٍ «**يتلألأ**» أي هي مملوءة بالأنوار فلا يحتاج فيها إلى شمس وقمر فلا ظلام فيها «و»دارُ «**ريحانة تهتز**» أي ذات خضرة كثيرة تتحرك بريح هابة عليها فيصدر منها حفيف جميل تميل إليه النفوس ويخرج منها طيب، هذا وإن أشجار الجنة ساقها من ذهب وفي الجنة شجرة يقال لها طوبى يسير الراكب في ظلها مائة عام لا يقطعها تتفتق منها ثياب أهل الجنة «و»دار «**قصر مشيد**» أي ذات قصور عالية مرتفعة قوية البناء لا يخاف منها التهدم روى مسلم أن للمؤمن في الجنة خيمةً من لؤلؤة واحدة مجوفة طولها ستون ميلا «و»دارُ «**نهر مطرد**» أي ذات أنهار دائمة الجريان لا ينقطع ماؤها من اطَّرد الشيءُ إذا تتابع بعضه بعضا في الجريان قال تعالى ﴿**مَّثَلُ ٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى وُعِدَ ٱلْمُتَّقُونَ ۖ فِيهَآ أَنْهَٰرٌ مِّن مَّآءٍ غَيْرِ ءَاسِنٍ وَأَنْهَٰرٌ مِّن لَّبَنٍ لَّمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُۥ وَأَنْهَٰرٌ مِّنْ خَمْرٍ لَّذَّةٍ لِّلشَّٰرِبِينَ وَأَنْهَٰرٌ مِّنْ عَسَلٍ مُّصَفًّى**﴾[1] «و»دار «**فاكهة كثيرة**» عددا وجنسا ونوعا لا يخاف منها الانقطاع «**نضيجة**» أي باد صلاحها فلا يوجد في الجنة مواسم للثمار بل في أيّ وقت تشتهى الثمار يجدها مشتهيها قال تعالى ﴿**لَّا مَقْطُوعَةٍ وَلَا مَمْنُوعَةٍ**﴾[2] أي لا تنقطع في بعض الأوقات ولا تمنع عن متناولها بوجهٍ «و»دار «**زوجة حسناء**» أي كاملة الخلقة «**جميلة**» الصفات وفي الحديث أيضا: «**لكل منهم زوجتان من الحور العين**» والحور جمع حوراء من الحوَر وهو شدة بياض العين وشدة سوادها والعِين جمع عيناء وهي واسعة العين قال تعالى ﴿**فِيهِنَّ**﴾[3] أي الجنتين ﴿**قَٰصِرَٰتُ ٱلطَّرْفِ**﴾ نساء قصرن أبصارهن على أزواجهن لا ينظرن إلى غيرهم ﴿**لَمْ يَطْمِثْهُنَّ**﴾ أي لم يجامعهن ﴿**إِنسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَآنٌّ ۞ فَبِأَىِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ۞ كَأَنَّهُنَّ ٱلْيَاقُوتُ وَٱلْمَرْجَانُ**﴾ صفاءً ﴿**وَٱلْمَرْجَانُ**﴾

---

(١) سورة محمد / ١٥.

(٢) سورة الواقعة / ٣٣.

(٣) سورة الرحمن / ٥٦-٥٧-٥٨-٥٩.

بياضا ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٥٩﴾﴾ وقال تعالى ﴿فِيهِنَّ خَيْرَاتٌ﴾[1] فاضلات الأخلاق ﴿حِسَانٌ ﴿٧٠﴾﴾ أخلاقهن ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ * حُورٌ مَّقْصُورَاتٌ فِي ٱلْخِيَامِ * فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ * لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَآنٌّ * فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ «و»دار «**حلل كثيرة**» جمع حِلْية وهو ما تتزين به النساء من الذهب والفضة وسائر الجواهر أو هي جمع حُلة وهي ضرب من الثياب وقد مر أنها تخرج من شجرة طوبى «**في مُقام**» بضم الميم من أقام الرباعي «**أبدي**» أي في إقامة مؤبدة لا يعقبها فناء «**في حَبرة**» أي كثرةِ نعمة وسعة عيش فهم في سرور دائم «**ونَضرة**» أي نضارة لوجوه أهلها ببريق ولمعان لشدة صفائها ليس عليها كآبة، فقال الأصحاب الحاضرون عند النبي ﷺ «نحن المشمرون لها يا رسول اللَّه» قال «**قولوا إن شاء اللَّه**» ثم ذكر الجهاد وحض عليه.

ولأهل النار دركات قال تعالى في سورة الأنعام ﴿وَلِكُلٍّ دَرَجَاتٌ مِّمَّا عَمِلُوا﴾[2] وإن كل واحد من الكفار أول ما يدخل النار يصل إلى قعرها، وقعر جهنم مسافة سبعين عاما في النزول قال ﷺ: «**إن العبد ليتكلم بالكلمة لا يرى بها بأسا يهوى بها فى النار سبعين خريفا**» رواه الترمذي، وقال الشيخ أحمد ضياء الدين الكمشخانوي في شرح رموز الأحاديث (ص/ ٦٤٨) ممثلا للكلمة ما نصه: «كألفاظ الكفر وسقطات اللسان والافتراء باللَّه والاستهزاء بالأنبياء»، وعرفنا أن قعر جهنم هو قدر سبعين سنة من حديث مسلم عن أبي هريرة قال كنا مع رسول اللَّه ﷺ إذ سمع وجبة فقال النبي ﷺ: «**تدرون ما هذا؟**» قال: قلنا: اللَّه ورسوله أعلم، قال: «**هذا حجر رمي به في النار منذ سبعين خريفا، فهو يهوي في النار الآن حتى انتهى إلى قعرها**» وهي الآن تحت الأرض السابعة من غير أن تكون متصلة بها قال الحاكم في المستدرك

(١) سورة الرحمن / ٧٠-٧١-٧٢-٧٣-٧٤-٧٥.

(٢) سورة الأحقاف / ١٩.

«وقد قدمتُ الروايةَ الصحيحة أن جهنم تحت الأرض السابعة» وروى في الحديث قبله عن عبد اللَّه ابن عمرو عن النبي ﷺ أن النار تحت السابعة. ويزيد اللَّه في حجم الكافر إذا صار في النار ليزداد عذابا بزيادة الحجم إذ لو بقي على حجمه لذاب من اللحظة الأولى حتى يكون ضرسه كجبل أحد وسماكة جلده أربعين ذراعا وما بين منكبيه مسيرة ثلاثة أيام قال تعالى في وصف طعام الكفار ﴿لَّيْسَ لَهُمْ طَعَامٌ إِلَّا مِن ضَرِيعٍ﴾[١] والضريع شجر كريه المنظر والطعم والرائحة وقال تعالى ﴿لَآكِلُونَ مِن شَجَرٍ مِّن زَقُّومٍ﴾[٢] وهو شجر مُرّ وقال تعالى ﴿إِنَّ شَجَرَتَ ٱلزَّقُّومِ * طَعَامُ ٱلْأَثِيمِ * كَٱلْمُهْلِ يَغْلِي فِي ٱلْبُطُونِ﴾[٣] أي الماء الحار الذي انتهى غليانه وقال تعالى ﴿وَلَا طَعَامٌ إِلَّا مِنْ غِسْلِينٍ * لَّا يَأْكُلُهُۥٓ إِلَّا ٱلْخَٰطِـُٔونَ﴾[٤] أي الكافرون، والغسلين ما يسيل من أبدانهم من الصديد والدم، وشرابهم من الماء الحارّ المتناهي الحرارة وهو الحميم ويشربون كذلك مما يسيل من صديدهم وهو الغَساق قال تعالى ﴿إِلَّا حَمِيمًا وَغَسَّاقًا﴾[٥]، وقد ورد أيضا أن جهنم فيها عقارب كالبغال حجما تلدغ الكفار فيها وحياتٌ الواحدة كالوادي، وثياب الكفار من نار قال تعالى ﴿فَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ قُطِّعَتْ لَهُمْ ثِيَابٌ مِّن نَّارٍ﴾[٦].

---

(١) سورة الغاشية / ٦.

(٢) سورة الواقعة / ٥٢.

(٣) سورة الدخان / ٤٣-٤٤-٤٥.

(٤) سورة الحاقة / ٣٦-٣٧.

(٥) سورة النبأ / ٢٥.

(٦) سورة الحج / ١٩.

(ص) والرؤية لأهل الجنة حقّ، يرون ربّهم بأعينهم من غير إدراك ولا إحاطة ولا مقابلة ولا كيفيّة، ولا على مكان ولا في مكان ولا في جهة من الجهات كما عرفوه في الدنيا.

(ش) أن مما يجب الإيمان به هو ثبوت رؤية المؤمنين لربهم في الجنة فيرونه بغير إدراك أي إحاطة ولا مقابلة بينهم وبينه تعالى ومن غير كيفية ولا يكون تعالى محوزا في مكان ولا مستقرا على مكان ولا في جهة من الجهات كما أن المؤمنين عرفوا ربهم في الدنيا أنه ذات موجود ليس في مكان ولا على مكان ولا جهة ولا كيفية ولم يعرفوه معرفة إحاطة فلا يعرف اللَّه على الحقيقة إلا اللَّه، قال نجم الدين منكوبرس (٢/ ٦٤٣) ما نصه: «ثم في إثباتهم الرؤية للَّه تعالى بغير إحاطة ولا كيفية، بيان أنّ الرؤية لا تتضمن تشبيه المرئي ولا إحاطته ولا تكييفه، بل يرى المرئي على ما هو به كالعلم سواء، فإن العلم لا يتضمن شيئا من ذلك، بل يعلم المعلوم على ما هو به. فإن كان المرئي مكيفا يرى كذلك، وإن كان غير مكيف يرى غير مكيف، فيرى اللَّه تعالى بلا إحاطة ولا كيفية، كما يعلم بلا إحاطة ولا كيفية». وظاهر كلام المصنف حمل الإدراك في قوله تعالى ﴿لَّا تُدۡرِكُهُ ٱلۡأَبۡصَٰرُ﴾[1] على رؤية الإحاطة فهي عامة لا مخصص لها، وجرى بعضهم على أن الإدراك في الآية بمعنى الرؤية وعليه فهي من العام المخصوص بالآية والأخبار الآتية، وحملها بعضهم على الرؤية في الدنيا ففيها عند أهل السنة ثلاثة أقوال.

ومن الأدلة على إثبات الرؤية قوله تعالى ﴿وُجُوهٞ يَوۡمَئِذٖ نَّاضِرَةٌ ۝ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٞ﴾[2] خلافا للمعتزلة الذين أولوا قوله تعالى: ﴿إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٞ﴾ بأن كلمة «إلى» هنا واحدة الآلاء بمعنى النعمة كقوله تعالى: ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾[3] فيكون النظر

(١) سورة الأنعام / ١٠٣.

(٢) سورة القيامة / ٢٢-٢٣.

(٣) سورة الرحمن / ١٣.

عاريا عن حرف، فيكون المعنى: وجوه يومئذ ناظرة إلى نعماء ربها ومنتظرة لها، قال الغزنوي في شرح الطحاوية (ص/ ٨٠-٨١) ما نصه: «هذا تأويل ما بعده فساد، لأن حمل النظر على الانتظار الذي هو موجب للحزن -كما قيل: إن الانتظار موت أحمر- في دار السرور سمج» وقال التفتازاني في شرح المقاصد (٤/ ١٩٢) ما نصه: «وأجيب بأن الانتظار لا يلائم سياق الآية، ولا يليق بدار الثواب. وكون ﴿إِلَىٰ﴾ ها هنا حرفا أمر ظاهر لم يعدل عنه السلف. وحمل النظر على الانتظار تعسف، وكذا العدول عن الحقيقة إلى المجاز بلا قرينة مردود».

ومن الأخبار خبر أبي هريرة أن الناس قالوا يا رسول اللَّه هل نرى ربنا يوم القيامة؟ فقال رسول اللَّه ﷺ «**هل تضارون في القمر ليلة البدر**» قالوا لا يا رسول اللَّه، قال «**فهل تضارون في الشمس ليس دونها سحاب**» قالوا لا يا رسول اللَّه، قال «**فإنكم ترونه كذلك**» وقوله «تضارون» بتشديد الراء من الضرار وتخفيفها من الضير أي الضرر، وخبر صهيب في مسلم أنه ﷺ قال «**إذا دخل أهل الجنة الجنة يقول اللَّه تبارك وتعالى تريدون شيئا أزيدكم فيقولون ألم تبيّض وجوهنا، ألم تدخلنا الجنة وتنجّنا من النار، فيكشف الحجاب**[1] **فما أعطوا شيئا أحب إليهم من النظر إلى ربهم**» وفي رواية: ثم تلا هذه الآية ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ ٱلْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ﴾[2] أي فالحسنى الجنة والزيادة النظر إليه تعالى.

وليس في قوله تعالى ﴿لَن تَرَىٰنِى﴾[3] نفي لرؤية اللَّه تعالى في الآخرة كما زعم الزمخشري المعتزلي محرفا معنى الآية لأن لن لا تقتضي تأبيد النفي

---

(١) قوله (فيكشف الحجاب) قال القاضي زكريا الأنصاري في حاشيته على المحلي: لا ريب أنه تعالى منزه عن المقابلة، فهو في حقنا لا في حقه تعالى اهـ قال العطار في حاشيته على المحلي: أي عنهم فهم المحجوبون ولا حجاب له تعالى إذ الحجاب من خواص الأجرام.

(٢) سورة يونس / ٢٦.

(٣) سورة الأعراف / ١٤٣.

ولا توكيده إذ لو كانت كذلك للزم التناقض بذكر اليوم في قوله تعالى ﴿فَلَنْ أُكَلِّمَ ٱلْيَوْمَ إِنسِيًّا﴾[١] وللزم التكرار بذكر أبدا في قوله تعالى في سورة البقرة ﴿وَلَن يَتَمَنَّوْهُ أَبَدًا﴾[٢].

واحتجاج المعتزلة بأنه يلزم من القول بالرؤية تشبيه اللَّه بخلقه غير مسلم فكما صح علم الخلق بالرب من غير أن يكون في جهة صح أن يرى تعالى بلا جهة كما تقدم، وليس واجبا عقلا أن تكون رؤية المؤمنين له كرؤيتهم للمخلوق في استلزام الجهة؛ إذ المصحح للرؤية الوجود لا الحجم، قال الجويني في الإرشاد: اتفق أهل الحق على أن كل موجود يجوز أن يرى اهـ وأثبت الأشاعرة والماتريدية جميعا أن رؤية اللَّه تعالى جائزة عقلا ليس في إثباتها محال وهي واجبة شرعا جاءت بها النصوص فقلنا بها إيمانا وتسليما كما ذكره ابن فورك في مجرد مقالات الأشعري (ص/ ٨١) وذكره شرف الدين التلمساني في شرح لمع الأدلة (ص/ ١٦٩) وأبو المعين النسفي في تبصرة الأدلة (ص/ ٥٠٨). وقال بعضهم: إن المرئيات من المخلوقات مختلفة فمنها ذوات تختلف مكانا وقربا وبعدا وحجما، ومنها أعراض مختلفة تقوم بهذه الذوات، فلما اختلفت هذه الحقائق ولم يجز أن يكون المصحح للرؤية مختلفا أي لم يصح أن يكون رؤية الجوهر مثلا لكونه جوهرا فإن هذا يلزم عليه عدم رؤية العرض كاللون، ولا يصح أن تكون رؤية العرض كالسواد لكونه عرضا إذ يلزم عليه أن لا يرى الجوهر، لم يبق لتصحيح جواز رؤيتها إلا وصف مشترك فيما بينها جميعا وإلا لم تصح العلة أي الأمر المصحح للرؤية طردا وعكسا، ودل السبر والتقسيم على أنه لا مشترك بين هذه الحقائق المختلفة كلها إلا الوجود والحدوث لكن الحدوث لا يصح أن يكون علة لصحة الرؤية لأن الحدوث عبارة عن وجود مسبوق بعدم والعدم لا تأثير له في الحكم فلم

---

(١) سورة مريم / ٢٦.

(٢) سورة البقرة / ٩٥.

يبق إلا الوجود فكان هو المصحح لجواز الرؤية اهـ

وتواقح الزمخشري جازاه اللَّه بما يستحق ببيتين من الشعر طعن فيهما بأهل السنة وهما: [الكامل]

لَجماعةٌ سمَّوا هواهم سنةً وجماعةٌ حُمْرٌ لَعَمري مُؤكَفَةْ
قد شبَّهوه بخلقِه وتخوَّفوا شُنَعَ الورى فتستَّروا بالبَلْكَفَةْ

كما ذكره أبو حيان فى البحر المحيط (٥/ ١٦٨) وابن السبكي في الطبقات (٩/ ٩)، ومراده بالبلكفة قول أهل السنة «بلا كيف».

وقد رد عليه أئمة أهل السنة والجماعة منهم القاضي أبو بكر السكوني رحمه اللَّه تعالى فى أبيات منها: [الكامل]

شبَّهت جهلًا صدرَ أمةِ أحمدٍ وذوي البصائرِ بالحميرِ المؤكفةْ
وزعمتَ أن قد شبَّهوا معبودهم وتخوَّفوا فتستَّروا بالبلكفةْ
ورميتَهم عن نَبْعةٍ سوَّيتَها رميَ الوليدِ غدا يمزّق مصحفه
وجب الخسار عليك فانظر منصفًا في ءايةِ الأعرافِ فهْي المنصفةْ
أترى الكليمَ أتى بجهلٍ ما أتى وأتى شيوخُك ما أتَوا عن معرفةْ
لو صح في الإسلام عقدُك لم تقُلْ بالمذهب المهجور من نفي الصفةْ
إن الوجوه إليه ناظرة بذا جاء الكتاب فقلتمُ هذا السفه
نطقَ الكتابُ وأنت تنطقُ بالهوى فهوى الهوى بك في المهاوي المتلِفةْ
فالنفيُ مختصّ بدارٍ بعدها لكَ -لا أبا لك- موعدٌ لن تُخلِفَه

وقال الشيخ ناصر الدين بن المنيّر: [الكامل]

وتلقّبوا عدليةً قلنا أجلْ عَدَلوا بربهم فحسبُهم سفه

وتـلـقّـبـوا الـنـاجـيـن كـلّا إنـهـم إن لم يكونوا في لَظى فعلى شَفةْ
عـجـبًـا لـقـومٍ ظـالـمـيـن تـلـقـبّـوا بـالـعـدلِ مـا فيهم لعـمـري معرفةْ
قـد جـاءهـمْ مِـن حيثُ لا يَـدرونـهُ تعطيلُ ذاتِ اللَّـهِ مـعْ نفيِ الصفةْ

وقال الإمام القاضي أبو عبد اللَّه محمد بن علي الأجَمي التونسي: [الكامل]

لهواتِـفٌ هتَفـوا وظنّـوا هتْفَهـم عـدلًا، لقـد بلَغـوا النهايـةَ فـي السـفه
زعمُـوا بـأنّ الـذاتَ قـام بغيرِهـا صفـةٌ وفيهـا أوجبـوا حكـمَ الصِّفـةْ
خرقـوا سـياجًا شـادَه سـلَفُ الهـدى وتمذهبـوا بمذاهـبَ مُسـتَنكَفةْ
وأتـى الأخِيـرُ الغُمْـرُ مِـن أتباعهـم يَبغـي الحجـاجَ معَرّضـا بالبلكفـةْ
أعنـي الخوارزمـيَّ ذا الصَّلـفِ الـذي لـم يتَّئـدْ مِـن جهلِـه بالمعرفـةْ
بـل تـاهَ فـي بَيـدا الجهالـةِ مُعْرضًـا كحمـارِ وحـشٍ فـي مهامِـهَ مُتلِفـةْ

وقال الإمام ابن الجبير اليحصبي الأندلسي: [الكامل]

وجـمـاعـةٍ مَـشـنـوءةٍ بـدعـيَّـةٍ مَـصـروفـةٍ عـن رُشـدهـا متعسّفةْ
جـارُوا وسـمَّـوا قـومَـهـم عـدلـيّـةً عـدلـوا ولـكـن عـن طـريـقِ المعرفةْ
قـومٌ نـفَـوا عـن ربـهـم أحـكـامَـه فـي خلقه لـمَّـا نـفـوا عنه الصفةْ
فطريقهم أسُّ الـضـلال وقـولـهـم عينُ المحال ورأيهم محضُ السفه
الـحـقُّ جـبَّ سَـنـام جـبَّـائـيـهـمْ[1] وقـنـاةُ نجلِ عُبيدِهم[2] مُتقَصِّفةْ

(١) هو أبو علي محمد بن عبد الوهاب الجبائي رئيس الجبائية من المعتزلة.
(٢) هو عمرو بن عبيد رئيس العمرية من المعتزلة.

وتـنـاثـرت خـــرَزاتُ نـظّـامٍ[١] لهمْ والكَـودَنُ العـلّافُ[٢] بلَّ المَعلَفَةْ
والشيخُ محمودٌ[٣] هو الفيلُ الذي كـادوا به المعنى الـذي في البلكفةْ
مـا مـنـهـم إلا حـمـارٌ صـوّتـتْ في فـيـهِ جَحْفلَةُ ويحسبُها شَفةْ

وقال أبو حيان في تفسيره (٨/ ٢٥٢) وديوانه يصف حال الزمخشري وكتابه الكشاف: [الطويل]

ولـكـنـه فـيـه مـجـالٌ لـنـاقـدٍ وزلاتُ سـوءٍ قـد أخـذنَ المخانقا
فيُثبتُ موضوعَ الأحاديثِ جاهِلًا ويعزو إلى المعصومِ ما ليس لائقا
ويـشـتـم أعـــلامَ الأئـمـة ضِـلَّـةً ولا سيـما أن أولـجـوه المضايقا
ويُسهِبُ في المعنى الوجيزِ دلالةً بتكثيرِ ألـفـاظٍ تسمى الشقاشقا
يـقـوّل فيها الـلَّـهَ مـا لـيس قائلا وكـان محبا فـي الخطابة وامقا
ويـخـطـئ فـي تـركـيـبـه لـكـلامِـه فـلـيس لـمـا قـد ركَّـبـوه مـوافـقـا
ويـنـسـبُ إبـــداءَ الـمـعـانـي لنفسه لـيـوهـم أغـمـارا وإن كـان سارقا
ويـخـطـئ فـي فـهـمِ الـقـرءان لأنـه يـجـوّز إعـرابـا أبـى أن يُطابقا
وكـم بينَ مَـن يُؤتى البيانَ سليقةً وءاخـــرَ عـانـاه فـمـا هـو لاحـقـا
ويـحـتـالُ لـلألـفـاظِ حـتى يُـديـرَهـا لـمـذهـبِ سـوء فـيـه أصـبـحَ مـارقا

وروى عنه السيوطي في الأشباه والنظائر النحوية أنه أنشد لبعض

(١) هو إبراهيم بن سيار المعروف بالنظام سمي به لأنه كان ينظم الخرز فيسوق البصرة ويبيعها، وهو رئيس النظامية من المعتزلة.

(٢) هو أبو الهذيل محمد بن الهذيب المعروف بالعلاّف رئيس الهذلية من المعتزلة.

(٣) هو الزمخشري.

الأندلسيين: [مجزوء الخفيف]

ما يقولُ الزمخشريْ عندَ عمرِو بنِ قنبَرِ[١]
والخليلِ بن أحمدٍ والفتى عبدِ الأكبرِ[٢]
لم يزدْنا زيادةً غيرَ تبديلِ الأسطرِ
وسوى اسمه الذي نصفُ مجموعه خري

وقال الإمام ابن مالك[٣]: «صاحب المفصّل [يعني الزمخشري] نحوي صغير».

وقال ابن حجر الهيتمي في الزواجر (١/ ١٦٧): «الزمخشري الحامل راية المعتزلة إلى النار».

فبعد هذا البيان لا يسع من عرف حال الزمخشري على الحقيقة أن ينوه به ويرفع من شأنه والأولى خمد ذكره لا سيما أمام العوام، وقال الأستاذ أبو منصور في الفرق بين الفرق (ص/ ٣٠٨) ما نصه: «ولم يكن بحمد اللَّه ومنه فى الخوارج ولا فى الروافض ولا فى الجهمية ولا فى القدرية ولا فى المجسمة ولا فى سائر اهل الاهواء الضالة قط إمام فى الفقه ولا إمام فى رواية الحديث ولا إمام فى اللغة والنحو ولا موثوق به فى نقل المغازى والسير والتواريخ ولا إمام في الوعظ والتذكير ولا إمام فى التأويل والتفسير وانما كان أئمة هذه العلوم على الخصوص والعموم من اهل السنة والجماعة».

وقال الشيخ أبو المظفر الأسفراييني في التبصير (ص/ ١٩٠) ما نصه: «ومن كان متدنسا بشيء من ذلك لم يجز الاعتماد عليه في رواية أصول اللغة

(١) هو سيبويه أبو بشر عمرو بن عثمان بن قنبر.
(٢) هو المبرّد أبو العباس محمد بن يزيد بن عبد الأكبر.
(٣) انظر: الوافي بالوفيات للصفدي (١٩/ ٣٢٤).

وفي نقل معاني النحو ولا في تأويل شيء من الأخبار ولا في تفسير ءاية من كتاب اللَّه تعالى».

(ص) وقراءة الكتب يوم القيامة حقّ، يؤتى المؤمن كتابه بيمينه، والكافر بشِماله أو من وراء ظهره.

(ش) تقدم أن رقيبا وعتيدا يكتبان ما يعمل العبد في الدنيا فمما يجب الإيمان به قراءة هذه الكتب على الخلق فيعطى فكل إنسان يوم القيامة كتابه الذي كتبه الملكان فيعرض عليه أمام الخلق فيفضح العباد ذلك اليوم وتلك الفضيحة الكبرى فكل ما سعى الإنسان جهده في إخفائه في هذه الدنيا سيظهر ذلك اليوم أمام العباد قال اللَّه تعالى ﴿يَوْمَئِذٍ تُعْرَضُونَ لَا تَخْفَىٰ مِنكُمْ خَافِيَةٌ﴾[1] وقال تعالى ﴿وَوُضِعَ ٱلْكِتَٰبُ﴾[2] أي صحف الأعمال ﴿فَتَرَى ٱلْمُجْرِمِينَ﴾ أي الكفار ﴿مُشْفِقِينَ﴾ أي خائفين ﴿مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَٰوَيْلَتَنَا مَالِ هَٰذَا ٱلْكِتَٰبِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً﴾ أي لا يترك شيئا من المعاصي ﴿إِلَّآ أَحْصَىٰهَا﴾ أي حصرها وضبطها، والمؤمن يأخذ كتابه يومئذ بيمينه قال تعالى ﴿فَأَمَّا مَنْ أُوتِىَ كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ فَيَقُولُ هَآؤُمُ﴾[3] أي خذوا ﴿ٱقْرَءُوا۟ كِتَٰبِيَهْ * إِنِّى ظَنَنتُ﴾ أي علمت ﴿أَنِّى مُلَٰقٍ حِسَابِيَهْ * فَهُوَ فِى عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ * فِى جَنَّةٍ عَالِيَةٍ﴾ فيرجع إلى أهله فرحا مسرورا يقول لهم خذوا كتابي واقرؤوا ما فيه ويحيا بعد ذلك راضيا في جنات النعيم وقال تعالى ﴿فَأَمَّا مَنْ أُوتِىَ كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ * فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا﴾[4] أي سهلا هينا (وَيَنقَلِبُ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦ﴾ أي عشريته المؤمنين ﴿مَسْرُورًا﴾، وأما الكافر فيأخذ كتابه بشماله من وراء ظهر

(١) سورة الحاقة / ١٨.

(٢) سورة الكهف / ٤٩.

(٣) سورة الحاقة / ١٩-٢٠-٢١-٢٢.

(٤) سورة الانشقاق / ٧-٨-٩.

إذلالا له وتوبيخا قال اللَّه تعالى ﴿وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ بِشِمَالِهِۦ فَيَقُولُ﴾[١] بسبب ما يرى من الفضائح والذنوب ﴿يَٰلَيْتَنِي لَمْ أُوتَ كِتَٰبِيَهْ * وَلَمْ أَدْرِ مَا حِسَابِيَهْ * يَٰلَيْتَهَا﴾ أي الموتة التي ماتها في الدنيا ﴿كَانَتِ ٱلْقَاضِيَةَ﴾ أي فلم أبعث بعدها ولم ألق ما ألقى ﴿مَآ أَغْنَىٰ عَنِّي مَالِيَهْ﴾ أي لم ينفعني ما جمعته في الدنيا من المال ﴿هَلَكَ عَنِّي سُلْطَٰنِيَهْ﴾ أي ملكي فيقول اللَّه لخزنة جهنم ﴿خُذُوهُ فَغُلُّوهُ﴾ أي اجمعوا يديه إلى عنقه ﴿ثُمَّ ٱلْجَحِيمَ صَلُّوهُ﴾ أي أدخلوه، فيتندم الكافر على ما فعله في دنياه ولاتَ حينَ ندمٍ ويتمنى أن موته في الدنيا كان موتا لا حياة بعده ويعلم أنه لا ينفعه في ذلك الموقف إلا عمله فلا ينفعه ماله وغناه ولا عياله وأولاده فيؤمر به إلى جهنم وبئس القرار، وقال تعالى ﴿وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ وَرَآءَ ظَهْرِهِۦ﴾[٢] بشماله ﴿فَسَوْفَ يَدْعُواْ ثُبُورًا﴾ أي بالهلاك ﴿وَيَصْلَىٰ سَعِيرًا﴾ أي ويدخل جهنم ﴿إِنَّهُۥ كَانَ فِيٓ أَهْلِهِۦ﴾ في الدنيا ﴿مَسْرُورًا * إِنَّهُۥ ظَنَّ أَن لَّن يَحُورَ﴾ أي لن يرجع إلى ربه تكذيبا بالبعث ﴿بَلَىٰٓ إِنَّ رَبَّهُۥ كَانَ بِهِۦ بَصِيرًا﴾.

(ص) والحساب حقّ.

(ش) مما يجب الإيمان به الحساب قال تعالى ﴿ثُمَّ لَتُسْـَٔلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ ٱلنَّعِيمِ﴾[٣] وهو عرض أعمال العباد عليهم ويكون بتكليم اللَّه للعباد جميعهم مؤمنهم وكافرهم فيفهمون من كلام اللَّه تعالى السؤالَ عما فَعلوا بالنعم التي أعطاهم اللَّه إياها، فيسر المؤمن التقي، ولا يسر الكافر لأنه لا حسنة له في الآخرة بل يكاد يغشاه الموت من شدة ضيقه، وأما عصاة المسلمين فعلى حالين قسم منهم يصيبهم خوف وانزعاج وقسم لا يصيبهم ذلك، روى الشيخان حديث: «**ما منكم من أحد إلا سيكلمه ربه يوم القيامة ليس بينه**

(١) سورة الحاقة / ٢٥-٢٦-٢٧-٢٨-٢٩-٣٠-٣١.

(٢) سورة الانشقاق / ١٠-١١-١٢-١٣-١٤-١٥.

(٣) سورة التكاثر / ٨.

وبينه ترجمان» فيسمع البشر والجن المسلمون وغير المسلمين ذلك الكلام الذي ليس حرفا ولا صوتا فيفهمون عن أي شيء يسألهم وينتهي من حسابهم في وقت قصير قال تعالى ﴿وَهُوَ أَسْرَعُ ٱلْحَٰسِبِينَ﴾[١].

(ص) والميزان حقّ.

(ش) مما يجب الإيمان به ميزان الآخرة وهو جسم محسوس كميزان الدنيا من حيث تركيبه وإن كان أكبر حجما له قَصَبة وعَمُود وكِفتان كِفة للحسنات وكفة للسيئات توزن به الأعمال يوم القيامة قال تعالى ﴿وَنَضَعُ ٱلْمَوَٰزِينَ ٱلْقِسْطَ لِيَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْـًٔا ۖ وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا ۗ وَكَفَىٰ بِنَا حَٰسِبِينَ﴾[٢] وقال تعالى ﴿فَأَمَّا مَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ ۞ فَهُوَ فِى عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ ۞ وَأَمَّا مَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ ۞ فَأُمُّهُۥ هَاوِيَةٌ﴾[٣] وقال تعالى ﴿وَٱلْوَزْنُ يَوْمَئِذٍ ٱلْحَقُّ ۚ فَمَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ۞ وَمَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُم بِمَا كَانُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا يَظْلِمُونَ﴾[٤] أي يكفرون، فيظهر للخلق من يستحق دخول الجنة ومن يستحق عذاب النار وهو تعالى عالم بعلمه الأزلي من يكون من أهل الجنة ومن يكون من أهل النار من غير احتياج إلى ميزان وغير ذلك. والذي يتولى وزنها جبريل رئيس الملائكة وميكائيل عليهما السلام واختلف في الموزون على ثلاثة أقوال فقال بعضهم إنما هو الصحائف التي كتب عليها الحسنات والسيئات فتوضع صحائف الحسنات في كفة وصحائف السيئات في كفة، وقيل هي الأعمال نفسها فتصور الحسنات بصور حسنة والسيئات

---

(١) سورة الأنعام / ٦٢.

(٢) سورة الأنبياء / ٤٧.

(٣) سورة القارعة / ٦-٧-٨-٩.

(٤) سورة الأعراف / ٨-٩.

بصور قبيحة، وقيل يوزن الأشخاص أنفسهم وقد ورد بكل نص فلا مانع من القول بكل ذلك ويمكن أن توزن الأشخاص تارة والأعمال تارة والكتب تارة أخرى، فمن رجحت حسناته على سيئاته فهو من أهل النجاة، ومن تساوت حسناته وسيئاته فهو من أهل النجاة أيضا ولكنه أقل رتبة من الطبقة الأولى وأرفع من الثالثة وهؤلاء هم أهل الأعراف وهو سور الجنة يمكثون مدة عليه ثم يدخلونها فلا يدخلون الجنة مع الأولين، وأما من رجحت سيئاته على حسناته فهو مستحق للعذاب وهو تحت مشيئة اللَّه تعالى إن شاء عذبه مدة في النار ثم أخرجه منها وأدخله الجنة وإن شاء غفر له فأدخله الجنة بغير عذاب، وهذا كله في حق المسلم، وأما الكافر فترجح كفة سيئاته لا غير لأنه لا حسنات له في الآخرة لأنه أطعِم بحسناته في الدنيا بالرزق وصحة الأجسام ونحو ذلك كما صح مرفوعا في حديث مسلم وابن حبان واللفظ له «**وأما الكافر فيُطعم بحسناته في الدنيا حتى إذا أفضى إلى الآخرة لم يكن له حسنة يُعطى بها خيرا**» قال تعالى ﴿ مَّثَلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِرَبِّهِمۡۖ أَعۡمَٰلُهُمۡ كَرَمَادٍ ٱشۡتَدَّتۡ بِهِ ٱلرِّيحُ فِي يَوۡمٍ عَاصِفٖ ﴾[1] قال النسفي في تفسيره (٢/ ١٦٨) ما نصه: «وأعمال الكفرة المكارم التي كانت لهم من صلة الأرحام وعتق الرقاب وفداء الأسرى وعقر الإبل للأضياف وغيرِ ذلك شبهها في حبوطها لبنائها على غير أساس وهو الإيمان بالله تعالى برماد طيرته الريح العاصف».

(ص) والصراط حقّ.

(ش) مما يجب الإيمان به الصراط وهو جسر عريض ممدود فوق جهنم قال تعالى ﴿ وَإِن مِّنكُمۡ إِلَّا وَارِدُهَا ﴾[2] ففسرها ابن مسعود بقوله «الصراط على جهنم» رواه البيهقي، ترد عليه الخلائق وقيل هو مسير ثلاثة ءالاف سنة

(١) سورة إبراهيم / ١٨.

(٢) سورة مريم / ٧١.

ألف سنة صعود وألف سنة استواء وألف سنة نزول، والورود قسمان فمنهم من يرده ورودَ دخول إلى النار وهم الكفار وبعض عصاة المسلمين أي يزِلون منه إلى جهنم فالكافر يقع منه إلى النار في ابتداء وروده وأما العصاة المذكورون فيمشون مسافة ثم يقعون منه إلى النار، ومن الناس من يرده ورود مرور في هوائه من غير أن تمسه قدمه فمن هؤلاء من يمر كالبرق الخاطِف ومنهم من يمر كطرفة عين ومنهم من يعبر الصراط مشيا، روى الترمذي في السنن عن السدي، قال: سألت مرة الهمْداني، عن قول اللَّه عز وجل: ﴿وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا﴾ فحدثني أن عبد اللَّه بن مسعود حدثهم قال: قال رسول اللَّه ﷺ: «**يرد الناس النار ثم يصدرون منها بأعمالهم، فأولهم كلمح البرق، ثم كالريح، ثم كحضر الفرس، ثم كالراكب في رَحله، ثم كشد الرجل، ثم كمشيه**» قال الترمذي «هذا حديث حسن».

وأحد طرفي الصراط في الأرض المبدلة والطرف الآخر فيما هو قبل الجنة وبعد النار، روى مسلم أن رسول اللَّه ﷺ قال: «**ثم يضرب الجسرُ على جهنم، وتحِلُّ الشفاعة، ويقولون: اللَّهم سلِّم سلِّم**[1]» قيل: يا رسول اللَّه وما الجسر؟ قال: «**دحضٌ مزلة، فيه خَطاطِيفُ وكلَالِيبُ وحَسَكٌ تكون بنَجْدٍ فيها شُوَيكةٌ يقال لها السَّعدان، فيمر المؤمنون كطرف العين، وكالبرق، وكالريح، وكالطير، وكأجاويدِ الخيل والرِّكاب، فناجٍ مسلَّمٌ، ومخدوشٌ مرسَلٌ، ومكدُوسٌ في نارِ جهنمَّ**» الحديثَ، ومعنى «**دَحْضٌ**» أي زلقٌ يقال دحَضت رجلُه تدحض دحْضا ودُحوضا إذا زلقت، ومعنى «**مَزَلَّة**» يزل عنه الناس، والمزلة مفعلة من زل يزل إذا زلق وتفتح الزاي وتكسر كذا في النهاية، قال النووي في شرح مسلم (٣/ ٢٩): «والدحض والمزلة بمعنى واحد وهو الموضع الذي تزل فيه الأقدام ولا تستقر».

وروى مسلم أيضا عن أبي سعيد الخدري رضي اللَّه عنه أنه قال «**بلغني أنه**

(١) دعاء لقومهم لا خوفا على أنفسهم.

أدقّ من الشعرة وأحد من السيف» وليس المراد أن الصراط من حيث الحجم دقيق جدا بل هو عريض كما صرحت به الأحاديث وإنما المراد بذلك ما قاله الحليمي أن خطره عظيم فأمرُ الصراط والجواز عليه أدق من الشعرة فإن يُسر الجواز أي سُهولة العبورِ عليه وعسره على قدر الطاعات والمعاصي، ولا يعلم حدود ذلك إلا اللَّه لخفائها وغموضها وقد جرت العادة بتسمية الغامض الخفي دقيقا وضَرْبِ المَثَلِ له بدقة الشعرة فهذا والله أعلم من هذا الباب، وأما أنه أحد من السيف فيكون معناه –والله أعلم– أن الأمر الدقيق الذي يصدر من عند اللَّه تعالى إلى الملائكة في إجازة الناس على الصراط يكون في نفاذ حد السيف ومَضيه إسراعا منهم إلى الطاعة وامتثالا ولا يكون له مرد كما أن السيف إذا نفذ بحدّه وقوة ضاربه في شيء لم يكن له بعد ذلك مرد، فأما أن يقال: إن الصراط نفسه أحد من السيف وأدق من الشعرة فذلك مرفوع بنفس هذا الحديث؛ لأن فيه: «**أن الملائكة يقومون بجنبيه ويقولون: اللَّهم سلم سلم**» وفيه «**إن فيه كلاليب وحسكا**» وفيه «**أن ممن يمر على الصراط من يقع على بطنه، ومنهم من يزل ثم يقوم**» وفيه «**أن من الذين يمشون عليه من يعطى النور بقدر موضع قدميه**» وفي ذلك إثبات أن للمارين عليه مواطئ الأقدام ومعلوم أن دقة الشعرة لا تحتمل هذا كله، وقد سألتُ أحد الحفاظ عن هذه اللفظة فذكر أنها ليست ثابتة، فإما أن لا يشتغل بها، وإما أن يحمل على المعنى الذي ذكرنا والله أعلم. انتهى كلام الحليمي في المنهاج، وقد ورد في الصحيح المرفوع أنه «**تجري بهم أعمالهم**» رواه مسلم أي أن أعمالهم تَصير لهم قوة السير، قال النووي في شرح مسلم (٣/ ٧٢): «يكونون في سُرعة المرور على حسَب مراتبهم وأعمالهم».

(ص) وحوض الكوثر.

(ش) مما يجب الإيمان به الحوض وهو مكان واسع فيه الكثير من الماء يشرب منه أهل الجنة قبل دخولهم الجنة فلا يصيبهم بعد ذلك ظمأ ومع ذلك فإنهم يشربون من شراب الجنة تلذذا لا ظمأً، والأحواضُ كثيرة فإن لكل نبي حوضا تشرب منه أمته وأكبرُ الأحواض حوضُ نبينا عليه الصلاة والسلام لأن أمته أكثرُ أهل الجنة فلا ترده إلا أمتنا، طوله مسيرة شهر وعرضه كذلك لا يزيد طوله على عرضه ففي حديث مسلم «**زواياه سواء**» وءانيته كثيرة كعدد نجوم السماء وشرابه أبيض من اللبن وأحلى من العسل وأطيب من ريح المسك ويصبُّ فيه ميزابان من الجنة، روى البخاريُّ في صحيحه عن عبد اللَّه بن عمرو أنه قال: قال النبي ﷺ: «**حوضي مسيرة شهر ماؤه أبيض من اللبن وريحه أطيب من المسك وكيزانه كنجوم السماء من شرب منه لا يظمأ أبدًا**» وماء الحوض من الكوثر الذي هو نهر في الجنة فقد ورد في صحيح مسلم: هل تدرون ما الكوثر؟ فقالوا اللَّه ورسوله أعلم قال: «**هو نهر أعطانيه ربي عزَّ وجلَّ عليه خيرٌ كثيرٌ، هو حوض ترد عليه أمتي يوم القيامة ءانيته عدد النجوم**».

وما ذكر من أن الحوض بعد الصراط هو المعتمد الذي اختاره القاضي عياض والحافظ ابن حجر، وقال بعضهم هو قبل الصراط، وقال ءاخرون هناك حوضان حوض قبل الصراط وحوض بعده[1] وتمسكوا بظاهر ما ورد في صحيح مسلم: «**أنا فرطكم على الحوض من ورد شرب ومن شرب لم يظمأ أبدا، ولَيردن علي أقوام أعرفهم ويعرفوني ثم يحال بيني وبينهم فيقال إنك لا تدري ما عملوا بعدك فأقول سُحقا سحقا لمن بدل بعدي**» وقال ﷺ أيضا: «**وإنه سيجاء برجال من أمتي فيؤخذ بهم ذاتَ الشمال فأقول يا رب أصحابي فيقول اللَّه إنك لا تدري ما أحدثوا بعدك فأقول كما**

(١) انظر: التذكرة للقرطبي (١/ ٣٤٥).

قال العبد الصالح ﴿وَكُنتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا﴾[1] إلى قوله ﴿ٱلْحَكِيمُ﴾ فيقال: إنهم لم يزالوا مرتدين على أعقابهم». ويعلم من هذين الحديثين أن الرسول ﷺ لا يعلم كل ما يعلمه اللَّه تعالى بل قول ذلك إشراك بالله تعالى ووصف للنبي بصفة الخالق معاذ اللَّه من قول كهذا.

(ص) والشفاعة حقّ.

(ش) أن مما يجب الإيمان به خلافا للمعتزلة والخوارج الشفاعة وهي طلب إسقاط العقاب في الآخرة عن قسم ممن يستحق دخول النار من المسلمين، روى الدارقطني: «**من زار قبري وجبت له شفاعتي**» وأول شافع وأول مشفَّع هو نبينا محمد ﷺ ففي حديث مسلم: «**أنا سيد ولد ءادم يوم القيامة وأول من ينشق عنه القبر وأول شافع وأول مشفع**» أي مقبول الشفاعةِ وفي حديث البخاري: «**ثم يقال يا محمد ارفع رأسك سل تعط واشفعْ تشفَّع**». ويشفع نبينا ﷺ لأهل الكبائر من أمته وهذه إحدى أنواع الشفاعة فقد جاء في الحديث الصحيح: «**شفاعتي لأهل الكبائر من أمتي**» رواه ابن حبان وأبو داود والترمذي وابن ماجه وأحمد والحاكم وغيرهم فغيرُ أهل الكبائر سواء كانوا من المتقين أم كانوا من أهل الصغائر ليسوا بحاجة للشفاعة إذ لا عذاب عليهم فقد روى ابن ماجه مرفوعا «**أترونها للمتقين، لا، ولكنها للمذنبين الخطائين المتلوثين**» ومر أن من مات وعليه صغائر فقط تغفر له، وتكون الشفاعة لبعض أهل الكبائر قبل دخولهم النار فلا يدخلونها بسبب الشفاعة ولبعض بعد دخولهم النارَ وقبل أن تمضي المدة التي يستحقون بمعاصيهم روى البخاري «**يخرج ناس من النار بشفاعة محمد**».

ولا تكون الشفاعة للكفار فإنه لا يخفف عنهم العذاب قال اللَّه تعالى:

---

(١) سورة المائدة / ١١٧.

﴿وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ارْتَضَىٰ﴾[١] قال ابن عباس رضي اللَّه عنهما «أي لمن ارتضى الإسلام دينا» رواه البيهقي في الأسماء والصفات وقال الحسن البصري «لمن ارتضى لا إله إلا اللَّه» رواه عبدُ بن حُميد وسيأتي مزيد توكيد لذلك قريبا، ومن الشفاعات المقامُ المحمود قال تعالى ﴿عَسَىٰ أَن يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحْمُودًا﴾[٢] وفسرها النبي ﷺ بالشفاعة رواه الترمذي وهي الشفاعة العظمى التي لا تختص بأمته بل ينتفع بها غير أمته من المؤمنين وهي خاصة بنبينا ﷺ فتكون لتخليص المؤمنين من الاستمرار في حر الشمس في الموقف وأما الكفار فلا ينتفعون بها لأنهم يُنقلون من هذا الموقف إلى موقف أشد، ومن الشفاعات ما يكون زيادة درجات في الجنة لأهلها وجوز النووي اختصاصها بنبينا وقال شيخنا الهرري في الشرح القويم (ص/ ٥١٧) ما نصه: «غيرُ أهل الكبائر لا يحتاجون للشفاعة للإنقاذ من العذاب وكذلك لا يحتاج للشفاعة الذين ماتوا وهم تائبون ومع هذا يقول بعض العلماء إن للرسول شفاعاتٍ أخرى».

ويشفع أيضا النبيّون والعلماء العاملون بعلمهم والشهداء روى ابن ماجه في شهيد المعركة مرفوعا «**ويشفع في سبعين إنسانا من أقاربه**» وكذلك الملائكةُ وغيرهم كالولد الصغير والمؤذنين روى الترمذي أن رسول اللَّه ﷺ قال: «**إن من أمتي من يشفع للفِئام** -أي الجماعةِ الكثيرة- **ومنهم من يشفع للقبيلة ومنهم من يشفع للعُصْبة ومنهم من يشفع للرجل حتى يدخلوا الجنة**» وروى أحمد ورجاله ثقات: «**إن من أمتي لَمن يشفع لأكثر من ربيعة ومضر**».

---

(١) سورة الأنبياء / ٢٨.

(٢) سورة الإسراء / ٧٩.

(ص) والجنة والنار مخلوقتان لا يفنيان ولا يبيدان، وأهلهما لا يفنون ولا يبيدون.

(ش) أن الجنة والنار مخلوقتان الآن خلافا للمعتزلة قال تعالى عن الجنة ﴿أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ﴾[١] والمعد لا يكون معدوما وقال تعالى ﴿عِندَهَا جَنَّةُ الْمَأْوَىٰ﴾[٢] أي عند سدرة المنتهى لأنها تمتد إلى العرش وفي الحديث الصحيح الذي رواه ابن حبان أن النبي ﷺ قال: «**دخلت الجنة فإذا أكثر أهلها الفقراء**» وروى مسلم «**دخلت الجنة فرأيت فيها دارا أو قصرا**» وقال تعالى عن النار ﴿أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ﴾[٣] وقال رسول اللَّه ﷺ «**واطلعت في النار فرأيت أكثر أهلها النساء**» رواه البخاري أي رأى عليه الصلاة والسلام مثالَ ما سيكون عليه الحال في الآخرة، وروى الترمذي مرفوعا «**أوقد على النار ألف سنة حتى احمرت، وألف سنة حتى ابيضت، وألف سنة حتى اسودت فهي سوداء مظلمة**».

والجنة باقية ولا يموت أهلها ولا يخرجون منها ولا ينقطع نعيمهم قال ﷺ «**وإن لكم أن تنعموا فلا تبأسوا أبدا**» وقال تعالى ﴿خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا﴾[٤] وأما قوله تعالى ﴿وَأَمَّا الَّذِينَ سُعِدُوا فَفِي الْجَنَّةِ خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ عَطَاءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ﴾[٥] فأجاب النسفي (٢/ ٨٥) بأن المراد أن لهم ما هو أكبر منها وهو رؤية اللَّه تعالى أو أن معناها إلا من شاء أن يعذبه اللَّه بقدر ذنبه قبل أن يُدخله الجنة.

والنار باقية أيضا ولا يموت أهلها ولا يخرجون منها ولا ينقطع عذابهم

---

(١) سورة ءال عمران / ١٣٣.

(٢) سورة النجم / ١٥.

(٣) سورة البقرة / ٢٤.

(٤) سورة المائدة / ١٦٩.

(٥) سورة هود / ١٠٨.

قال تعالى ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا﴾[١] وأما قوله تعالى ﴿ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ شَقُواْ فَفِي ٱلنَّارِ لَهُمۡ فِيهَا زَفِيرٞ وَشَهِيقٌ * خَٰلِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلۡأَرۡضُ إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَۚ إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٞ لِّمَا يُرِيدُ﴾[٢] فقد ذكر الرازي (١٨/ ٤٠١) أجوبة منها أن المراد سموات الآخرة وأرضها ومنها أن العرب يعبرون بالدوام والأبد بقولهم ما دامت السموات والأرض وغير ذلك وأما الاستثناء المذكور فأجاب عنه بأجوبة أيضا منها أن المستثنَينَ هم الفساق كما مر عن النسفي، ونقول أيضا لا يخلو حال أهل النار إما أن يخفف العذاب عنهم أو يموتون فيها أو يخرجون منها ويدخلون الجنة أو يخرجون منها ولا يدخلون الجنة أو يبقون فيها معذبين فالأول باطل بقوله تعالى ﴿وَلَا يُخَفَّفُ عَنۡهُم مِّنۡ عَذَابِهَاۚ ﴾[٣] والثاني باطل بقوله تعالى ﴿ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَهُمۡ نَارُ جَهَنَّمَ لَا يُقۡضَىٰ عَلَيۡهِمۡ فَيَمُوتُواْ ﴾[٤] والثالث باطل بقوله تعالى ﴿إِنَّهُۥ مَن يُشۡرِكۡ بِٱللَّهِ فَقَدۡ حَرَّمَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِ ٱلۡجَنَّةَ وَمَأۡوَىٰهُ ٱلنَّارُ﴾[٥] والرابع باطل بقوله تعالى ﴿وَمَا هُم بِخَٰرِجِينَ مِنَ ٱلنَّارِ ﴾[٦] فبقي أنهم خالدون فيها كما قامت عليه الدلائل من القرءان والحديث والإجماع.

وخالفنا في ما تقدم رجلان في الماضي انتسبا إلى الإسلام وكذّبا ما جاء به القرءان وثبت في السنة وأجمعت عليه الأمة كما نقل إجماعها الحافظ تقي الدين السبكي في الاعتبار ببقاء الجنة والنار وزعما أن عذاب الكفار في النار ليس مؤبدا وأن جهنم تفنى أما أحدهما فيسمى جهم بن صفوان وأما الآخر

---

(١) سورة الأحزاب / ٦٥.

(٢) سورة هود / ١٠٦-١٠٧.

(٣) سورة فاطر / ٣٦.

(٤) سورة فاطر / ٣٦.

(٥) سورة المائدة / ٧٢.

(٦) سورة البقرة / ١٦٧.

فيسمى أحمد بن تيمية، ومما نمسك به ابن تيمية في هذا أن قال: «إن اللَّه تعالى يقول عن نار جهنم ﴿لَّٰبِثِينَ فِيهَآ أَحۡقَابٗا﴾[١] فهذا يدل على فناء النار» ودعواه هذه تالفة زائفة، فإنه أراد بهذا أن كلمة أحقاب على وزن أفعال وأفعال من جموع القلة فهذا يدل على تناهيها، قلنا: إن جموع التكسير منقسمة إلى قسمين جموع كثرة وقلة، فأما جموع القلة فإنها تراد للثلاثة وما فوق ذلك إلى العشرة وأما جموع الكثرة فإنها تراد لما فوق ذلك، وقد بين علماء اللغة أوزان كل منهما ومن أوزان القلة أفعال كأخشاب وأبواب وأحقاب إلا أن ابن تيمية ومن تبعه فاته أن جموع القلة قد تأتي للكثرة كما أن جموع الكثرة قد تأتي للقلة وفي ذلك يقول الإمام محمد بن مالك في ألفيته:

أفعلة أفعل ثم فعلةْ ... ثمت أفعال جموع قلةْ

وبعضُ ذي بكثرةٍ وضعًا يفي ... كأرجلٍ والعكسُ جاء كالصُّفِي

وعنى بالأرجل ما ورد في قوله تعالى ﴿وَأَرۡجُلَكُمۡ إِلَى ٱلۡكَعۡبَيۡنِ﴾[٢] فإن الأرجل من أوزان القلة إلا أنه أريد به في الآية الكثرةُ إذ المأمور في هذه الآية بغسل الرجلين يزيدُ على العشرة، فهذا نص على أن أوزان القلة تأتي للكثرة ومثلَ ذلك نقول في قوله تعالى ﴿لَّٰبِثِينَ فِيهَآ أَحۡقَابٗا﴾[٣] ويحتِّم حملها على الكثرة غيرِ المتناهية الآياتُ الأخرى في عذاب الكفار كقوله تعالى ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدٗا﴾[٤]، وقد أحسَنَ الشيخ الشاعر غانم بن عبد الرحمن جلول حين قال:

تُحرّم يا ابن تيميةٍ وفودًا ... بقصد زيارة الهادي البشيرِ

ستحرَم من شفاعته وتُلقى ... لنار الخلد معدومَ النصير

---

(١) سورة النبأ / ٢٣.

(٢) سورة المائدة / ٦.

(٣) سورة النبأ / ٢٣.

(٤) سورة الأحزاب / ٦٥.

وتـوقِـن حـيـنـهـا أنْ لـيـسَ تفنى خـلافَ خـلافِـك الـبـاغي الحقير

وروى البخاري ومسلم من حديث عبد اللَّه بن عمر رضي اللَّه عنهما أن النبي ﷺ قال «**يُدخل اللَّهُ أهلَ الجنةِ الجنةَ ويدخل أهل النار النار ثم يقوم مؤذّن بينهم فيقول يا أهل الجنة لا موت ويا أهل النار لا موت كلٌّ خالد فيما هو فيه**» واللفظ لمسلم.

تتمة: قال الإمام الطحاوي (ت ٣٢١ هـ) في بيان عقيدة أهل السنة ما نصه: «والجنة والنار مخلوقتان لا تفنيان أبدا ولا تبيدان». وقال أبو حفص النسفي (ت ٥٣٧ هـ) في عقائده[1] ما نصه: «باقيتان لا تفنيان ولا يفنى أهلهما». وقال القرطبي (ت٦٧١ هـ) في التذكرة (ص/ ٩٢٠): «وأجمع أهل السنة على أن أهل النار مخلدون فيها غير خارجين منها». وقال التقي السبكي (ت ٧٥٦ هـ) في الاعتبار (ص/ ٢): «فإن اعتقاد المسلمين أن الجنة والنار لا تفنيان وقد نقل أبو محمد ابن حزم الإجماع على ذلك وأن من خالفه كافر بإجماع ولا شك في ذلك فإنه معلوم من الدين بالضرورة وتواردت الأدلة عليه». وقال العضد الإيجي (ت ٧٥٦ هـ) في المواقف (٦/ ٣٥٥): «أجمع المسلمون على أن الكفار مخلدون في النار أبدا لا ينقطع عذابهم». وقال السعد التفتازاني (ت ٧٩٣ هـ) في شرح المقاصد (ص/ ٢٢٨): «أجمع المسلمون على خلود أهل الجنة في الجنة وخلود الكفار في النار». وقال الحافظ ابن حجر (ت ٨٥٢ هـ) في الفتح (١١/ ٤٢١): «قال القرطبي فمن زعم أنهم يخرجون منها وأنها تبقى خالية أو أنها تفنى وتزول فهو خارج عن مقتضى ما جاء به الرسول وأجمع عليه أهل السنة».

(١) انظر: المطالب الوفية شرح العقيدة النسفية (ص/ ١٧٦).

(ص) والسحر حقّ، أي له حقيقة.

(ش) أن مما أثبته أهل السنة وجود السحر وأن له حقيقة موجودة في الخارج قال تعالى ﴿وَٱتَّبَعُواْ مَا تَتْلُواْ ٱلشَّيَٰطِينُ عَلَىٰ مُلْكِ سُلَيْمَٰنَ ۖ وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَٰنُ وَلَٰكِنَّ ٱلشَّيَٰطِينَ كَفَرُواْ يُعَلِّمُونَ ٱلنَّاسَ ٱلسِّحْرَ﴾[1] الآية، وخالف المعتزلة فقالوا لا حقيقة له بل هو تمويه وتخييل وإيهام، واستدل أهل السنة بالآية المذكورة حيث ذكر اللَّه تعالى السحر وأنه مما يتعلم وأن منه ما يفرق به بين المرء وزوجه وهذه أمور لا تتأتى بما لا حقيقة له، واستدلوا أيضا بقوله تعالى ﴿فَلَمَّآ أَلْقَوْاْ سَحَرُوٓاْ أَعْيُنَ ٱلنَّاسِ وَٱسْتَرْهَبُوهُمْ وَجَآءُو بِسِحْرٍ عَظِيمٍ﴾[2] فقد وصفه اللَّه بأنه عظيم فيدل على وجوده، واستدلوا أيضا بسورة الفلق فقد أمر اللَّه تعالى بالتعوذ من النفاثات في العقد وهن كما قال المفسرون السواحر ينفثن في العقد كما روي عن الحسن البصري وغيره[3]، واتفق العلماء على أن ممارسة السحر حرام قال النووي في شرح مسلم (١٤/ ١٧٦): «فعمل السحر حرام وهو من الكبائر بالإجماع وقد سبق في كتاب الإيمان أن رسول اللَّه ي ﷺ عده من السبع الموبقات» اهـ وأما تعلمه فقد أطلق بعضهم حرمة تعلمه سواء كان مما يوصل إلى الكفر أم لا، وسواء أراد بتعلمه العمل به أم لا، وقيل إن كان تعلُّمه لا يوصِل إلى الكفر ولا يحوج إلى تعاطي محرم جاز بشرط أن لا يكون القصد بذلك تطبيقه بالعمل وإلا فتحريمه متفق عليه.

(ص) والعين حقّ، أي لها حقيقة وتضرّ.

(ش) إن مما أثبته الشرع الشريف من الأسباب العادية العين قال تعالى

---

(١) سورة البقرة / ١٠٢.

(٢) سورة الأعراف / ١١٦.

(٣) انظر: تفسير الطبري (٢٤/ ٧٥٠).

﴿وَإِن يَكَادُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَيُزْلِقُونَكَ﴾[1] يا محمد (﴿بِأَبْصَٰرِهِمْ لَمَّا سَمِعُواْ ٱلذِّكْرَ﴾ أي من شدة غيظهم وحسدهم ولكن اللَّه حفظه من أن ينضر بأعينهم مهما غضبوا منه وحسدوه. وروى مسلم أن رسول اللَّه ﷺ قال: «**العين حق فلو كان شيء سابق القدر سبقته العين**» أي لو كان شيء يغلب قدر اللَّه تعالى لسبقت العين القدر لكن لا يغلب قدرَ اللَّه شيء، فيفهم منه أن العين لها تأثير كبير ولكنها لا تؤذي إلا بمشيئة اللَّه تعالى، ولا تحصل الإصابة بالعين إلا من نظرة حسد أو عجب وأما النظرة البريئة فلا يحصل منها الإصابة بالعين، واختلف هل يشترط معها أن يتكلم العائن بما يدل على الإعجاب فاختار القاضي أبو بكر بن العربي في أحكام القرءان (٣/ ٦١) أنه لا يحصل الضرر إذا لم يتكلم وقيل يحصل ولو لم يتكلم العائن، وأما لو قال الشخص عند النظر إلى ما يعجبه: «اللهم بارك فيه ولا تضره» أو نحو ذلك لم يصب بالعين، روى الحاكم أن رسول اللَّه ﷺ قال: «**من وجد في نفسه أو ماله أو ولده ما يعجبه فليدع بالبركة فإن العين حق**» ويفهم من هذا الحديث أيضا أن الشخص قد يصيب نفسه بالعين إذا نظر إلى نفسه نظرة العجب والكبر.

وروى ابن حبان في صحيحه عن أبي أمامة بن سهل بن حنيف يقول اغتسل أبي سهلُ بن حنيف بالخرار، فنزع جبة كانت عليه وعامر بن ربيعة ينظر، قال: وكان سهل رجلا أبيض حسن الجلد، قال: فقال عامر بن ربيعة: ما أريت كاليوم ولا جلدَ عذراء، فوُعِكَ سهلٌ مكانَه، فاشتد وعكُه، فأتى رسول اللَّه ﷺ فأخبره أن سهلا وعك وأنه غير رائح معك يا رسول اللَّه، فأتاه رسول اللَّه ﷺ فأخبره سهل الذي كان من شأن عامر بن ربيعة فقال رسول اللَّه ﷺ: «**علام يقتل أحدكم أخاه، ألا بركت، إن العين حق، توضأ له**» فتوضأ له عامر بن ربيعة، فراح سهل مع رسول اللَّه ﷺ ليس به بأس. ثم إن حكم الإصابة بالعين يختلف باختلاف الحال فمن نظر إلى ءاخر نظرة حسد

(١) سورة القلم / ٥١.

فأصابه بالعين من غير قصد منه فقد وقع في الكراهة حيث إنه لم يدع له بالبركة، وأما إن كان يعتقد أنه يصيبه بالعين ومع فعل ذلك فقد أثم.

(ص) ومحبّة أصحاب رسول اللّٰه عليه السلام على العموم حقّ؛ لأن اللّٰه تعالى اختارهم لصحبة رسوله ونبيّه ونجيّه وصفيّه وخِيرته من خلقه ليكونوا أعوانًا وأنصارًا له، فأعانوه ونصروه حتى يصل هذا الدين المرضيّ ببركة سعيهم ونصرتهم إلى مشارق الأرض ومغاربها، ومن كان في قلبه محبّة اللّٰه ومحبّة رسوله وكان هذا الدين عزيزًا عنده؛ لا ينجع في قلبه بغضُهم ولا ينطلق لسانه فيهم بالسوء.

(ش) أن من الواجبات القلبية محبة الصحابة أي تعظيمهم لأنهم أنصار دين اللَّه، ولا سيما السابقين الأولين منهم من المهاجرين والأنصار، والصحابي هو من لقي النبي ﷺ مؤمنا به ومات على الإيمان كما تقدم أول الكتاب، والمعنى أنه تجب محبتهم من حيث الإجمال كما قال المصنف رحمه اللَّه «على العموم» بل بغض كل الصحابة كفر، وليس المعنى أنه يجب محبة كل فرد منهم، ونعتقد أن الصحابة من حيث العموم هم أفضل من التابعين والتابعون من حيث العموم أفضل من أتباعهم وذلك لحديث الترمذي: «**خير الناس قرني ثم الذين يلونهم ثم الذين يلونهم**»، وفيما ذكر رد على الروافض والخوارج والمعتزلة الذين أبغضوا كثيرا من الصحابة وكفروا كثيرا منهم، ولهذا اتفق أهل السنة على قولهم «الصحابة عدول» أي أنهم لا يُتهمون في الحديث فلا يكذبون على رسول اللَّه ﷺ لا أنهم معصومون من الكبيرة بل إن من الصحابة من أخبر النبي ﷺ أنه في النار فقد روى البخاري عن عبد اللَّه بن عمرو أنه قال «كان على ثَقَلِ أي متاع النبي رجل يقال له كركرة فمات فقال رسول اللَّه ﷺ «**هو في النار**» فذهبوا ينظرون إليه فوجدوا عباءة قد غلها» ففي هذا الحديث الصحيح أن من الصحابة من مات مرتكبا للكبيرة، وليس هذا إنكارا لما جاء في فضل الصحابة إجمالا رضوان اللَّه عليهم ولكن المعصية معصية كائنا من كان قد ارتكبها، وقال ابن سيرين في

معاوية «إنه لم يكن ليكذب في حديث رسول اللَّه عليه الصلاة والسلام» رواه البخاري في التاريخ الكبير والخلّال في السنة، وقال أبو الحسنات اللكنوي في ظفر الأماني بشرح مختصر السيد الشريف الجرجاني (ص/ ٤٨٦ - ٤٨٧) ما نصه: «وقد تجيء العدالة بمعنى ما يقابل الكذب في الرواية فيقال لمن هو مجتنب عنه عادل بعد أن يكون مسلما عاقلا وإن لم يكن سالما من أسباب الفسق وخوارم المروءة وبهذا المعنى يقال إن الصحابة كلهم عدول حتى من دخل منهم في المشاجرات والمخاصمات» ثم نقل عن الشيخ عبد العزيز الدهلوي (ت ١٢٣٩ ه) أنه قال في بعض إفاداته: «إن ما تقرر في عقائد أهل السنة أن الصحابة كلهم عدول قد تكرر ذكره غير مرة ووقع البحث والتفتيش عن معناه بحضرة الوالد المرحوم [أحمد بن عبد الرحيم الدهلوي] فتنقّح بعد البحث أن المراد بالعدالة في هذه الجملة ليس معناها المتعارف بل المراد العدالة في رواية الحديث لا غير وحقيقتها التجنب عن تعمد الكذب في الرواية والانحراف فيها» اهـ وقال الأبياري في التحقيق والبيان (ص/ ٧٠٩) ما نصه: «واعلم أنا لسنا نعني بعدالة كل واحد من الصحابة أن العصمة له ثابتة والمعصية مستحيلة وإنما نريد أن الرواية منه مقبولة» ونقله عنه الزركشي في البحر المحيط (٦/ ١٨٩) والسخاوي في فتح المغيث (٤/ ١٠١) والأنصاري في فتح الباقي (٢/ ١٩١) وقد صُحف اسم الأبياري إلى ابن الأنباري فتنبه. وقال البرماوي في الفوائد السنية (٢/ ٨٧): «ليس المراد بكونهم عدولا ثبوت العصمة لهم واستحالةَ المعصية عليهم، إنما المراد أنه لا يُتكلف البحث عن عدالتهم ولا طلب التزكية فيهم» وقال العلائي في تحقيق منيف الرتبة (ص/ ٨٦): «وبهذا يتبين أنه ليس المعني بعدالة كل واحد من الصحابة رضي اللَّه عنهم أن العصمة له ثابتة والمعصية عليه مستحيلة. ولكن المعني بهذا أن روايته مقبولة وقوله مصدَّق ولا يحتاج إلى تزكية كما يحتاج غيره إليها؛ لأن استصحاب الحال لا يفيد إلا ذلك». وقال ابن التلمساني في شرح المعالم (٢/ ٢١٨) ما نصه: «والصحابة كلهم عدول وهو المعتقد وهو مذهب

السلف وجمهور الخلف والمعنيّ بذلك أن أخبارهم مقبولة من غير بحث عن أسباب العدالة».

وعلم مما ذكرناه أننا لا نعني بعدالة الصحابة إثبات العصمة لهم فقد ثبت أن النبي ﷺ رجم بعض الصحابة للزنا كماعز وحد بعضهم لشرب الخمر وكان يصر على شربها فيحد مرة بعد أخرى حتى لعنه بعض الصحابة فنهاهم النبي عن ذلك وحد بعضهم للقذف وقصة كعب بن مالك وصاحبيه تشهد لذلك وقال ﷺ في بعضهم «**كيةٌ أو كيتان**» وفي بعضهم «**إنها لَتشتعل عليه نارا**» وحديث العسيب الرطب ظاهره أن الاثنين كانا من الصحابة وفي ذلك دليل على أن من الصحابة من يرتكب الكبيرة ويموت من غير توبة بل إن من الصحابة من وقع في أكبر الذنوب ثم رجع إلى الإسلام، وقال تعالى في حق عائشة وحفصة رضي اللَّه عنهما ﴿إِن تَتُوبَآ إِلَى ٱللَّهِ فَقَدۡ صَغَتۡ قُلُوبُكُمَا﴾[1]، فبناء على هذا نقول ليس مِن سب الصحابة المنهي عنه القولُ إن مقاتلي علي منهم بغاة لأن هذا مما صرح به الحديث بالنسبة لبعضهم وهم أهل صفين وسيأتي نقل البيهقي عن ابن خزيمة وكلامُ عمار رضي اللَّه عنه، وقد قال الحسن البصري كما في شرح الإحياء (١٤/ ٢١٣) لما مات عمرو بن العاص وهو يردّد لا إله إلا اللَّه: «كيف إذا جاء بلا إله إلا اللَّه وقد قتل أهل لا إله إلا اللَّه» ولا يعارَض حديثُ «**ويح عمار**» المتواترُ بمِثل ما روي أنه ﷺ قال «**إذا ذكر أصحابي فأمسكوا**» فمَن فعل ذلك فهو بعيد من التحقيق بعدا كبيرا لأن هذا الحديث لم يثبت فكيف يُحتج به في معارضة حديث ثابت متواتر فقد روى حديثَ «**ويح عمار**» أربعة وعشرون صحابيا[2] وأما حديث «**لا**

---

(١) سورة التحريم / ٨.

(٢) قال الحافظ في الفتح: فائدة روى حديثَ «تقتل عمارا الفئة الباغية» جماعة من الصحابة منهم قتادة بن النعمان كما تقدم، وأم سلمة عند مسلم، وأبو هريرة عند الترمذي، وعبد اللَّه بن عمرو بن العاص عند النسائي، وعثمان بن عفان وحذيفة وأبو أيوب وأبو رافع وخزيمة بن ثابت ومعاوية وعمرو بن العاص وأبو اليُسر =

تسبوا أصحابي» فقد قاله النبي ﷺ مخاطِبا به سيدَنا خالد بن الوليد فلم يُرد الرسولُ بقوله «**أصحابي**» كلَّ من لقيه مؤمنا به إنما أراد به طبقة خاصة وهم الذين صِفتهم كعبد الرحمن بن عوف وعليّ رضي اللَّه عنهما وهم السابقون من المهاجرين والأنصارِ فليس من السب المنهي عنه في الحديث المذكورِ ولا في حديث «**سبابُ المسلم فسوق**» بيانُ حال بعضٍ منهم بما فيه ذم له لغرضٍ شرعي، وروى النسائي في الخصائص والبزار وأبو يعلى عن علي رضي اللَّه عنه أنه قال: «**أمرت بقتال الناكثين**» أي الذين نكثوا البيعة وهم أهل الجمل «**والقاسطين**» أي الظالمين وهم الذين خرجوا على الخليفة كأهل صفين «**والمارقين**» كبعض الخوارج وقال الزبيدي في التاج (٢٠/ ٢٨): «قال الفراء الناكثون أهل الجمل لأنهم نكثوا بيعتهم والقاسطون أهل صفين لأنهم جاروا في الحكم وبغوا عليه والمارقون الخوراج لأنهم مرقوا من الدين كما يمرق السهم من الرمية» وقال المطرزي في المُغْرِب (٢/ ٣٢٦): «والقاسطون معاوية وأشياعه لأنهم جاروا حين حاربوا إمام الحق»، فإن سيدنا عليا ومن معه قاتلوهم لردهم إلى الحق لا لأنهم خارجون من الإسلام ولذلك لم يجروا عليهم أحكام قتال الكفار فلم يسلبوا أموالهم ولا تبعوا مدبرهم ولا أجهزوا على جريحهم ولا قتلوا أسراهم.

قال الإمام عبد القاهر الجرجاني في كتاب الإمامة[1]: «أجمع فقهاء الحجاز والعراق من فريقي الحديث والرأي منهم مالك والشافعي وأبو حنيفة والأوزاعي والجمهور الأعظم من المتكلمين أن عليا مصيب في قتاله لأهل صفين كما قالوا بإصابته في قتال أصحاب الجمل وقالوا أيضا بأن الذين قاتلوه بغاة ظالمون له ولكن لا يجوز تكفيرهم ببغيهم».

= وعمار نفسه وكلها عند الطبراني وغيرِه، وغالب طرقها صحيحة أو حسنة، وفيه عن جماعة ءاخرين يطول عدهم، وفي هذا الحديث عَلَم من أعلام النبوة وفضيلة ظاهرة لعلي ولعمار وردٌّ على النواصب الزاعمين أن عليا لم يكن مصيبا في حروبه.

(١) انظر: التذكرة للقرطبي (ص/ ٦٢٦).

وقال أبو منصور البغدادي: «أجمعوا أن عليا مصيب في قتاله أهلَ الجمل طلحةَ والزبير وعائشة بالبصرة وأهلَ صفين معاويةَ وعسكرَه» كما حكاه عنه المناوي في فيض القدير (٦/ ٣٦٥).

وروى البيهقي في سننه وابن أبي شيبة في مصنفه بالإسناد المتصل إلى عمار بن ياسر قال: «لا تقولوا كفر أهل الشام ولكن قولوا فسقوا أو ظلموا» ورواه أحمد والحاكم وغيرهما، وزاد ابن أبي شيبة في إحدى رواياته «ولكنهم قوم مَفتونون جاروا عن الحق فحقّ علينا أن نقاتلهم حتى يرجعوا إليه».

ونقل الحافظ ابن حجر في التلخيص الحبير (٤/ ١٢٦) عن الإمام أبي القاسم الرافعي قولَه «وثبت أن أهل الجمل وصفين والنهروان بغاة» ثم قال الحافظ: «هو كما قال».

وروى البيهقي في الاعتقاد (ص/ ٣٧٥) بإسناده المتصل إلى ابن خزيمة قال «وكل من نازع أمير المؤمنين علي بن أبي طالب في إمارته باغ على هذا عهدت مشايخنا وبه قال ابن إدريس رحمه اللَّه» يعني الشافعي.

ويكفي لإثبات ذلك الحديثُ الصحيح الذي رواه البخاري «**ويح عمار تقتله الفئة الباغية**» وهو إلى هنا متواتر وبقيته «**يدعوهم إلى الجنة ويدعونه إلى النار**» صحيحة دون المتواتر ورواه بهذا اللفظ أيضا ابن حبان وفي رواية عند البخاري أيضا «**يدعوهم إلى اللَّه**» وفي رواية الطبراني «**ويح عمار تقتله الفئة الباغية الناكبة عن الحق**».

قال المُناوي في فيض القدير (٦/ ٣٦٥): «وهذا صريح في بغي طائفة معاوية الذين قتلوا عمارا في وقعة صفين وأن الحق مع علي وهو من الإخبار بالمغيّبات «**يدعوهم**» أي عمارٌ يدعو الفئة وهم أصحاب معاوية الذين قتلوه بصفين في الزمان المستقبل «**إلى الجنة**» أي إلى سببها وهو طاعة الإمام الحق «**ويدعونه إلى**» سبب «**النار**» وهو عصيانه ومقاتلته، قالوا وقد وقع ذلك في يوم صفين دعاهم إلى الإمام الحق ودعوه إلى النار» قال المناوي: «ولما لم

يقدر معاوية على إنكاره قال إنما قتله من أخرجه فأجابه علي بأن رسول اللَّه ﷺ إذنْ قتل حمزة حين أخرجه، قال ابن دحية وهذا من علي إلزام مفحم لا جواب عنه وحجة لا اعتراض عليها».

وقال ملا علي القاري في مرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح (٩/ ٣٧٨٥) ما نصه: «قال ابن الملَك اعلم أن عمارا قتله معاوية وفئته فكانوا طاغين باغين بهذا الحديث لأن عمارا كان في عسكر علي وهو المستحق للإمامة فامتنعوا عن بيعته. وحكي أن معاوية كان يؤول معنى الحديث ويقول نحن فئة باغية طالبة لدم عثمان وهذا كما ترى تحريفٌ إذ معنى طلب الدم غير مناسب هنا لأنه ﷺ ذكر الحديث في إظهار فضل عمار وذم قاتله لأنه جاء في طريق «ويح»، قلت «ويح» كلمة تقال لمن وقع في هلكة لا يستحقها فيترحم عليه ويرثى له بخلاف «ويل» فإنها كلمة عقوبة تقال للذي يستحقها ولا يترحم عليه، هذا وفي الجامع الصغير برواية الإمام أحمد والبخاري عن أبي سعيد مرفوعا «**ويح عمارٍ تقتله الفئة الباغية يدعوهم إلى الجنة ويدعونه إلى النار**» وهذا كالنص الصريح في المعنى الصحيح المتبادر من البغي المطلق في الكتاب كما في قوله تعالى ﴿**وينهى عن الفحشاء والمنكر والبغي**﴾ وقولِه سبحانه ﴿**فإن بغت إحداهما على الأخرى**﴾ فإطلاق اللفظ الشرعي على إرادة المعنى اللغوي عدول عن العدل وميل إلى الظلم الذي هو وضع الشيء في غير موضعه» ثم قال الملا علي: «فإذا كان الواجبُ عليه أن يرجع عن بغيه بإطاعته الخليفة ويتركَ المخالفة وطلَبَ الخلافةِ المنيفة فتبين بهذا أنه كان في الباطن باغيا وفي الظاهر متسترا بدم عثمان مراعيا مرائيا فجاء هذا الحديث عليه ناعيا وعن عمله ناهيا لكن كان ذلك في الكتاب مسطورا فصار عنده كل من القرءان والحديث مهجورا، فرحم اللَّه من أنصف ولم يتعصب ولم يتعسف وتولى الاقتصاد في الاعتقاد لئلا يقع في جانبي سبيل الرشاد من الرفض والنصب بأن يحب جميع الآل والصحب». اهـ

وقال الأزهري في التهذيب (٨/ ١٨١): «البغي الظلم والفساد والفئة

الباغية هي الظالمة الخارجة عن طاعة الإمام العادل وقال النبي ﷺ لعمار «**ويح ابن سمية تقتله الفئة الباغية**»». اهـ

وممن استدل بهذا الحديث على مسألتنا الصحابي الجليل البدري أبو عُمارة خزيمة بن ثابت الأنصاري فعن ابنه أنه شهد الجمل وهو لا يُسِل سيفا وشهد صفين وقال «أنا لا أقاتل أبدا حتى يُقتل عمار فأنظرَ من يقتله فإني سمعت رسول اللَّه ﷺ يقول «**تقتله الفئة الباغية**» فلما قتل عمار قال: «بانت لي الضلالة» ثم اقترب فقاتل حتى قتل[1]. وقال ابن كثير في البداية والنهاية (٧/ ٢٦٩): «بانَ بذلك [أي بمقتل عمار] أن عليا محق ومعاويةَ باغ وما في ذلك من دلائل النبوة»

فإذا كان هذا قولَ أبي حنيفة ومالك والشافعي والأوزاعي وفقهاء الحجاز والعراق والأزهري والحافظ ابن حجر والنسائي وابن دحية والبيهقي وابن خزيمة وابن الملك والرافعي والجرجاني والمناوي وملا علي وأبي منصور البغدادي والأشعري كما سيأتي ونص عليه من الصحابة علي وخزيمة بن ثابت وعمار بل وعليه نص الحديث الصحيح فكيف يجرؤ بعد كل هذا أن يتنطع مشوش بالطعن في شيخنا الهرري رحمه اللَّه في هذه المسألة.

فبعد هذا البيان لا يصح أن يقال في معاوية إنه اجتهد فأخطأ فنثبتُ له أجر الاجتهاد كما فعل التاج السبكي في الجمع وتبعه عليه خلق منهم صاحب صفوة الزبد حيث قال: [مشطور الرجز]

وما جرى بين الصحاب نسكتُ عنه وأجرَ الاجتهاد نثبِتُ

(١) قال عبد الرحمن بن أبزى: شهدنا صفين مع علي في ثمانمائة ممن بايع بيعة الرضوان قتل منهم ثلاث وستون منهم عمار بن ياسر، وقال أبو عبد الرحمن السلمي «شهدنا مع علي صفين فرأيت عمار بن ياسر لا يأخذ ناحية من أودية صفين إلا رأيت أصحاب محمد ﷺ يتبعونه كأنه علم لهم، وقال: فلم أر أصحاب محمد ﷺ قَتلوا في موطن ما قتلوا يومئذ. انظر: التذكرة للقرطبي.

فكيف يكون مأجورا مع قيام النص الصريح على حرمة الخروج على الإمام وفي حديث البخاري «**ويدعونه إلى النار**» وفي قول عمار «**ولكن قولوا فسقوا أو ظلموا**»، وهذا مع قول صاحب الزبد بأن الخروج على الخليفة حرام حيث قال قبل ذلك: [مشطور الرجز]

ولـم يـجـزْ فـي غـيـرِ مـحـضِ الكفرِ خـــروجُـــنـــا عـلـى ولـــي الأمـــرِ

فكيف جمع بين القولين! وقال أبو بكر الجصاص الحنفي المتوفى سنة ٣٧٠ هـ في الفصول (٤/ ٥٦) ما نصه: «ألا ترى أنهم [يعني الصحابة] لما اختلفوا في طريقٍ الحقُّ فيه واحد ولايسوغ الاجتهاد في العدول عنه خرجوا منه إلى اللعن والبراءة ونصب الحرب والقتال كنحو اختلافهم في إنشاء حرب الجمل وصفين وقتال الخوارج لَما كان الحق فيه واحدا وكان الدليل عليه قائما بارزا لم يسوّغوا الاجتهاد فيه ولم تكن منزلة هذا الكلام عندهم كمنزلة الخلاف في الجد والخلية والبرية والحرام وما أشبه ذلك. اهـ

وقال في حاشية النبراس على شرح العقائد: وقال بحر العلوم في شرح مسلم الثبوت عن البعض بأن في كون مخالفة معاوية بالاجتهاد نظرا لأنه لو كانت بالاجتهاد لناظر بحجته إلى أن قال وقد عده صاحب الهداية من السلاطين الجائرة مقابل العادلين ولو كان بالاجتهاد لما كان جورا. اهـ

قال القرطبي في التذكرة (ص/ ١١٠٥): «وربما ندم بعضهم على ترك ذاك كعبد اللَّه بن عمر فإنه ندم على تخلفه عن نصرة علي بن أبي طالب رضي اللَّه عنه فقال عند موته «ما ءاسى على شيء ما ءاسى على تركي قتالَ الفئة الباغية» يعني فئة معاوية، وهذا هو الصحيح أن الفئة الباغية إذا علم منها البغي قوتلت». ورواه عنه صاحب العِقد الثمين والحاكم والبيهقي وابنُ الأثير، وقال الشعبي: «ما مات مسروق حتى تاب إلى اللَّه تعالى من تخلفه عن القتال مع علي» رواه ابن الأثير في أسد الغابة (٤/ ١٠٢).

أما ما يُنقل عن بعض الأئمة من أنه كان يرى توبة معاوية فإننا لا نحيله

ولكنه ليس له إسناد ثابت عنه صحيحٌ بل الثابت أنه في ءاخر حياته أمر باستخلاف ابنِه يزيد مع كونه كان معروفا بالفسق، قال الطبري في تاريخه (٥/ ٣٢٢) ما نصه: «عن أبي مِخْنَفٍ قال حدثني عبد الملكِ بنُ نوفلِ بن مُساحق بن عبد اللَّه بن مَخرَمة أن معاوية لما مرِض مرضته التي هلك فيها دعا يزيدَ ابنَه فقال يا بني إني قد كفيتُك الرِّحلة والتَّرحال ووطَّأتُ لك الأشياء وذلَّلت لك الأعداء وأخضعت لك أعناقَ العرب وجمعتُ لك من جمعٍ واحد وإني لا أتخوف أن ينازعك هذا الأمرَ الذي استتبّ لك إلا أربعةُ نفر من قريش الحسينُ بن علي وعبد اللَّه بن عمر وعبد اللَّه بن الزبير وعبد الرحمن بن أبي بكر» ثم قال «وأما الذي يجثم لك جثوم الأسد ويراوغك مراوغة الثعلب فإذا أمكنتْه فرصةٌ وثب فذاك ابنُ الزبير فإن هو فعَلَها بكَ فقدرتَ عليه فقطّعه إربا إربا». وأبو مخنف متكلم فيه والعمدة على الروايات الصحيحة الثابتة التي سنوردها في كلام الحافظ ابن حجر.

قال الحافظ ابن حجر في المطالب العالية (١٨/ ٢٥٤): عن عمرو بن حزم قال لمعاوية عندما أراد أن يستخلف يزيد: «لعمري لقد أصبح يزيد بن معاوية واسط الحسب في قريش غنيا عن المال غنيا عن كل خير وإني سمعت رسول اللَّه ﷺ يقول «**إن اللَّه تعالى لم يسترع عبدا رعية إلا وهو سائله عنها يوم القيامة كيف صنع فيها**» وإني أذكرك اللَّهَ يا معاوية في أمة محمد ﷺ من تستخلف عليها، قال فأخذ معاوية رَبوٌ ونَفس في غداةِ قرّ حتى عرِق وجعل يمسح العرق عن وجهه مليا ثم أفاق فحمد اللَّه وأثنى عليه ثم قال أما بعد فإنك امرؤ ناصح قلتَ برأيك بالغا ما بلغ وإنه لم يبق إلا ابني وأبناؤهم فابني أحق من أبنائهم».

وقال الحافظ في الفتح (١٣/ ٧٠) ما نصه: «وأخرج أبو بكر بن أبي خيثمة بسند صحيح إلى جويرية بن أسماء سمعتُ أشياخ أهل المدينة يتحدثون أن معاوية لما احتُضر دعا يزيدَ فقال له إن لكَ من أهل المدينة يوما فإن فعلوا فارمهم بمُسلم بن عقبة فإني عرفت نصيحته» ثم حكى القتال الذي حصل

بين مُسلم بن عقبة وأهلِ المدينة. اهـ قال البخاري «باب إثم من كاد أهل المدينة» ثم روى عن سعد أنه قال: «سمعت النبي ﷺ يقول لا يكيد أهل المدينة أحد إلا انماع كما ينماع الملح في الماء».

وقال شيخنا الهرري رحمه اللَّه: [مشطور الرجز]

إن الـذيـنَ قـاتـلـوا عـليّـا ... مِـن الـصـحـاب أثـمـوا جـليّـا

لـمـا أتـى فـي مـسـلـم وغـيـرِه ... فـي شـأن مـن عـصـى ولـيَّ أمـره

لـكـنَّ مـنـهـمْ ذنـبـهـم مـغـفـورُ ... عـائـشـةٌ طـلـحـة والـزبـيـرُ

قـال بـهـذا الاشـعـري أبـو الحسنْ ... رحـمـه الـلَّـه الـعـليُّ ذو المـنـن

محصل الكلام في القضية: أنه يجب محبة الصحابة على العموم وأن ذلك لا يعني أن نقول في الفعل المحرم إنه غير محرم لمجرد أن فاعله صحابي، بل نثبت أن الفعل معصية كائنا من كان فاعلها، وإذا كان لا يجوز الخروج على أيّ خليفة عدل بالإجماع فماذا يقال في الخارجين على علي وهو خير أهل الأرض في عهده بلا خلاف؟! ولا ننزل أحدا ممن باشر تلك الذنوب نارا بل هو تحت المشيئة، ولا ندخل في هذه القضية لغير حاجة فحيث لم تدع حاجة لذلك كان الصواب ما حكي عن الخليفة الراشد عمر بن عبد العزيز عندما سئل عن أهل صفين: «تلك دماء طهر اللَّه منها أيدينا فلا نلوث بها ألسنتنا» وقال الحافظ البيهقي في مناقب الشافعي (ص/ ٤٤٩) تعقيبا على ذلك: «قلتُ وهذا رأي حسن جميل من عمر بن عبد العزيز رضي اللَّه عنه في السكوت عما لا يعنيه إذا لم يَحتج إلى القول فيه، فأما إذا احتاج إلى تعلم السيرة في قتال الفئة الباغية فلا بد له من متابعة علي بن أبي طالب في سيرته في قتالهم، ثم ولا بد من أن يعتقد كونه محقا في قتالهم وإذا كان هو محقا في قتالهم كان خصمه مخطئا في قتاله والخروج عليه غير أنه لم يخرج ببغيه عن الإسلام كما حكينا عن الشافعي رحمة اللَّه عليه في متابعته عليا في سيرته

في قتالهم وتسمية الطائفتين جميعا مسلمتين» اهـ ولهذا الغرض نفسه أطلنا الكلام في ذلك فلو لم تدع الحاجة لبيانه لتركنا الخوض فيه، ومن أراد زيادة بيان فلينظر كتابي شيخنا الهرري رحمه اللَّه «المقالات السنية في كشف ضلالات أحمد ابن تيمية» و«صريح البيان في الرد على من خالف القرءان» ففيهما الغنية والكفاية. واللَّه أعلم.

(ص) وبعد وفاة رسول اللّٰه عليه السلام كان أبو بكر الصدّيق رضي اللّٰه عنه خليفة حق.

(ش) أن أول الخلفاء بعد رسول اللَّه ﷺ هو الخليفة الراشد الصديق أبو بكر عبد اللَّه بن عثمان بنِ عامر بن عمرو بن كعب بن سعد بن تَيم بن مرة ابن كعب بن لؤي بن غالب التيميّ القرشي يلتقي مع رسول اللَّه ﷺ في مرة ابن كعب، وما ذكر أن اسمه عبدُ اللَّه هو الصحيح المشهور كما قال النووي في تهذيبه، وقيل اسمه عَتيق، والصواب أن عتيقا لقب له لا اسم، ولقب به لعِتقه من النار أو لحسن وجهه وقيل غير ذلك، وسمي بالصديق لأنه بادر إلى تصديق الرسول ﷺ وعندما سئل عن قول النبي إنه أسري به في بعض ليلة قال «إن كان قال ذلك فقد صدق» روى الحاكم في المستدرك من حديث عائشة أن المشركين جاؤوا إلى أبي بكر فقالوا: هل لك إلى صاحبك يزعم أنه أسري به الليلة إلى بيت المقدس، قال: أوَقال ذلك؟ قالوا: نعم، قال: لئن كان قال ذلك لقد صدق، قالوا: أوَتصدقه أنه ذهب الليلة إلى بيت المقدس وجاء قبل أن يصبح؟ قال: نعم، إني لأصدقه فيما هو أبعد من ذلك أصدقه بخبر السماء في غدوة أو روحة»، فلذلك سمي الصديقَ قال الحاكم: «هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه» ووافقه الذهبي، وقد تقدم ذلك.

وأمه أم الخير رضي اللَّه عنها سلمى بنت صخر بن عامر بن كعب بن سعد بن تيم بن مرة.

ولد بعد رسول اللَّه ﷺ بسنتين ونصف ونشأ بمكة وعاش ثلاثًا وستين

سنة، سنَّ رسول اللَّه ﷺ. وهو أول الأمة من الرجال إسلامًا على الراجح، وخيرُهم بعد رسول اللَّه ﷺ بلا خلاف، روى البخاري عن محمدِ ابن الحنفية قال قلت لأبي: «أيُّ الناس خيرٌ بعد رسول اللَّه ﷺ؟» قال «أبو بكر» قلت «ثم من؟» قال «ثم عمر» وخشيت أن يقول عثمان قلت «ثم أنت؟» قال «ما أنا إلا رجل من المسلمين»، وروى عن ابن عمر أنه قال كنا نخيِّر بين الناس في زمن النبي فنخير أبا بكر ثم عمر بن الخطاب ثم عثمان بن عفان رضي اللَّه عنهم»، وقد أجمعوا على أن أبا بكر هو المراد بقوله تعالى ﴿إِذْ يَقُولُ لِصَٰحِبِهِۦ﴾[1].

وولي الخلافة سنتين ونصفًا وكان سببا في حل النزاعات التي تحصل بين الصحابة فأول خلاف ظهر بين المسلمين اختلافُهم في وفاة رسول اللَّه حتى قال قوم منهم إنه لم يمت ولكنه رفع كما رفع عيسى ابن مريم عليه السلام، وارتفع هذا الخلاف ببركات أبي بكر الصديق رضي اللَّه عنه حين صعد المنبر وخطب خطبة وتلى عليهم قوله سبحانه وتعالى ﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ﴾[2] ثم قال: «من كان يعبد محمدا فإن محمدا قد مات، ومن كان يعبد رب محمد فإنه حي لا يموت» فسكنت النفوس واطمأنت وأذعنت له الرقاب واعترفت الكافة بما ظهر من الأمر وزال الخلاف.

الخلاف الثاني أنهم اختلفوا في موضع دفنه ﷺ قال قوم إنه يدفن بمكة لأنها مولده وبها قبلته وبها مشاعر الحج وبها نزل عليه الوحي وبها قبر جده إسماعيل عليه السلام، وقال آخرون إنه ينقل إلى بيت المقدس فإن به تربة الأنبياء ومشاهدهم صلوات الرحمن عليهم، وقال أهل المدينة إنه يدفن في المدينة لأنها موضع هجرته وأهلها أهل نصرته، فزال هذا الخلاف ببركة الصديق حين روى أن رسول اللَّه ﷺ قال «**الأنبياء يدفنون حيث يقبضون**» فقبلوا منه روايته ورجعوا إلى قوله ودفنوه في حجرته.

---

(١) سورة التوبة / ٤٠.

(٢) سورة الزمر / ٣٠.

الخلاف الثالث اختلافهم في الإمامة فقالت الأنصار منا إمام ومنكم إمام، وطال بينهم الكلام في ذلك حتى صعد الصديق رضي اللَّه عنه المنبر وخطب ثم تلا عليهم قوله تعالى ﴿لِلْفُقَرَاءِ الْمُهَاجِرِينَ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِن دِيَارِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا وَيَنصُرُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ﴾[1] قال فسمانا الصادقين ثم أمر اللَّه تعالى المؤمنين أن يكونوا مع الصادقين بقوله تعالى ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ﴾[2] وروى لهم أن رسول اللَّه ﷺ قال «**الأئمة من قريش**» فصدقوه في روايته ونزلوا على قضيته واتفقوا على قوله فزال هذا الخلاف أيضا ببركة الصديق رضي اللَّه عنه، وروى النسائي في السنن الكبرى أن عمر رضي اللَّه عنه قال بعد قول الأنصار منا أمير ومنكم أمير: سيفان في غمد واحد إذن لا يصلحان، ثم أخذ بيد أبي بكر فقال: من له هذه الثلاث؟ ﴿إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ﴾ من صاحبه؟ ﴿إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ﴾ من هما؟ ﴿لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا﴾ مع من؟ ثم بايعه عمر وبايعه الناس أحسن بيعة وأجملها.

وروى البخاري عن عمرو بن العاص أنه قال للنبي ﷺ: «أي الناس أحب إليك؟» فقال «**عائشة**» فقال من الرجال؟ قال «**أبوها**».

وروي له عن رسول اللَّه ﷺ مائة واثنان وأربعون حديثا، اتفق الشيخان على ستة منها وانفرد البخاري بأحد عشر ومسلم بواحد.

ومات أبو بكر رضي اللَّه عنه في جُمادى الآخرة لثلاث ليال بقين منه سنة ثلاثَ عشرة عن ثلاث وستين سنة كما تقدم، وكان استأذن عائشةَ أن يدفن إلى جانب رسول اللَّه ﷺ فلما توفي حُفر له وجُعل رأسه عند كتفه ﷺ، وغسلته زوجته أسماء بنت عُميس، وأخرج الواقدي من طرق أنه لما مرض دعا عبدَ الرحمن بن عوف فسأله في عمرَ رضي اللَّه عنه وسأل عثمانَ

(١) سورة الحشر / ٨.

(٢) سورة التوبة / ١١٩.

وسعيد بنَ زيد وأُسَيد بن الحُضير وغيرَهم ثم دعا عثمان فقال له اكتب: «بسم اللَّه الرحمن الرحيم هذا ما عهد أبو بكر بن أبي قُحافة في ءاخر عهده بالدنيا خارجا منها وعند أول عهده بالآخِرة داخلا فيها حيث يؤمن الكافر ويوقن الفاجر ويَصدُق الكاذب إني استخلفت عليكم بعدي عمرَ بن الخطاب فاسمعوا له وأطيعوا» إلى ءاخره ثم دعا عمرَ خاليا فأوصاه.

(ص) وبعده كان عمر بن الخطّاب رضي اللّٰه عنه خليفة حقّ.

(ش) أن الخليفة الثاني من الخلفاء الراشدين أبو حفص عمر بن الخطاب ابن نفيل بن عبد العزى بن رِياح بن قُرْط بن رَزاح بن عَدي بن كعب بن لؤي، أول من لقب بأمير المؤمنين، وأمه حنتمة بنت هاشم، ولد بعد الفيل بثلاث عشرة سنة وكان من أشراف قريش وإليه كانت السفارة في الجاهلية، فكانت قريش إذا وقعت الحرب بينهم أو بينهم وبين غيرهم بعثوه سفيرًا، أي رسولًا، وإذا نافرهم منافر أو فاخرهم مفاخر بعثوه منافرًا أو مفاخرًا، وأسلم قديمًا بعد أربعين رجلًا وإحدى عشرة امرأة، وقيل: بعد تسعة وثلاثين رجلًا وثلاث وعشرين امرأة، وقيل: بعد خمسة وأربعين رجلًا وإحدى عشرة امرأة، فما هو إلا أن أسلم فظهر الإسلام بمكة وفرح به المسلمون، واختلف في قصة إسلامه ومن ذلك ما رواه ابن سعد والحاكم والبيهقي في الدلائل عن أنس رضي اللَّه عنه قال خرج عمر متقلدًا سيفه، فلقيه رجل من بني زهرة، فقال: أين تعمد يا عمر؟ فقال: أريد أن أقتل محمدًا، قال: وكيف تأمن من بني هاشم وبني زهرة وقد قتلت محمدًا؟ فقال: ما أراك إلا قد صبأت، قال: أفلا أدلك على العجب؟! إن ختَنك وأختك قد صبئا وتركا دينك، فمشى عمر فأتاهما وعندهما خباب، فلما سمع بحس عمر توارى بالبيت، فدخل، فقال: ما هذه الهينمة؟ وكانوا يقرؤون طه، قالا: ما عدا حديثًا تحدثناه بيننا، قال: فلعلكما قد صبأتما، فقال له ختنه: يا عمر إن كان الحق في غير دينك، فوثب عليه عمر، فوطئه وطأ شديدًا، فجاءت أخته، لتدفعه عن زوجها، فنفحها نفحة

بيده، فدمي وجهها، فقالت، وهي غضبى: وإن كان الحق في غير دينك، إني أشهد أن لا إله إلا اللَّه وأن محمدًا عبده ورسوله، فقال عمر: أعطوني الكتاب الذي هو عندكم فأقرأه، وكان عمر يقرأ الكتاب، فقالت أخته: إنك رجس، وإنه لا يمسه إلا المطهرون، ثم أخذ الكتاب، فقرأ ﴿طه﴾[1] حتى انتهى إلى: ﴿إِنَّنِيٓ أَنَا ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعۡبُدۡنِي وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِذِكۡرِيٓ﴾[2] فقال عمر: دلوني على محمد، فلما سمع خباب قول عمر خرج، فقال: أبشر يا عمر فإني أرجو أن تكون دعوة رسول اللَّه ﷺ لك ليلة الخميس: «**اللهم أعز الإسلام بعمر بن الخطاب، أو بعمرو بن هشام**». وكان رسول اللَّه ﷺ في أصل الدار التي في أصل الصفا، فانطلق عمر حتى أتى الدار، وعلى بابها حمزة وطلحة وناس، فقال حمزة: هذا عمر إن يرد اللَّه به خيرًا يسلَمْ، وإن يرد غير ذلك يكن قتلُه علينا هينًا، قال: والنبي ﷺ داخل يوحى إليه، فخرج حتى أتى عمرَ، فأخذ بمجامع ثوبه وحمائل السيف، فقال: «**ما أنت بمنته يا عمر حتى ينزل اللَّه بك من الخزي والنكال ما أنزل بالوليد بن المغيرة**» فقال عمر: أشهد أن لا إله إلا اللَّه وأنك عبد اللَّه ورسوله اهـ وروى البخاري عن ابن مسعود رضي اللَّه عنه أنه قال: «ما زلنا أعزة منذ أسلم عمر»، هو الفاروق الذي فرق بين الحق والباطل، خافه شياطين الإنس والجن، قال ابن مسعود رضي اللَّه عنه: لقي رجل من أصحاب النبي الشيطانَ في زُقاق من أزقة المدينة، فدعاه الجني إلى الصراع فصرعه الإنسي، فقال دعني ففعل، فقال هل لك في المعاودة؟ ففعل فصرعه فجلس على صدره فقال ما الذي يعيذنا منكم؟ قال ءاية الكرسي، فقال رجل لابن مسعود: من ذاك الرجل أعمر هو؟ قال: ومن عسى ألا يكون إلا عمر، وروي في حديث ضعيف: «**عمر سراج أهل الجنة**»، وكان يخطب وفي إزاره ثنتا عشرة رقعة، وكان يصوم الدهر، وروي عن عائشة رضي اللَّه عنها

---

(١) سورة طه / ١.

(٢) سورة طه / ١٤.

أنها قالت: «إذا شئتم أن يطيب المجلس فعليكم بذكر عمر بن الخطاب».

روي له عن رسول اللَّه ﷺ خمسمائة وتسعة وثلاثون حديثا، اتفق الشيخان على ستة وعشرين حديثا، وانفرد البخاري منها بأربعة وثلاثين، ومسلم بواحد وعشرين.

ولي الخلافة عشر سنين وستةَ أشهر، وقتل في ءاخر ذي الحجة بعد رجوعه من الحج من سنة ثلاث وعشرين من الهجرة، وهو ابن ثلاث وستين سنة، سِنَّ رسول اللَّه ﷺ، ويروى أن كعب الأحبار قال لعمر أجدك في التوراة تقتل شهيدا، فقال عمر: «وأنى لي بالشهادة وأنا بجزيرة العرب» اهـ وأخرج ابن سعد في الطبقات (٣/ ٣٤٥) أن أبا لؤلؤة المجوسي كمَنَ بزاوية من زوايا المسجد بغلَس [أي عتمة] فلم يزل هناك حتى خرج عمر يوقظ الناس للصلاة فلما دنا منه طعنه ثلاث طعنات بخنجر ذي رأسين.

وروى البخاري في صحيحه عن عمرو بن ميمون أنه قال: «إني لقائم ما بيني وبينه إلا عبد اللَّه بن عباس غداة أصيب، وكان إذا مر بين الصفين قال: استووا، حتى إذا لم ير فيهن خللا تقدم فكبر، وربما قرأ سورة يوسف، أو النحل، أو نحو ذلك في الركعة الأولى حتى يجتمع الناس، فما هو إلا أن كبر فسمعته يقول: قتلني -أو أكلني- الكلب، حين طعنه، فطار العِلجُ[1] بسكين ذات طرفين، لا يمر على أحد يمينا ولا شمالا إلا طعنه، حتى طعن ثلاثة عشر رجلا، مات منهم سبعة، فلما رأى ذلك رجل من المسلمين طرح عليه برنسا فلما ظن العلج أنه مأخوذ نحر نفسه، وتناول عمر يد عبد الرحمن بن عوف فقدمه، فمن يلي عمرَ فقد رأى الذي أرى، وأما نواحي المسجد فإنهم لا يدرون غير أنهم قد فقدوا صوت عمر، وهم يقولون: سبحان اللَّه سبحان اللَّه، فصلى بهم عبد الرحمن صلاة خفيفة، فلما انصرفوا قال: يا ابن عباس انظر من قتلني، فجال ساعة ثم جاء فقال: غلام المغيرة، قال: الصَّنَعُ؟

(١) العلج هو الواحد من كفار العجم والجمع علوج.

قال: نعم، قال: قاتله اللَّه، لقد أمرتُ به معروفا، الحمد للَّه الذي لم يجعل مِيتتي بيد رجل يدعي الإسلام، قد كنتَ أنت وأبوك تحبان أن تكثر العلوج بالمدينة، -وكان العباس أكثرهم رقيقا- فقال: إن شئتَ فعلتُ، أي إن شئت قتلنا، قال: كذبتَ بعد ما تكلموا بلسانكم وصلوا قبلتكم وحجوا حجكم. فاحتُمل إلى بيته فانطلقنا معه وكأن الناس لم تصبهم مصيبة قبل يومئذ، فقائل يقول: لا بأس، وقائل يقول: أخاف عليه، فأتي بنبيذ[1] فشربه فخرج من جوفه، ثم أتي بلبن فشربه فخرج من جرحه، فعلموا أنه ميت، فدخلنا عليه، وجاء الناس فجعلوا يثنون عليه، وجاء رجل شاب فقال: أبشر يا أمير المؤمنين ببشرى اللَّه لك من صحبة رسول اللَّه ﷺ، وقدم في الإسلام ما قد علمت، ثم وليت فعدلت، ثم شهادة، قال: وددت أن ذلك كفاف لا علي ولا لي، فلما أدبر إذا إزاره يمس الأرض، قال: ردوا علي الغلام، قال: يا ابن أخي ارفع ثوبك، فإنه أبقى لثوبك، وأتقى لربك، يا عبد اللَّه بن عمر، انظر ما علي من الدين، فحسبوه فوجدوه ستة وثمانين ألفا أو نحوه، قال: إن وفى له مالُ ءال عمر فأده من أموالهم، وإلا فسل في بني عدي بن كعب، فإن لم تف أموالهم فسل في قريش، ولا تعْدُهُم إلى غيرهم، فأدّ عني هذا المال، انطلق إلى عائشة أم المؤمنين فقل: يقرأ عليك عمر السلام، ولا تقل أمير المؤمنين، فإني لست اليوم للمؤمنين أميرا، وقل: يستأذن عمر بن الخطاب أن يدفن مع صاحبيه، فسلم واستأذن، ثم دخل عليها، فوجدها قاعدة تبكي، فقال: يقرأ عليكِ عمر بن الخطاب السلام ويستأذن أن يدفن مع صاحبيه، فقالت: كنت أريده لنفسي، ولأوثرن به اليوم على نفسي، فلما أقبل قيل: هذا عبد اللَّه بن عمر قد جاء، قال: ارفعوني، فأسنده رجل إليه، فقال: ما لديك؟ قال: الذي تحب يا أمير المؤمنين أذِنَت، قال: الحمد لله ما كان من شيء أهم إلي من ذلك، فإذا أنا قضيت فاحملوني، ثم سلم، فقل: يستأذن عمر بن الخطاب، فإن أذنت

---

(١) أي طاهر غير مسكر.

لي فأدخلوني، وإن ردتني ردوني إلى مقابر المسلمين، وجاءت أم المؤمنين حفصة والنساء تسير معها، فلما رأيناها قمنا، فولجت عليه، فبكت عنده ساعة، واستأذن الرجال، فولجتْ داخلا لهم، فسمعنا بكاءها من الداخل، فقالوا: أوص يا أمير المؤمنين، استخلِفْ، قال: ما أجد أحدا أحقَّ بهذا الأمر من هؤلاء النفر -أو الرهط- الذين توفي رسول اللَّه ﷺ وهو عنهم راض، فسمى عليا، وعثمان، والزبير، وطلحة، وسعدا، وعبد الرحمن، وقال: يشهدكم عبد اللَّه بن عمر وليس له من الأمر شيء -كهيئة التعزية له- فإن أصابت الإمرةُ سعدا فهو ذاك، وإلا فليستعن به أيُّكم ما أمر؛ فإني لم أعزله عن عجز ولا خيانة، وقال: أوصي الخليفة من بعدي بالمهاجرين الأولين أن يعرف لهم حقهم ويحفظ لهم حرمتهم، وأوصيه بالأنصار خيرا، ﴿وَٱلَّذِينَ تَبَوَّءُو ٱلدَّارَ وَٱلۡإِيمَٰنَ مِن قَبۡلِهِمۡ﴾[1]، أن يُقبَل من محسنهم وأن يُعفى عن مسيئهم، وأوصيه بأهل الأمصار خيرا، فإنهم رِدْء الإسلام، وجُباة المال، وغَيظُ العدو، وأن لا يؤخذ منهم إلا فضلُهم عن رضاهم، وأوصيه بالأعراب خيرا، فإنهم أصل العرب، ومادة الإسلام أن يؤخذ من حواشي أموالهم، ويُردَّ على فقرائهم، وأوصيه بذمة اللَّه وذمة رسوله ﷺ أن يُوفى لهم بعهدهم، وأن يقاتل مِن ورائهم، ولا يكلفوا إلا طاقتهم، فلما قبض خرجنا به، فانطلقنا نمشي، فسلم عبد اللَّه بن عمر، قال: يستأذن عمر بن الخطاب، قالت: أدخلوه، فأدخل، فوضع هنالك مع صاحبيه، فلما فرغ من دفنه اجتمع هؤلاء الرهط، فقال عبد الرحمن: اجعلوا أمركم إلى ثلاثة منكم، فقال الزبير: قد جعلت أمري إلى علي، فقال طلحة: قد جعلت أمري إلى عثمان، وقال سعد: قد جعلت أمري إلى عبد الرحمن بن عوف، فقال عبد الرحمن: أيكما تبرَّأ من هذا الأمر، فنجعله إليه واللهُ عليه والإسلامُ، لينظرن أفضلهم في نفسه؟ فأُسكِت الشيخان، فقال عبد الرحمن: أفتجعلونه إلي واللهُ علي أن لا آلُ عن أفضلكم قالا: نعم، فأخذ بيد

(١) سورة الحشر / ٩.

أحدهما فقال: لك قرابة من رسول اللَّه ﷺ والقدم في الإسلام ما قد علمت، فاللَّهُ عليك لئن أمرتك لتعدلن ولئن أمرت عثمان لتسمعن ولتطيعن، ثم خلا بالآخر فقال له مثل ذلك، فلما أخذ الميثاق قال: ارفع يدك يا عثمان فبايعه، فبايع له علي، وولج أهل الدار فبايعوه».

(ص) وبعده كان عثمان بن عفّان رضي اللّه عنه خليفة حقّ.

(ش) أن الخليفة الراشد الثالث هو أبو عمرو ذو النورين عثمان بن عفان ابن أبي العاص بن أمية بن عبد شمس بن عبد مناف بن قصي بن كلاب، وأمه أروى بنت كريز وأمها أم حكيم البيضاء بنت عبد المطلب عمة رسول اللَّه ﷺ فأم عثمان هي بنت عمة النبي ﷺ، ولد في السنة السادسة من الفيل، وأسلم قديما على يد الصديق رضي اللَّه عنهما، وهاجر الهجرتين الأولى إلى الحبشة والثانية إلى المدينة، وتزوج رقية بنت النبي ﷺ وماتت عنده في ليالي بدر ثم زوجه النبي أختها أم كلثوم وتوفيت عنده سنة تسع من الهجرة، ولهذا سمي بذي النورين، واشترى بئر رومة وجعلها للمسلمين، وجهز جيش العسرة، فدعا له رسول اللَّه ﷺ بالمغفرة؛ ما أسر وما أعلن، وما أبدى وما أخفى، وما هو كائن إلى يوم القيامة، وقال: «**ما يبالي عثمان ما عمل بعدها**»، وقال رسول اللَّه ﷺ: «**من يزيد في مسجدنا؟**» فاشترى عثمان موضع خمس سوار فزاده في المسجد، وروى الترمذي عن أنس أنه قال لما أمرنا الرسول ﷺ ببيعة الرضوان كان عثمان بن عفان رسولَ رسولِ اللَّه ﷺ إلى أهل مكة، فبايع الناس، فقال النبي ﷺ: «**إن عثمان بن عفان في حاجة اللَّه وحاجة رسوله**»، فضرب بإحدى يديه على الأخرى، فكانت يد الرسول ﷺ لعثمان خيرًا من أيديهم لأنفسهم اهـ وروي عن ابن عمر رضي اللَّه عنهما في قوله تعالى: ﴿ أَمَّنْ هُوَ قَٰنِتٌ ءَانَآءَ ٱلَّيْلِ سَاجِدًا وَقَآئِمًا يَحْذَرُ ٱلْأَخِرَةَ وَيَرْجُواْ رَحْمَةَ

رَبِّهِۦ﴾[١] قال: هو عثمان بن عفان رضي اللَّه تعالى عنه[٢].

روي له عن رسول اللَّه ﷺ مائة وستة وأربعون حديثا، اتفق الشيخان على ثلاثة، وانفرد البخاري بثمانية ومسلم بخمسة.

وولي الخلافة ثنتي عشرة سنة إلا عشرة أيام، روى البخاري من حديث أبي موسى الأشعري أن النبي ﷺ قال له عندما استأذن عثمان بالدخول عليه عند بئر أريس «**ائذن له وبشره بالجنة على بلوى تصيبه**» فمما حصل في زمنه أنْ كثر الظلم من الولاة في الأمصار وكان عبد اللَّه بن سعد بن أبي السرح أخو عثمان بالرضاعة واليَ مصر فاشتكى منه أهلها وطلبوا من عثمانَ عزله فقبل وولى عليهم محمد بن أبي بكر فكتب عهده وولاه فتوجه إلى مصر ومعه عدد من المهاجرين والأنصار فالتقَوا في الطريق بغلام أسود على بعير يخبط خبطا كأنه رجل يَطلب أو يُطلب فقالوا له ما شأنك كأنك هارب أو طالب فقال لهم أنا غلام أمير المؤمنين وجهني إلى عامل مصر، فقال له رجل: هذا عامل مصر، فقال: ليس هذا ما أريد، فقال له محمد بن أبي بكر: غلام من أنت؟ فأقبل مرة يقول أنا غلام أمير المؤمنين ومرة يقول أنا غلام مروان بن الحكم حتى عرفه رجل أنه لعثمان، فقال له محمد بن أبي بكر: إلى من أرسلت؟ قال: إلى عامل مصر، قال بماذا؟ قال برسالة، قال معك كتاب؟ قال لا، ففتشوه فوجدوا معه كتابا فيه أنه من عثمان إلى ابن أبي السرح فجمع محمد من كان عنده من المهاجرين والأنصار وغيرهم ثم فك الكتاب بمحضر منهم فإذا فيه «إذا أتاك محمد وفلان وفلان فاحتل في قتلهم وأبطل كتابه وقِرَّ على عملك حتى يأتيك رأيي واحبس من يجيء إليَّ يتظلم منك ليأتيك رأيي في ذلك إن شاء اللَّه تعالى» فلما قرؤوا ذلك رجعوا إلى المدينة وقرؤوا الكتاب أمام الصحابة فدخل علي رضي اللَّه عنه وغيره من الصحابة على عثمان رضي اللَّه

---

(١) سورة الزمر / ٩.

(٢) انظر: الدر المنثور (٧/ ٢١٤).

عنه ومعه الكتاب والغلام والبعير فقال له علي: هذا الغلام غلامك؟ قال نعم، قال والبعير بعيرك؟ قال نعم، قال فأنتَ كتبت هذا الكتاب؟ قال لا وحلف باللَّه أنه ما كتب ذلك ولا أمر به، فقال علي: فالخاتم خاتمك؟ قال نعم، قال: فكيف يخرج غلامك ببعيرك وبكتاب عليه خاتمك لا تعلم به؟ فحلف أنه ما كتب الكتاب ولا أمر به ولا وجه الغلام إلى مصر، وعرفوا أن الخط خط مروان بن الحكم فسألوا عثمان أن يدفعه إليهم وكان في داره فأبى عثمان خشية أن يبادروا بقتله، فحاصر الناس بيت عثمان ومنعوه الماءَ فأشرف على الناس فقال أفيكم علي؟ فقالوا لا، قال أفيكم سعد؟ قالوا لا، فقال: ألا أحد يبلغ عليا فيسقينا ماء، فبلغ ذلك عليا فبعث إليه بثلاث قرب مملوءة ماء فما كادت تصل إليه وجرح بسببها عدة من موالي بني هاشم وبني أمية، وبلغ عليا أن عثمان يراد قتله فقال للحسن والحسين اذهبا بسيفيكما حتى تقوما على باب عثمان فلا تدعا أحدا يصل إليه وبعث الزبير ابنه عبد اللَّه وبعث طلحة ابنه محمدا وبعث عدة من أصحاب النبي ﷺ أبناءهم يمنعون الناس أن يدخلوا على عثمان[1]، فلما رأى الناس ذلك رموا باب عثمان بالسهام حتى خضب الحسن بن علي بالدماء على بابه وكذا محمد بن طلحة وشج قنبر مولى علي فخشي محمد بن أبي بكر أن يغضب بنو هاشم لحال الحسن والحسين فقال لمن معه اذهبوا بنا حتى نتسور عليه الدار فنقتله من غير أن يعلم به أحد فتسور محمد وصاحباه من دار رجل من الأنصار حتى دخلوا على عثمان فأخذ محمد بن أبي بكر بلحية عثمان فقال له عثمان: والله لو رءاك

(١) روى العباس بن أبي بكر في أخبار الوافدين على معاوية والزبيرُ بن بكار في الموفَّقيات وابن عساكر في التاريخ: أن أبا الطُّفيل عامرَ بن واثلة الكِناني دخل على معاوية فلامه معاوية على عدم نصرة عثمان فقال له أبو الطفيل: «فما منعك يا أمير المؤمنين من نصره ومعك أهل الشام؟» فقال معاوية: «أما طلبي بدمه نصرة له» فضحك أبو الطفيل وقال: أنت وعثمان كما قال الشاعر:

لا أُلْفِيَنَّكَ بعد الموتِ تندبني ... وفي حياتي ما زوَّدْتني زادي.

أبوك لساءه مكانُك مني فتراخت يده ودخل الرجلان فقتلاه وهربوا فصعدت امرأته إلى الناس فقالت إن أمير المؤمنين قد قُتِل، وهرب مروان وولده وذلك في الثاني عشر ذي الحجة سنة خمس وثلاثين فدفن في البقيع ليلا، وروي عن أسهم بن حبيش أنه قال: لما حلمنا نعشه غشينا سواد من خلفنا فهبناهم، فنادى مناديهم أن لا روع عليكم، اثبتوا؛ فإنا جئنا نشهده معكم، فكان ابن حبيش يقول: هم ملائكة اللَّه.

(ص) وبعده كان علي بن أبي طالب رضي اللّٰه عنه خليفة حقّ.

(ش) أن رابع الخلفاء الراشدين هو أبو الحسن علي بن أبي طالب بن عبد المطلب بن عبد مناف، وأمه فاطمة بنت أسد بن هاشم بن عبد مناف، أسلمت وهاجرت، وهي أول هاشمية ولدت هاشميا وتوفيت في حياة ر سول اللَّه ﷺ وصلى عليها ونزل قبرها، وعلي رضي اللَّه عنه أخو رسول اللَّه ﷺ بالمؤاخاة وصهره على فاطمة رضي اللَّه عنها، وهو أول من أسلم من الصبيان.

وروي له عن رسول اللَّه ﷺ خمسمائة وستة وثمانون حديثا، اتفق الشيخان على عشرين حديثا، وانفرد البخاري بتسعة، ومسلم بخمسة عشر.

تولى الخلافة بعد عثمان وذلك في ذي الحجة سنة خمس وعشرين فأراد أن يزيل الأمراء الذين كانوا على الأمصار تطفئةً للفتنة فلما عرف بذلك الأمراء أذاعوا بين الناس أن عليا لا يأخذ بالثأر مع كونه عالما بالقتلة وله يد في ذلك فخرج عليه بعض الناس من البصرة من بني ضبة وبني الأزْدِ فحصلت وقعة الجمل في جمادى الآخرة سنة ست وثلاثين في البصرة ودامت المعركة يوما واحدا فقط وقُتل بسببها طلحة والزبير وكان قبل الوقعة قد ذهب فريق منهم إلى عائشة رضي اللَّه عنها وطلب منها أن تُصلح بين الطائفتين فنبحت عليها الكلاب في الطريق فقالت أي ماء هذا؟ قالوا ماء الحوأب قالت: ما أظنني إلا راجعةً، فقال بعض من كان معها: بل تقدمين فيراك المسلمون فيصلح

اللَّه عز وجل ذات بينهم، قالت إن رسول اللَّه ﷺ قال لنا ذات يوم «**أيتكن صاحبةَ الجمل الأدبْ**[١]**، تنبح عليها كلاب الحوأبْ، انظري يا عائشة أن لا تكوني أنت**» رواه أحمد والبزار، فأكملت سيرها وباتت في المعسكر المقابل لعلي رضي اللَّه عنه ولم يكن لها ذلك لما فيه من التشجيع على المكوث في مقابل علي ثم تقاتل الجيشان حتى أصيب جمل السيدة عائشة وكان أعطاها إياه شخص من المطالبين بدم عثمان اشتراه بأربعمائة دينار فتوقف القتال ونادى الناس «جمل أم المؤمنين» فأعادها علي إلى المدينة معززة مكرمة ولم يشارك معاوية في هذا القتال.

وأقام علي بالبصرة خمس عشرة ليلة ثم انصرف إلى الكوفة ثم خرج عليه معاوية بن أبي سفيان ومن معه بالشام ولم يقبل أن يدخل في البيعة مع كونها قد ثبتت ولم يكن له ذلك وفي فتح الباري (٢٠/ ١٣١) عن أبي مسلم الخولاني أنه قال لمعاوية: أنت تنازع عليا في الخلافة أوأنت مثله؟ قال «لا وإني أعلم أنه أفضل مني وأحق بالأمر ولكن ألستم تعلمون أن عثمان قتل مظلوما وأنا ابن عمه ووليُّه أطلب بدمه فأتُوا عليا فقولوا له يدفعُ لنا قتلة عثمان» فأتوه فكلموه فقال عليّ «يدخل في البيعة ويحاكمهم إليّ» فامتنع معاوية، وروى مسدَّد بن مسرهَد بن مسربَل في مسنده عن عبد اللَّه بن أبي سفيان أن عليا قال: «إن بني أمية يقاتلونني يزعمون أني قتلت عثمان وكذبوا إنما يريدون الملك ولو أعلم أن يُذهِب ما في قلوبهم أني أحلف لهم عند المقام واللهِ ما قتلتُ عثمان ولا أمرت بقتله لفعلتُ ولكن إنما يريدون الملك وإني لأرجو أن أكون أنا وعثمانُ ممن قال اللَّه عز وجل فيهم ﴿وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ﴾[٢] الآية» وروى نحوَه سعيد بن منصور في سننه.

---

(١) الأصل أن يقال الأدبّ بالإدغام وهو كثير وبر الوجه وفك الإدغام لأجل السجع والازدواج أي اتفاق الكلمتين المتقابلتين أي كلمة الأدبب وكلمة الحوأب.

(٢) سورة الحجر / ٤٧.

ثم سار علي في الجيوش من العراق حتى نزل بصفين وهي الآن في الرقة وحينئذ حصلت وقعة صفين مع معاوية في صفر سنة سبع وثلاثين ودام القتال بها أياما فرفع أهل الشام المصاحف يدعون إلى ما فيها مكيدةً من عمرو بن العاص فكره الناس الحرب وتداعَوا إلى الصلح فحكّموا الحكمين حَكّم عليّ أبا موسى الأشعري وحكم معاويةُ عمرو بن العاص فخرج واحد من جيش علي وقال لا حكم إلا لله فقتَل رجلا من جيش علي وءاخرَ من جيش معاوية ثم قتِل فوقع كلامه في قلوب بعض مَن كان حاضرا فخرج من ذلك الخوارج كما سيأتي، فافترق الناس ورجع علي إلى الكوفة ومعاوية إلى الشام وحصل الحكم في رمضان من السنة نفسها فاتفقا على خلع الاثنين لتسكين الفتنة ثم يعاد نصب الخليفة فقدم عمرٌو أبا موسى الأشعري مكيدة منه فقال له علي لا تصعد قبله فخالفه فتكلم فخلع عليا فقال أنا أخلع عليا كما أخلع خاتمي هذا وخلع خاتمه وتكلم عمرو فأقر معاوية وبايع له وقال أنا أقر معاوية كما أقر خاتمي هذا، فافترق الناس من غير اتفاق.

وأما الخوارج فتمسكوا بقوله تعالى: ﴿إِنِ ٱلۡحُكۡمُ إِلَّا لِلَّهِ﴾[1] وقوله: ﴿وَمَن لَّمۡ يَحۡكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡكَٰفِرُونَ﴾[2] فكفّروا الحكمين ومن قال بالتحكيم حتى بلغوا ثمانية ءالاف نفس فعسكروا بحرُوراء فأرسل إليهم سيدنا عليٌّ ابنَ عباس فخاصمهم وحجهم وبيّن لهم فساد شبههم واحتَج بقوله تعالى ﴿يَحۡكُمُ بِهِۦ ذَوَا عَدۡلٖ مِّنكُمۡ﴾[3] وبقوله ﴿فَٱبۡعَثُواْ حَكَمٗا مِّنۡ أَهۡلِهِۦ وَحَكَمٗا مِّنۡ أَهۡلِهَآ﴾[4] فرجع منهم أربعة ءالاف كلهم تائبٌ وثبت قوم وساروا إلى النهروان موضع قريب من بغداد فعرضوا للسبيل ولقوا عبد اللّٰه بن خباب بن

(١) سورة الأنعام / ٥٧.

(٢) سورة المائدة / ٤٤.

(٣) سورة المائدة / ٩٥.

(٤) سورة النساء / ٣٥.

الأرتّ وأمَّ ولد حبلى معه فسألوه عن أبي بكر وعمر وعثمان وعلي فأثنى عليهم كلِّهم فذبحوه وقتلوا أم ولده وكانت حبلى فبقروا بطنها وكان من سادات أبناء الصحابة وله صحبة، فسار إليهم علي وقال لا يبقى منهم عشرة ولا يقتل منا عشرة وحينئذ حصلت وقعة النهروان في صفر سنة ثمان وثلاثين مع الخوارج وقتل منهم ذو الثُّدَية ثم انتدب ثلاثةُ نفر من الخوارج عبد الرحمن بن مُلجِم المرادي والبُرَكُ بن عبد اللَّه التميمي وعمرو بن بُكَير التميمي فاجتمعوا بمكة وتعاهدوا وتعاقدوا ليقتُلُن هؤلاء الثلاثة عليَّ بن أبي طالب ومعاوية بن أبي سفيان وعمرو بن العاص فقال ابن ملجم أنا لكم بعلي وقال البرك أنا لكم بمعاوية وقال عمرو أنا أكفيكم عمرو بن العاص وتعاهدوا على أن ذلك يكون في ليلة واحدة ثم توجه كل منهم إلى المصر الذي فيه صاحبه فقدِم ابن ملجم الكوفة فاستيقظ علي سحرا ثم جاءه المؤذن فقال الصلاة فخرج علي من الباب ينادي أيها الناس الصلاة الصلاة فاعترضه ابن ملجم فضربه بالسيف وتوفي ليلة الأحد ودفن بدار الإمامة بالكوفة ليلا ثم قتِل ابن ملجم، ويقال إن ابن ملجم قدم ذلك مهرا لامرأة من الخوارج يقال لها قَطامِ.

(ص) فهؤلاء الخلفاء الراشدون المهديّون رضي اللّٰه عنهم أجمعين.

(ش) أن خلافة الأربعة هي خلافة راشدة مهدية على طريقة السنة النبوية الشريفة، وقد كانت مدة خلافتهم مع خلافة الحسن التي دامت ستة أشهر ثلاثين سنة وهي خلافة النبوة فقد روى أبو داود أن سفينة قال: قال رسول اللَّه ﷺ: «**خلافة النبوة ثلاثون سنة ثم يؤتي اللَّه الملك أو ملكه من يشاء**» قال سعيد: قال لي سفينة: «أمسك عليك أبا بكر سنتين، وعمر عشرا، وعثمان اثنتي عشرة، وعليا كذا، قال سعيد: قلت لسفينة: إن هؤلاء يزعمون أن عليا عليه السلام لم يكن بخليفة، قال: كذبت أستاه بني الزرقاء يعني مروان اهـ وروى أحمد في المسند والبيهقي والطيالسي واللفظ لأحمد عن حذيفة قال: قال رسول اللَّه ﷺ: «**تكون النبوة فيكم ما شاء اللَّه أن تكون ثم يرفعها إذا**

شاء أن يرفعها، ثم تكون خلافة على منهاج النبوة فتكون ما شاء اللَّه أن تكون، ثم يرفعها إذا شاء اللَّه أن يرفعها ثم تكون ملكا عاضا» وفي رواية: «**عضوضا**» أي ظلوما. وأخرج البيهقي عن أبي بكرة قال: «سمعت رسول اللَّه ﷺ يقول: «**خلافة النبوة ثلاثون عاما ثم يؤتي اللَّه الملك من يشاء**»، فقال معاوية: «قد رضينا بالملك».

تنبيه: لا يراد بالأحاديث المتقدمة نفي وجود خليفة راشد بعد ذلك فإن خلافة عمر بن عبد العزيز رضي اللَّه عنه خلافة راشدة دامت نحو سنتين ونصف.

(ص) وترتيب فضلهم على ترتيب خلافتهم، كان أفضل هذه الأمة بعد نبينا أبو بكر الصدّيق رضي اللّٰه عنه، وبعده كان عمر الفاروق رضي اللّٰه عنه، وبعده كان عثمان ذو النورَيْن رضي اللّٰه عنه، وبعده كان علي المرتضى رضي اللّٰه عنه.

(ش) أن ترتيب الخلفاء الأربعة في الفضل كترتيبهم في الخلافة فأفضلهم أبو بكر الصديق ثم عمر باتفاق أهل السنة والجماعة، ثم اختلفوا في التفضيل بين علي وعثمان والجمهور على تفضيل عثمان عليه وقال بتفضيل علي بعض أهل الكوفة كما حكاه عنهم الخطابي وهو رواية عن سفيان الثوري ولكن ءاخر قوليه تفضيل عثمان، وحكى المازري عن مالك التوقف ومال إليه إمام الحرمين من الشافعية، وقال القاضي عياض: رجع مالك عن التوقف إلى تفضيل عثمان، ثم بعدهم بقية العشرة المبشرين بالجنة سعد بن أبي وقاص وسعيد بن زيد بن عمرو بن نفيل، وطلحة بن عبيد اللَّه، والزبير بن العوام، وعبد الرحمن بن عوف، وأبو عبيدة بن الجراح، ثم أهل بدر وهم ثلاثمائة وبضعة عشر، ثم أهل أحد ثم أهل بيعة الرضوان بالحديبية[1]، روى الترمذي

(١) انظر: تدريب الراوي للسيوطي (٢/ ٢٢٣).

«لا يدخل النار أحد ممن بايع تحت الشجرة».

(ص) هذا ما بلغنا من اعتقاد السنة والجماعة من أستاذينا الطيّبين الطاهرين، رؤساء أهل السنة والجماعة بسمرقند وبخارى، فرحمهم اللَّه تعالى ورحم من دعا لهم ولجامع هذا الاعتقاد ولوالديه وأسلافه، ثبَّتنا اللّه على هذا الاعتقاد بفضله وكرمه. وتمت الاعتقاد بعونه وحسبنا اللَّه ونعم الوكيل.

(ش) ختم المصنف رحمه اللَّه تعالى رسالته ببيان أن المذكور فيها هو اعتقاد أهل السنة والجماعة الذي درسه وتلقاه عن مشايخه ممن هم في بلاد ما وراء النهر كسمرقند وبخارى، وختم الرسالة بالدعاء له ولوالديه ومشايخه رحمهم اللَّه تعالى، وجزى مؤلفها خيرا، ونسأل اللَّه تعالى أن ينفع بهذا الشرح أهل الإسلام من المشايخ وطلاب العلم، ونسأله تعالى أن يجزل لنا الثواب فإنه مجيب الدعاء ولا يخيب أحدٌ رجاه، وقد تم هذا الشرح ليلة الثلاثاء الخامس والعشرين من ذي القعدة سنة ١٤٤٧ هجرية الموافق للثاني عشر من أيار سنة ٢٠٢٦ رومية، والحمد لله أولا وءاخرا، والصلاة والسلام على سيدنا محمد وعلى ءاله وصحبه.

المتن

بسم اللّٰه الرحمن الرحيم وبه نستعين

الحمد لله الملك المحمود، المالك المعبود، المنزَّه عن الجهات والحدود، المقدَّس عن الوالد والمولود، جلّ عن الشريك والوزير، وتعالى عن الشبيه والنظير ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾، والصلاة على سيّد الأنبياء، وتاج الأتقياء، وعلى ءاله وأصحابه الأزكياء الأصفياء.

وبعد، فإنّه لا سعي أرضى عند اللّٰه تعالى من هداية العباد، إلى سبيل الرشاد، والإبانة لهم عن المرضي من الاعتقاد، وهو اعتقاد السنة والجماعة إذ به ينال خير الدارين، وسعادة المحلين، فمن تمسك به فقد اتبع الهدى، ومن حاد عنه فقد ضلّ وغوى، فجمعتُ اعتقاد السنة والجماعة صافيًا عن كدر البدعة وشَوْب الضلالة، وعملتُه مختصرًا ليسهل حفظُه، ويعمّ نفعُه، رجاءَ أن يكون ذكرًا لي في الدنيا وذُخرا في العقبى، وسمّيته «**المعتمد في المعتقد**»، فأقول وبالله التوفيق:

اعلموا -رحمكم اللَّه- أن ما سوى اللّٰه فهو مخلوق اللّٰه، النور والظلمة والسموات وما فيها من الشمس والقمر والنجوم والأرَضون وما عليها من الجبال والبحار والأشجار وأنواع النبات وأصناف الحيوانات الضارّ منها والنافع، لم يكن شيء من ذلك فكان بتكوين اللَّه، ولم يكن لشيء من ذلك قبل كونه بتكوين اللّٰه أصلٌ ومادّةٌ، بل كوّن ذلك كله بلا أصل ولا مادّة، وكذلك الجنّة والنار والعرش والكرسيّ واللوح والقلم والملائكة والجنّ والشياطين؛ لم يكن شيء من ذلك فكان بتكوين اللَّه تعالى، وكذا صفات هذه الأشياء من الحركة والسكون والاجتماع والافتراق والألوان والطعوم والروائح والعلم والجهل والقدرة والعجز والسمع والصَمَم والبصر والعمى والنطق والبَكَم والصحّة والمرض والحياة والموت كلّها مخلوقة اللَّه تعالى.

وكذا أفعال العباد وهي أكسابهم وإن كانت أفعالهم حقيقةً على طريق الاختيار لا الجبرِ حتى يتعلق بها الأمر والنهي والمدح والذمّ والوعد والوعيد؛ فهي مخلوقة اللّه تعالى كما قال عزّ وجلّ: ﴿هَلۡ مِنۡ خَٰلِقٍ غَيۡرُ ٱللَّهِ﴾، وفي الجملة ما لم يكن فكان فهو مخلوق اللَّه تعالى، لم يخلق غير اللَّه شيئًا كما قال: ﴿هَلۡ مِنۡ خَٰلِقٍ غَيۡرُ ٱللَّهِ﴾، ولله تعالى في خلق كل من ذلك حكمةٌ، علم العبادُ ذلك أو لم يعلموا، لا يسأل عما يفعل، يفعل ما يشاء، ويحكم ما يريد.

والطاعات والمعاصي بقضاء اللَّه وقدره وإرادته ومشيئته غير أنّ الطاعات كما هي بقضاء اللّه وقدره وإرادته ومشيئته فهي برضاه ومحبته وأمره، والمعاصي بقضاء اللَّه وقدره وإرادته ومشيئته لكنها ليست برضاه ومحبته ولا بأمره.

وما أراد اللَّه أن يكونَ يكونُ لا محالة، طاعةً كان أو معصيةً، وما أراد أن لا يكون لا يكون، معصيةً كان أو طاعةً، هو معنى قولنا: ما شاء اللّه كان وما لم يشأ لم يكن.

وما علم اللَّه أنه يكون أراد أن يكون، طاعةً كان أو معصية وإن نهى عن المعصية، وما علم اللَّه أنه لا يكون أراد أن لا يكون، معصيةً كان أو طاعةً وإن أمر بالطاعة، فإرادته موافقة لعلمه لا لأمره ونهيه.

ومن هداه اللّه تعالى أي خلق فيه فعل الاهتداء يهتدي، ومن لم يهده لا يهتدي، وذلك في مشيئة اللَّه كما قال: ﴿يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهۡدِي مَن يَشَآءُ﴾.

واللَّه تعالى يعطي عبده ما أراد، كان فيه صلاح العبد أو لم يكن، فرعاية صلاح العبد ليست بواجبة على اللّه تعالى، بل إن كان فيه صلاحه كان منه إحسانًا وإفضالًا، وإن لم يكن كان منه عدلًا، فله الفضل والعدل.

ومقدور اللّه تعالى لا نهاية له، ففي قدرته لطفٌ؛ لو فعل ذلك بالكفّار كلهم لآمنوا، فلمّا لم يفعل لم يؤمنوا.

والإيمان والطاعات بتوفيق اللّه، والكفر والمعاصي بخذلانه، والخذلان

ترك المعونة عند الحاجة.

واستطاعة العبد وهي قدرته على فعله توجد مقارنةً لفعله لا تتقدّمه، واستطاعة التكليف وهي سلامة الأسباب والآلات تتقدّم الفعل.

والله قديم ليس لوجوده ابتداء، باقٍ ليس لبقائه انتهاء، حيّ لا بروح، عالم لا بقلب ولا فكرة، قادر لا بآلة، سميع لا بأذن، بصير لا بحدقة، متكلّم لا بلسان، حيّ في الأزل، عالم في الأزل، قادر في الأزل، سميع في الأزل، بصير في الأزل، مريد في الأزل، متكلّم في الأزل، خالق في الأزل، والحياة والعلم والقدرة والسمع والبصر والإرادة والكلام والخلق – وهو التكوين – صفاته، وصفاته قائمة بذاته، والله تعالى قديم بصفاته، ليس شيء من صفاته محدثًا، وصفاته لا هو ولا غيره.

والتكوين غير المكوَّن لأن التكوين أزليّ؛ إذ هو صفته، والمكوَّن محدَث.

وكلامه ليس من جنس الحروف والأصوات، بل هو صفة أزلية له، منافية للسكوت والآفة، والحروف والأصوات عبارات عن كلامه ودلالات عليه، وأنها محدثة. والقرءان كلام اللّه غير مخلوق، ويقال: القرءان مقروء بألسنتنا، مكتوب في مصاحفنا، غير حالٍّ فيها، ومعناه أن القراءة الدالّة عليه بألسنتنا، والكتابة الدالّة عليه في مصاحفنا، كما يقال: اللّٰه تعالى مذكور بألسنتنا، معناه أن الذكر الدالّ عليه بألسنتنا.

واللَّه تعالى ليس بجسم ولا جوهر ولا عرض، ولا على مكان ولا في مكان، ولا في جهة من الجهات الستّ، ولا في زمان؛ بل كان ولا مكان ولا زمان، وهو الآن على ما كان، لا يحويه مكان ولا يُبليه زمان، ورفع الأيدي إلى السماء عند الدعاء تعبّد، لا أنه تعالى في السماء، كالتوجّه إلى الكعبة في الصلاة ليس أنه في الكعبة، لكن الكعبة قبلة الصلاة والسماء قبلة الدعاء.

واللَّه تعالى لا صورة له، وكلّ ما تصوّر في وهمك فالله خالقه، والله تعالى لا يشبه شيئًا من المخلوقات بوجه من الوجوه، ولا يشبهه شيء من المخلوقات

بوجه من الوجوه، لا يشبه ذاته ذات المخلوقين ولا صفاته صفات المخلوقين بوجه من الوجوه، كما قال الله عز وجل: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾ أي ليس مثلَه شيء.

والله تعالى واحد أحد فرد، لا شريك له، ولا ضد، ولا ربّ سواه، ولا إله غيرُه، كلّ مخلوق بخلقته شاهد على أن خالقَه واحد، كما قال: ﴿وَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ ۖ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلرَّحْمَٰنُ ٱلرَّحِيمُ﴾.

ومحمد بن عبد الله بن عبد المطّلب بن هاشم بن عبد مناف بن قُصَي ابن كِلاب رسولُ الله عليه السلام، سيّد المرسلين وإمام المتّقين وخاتم النبيّين، وقد كان قبله رُسُل؛ أولهّم ءادم عليه السلام وآخرهم رسولنا محمد صلوات الله عليهم، كلّهم صدقوا فيما بلّغوا عن الله، وما أُنزل عليهم من الكتب والصحف كلّ ذلك كان حقًّا وصدقًا.

ومحمد رسول الله عليه السلام خاتم الأنبياء لا نبيَّ بعده، وإذا نزل عيسى عليه السلام من السماء في ءاخر الزمان؛ فإنما ينزل على شريعته، ويدعو الناس إلى شريعته، ويكون كواحد من دُعاته.

والمعراج حق، وقد أُسري بالنبي عليه السلام بشخصه في ليلة واحدة من مكة إلى بيت المقدس، ثم عُرج به إلى السماء، إلى حيث شاء اللّه.

وكرامة الأولياء حق، يجوز أن يُظهرها الله تعالى على يد من شاء من الصالحين من عباده. والمؤمن وإن علَتْ درجتُه وارتفعت منزلتُه وصار من جملة الأولياء لا يسقط عنه العبادات المفروضة في القرءان من الصلاة والزكاة والصوم وغيرها، ومن زعم أن من صار وليًّا ووصل إلى الحقيقة سقطت عنه الشريعة فهو كافر ملحد، لم تسقط العبادة عن الأنبياء عليهم السلام فكيف تسقط عن الأولياء. ونبي واحد أفضل من جميع الأولياء، ولأن العبادة وجوبها بحق العبودية أو بحق شكر النعمة، والولي بالولاية لا يخرج عن حدّ العبودية ولا عن كونه مُنعمًا عليه، ولقد صحّ أنّ رسول اللَّه عليه السلام صلّى حتى

تورّمت قدماه فقيل له: ألم يغفر اللّه لك ما تقدّم من ذنبك وما تأخّر، فقال: «**أفلا أكون عبدًا شكورًا**».

وإيمان العبد هو تصديقه بالقلب، وهو على طريق الاختصار: تصديق اللّه تعالى في جميع ما أنزل على رسله عليهم السلام أو تصديق رسله عليهم السلام في جميع ما بلّغوا عن اللّه.

ويدخل تحت هذه العبارة الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر؛ لأن كلّ ذلك قد أنزل اللَّه على رسله، ورسله قد بلّغوا ذلك كلَّه عن اللَّه تعالى.

ولا خلاف أن التصديق بالقلب ركن الإيمان حتى لا يصير العبد مؤمنًا بدونه وإن أقرّ بلسانه، واختلف المشايخ في الإقرار باللسان أنه هل هو ركن أم لا؟ فعامة المشايخ جعلوه ركنًا أيضًا إذا لم يكن الرجل أخرس، وبعضهم لم يجعلوه ركنًا وقالوا: الركن هو التصديق بالقلب، ويصير العبد مؤمنًا بينه وبين ربه بالتصديق المجرَّد، وإنما الإقرار باللسان دلالة عليه ليُوقف على إيمانه فيُجرى عليه أحكام الإيمان، وهذا مرويّ عن أبي حنيفة رحمة اللّه عليه، وهو اختيار إمام الهدى الشيخ أبي منصور الماتريدي السمرقندي رحمة اللّه عليه، وهو قول جماعة من المتكلّمين[1].

ثمّ إذا وُجد من العبد الإيمانُ بحدّه وحقيقته صار العبد مؤمنًا للحال حقًّا على البتات من غير شكّ، ولا يجوز أن يقول: أنا مؤمن إن شاء اللَّه؛ لأن الشيء بعد وجوده تحقق لوجود حدّه وحقيقته، فإدخال الشكّ في وجوده ضرب من التناقض، كالقائم يقول: أنا قائم إن شاء اللَّه، وكالقاعد يقول: أنا قاعد إن شاء اللَّه.

والأعمال ليست من الإيمان، بل هي شرائع الإيمان؛ لأن الإيمان تصديق،

(١) انظر التعليق عليه في الشرح.

والأعمال ليست من التصديق في شيء، وكذا الإيمان وهو التصديق ذاته لا يزيد ولا ينقص والأعمال تزيد وتنقص.

والإيمان والإسلام واحد؛ فكلّ مؤمن مسلم، وكلّ مسلم مؤمن.

وإيمان المقلّد صحيح، وهو الذي اعتقد جميع ما فُرض عليه اعتقادُه من حَدَث العالم وقدم الصانع ووحدانيّته ورسالاته وغير ذلك اعتقادًا جزمًا بلا شكّ وارتياب من غير دليل عقليّ، فهذا مؤمن وإيمانه صحيح نافع في الدنيا والآخرة.

وكلّ من دخل في رَبَض الإيمان لا يخرج منه إلا من الباب الذي دخله، أي ما لم يبدّل التصديق بالتكذيب لا يخرج من الإيمان.

والمؤمن إذا ارتكب ذنبًا صغيرةً أو كبيرةً غير مستحلّ لها ولا مستخفّ بمن نهى عنها، بل مع اعتقاد الحرمة وخوف العقوبة ورجاء العفو؛ فهذا اسمه مؤمنٌ، لا يخرج من الإيمان ولا يدخل في الكفر، ولا يكون له منزلة بين منزلتَيْن، ويكون بما معه من الإيمان وما أتى به من الطاعات مطيعًا، وبما أتى به من المعاصي عاصيًا وفاسقًا، ولكن لا يجوز أن يسمّى فاسقًا على الإطلاق؛ لأنه مطيع من وجوه كثيرة، فإذا خرج من الدنيا من غير توبة وقد خُتم له على الإيمان لا يجوز أن يقال: إن اللّٰه تعالى يعاقبه لا محالة، ولا أن يقال: يعفو عنه لا محالة، بل هو في مشيئة اللّٰه تعالى، كما قال اللّٰه تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغۡفِرُ أَن يُشۡرَكَ بِهِۦ وَيَغۡفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ﴾ إن شاء عفا عنه بفضله وكرمه أو ببركة ما معه من الإيمان وكثير من الطاعات أو بشفاعة محمد عليه السلام أو باستغفار الرسل والملائكة عليهم السلام لعامّة المؤمنين أو بشفاعة واحد من الأخيار، وإن شاء عذّبه بقدر ذنبه ثم أخرجه إلى الجنة، وعاقبتُه الجنة لا محالة، ولا يُخلّد في النار مؤمن.

ولا يجوز أن يُشهد لأحد من المؤمنين بالجنة إلا الأنبياء عليهم السلام ولمن بشّره النبي عليه السلام بها، ولا على أحد من المؤمنين بالنار.

ولا يجوز أن يقال: الذنب لا يضرّ مع الإيمان، بل يضرّ؛ لأنه يثبت به للحال جوازُ المؤاخذة عليه، وعسى لا يُعفى عنه.

وكلّ ءادميّ له أجل واحد، والمقتول ميّت بأجله ليس له أجل ءاخر، وأجل الإنسان منتهى عمره.

وكلّ أحد يأكل رزق نفسه، ولا يقدر أحد أن يأكل رزق غيره، وكلّ من أكل شيئًا من حلال أو حرام فذلك رزقه.

وكتابة الكرام الكاتبين أعمالَ بني ءادم في الدنيا حقّ.

وعذاب القبر للكفار حق، ولمن كان مستحقًّا لذلك من المؤمنين حقّ. والإنعام على أهل الطاعة وإيصالُ اللذات إلى أبدانهم في القبر حقّ. يخلق اللّٰه تعالى في الميّت في القبر ضربَ حياة بقدر ما يتألّم به أو يتلذّذ.

وسؤال منكر ونكير للميّت في القبر حقّ، يسألان الميّتَ عن ربّه ودينه ونبيّه.

ويوم القيامة والبعث وإحياء الموتى وحشر الأجساد والثواب والعقاب حقّ، يُحيي اللّٰه الموتى، فيُدخل الكفّار النار ويعذّبهم بها في طبقاتها، ويُدخل المؤمنين الجنة فيكرمهم فيها بأنواع الكرامات والنعم، ودرجات أهل الجنة في الجنة تكون على التفاوت.

والرؤية لأهل الجنة حقّ، يرون ربّهم بأعينهم من غير إدراك ولا إحاطة ولا مقابلة ولا كيفيّة، ولا على مكان ولا في مكان ولا في جهة من الجهات كما عرفوه في الدنيا.

وقراءة الكتب يوم القيامة حقّ، يؤتى المؤمن كتابه بيمينه، والكافر بشِماله أو من وراء ظهره.

والحساب حقّ، والميزان حقّ، والصراط حقّ، وحوض الكوثر والشفاعة حقّ.

والجنة والنار مخلوقتان لا يفنيان ولا يبيدان، وأهلهما لا يفنون ولا يبيدون.

والسحر حقّ، أي له حقيقة.

والعين حقّ، أي لها حقيقة وتضرّ.

ومحبّة أصحاب رسول اللّٰه عليه السلام على العموم حقّ؛ لأن اللّٰه تعالى اختارهم لصحبة رسوله ونبيّه ونجيّه وصفيّه وخِيرته من خلقه ليكونوا أعوانًا وأنصارًا له، فأعانوه ونصروه حتى يصل هذا الدين المرضيّ ببركة سعيهم ونصرتهم إلى مشارق الأرض ومغاربها، ومن كان في قلبه محبّة اللّٰه ومحبّة رسوله وكان هذا الدين عزيزًا عنده؛ لا ينجع في قلبه بغضُهم ولا ينطلق لسانه فيهم بالسوء.

وبعد وفاة رسول اللّٰه عليه السلام كان أبو بكر الصدّيق رضي اللّٰه عنه خليفة حقّ، وبعده كان عمر بن الخطّاب رضي اللّٰه عنه خليفة حقّ، وبعده كان عثمان بن عفّان رضي اللّٰه عنه خليفة حقّ، وبعده كان علي بن أبي طالب رضي اللّٰه عنه خليفة حقّ، فهؤلاء الخلفاء الراشدون المهديّون رضي اللّٰه عنهم أجمعين.

وترتيب فضلهم على ترتيب خلافتهم، كان أفضل هذه الأمة بعد نبينا أبو بكر الصدّيق رضي اللّٰه عنه، وبعده كان عمر الفاروق رضي اللّٰه عنه، وبعده كان عثمان ذو النورَيْن رضي اللّٰه عنه، وبعده كان علي المرتضى رضي اللّٰه عنه.

هذا ما بلغنا من اعتقاد السنة والجماعة من أستاذينا الطيّبين الطاهرين، رؤساء أهل السنة والجماعة بسمرقند وبخارى، فرحمهم اللّٰه تعالى ورحم من دعا لهم ولجامع هذا الاعتقاد ولوالديه وأسلافه، ثبّتنا اللّٰه على هذا الاعتقاد بفضله وكرمه. وتمت الاعتقاد بعونه وحسبنا اللّٰه ونعم الوكيل.

الفهرس

- التوطئة الميزان في بيان عقيدة أهل الإيمان..... ٣
- نُبْذَة تعريفيَّة بالشّيخ الدكتور جَمِيل حَلِيم..... ٧
- ترجمة الماتن..... ١١
- أهمية الكتاب..... ١٣
- مقدمة الشارح..... ١٥
- (ص) بسم اللّٰه الرحمن الرحيم وبه نستعين، الحمد للّٰه الملك المحمود، المالك المعبود..... ١٧
- (ص) المنزَّهِ عن الجهات والحدود..... ١٩
- (ص) المقدَّسِ عن الوالد والمولود..... ٢٤
- (ص) جلّ عن الشريك والوزير..... ٢٥
- (ص) وتعالى عن الشبيه والنظير ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾..... ٢٨
- (ص) والصلاةُ على سيّد الأنبياء، وتاج الأتقياء..... ٢٩
- (ص) وعلى ءاله وأصحابه الأزكياء الأصفياء..... ٣٠
- (ص) وبعد، فإنّه لا سعي أرضى عند اللّٰه تعالى من هداية العباد إلى سبيل الرشاد، إلخ..... ٣١
- (ص) فجمعتُ اعتقاد السنة والجماعة صافيًا عن كدر البدعة وشَوْب الضلالة..... ٣١
- (ص) وعملتُه مختصرًا ليسهل حفظُه ويعمّ نفعُه..... ٣٤
- (ص) رجاءَ أن يكون ذكرًا لي في الدنيا وذُخرا في العقبى..... ٣٤
- (ص) وسمّيته «المعتمد في المعتقد»..... ٣٥
- (ص) فأقول وباللّٰه التوفيق..... ٣٥
- (ص) اعلموا – رحمكم اللّٰه – أن ما سوى اللّٰه فهو مخلوق اللّٰه، إلخ..... ٣٥
- (ص) ولم يكن لشيء من ذلك قبل كونه بتكوين اللّٰه أصلٌ ومادّةٌ، بل كوّن ذلك كله بلا أصل ولا مادّة..... ٣٨
- (ص) وكذلك الجنّة والنار والعرش والكرسيّ واللوح والقلم والملائكة والجنّ والشياطين؛ إلخ..... ٤١
- (ص) وكذا صفات هذه الأشياء من الحركة والسكون والاجتماع والافتراق إلخ..... ٤٧
- (ص) وكذا أفعالُ العباد وهي أكسابهم وإن كانت أفعالهم حقيقةً على طريق الاختيار إلخ..... ٤٩
- (ص) وفي الجملة ما لم يكن فكان فهو مخلوق اللّٰه تعالى، إلخ..... ٦١
- (ص) وللّٰه تعالى في خلق كل من ذلك حكمةٌ علم العبادُ ذلك أو لم يعلموا، إلخ..... ٦٢
- (ص) والطاعات والمعاصي بقضاء اللّٰه وقدره وإرادته ومشيئته إلخ..... ٦٤
- (ص) وما أراد اللّٰه أن يكونَ يكونُ لا محالة؛ طاعةً كان أو معصيةً، إلخ..... ٦٧
- (ص) وما علم اللّٰه أنه يكون أراد أن يكون؛ طاعةً كان أو معصية وإن نهى عن المعصية، إلخ..... ٦٩
- (ص) ومن هداه اللّٰه تعالى – أي خلق فيه فعل الاهتداء – يهتدي، ومن لم يهده لا يهتدي، إلخ..... ٧١
- (ص) والإيمان والطاعات بتوفيق اللّٰه، والكفر والمعاصي بخذلانه، والخِذلان ترك المعونة عند الحاجة.. ٧٥
- (ص) واستطاعة العبد وهي قدرته على فعله توجد مقارنةً لفعله لا تتقدّمه، إلخ..... ٧٦
- (ص) واللّٰه قديم ليس لوجوده ابتداء..... ٧٩

- (ص) باقٍ ليس لبقائه انتهاء..... ٨١
- (ص) حيّ لا بروح..... ٨٢
- (ص) عالم لا بقلب ولا فكرة..... ٨٣
- (ص) قادر لا بآلة..... ٨٧
- (ص) سميع لا بأذن..... ٩٠
- (ص) بصير لا بحدقة..... ٩١
- (ص) متكلّم لا بلسان..... ٩٢
- (ص) حيّ في الأزل، عالم في الأزل، قادر في الأزل، سميع في الأزل، بصير في الأزل، إلخ..... ١٠٠
- (ص) والحياة والعلم والقدرة والسمع والبصر والإرادة والكلام والخلق –وهو التكوين– صفاته، إلخ..... ١٠٥
- (ص) واللَّه تعالى قديم بصفاته..... ١٠٧
- (ص) ليس شيء من صفاته محدثًا..... ١٠٨
- (ص) وصفاته لا هو ولا غيره..... ١٠٨
- (ص) والتكوين غير المكوَّن لأن التكوين أزليّ؛ إذ هو صفته، والمكوَّنَ محدَث..... ١١٠
- (ص) وكلامه ليس من جنس الحروف والأصوات، إلخ..... ١١١
- (ص) والقرءان كلام اللّه غير مخلوق، ويقال: القرءان مقروء بألسنتنا، إلخ..... ١١٥
- (ص) واللّه تعالى ليس بجسم ولا جوهر ولا عرض..... ١١٨
- (ص) ولا على مكان ولا في مكان، ولا في جهة من الجهات الستّ، إلخ..... ١٢٤
- (ص) ورفع الأيدي إلى السماء عند الدعاء تعبّد، لا أنه تعالى في السماء، إلخ..... ١٣٠
- (ص) واللَّه تعالى لا صورة له، وكلّ ما تصوّر في وهمك فاللَّه خالقه..... ١٣٦
- (ص) واللَّه تعالى لا يشبه شيئًا من المخلوقات بوجه من الوجوه، إلخ..... ١٣٧
- (ص) والله تعالى واحد أحد فرد، لا شريك له، ولا ضد، ولا ربّ سواه، ولا إله غيرُه..... ١٤٠
- (ص) كلّ مخلوق بخلقته شاهد على أن خالقَه واحد، إلخ..... ١٤٦
- (ص) ومحمد بن عبد اللّه بن عبد المطّلب بن هاشم بن عبد مناف إلخ..... ١٤٧
- (ص) وقد كان قبله رُسُل؛ أولهّم ءادم عليه السلام وءاخرهم رسولنا محمد صلوات اللّه عليهم، إلخ..... ١٥٢
- (ص) وما أُنزل عليهم من الكتب والصحف كلّ ذلك كان حقًّا وصدقًا..... ١٦١
- (ص) ومحمد رسول اللّه عليه السلام خاتم الأنبياء لا نبيَّ بعده..... ١٦٢
- (ص) وإذا نزل عيسى عليه السلام من السماء في ءاخر الزمان؛ إلخ..... ١٦٤
- (ص) والمعراج حق، وقد أُسري بالنبي عليه السلام بشخصه في ليلة واحدة إلخ..... ١٦٦
- (ص) وكرامة الأولياء حق، يجوز أن يُظهرها اللّه تعالى على يد من شاء من الصالحين من عباده..... ١٧٣
- (ص) والمؤمن وإن علَتْ درجتُه وارتفعت منزلتُه وصار من جملة الأولياء إلخ..... ١٧٦
- (ص) ونبي واحد أفضل من جميع الأولياء إلخ..... ١٧٨
- (ص) وإيمان العبد هو تصديقه بالقلب، إلخ..... ١٨١
- (ص) ولا خلاف أن التصديق بالقلب ركن الإيمان حتى لا يصير العبد مؤمنًا بدونه وإن أقرّ بلسانه..... ١٨٢
- (ص) واختلف المشايخ في الإقرار باللسان أنه هل هو ركن أم لا؟ إلخ..... ١٨٤

- (ص) ثمّ إذا وُجد من العبد الإيمان بحدّه وحقيقته صار العبد مؤمنًا إلخ..... ١٨٩
- (ص) والأعمال ليست من الإيمان، بل هي شرائع الإيمان؛ إلخ..... ١٩٠
- (ص) والإيمان والإسلام واحد؛ فكلّ مؤمن مسلم، وكلّ مسلم مؤمن..... ١٩٢
- (ص) وإيمان المقلّد صحيح، إلخ..... ١٩٤
- (ص) وكلّ من دخل في رَبَض الإيمان لا يخرج منه إلا من الباب الذي دخله، إلخ..... ١٩٦
- (ص) ويكون بما معه من الإيمان وما أتى به من الطاعات مطيعًا، إلخ..... ١٩٩
- (ص) فإذا خرج من الدنيا من غير توبة إلخ..... ٢٠٠
- (ص) ولا يجوز أن يُشهد لأحد من المؤمنين بالجنة إلا الأنبياء إلخ..... ٣٠٣
- (ص) ولا يجوز أن يقال: الذنب لا يضرّ مع الإيمان، بل يضرّ؛ إلخ..... ٣٠٤
- (ص) وكلّ آدميّ له أجل واحد، والمقتول ميّت بأجله ليس له أجل آخر، وأجل الإنسان منتهى عمره.... ٢٠٥
- (ص) وكلّ أحد يأكل رزق نفسه، ولا يقدر أحد أن يأكل رزق غيره، إلخ..... ٢٠٦
- (ص) وكتابة الكرام الكاتبين أعمالَ بني آدم في الدنيا حقّ..... ٢٠٧
- (ص) وعذاب القبر للكفار حق، ولمن كان مستحقًّا لذلك من المؤمنين حقّ. إلخ..... ٢٠٨
- (ص) وسؤال منكر ونكير للميّت في القبر حقّ، يسألان الميّتَ عن ربّه ودينه ونبيّه..... ٢١٣
- (ص) ويوم القيامة..... ٢١٥
- (ص) والبعث وإحياء الموتى..... ٢١٧
- (ص) وحشر الأجساد..... ٢١٩
- (ص) والثواب والعقاب حقّ..... ٢٢١
- (ص) يُحيي اللّه الموتى، فيُدخل الكفّار النار ويعذّبهم بَها في طبقاتها، إلخ..... ٢٢٣
- (ص) والرؤية لأهل الجنة حقّ، إلخ..... ٢٢٧
- (ص) وقراءة الكتب يوم القيامة حقّ، يؤتى المؤمن كتابه بيمينه، إلخ..... ٢٣٤
- (ص) والحساب حقّ..... ٢٣٥
- (ص) والميزان حقّ..... ٢٣٦
- (ص) والصراط حقّ..... ٢٣٧
- (ص) وحوض الكوثر..... ٢٤٠
- (ص) والشفاعة حقّ..... ٢٤١
- (ص) والجنة والنار مخلوقتان لا يفنيان ولا يبيدان، وأهلهما لا يفنون ولا يبيدون..... ٢٤٣
- (ص) والسحر حقّ، أي له حقيقة..... ٢٤٧
- (ص) والعين حقّ، أي لها حقيقة وتضرّ..... ٢٤٧
- (ص) ومحبّة أصحاب رسول اللّه عليه السلام على العموم حقّ؛ إلخ..... ٢٤٩
- (ص) وبعد وفاة رسول اللّه عليه السلام كان أبو بكر الصدّيق رضي اللّه عنه خليفة حق..... ٢٥٩
- (ص) وبعده كان عمر بن الخطّاب رضي اللّه عنه خليفة حقّ..... ٢٦٢
- (ص) وبعده كان عثمان بن عفّان رضي اللّه عنه خليفة حقّ..... ٢٦٧
- (ص) وبعده كان علي بن أبي طالب رضي اللّه عنه خليفة حقّ..... ٢٧٠

- (ص) فهؤلاء الخلفاء الراشدون المهديّون رضي الله عنهم أجمعين..... ٢٧٣
- (ص) وترتيب فضلهم على ترتيب خلافتهم، إلخ..... ٢٧٤
- (ص) هذا ما بلغنا من اعتقاد السنة والجماعة من أستاذينا الطيّبين الطاهرين، إلخ..... ٢٧٥
- المتن بسم الله الرحمن الرحيم وبه نستعين..... ٢٧٦
- الفهرس..... ٢٨٤